العملاق المدفون

مكتبة ٣٨٣

كازو إيشيغورو

ترجمة: خلود عمرو

الفائز بجائزة نوبل للآداب

مكتبة 383

العملاق المدفون

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

The Buried Giant
First published in 2015 by Faber and Faber Limited.
Text Copyright © Kazuo Ishiguro, 2015
Kazuo Ishiguro's photo © Jeff Cottendan

حقوق الترجمة © خلود عمرو، ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة.

مكتبة ٢٠١٩ ٢١٥

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٥٤٤

تمت الطباعة في بيروت-لبنان.

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة– أثناء– النشر (فان)

كازو ،إيشيغورو ،1954- مؤلف.

[Buried Giant]. Arabic

العملاق المدفون / تأليف إيشيغورو كازو ؛ ترجمة خلود عمرو . – الطبعة العربية الأولى.- الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ، 2018.

صفحة ؛ سم

تدمك : 978-9927-129-54-4

ترجمة كتاب: .The buried giant

1. العلاقات الأسرية -- قصص. 2. الفرسان -- قصص. 3. الآباء والأبناء – قصص. 4. بريطانيا – تاريخ – قصص. 5.فقدان الذاكرة -- قصص -- مترجمات إلى العربية. ب. عمرو، خلود، مترجم. ج. العنوان.

PR6059.S5 A87125 2018

892.736– dc23

201827109240

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

العملاق المدفون

مكتبة|383

كازو إيشيغورو

ترجمة: خلود عمرو

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

دِيرا روجرز

2014-1938

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

الجزء الأوَّل

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

الفصل الأوَّل

لئن بحثت عن تلك الدروب الريفية المتعرِّجة والمروج العامرة بالسكينة التي أصبحت إنجلترا مشهورة بها لاحقًا، لذهبت جهودك أدراج الرياح. عوضًا عنها، لم يكن هناك سوى أميالٍ من الأرض البور؛ مسالك وعرة ممتدَّة هنا وهناك فوق التلال المخدَّدة أو وسط الفلاة المقفرة. أما ما خلَّفه الرومان وراءهم من طرقات، فقد طالتها يد الخراب أو عربدت النباتات فوقها، وصار معظمها مغيَّبًا في بطن البرِّية. وكان الضباب الجليديُّ يغطِّي الأنهار والمستنقعات بحُجُب كثيفة من الضباب، مسديًا خدماتٍ جليلةً للغيلان التي كانت وقتذاك في عداد السكَّان الأصليين لهذه البلاد. ولعلَّ من عاش في الجوار من بشرٍ - ممن يحارُ المرء في فهم ما حملهم من أسباب قاهرة على استيطان بقاع مرعبة كتلك - كانوا يرهبون تلك الكائنات، وهي التي يُسمع لهاثها قبل زمن طويل من ظهور أشكالها الممسوخة من قلب الضباب. لكن وحوشًا كهذه لم تكن مدعاة للذهول، إذ كان الناس يعتبرونها آنذاك من جملة المخاطر اليومية، وما أكثر ما كان يستوجب القلق في ذلك الزمان. كيف تنتزع الغذاء من براثن الأرض القاسية؛ كيف لا ينفد الحطب من موقدك؛ كيف تتصدَّى لمرض قد يفتك بدزِّينة خنازير في اليوم الواحد وينثر وجنات الصغار بحبوب مخضرَّة.

على أي حال، لم تكن الغيلان بذلك السوء ما دام المرء يتجنَّب استفزازها. لكن كان يتعيَّن على المرء التسليم بأنه، من حين لآخر، وربما إثر خلاف غامض في صفوفها، سيقتحم أحدها القرية وهو في حالة من الهياج والغضب العارم،

ورغم الصراخ والتلويح في وجهه بالسلاح، سيعيث فيها فسادًا ويفتك بمن لا يلوذ بالفرار. أو قد يحدث من وقت لآخر، أن يخطف غولٌ طفلًا ويفرَّ به إلى قلب الضباب. مقابل فظاعات كتلك، لم يكن أمام أهل ذلك الزمان من خيار سوى التحلِّي بالحكمة.

في واحدة من تلك البقاع، على حافَّة مستنقع شاسع أسفل بعض التلال الصخرية، عاش زوجان متقدِّمان في العمر، أكسِل وبياترِس. ربما لم يكن هذان اسميهما بالتمام والكمال، لكنَّنا من باب التيسير، سنشير إليهما على هذا النحو. سأقول إن هذين الزوجين عاشا حياة منعزلة، لكنَّ قلَّة من الناس آنذاك كانت تعيش حياة «منعزلة»، بحسب أي معنى يمكن أن نفهم به هذه الكلمة اليوم. إذ كان القرويُّون يعيشون، طلبًا للدفء والحماية، في ملاجئ أرضية، حُفر العديد منها عميقًا في جانب التلِّ، ووصلت شبكة من الأنفاق والسراديب فيما بينها. عاش صاحبانا العجوزان في واحدٍ من مثل تلك الجحور - لو استخدمت كلمة «بناء» هنا لكانت وصفًا فاخرًا للغاية - مع ستِّين قرويًّا تقريبًا. ولئن خرجت من جُحرهم ودُرت عشرين دقيقة حول التلِّ، لوصلت إلى المستوطنة المجاورة، ولبدَت هذه، لناظريك، مطابقة لسابقتها. لكن بالنسبة للسكان أنفسهم، سيكون هناك العديد من التفاصيل المحدَّدة التي كانت إمَّا مثار فخرهم أو خجلهم.

لا نيَّة لي في منح انطباع يقضي بأن هذا كل ما كان في بريطانيا تلك الأيَّام؛ أي في العصر نفسه الذي كانت فيه حضارات عظيمة مزدهرة في بقاع أخرى من العالم، كنَّا نحن هنا لم نقطع سوى شوط قصير عن العصر الحديديِّ. إذ لو تيسَّر لك أن تتجوَّل آنذاك في الريف على هواك، لاكتشفت قلاعًا تضمُّ بين جنباتها الموسيقى، والمآكل الفاخرة، والتفوُّق في الرياضات البدنية؛ أو أديرة ينغمس أهلها في العلم والتعلُّم. لكن لم يكن هناك من سبيل إلى التنقُّل بينها. وحتى فوق حصان قويٍّ، وفي طقس جيِّد، كان يمكن أن تسير لأيَّام من دون أن تلمح قلعةً أو ديرًا في الأفق من خلف الحجاب النباتي الكثيف. بل كنت ستجد، على الأغلب، تجمُّعاتٍ أهليةً كالتي وصفتها آنفًا، وما لم تكن معك

هبات من طعام أو ثياب، أو كنت مدجَّجًا بالسلاح، لما أمكنك أن تكون واثقًا من استقبالك كضيف.

ولنعد إلى أكسِل وبياترِس. عاش هذان العجوزان في أطراف الجُحر الخارجية، حيث كانت حجرتهما عرضة لعوامل الطقس، ولا تستفيد كثيرًا من دفء نيران الحجرة الكبرى حيث يلتئم شمل الجميع ليلًا. لكنهما ربما عاشا، في وقت ما، على مقربة من النيران؛ وقتٍ عاشا فيه برفقة أطفالهما. في الواقع، كانت هذه الفكرة تحديدًا تجد طريقها إلى ذهن أكسِل وهو مستلقٍ في الفراش خلال ساعات الفراغ قبيل الفجر، وزوجته مستغرقة في النوم إلى جواره، وكان ينهش قلبه، حينذاك، ألمُ فقدٍ مجهول غامض، حائلًا بينه وبين معاودة النوم.

لعلَّ هذا ما حمل أكسِل، في هذا اليوم، على ترك فراشه والتسلُّل إلى الخارج للجلوس على المقعد الخشبي عند مدخل الجُحر منتظرًا بزوغ الفجر. كان الفصل ربيعًا، لكن الهواء ما زال لاذعًا، رغم تدثُّره برداء بياترِس الذي حمله معه لدى خروجه. ومع ذلك، استغرق في التفكير، حتى أنه حين فطن إلى ما ألمَّ به من برد شديد، كانت النجوم قد اختفت، وأخذ وميض الضوء في الانتشار فوق صفحة الأفق، وأطلقت الطيور حناجرها بباكورة التغريد.

نهض ببطء، نادمًا على مكوثه طويلًا في الخارج. فهو وإن كان يتمتَّع بصحَّة جيِّدة، إلَّا أنه لم يبرأ من آخر حمًّى أصابته بسهولة، ولم تكن لديه رغبة في عودتها من جديد. بدأ يحسُّ الآن بالصقيع في رجليه، لكنه حين استدار عائدًا إلى الداخل، إنتابه رضى عميق: إذ نجح هذا الصباح في تذكُّر عدد من الأمور التي راوغته منذ زمن بعيد. وفوق هذا، أحسَّ في أنه على أهبَّة التوصُّل إلى قرار مصيريٍّ - قرار ظلَّ يؤجِّله لأمد أطول مما ينبغي - وشعر في داخله بنشوة تاق إلى اقتسامها مع زوجته.

في الداخل، كانت ممرَّات الجُحر ما تزال غارقة في ظلام دامس، فتحسَّس طريقه عبر المسافة القصيرة إلى باب حجرته. ولم تكن معظم «الأبواب» في الجُحر أكثر من مداخل بسيطة مقوَّسة تدلُّ على عتبة حجرة ما. وما كان

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

ليخطر ببال الفلَّاحين أن هذا التصميم المفتوح ينتقص من خصوصيتهم، بل يتيح لحجراتهم الاستفادة مما ينتشر في الممرَّات من دفء النار الكبرى أو ما يسمح به من نيران أصغر داخل الجُحر. مع ذلك، كان لحجرة أكسِل وبياترِس، لتطرُّفها عن النيران، ما قد نميِّزه نحن بباب فعليٍّ؛ إطار خشبي كبير مغطًّى بأغصان متقاطعة من نباتات متسلِّقة أو شوكية، ولا بدَّ للداخل أو الخارج من حمله وإزاحته جانبًا في كلِّ مرَّة. ورغم صدِّه تيَّارات الهواء البارد، كان أكسِل لا يكترث للعيش من دونه، لكنه أصبح مع الوقت مدعاة فخر كبير لبياترِس. وكان أكسِل كثيرًا ما يجد زوجته لدى عودته إلى حجرته منهمكة في سحب الأغصان الذابلة واستبدالها بما جمعته أثناء النهار.

في هذا الصباح، أزاح أكسِل ذلك الباب قدر ما سمح بدخوله، محاولًا عدم إحداث أي ضجيج. هنا في الحجرة، كانت خيوط الفجر الأولى تتسرَّب من الشقوق الصغيرة في حائطهم الخارجي، فميَّز يده الممدودة من أمامه بصعوبة، وفوق الفراش المصنوع من القشِّ هناك، جسد بياترِس المستغرق في سبات عميق تحت البطَّانيات السميكة.

تملَّكته رغبة إيقاظ زوجته. إذ كان بعضٌ منه متأكِّدًا من أنها لو كانت، في هذه اللحظة، مستيقظة وتكلِّمه، فستتهاوى أخيرًا أي عوائق ما زالت قائمة بينه وبين قراره. لكنَّ أوان استيقاظ الجميع والبدء بعمل اليوم لم يحن بعد، ولهذا جلس فوق مقعد منخفض من دون مسند أو ذراعين في زاوية الحجرة، ورداء زوجته ما زال مشدودًا فوق جسده.

سأل نفسه كم سيكون الضباب كثيفًا في ذلك الصباح، وإن كان، أثناء تبدُّد الظلام، سيشهد تسرُّبه من الشقوق إلى حجرتهم. لكنَّ أفكاره شطَّت عن أمور كهذه، وعادت إلى ما يشغل باله. هل كانا يعيشان دومًا هكذا، هما الاثنان فقط، وعلى هامش القوم؟ أم أن وضعهما كان مختلفًا تمامًا في وقت ما؟ سابقًا، في الخارج، استعاد شظايا من الذاكرة: لحظة خاطفة كان يمشي خلالها في النفق الرئيس الطويل للجُحر، وذراعه تطوِّق أحد أطفاله، وهامته محنيَّة قليلًا، لا بسبب

الهرم كما هو حاله اليوم، بل لأنه، وببساطة، يحاول تفادي العوارض الخشبية وسط العتمة. من الجائز أن يكون الطفل قد انتهى توًّا من الحديث، مشيرًا إلى شيء طريف، لأنهما كانا يضحكان. لكن الآن، كحاله في الخارج، لم يستقرَّ أيُّ شيء تمامًا في ذهنه، وكلما ركَّز أكثر، بهتت تلك الشظايا أكثر. لعلَّ ذلك لم يكن سوى أوهام عجوز أخرق. ولعلَّ الربَّ لم يرزقهما بأطفال قطُّ.

ولربما تتساءل لماذا لم يلجأ أكسِل إلى رفاقه القرويين كي يساعدوه على استعادة الماضي، لكن هذا لم يكن بالسهولة التي قد تتخيَّلها. إذ قلما نُوقش الماضي داخل هذا التجمُّع الأهلي. ولا أعني أنه كان من قبيل المحرَّمات. بل أقصد أنه تلاشى بطريقة ما وطواه ضباب كثيف كذاك الذي يسربل المستنقعات. لم يخطر في بال هؤلاء الفلَّاحين، وببساطة، التفكير في الماضي - حتى ما قرُب منه.

ولنضرب مثلًا بحادثة أرَّقت أكسِل لبعض الوقت: كان متأكِّدًا من أنه ومنذ أمد غير بعيد، عاشت بينهم امرأة ذات شعر أحمر طويل - امرأة اعتبر وجودها في قريتهم بالغ الأهمِّية. فكلَّما أُصيب شخص بجرح أو مرض، كانت تلك الصهباء، بمهارتها الفائقة في التطبيب، هي من يُرسل في طلبه على الفور. رغم ذلك، لم يعد لهذه المرأة نفسها الآن من أثر في أي مكان، ولم يبدُ أن أحدًا يتساءل عمَّا حصل لها، أو حتى يعبِّر عن أسفه لغيابها. وحين أثار أكسِل هذا الأمر ذات صباح مع ثلاثة من جيرانه، خلال تمهيد حقل متجمِّد من الصقيع، استشفَّ من ردودهم أنه لم تكن لديهم حقًا أيُّ فكرة عمَّا يتحدَّث عنه. بل إنَّ أحدهم توقَّف عن عمله محاولًا التذكُّر، لكنَّ محاولته انتهت بهزِّ رأسه قائلًا: «لا بدَّ من أن هذا كان منذ زمن طويل».

وعندما أثار أكسِل الأمر نفسه مع زوجته بياترِس ذات ليلة ردَّت قائلة:

- حتى أنا لا أذكر أيَّ شيء عن امرأة كهذه. لعلَّك اختلقتها في حلم من أحلامك لرغبة في نفسك، يا أكسِل، مع أن قربك هنا زوجة ظهرها أشدُّ استقامة من ظهرك.

جرى هذا خلال الخريف الماضي، أثناء استلقائهما في فراشهما وسط الظلام الدامس، وإنصاتهما إلى وقع حبّات المطر فوق جدار حجرتهما.

ردَّ أكسِل قائلًا:

- بالفعل، لم تنل منكِ يدُ الدهر القاسية يا أميرة. لكنَّ تلك المرأة لم تكن حلمًا، ولو أعملتِ الذهن في التفكير قليلًا لتذكَّرتِها بنفسك. كانت واقفة هناك عند عتبة بابنا قبل شهر فقط، وسألتنا بمنتهى الطيبة إن كنَّا نحتاج شيئًا يمكنها أن تجلبه لنا. لا بدَّ من أنك تذكرين ذلك.
- لكن لمَ كانت ترغب أصلًا في جلب أي شيء لنا؟ هل بيننا وبينها صلة دم؟
- لا أعتقد، يا أميرة. إنما فعلت ذلك بدافع الطيبة لا أكثر. قطعًا أنت تتذكرين. كانت تطرق بابنا كثيرًا لتسألنا إن كنَّا نشعر بالبرد أو الجوع.
- ما أتساءل عنه، يا أكسِل، هو لأي غرض كانت تخصُّنا بطيبتها دون الجميع؟
- أثار هذا حينذاك التساؤلات لديَّ أنا الآخر، يا أميرة. وأذكر أنني قلت في نفسي: ها هي امرأة تكرِّس نفسها للعناية بالمرضى، وها هنا نحن ننعم بما ينعم به سائر أهل القرية من صحَّة وعافية. أثمَّة أقاويل ربما عن طاعون في الطريق وهي هنا لأجل أن تتفحَّصنا؟ ولكن تبيَّن أنه لم يكن هناك من طاعون وأنَّها طيِّبة فقط. بحديثنا عنها الآن بدأتُ أستعيد المزيد. كانت تقف هناك موصية بألَّا نأبه بما يكيله لنا الصغار من شتائم. هذا ما كان، ثم لم نرها ثانية.
- هذه الصهباء يا أكسِل ليست من أضغاث أحلامك فقط، بل هي حمقاء أيضًا لقلقها من ألاعيب حفنة من الصغار.
- هذا ما ظننته في ذلك الوقت، يا أميرة. فأي أذىً يمكن أن يصيبنا من صغار كل ما يحفلون به هو التسرية عن أنفسهم خلال النهار والطقس مكفهرٌ في الخارج. قلت لها إننا لم نلقِ بالًا بأمر كهذا ولو للحظة

واحدة، لكنها على أيِّ حال لم تقصد إلَّا خيرًا. ثم أذكر أنها قالت إنه لمن المؤسف أن نضطرَّ إلى قضاء ليالينا من دون شمعة.

- إن كان إشفاق تلك المرأة علينا بسبب حرماننا من استخدام الشمعة، فقد أصابت بشأن أمر واحد على الأقل. إنها إهانة، أن يُفرض علينا حظر استخدام شمعة في ليال كهذه وأيدينا لا تقل ثباتًا عن يديٍّ أيِّ واحد منهم. بل وهناك أيضًا من لديهم شموع في حجراتهم، رغم أنهم يفقدون الوعي في كل ليلة من الإفراط في احتساء الجعة، أو هيجان أطفالهم من حولهم. ومع ذلك، شمعتنا نحن هي التي تُصادر، والآن لا أستطيع تمييز هيئتك يا أكسِل، إلا بالكاد، مع أنك ملاصق لي تمامًا.
- ليست هناك من إهانة متعمَّدة، يا أميرة. بل هي الطريقة التي تدار بها دائما مثل هذه الأمور، لا أكثر ولا أقل.
- حسنًا، امرأة أحلامك ليست هي الوحيدة في اعتقادها بأن مصادرة شمعتنا أمر غريب. بالأمس، أم لعلَّه أمس الأوَّل، كنت عند النهر، وحين تجاوزت من كنَّ هناك من النسوة، سمعتهنَّ، يقينًا، وهنَّ يقلن بعد ظنِّهنَّ بأني أصبحت في منأى عن السمع، إنه لمن العار أن يضطر زوجان بقامتين منتصبتين مثلنا إلى الجلوس كل ليلة في الظلام. لهذا فامرأة أحلامك ليست الوحيدة في التفكير بما ذهبت إليه.
- ما زلت أكرِّر على مسامعك، يا أميرة، أنها ليست امرأة من صنع الخيال. كان الجميع هنا يعرفونها قبل شهر ويشيرون إليها بطيب الكلام. ما الذي يحمل الجميع، بمن فيهم أنت نفسك، على نسيانها وكأنها لم تكن؟

مستعيدًا ذلك الحديث الآن، في هذا الصباح الربيعيِّ، شعر أكسِل أنه على أهبَّة الاعتراف بأنه كان مخطئًا بشأن تلك الصهباء. فما هو في نهاية المطاف سوى عجوز معرَّض للتشوُّش من حين لآخر. ومع ذلك، لم تكن حادثة الصهباء

تلك سوى واحدة من سيل متواصل من مثل هذه الحلقات الملغِزة. وعلى نحو مثير للإحباط، لم يتمكَّن في هذه اللحظة من استحضار تلك الأمثلة العديدة، لكنها كانت كثيرة جدًّا، وفي هذا لم يكن هناك من شكٍّ. هناك، مثلًا، الحادثة المتعلِّقة بمارتا.

كانت تلك طفلة، ذات تسع أو عشر سنوات، معروفة بالجسارة. ولم يبدُ أن كل تلك الحكايات المرعبة بشأن ما يصيب المتسكِّعين من الصغار هنا وهناك أفلحت في تخفيف حسِّ المغامرة لديها. وهكذا في ذلك المساء، حين لم تبقَ سوى ساعة من ضوء النهار، وانتشر الضباب، وعلا عواء الذئاب في جنبات التلِّ، ذاع خبر ضياع مارتا، فتوقَّف الجميع عن أشغالهم خوفًا عليها. وعقب ذلك، هتفت الحناجر باسمها في كافَّة أرجاء الجُحر، وهرول الفلّاحون صعودًا وهبوطًا في أقبيته، بحثًا في حجرات النوم، وجحور التخزين، والفجوات المتوارية فوق العوارض الخشبية للسقوف المائلة، وأي مكان قد تقصده صغيرة لأجل اللهو.

وسط هذا الجوِّ المشحون بالذعر، وصل راعيان عادا توًّا من عملهما في التلال وراحا يتدفآن قرب نيران الحجرة الكبرى. وأثناء ذلك، أعلن أحدهما كيف أنهما راقبا بالأمس نسرًا وعصفور نمنمة[1] حلَّقا من فوق رأسيهما في دائرة، مرَّة، مرَّتين، ثم ثلاث مرَّات. ولم يكن ثمَّة أي خطأ، قال مؤكِّدًا، في أنهما كانا نسرًا ونمنمة. ذاع الخبر على عجل في أرجاء الجُحر، وسرعان ما احتشد الناس حول النيران لكي يستمعوا إلى الراعيين. حتى أكسِل نفسه هرع كي ينضمَّ

---

(1) النمنمة هو أول العصافير المغرِّدة فجرًا، ولهذا سمي في أوروبا القديمة «بشير الشروق». وتقول الأسطورة إن الطيور اجتمعت وقررت أن من يحلق لأعلى ارتفاع ينصب ملكًا عليها. حلق النسر أعلى من كل الطيور، لكنه عندما تعب خرج من تحت ريشه نمنمة مختبئ وحلق فوقه ففاز في السباق وأصبح ملك الطير. وكان فلاسفة اليونان يعرفون هذه القصة واعتبروا أن الذكاء والمكر أفضل من القوة.

إليهم، فظهور نسر ونمنمة في بلدهم لم يكن حقًّا بالخبر العادي. إذ من جملة ما يُنسب للنسر والنمنمة من قوى عديدة، قدرتهما على ترويع الذئاب وحملها على الفرار بعيدًا. بل قيل في أرجاء أخرى من البلد، إن الذئاب اختفت تمامًا بسبب تلك الطيور.

انهالت الأسئلة في البداية بلهفة على الراعيين، وحُملا على سرد حكايتهما مرَّة تلو الأخرى. ثم بدأ الشكُّ يسري بين جموع المستمعين. سيقت العديد من المزاعم المشابهة في السابق، أشار أحدهم، وثبت في كل مرَّة أن لا أساس لها من الصحة. ثم أعلن آخر أن الراعيين عادا في الربيع الماضي فقط بقصَّة مشابهة، لكن لم يعقب ذلك رؤية هذين الطيرين في الأجواء. نفى الراعيان بحنق جلب أي خبر كهذا في السابق، وسرعان ما انقسم الحشد إلى فريق مؤيِّد للراعيين وآخر يدَّعي تذكُّر شيء ما بخصوص الحادثة المزعومة في الربيع المنصرم.

وفيما تصاعدت حدَّة الخلاف، استولى على أكسِل ذلك الإحساس المعهود واللحوح بأن ثمَّة شيئًا لم يكن طبيعيًّا، فنأى عن الصراخ والتدافع بالمناكب، وخرج للتحديق إلى العتمة التي بدأت تغزو السماء، وفي الضباب الذي راح يسدل حجابه فوق الأرض. وبعد هنيهة، أخذت بعض شظايا الذاكرة تلملم نفسها وتترتَّب داخل ذهنه، بشأن مارتا المفقودة، وبشأن الخطر المحدق بها، وبشأن كيف كان الجميع يبحثون عنها قبل مدَّة وجيزة فقط. لكن التشوُّش سرعان ما غلَّف تلك الشظايا، تمامًا مثلما يحدث للحلم لحظة الاستيقاظ، ولم يتمكَّن أكسِل إلَّا بقدر هائل من التركيز على التشبُّث بذكرى الصغيرة مارتا في ذهنه، فيما واصلت الأصوات من ورائه خلافها حول النسر والنمنمة. ثم، أثناء وقوفه على تلك الحال، سمع صوت صغيرة تغنِّي لنفسها، ورأى مارتا تتجلَّى أمام ناظريه من قلب الضباب. قال لها وهي تقفز فرحة نحوه:

- إنك غريبة الأطوار، أيتها الصغيرة. ألا تخافين الظلام؟ الذئاب أو الغيلان؟

ردَّت مبتسمة:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- أوه، إنني أخاف منها جميعًا، أيُّها السيِّد. لكني أعرف كيف أختبئ منها. أتمنَّى ألَّا يكون والداي قد سألا عني. فعلتها في الأسبوع الماضي واختبأت مثل هذه المرَّة.
- يسألان عنك؟ بالطبع سألا عنك. ألا تبحث القرية كلها عنك؟ ألا تسمعين الصخب في الداخل، هذا كلُّه بسببك أيتها الصغيرة.

ضحكت مارتا وقالت:

- أوه، حسبك يا سيِّدي! أعرف أنهم لم يفتقدوني. كما أني أسمعهم جيِّدًا، ذاك الذي يصرخون بشأنه ليس أنا وليس غيابي.

عندما قالت ذلك، لاح لأكسِل أن الفتاة محقَّة: الأصوات في الداخل لا تتجادل بشأنها على الإطلاق، بل بخصوص أمر آخر مختلف تمامًا. مال نحو المدخل ليستمع بشكل أفضل، ولما ميَّزت أذنه عبارة وسط الصخب، بدأت الأمور بالعودة إليه، بشأن الراعيين والنسر والنمنمة. وأثناء تفكيره فيما إن كان عليه تفسير شيء من هذا لمارتا، وثبت فجأة وتجاوزته في طريقها إلى الداخل.

لحق بها، متوقِّعًا ما سيولِّده ظهورها من فرح وارتياح. وبصراحة، خطر له أنه بدخوله معها، قد ينال قسطًا ولو ضئيلًا من الفضل على عودتها سالمة. لكنهما عندما دلفا إلى الحجرة الكبرى، كان الفلَّاحون منهمكين تمامًا في الشِجار بشأن الراعيين حتى أن قلَّة منهم فقط كلَّفت نفسها عناء النظر نحوهما. أما والدة مارتا فتركت الحشد وأقبلت لتقول أخيرًا: «أنت هنا إذًا! لا تهيمي على وجهك هكذا ثانية! كم مرة ينبغي أن أقول لك ذلك؟» ثم صرفت انتباهها من جديد للجدل المحتدم حول النيران. عند هذا الحدِّ، رمت مارتا أكسِل بابتسامة عريضة وكأنما لتقول له: «ألم أقل لك؟» ثم اختفت وسط الأخيلة بحثًا عن رفاقها.

أصبحت حجرتهما الآن أقل عتمة بكثير. وهي بحكم موقعها المتطرِّف في الجُحر، لها نافذة صغيرة مطلَّة على الخارج، لكنها أعلى من أن يتأتَّى للناظر أن يُطِلَّ منها من دون الوقوف على كرسي صغير. كانت، في تلك اللحظة، مغطَّاة بخرقة، لكنَّ خيطًا من الفجر تسلَّل عبر إحدى زواياها، وألقى بشعاع فوق البقعة

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

التي تنام فيها بياترِس. تمكَّن أكسِل، عبر هذا الشعاع، من رؤية ما يشبه حشرة هائمة فوق رأس زوجته بالضبط. ثم أدرك أنها عنكبوت معلَّقة في الهواء بخيطها العمودي الخفيِّ، وحتى وهو يتبعها بناظريه، شرعت في هبوطها الناعم. نهض أكسِل بهدوء، ثم قطع الحجرة الصغيرة ومسح الفراغ فوق زوجته النائمة بيده، ممسكًا العنكبوت في قبضته. وعندئذٍ وقف للحظة وتأمَّلها. في وجهها الغافي ثمَّة طمأنينة قلَّما بات يراها في صحوها، وأذهله فرط ما فجَّره هذا المنظر فجأة من سعادة عارمة في نفسه. أيقن حينذاك أنه قد حسم قراره، وراودته ثانية الرغبة في إيقاظها فقط كي يزفَّ أخباره لها. لكنه أدرك ما في ذلك من أنانية - كما، كيف له أن يكون متأكِّدًا إلى هذا الحدِّ من ردَّة فعلها؟ عاد في النهاية إلى كرسيِّه الصغير بهدوء، ولما جلس ثانية، تذكَّر العنكبوت، ففتح يده برفق.

أثناء جلوسه سابقًا فوق المقعد في الخارج، منتظرًا بزوغ الفجر، حاول أن يتذكَّر كيف تطرَّق هو وبياترِس إلى فكرة رحلتهما أوَّل مرَّة. ظنَّ حينذاك أنه حدَّد محادثة معيَّنة جرت بينهما في إحدى الليالي في هذه الحجرة نفسها، لكن الآن، وخلال مراقبته فرار العنكبوت من يده إلى الأرضية الترابية، داهمه الأمر وتذكَّر بوضوح أن أوَّل ذِكر للموضوع جرى يوم مرور الغريبة ذات الأسمال القاتمة بقريتهم.

كان الصباح رماديًّا - أكان منذ وقت بعيد بطول ما انقضى منذ يناير\كانون الثاني الماضي؟ وكان أكسِل يغذُّ السير في الممشى المحفوف بالصفصاف فوق ضفَّة النهر، راجعًا على عجل من الحقل إلى الجُحر، ربما لجلب أداة أو تلقِّي تعليمات جديدة من المُشرف على العمل. على أي حال، استوقفته فجأة أصوات علتْ من وراء الشجيرات إلى يمينه. ذهب ظنُّه مباشرة إلى الغيلان، فبحث بسرعة عن حجر أو عصى من حوله. ثم أدرك أن الأصوات - كلها نسائية - وإن كانت غاضبة ومتحفِّزة، إلَّا أنها تخلو من الذعر المصاحب عادة لهجمات الغيلان. مع ذلك، شقَّ طريقه بتصميم واندفاع عبر سياج من العرعر فتعثَّر بفسحة من الخلاء، وعندئذٍ أبصر خمس نساء - لم يكنَّ في مطلع الشباب، ولكن ما زلن في سنٍّ

الإنجاب - واقفات جنبًا إلى جنب. كانت ظهورهنَّ قبالته وهنَّ يواصلن الصراخ على شيء بعيد. ولما دنا منهنَّ ورأته إحداهنَّ أجفلت، لكن حين استدارت الأخريات رمقنه بشيء من الوقاحة.

قالت إحداهنَّ:

- حسنًا، حسنًا. قد يكون في الأمر صدفة وقد يكون ما هو أكثر من ذلك. على أي حال، ها هو زوجها ولعلَّه يعيد لها صوابها.

أردفت من رأته أوَّلًا:

- قلنا لزوجتك ألَّا تذهب، ولكنها لم تنصت. تصرُّ على حمل الطعام إلى الغريبة مع أنها على الأرجح عفريتة أو جنِّية متخفِّية.

- هل زوجتي عرضة للخطر؟ أرجوكن، أيَّتها السيِّدات، أفصحن عمَّا ترمين إليه.

مكتبة

ردَّت أخرى:

- هناك امرأة غريبة ظلَّت تتسكَّع من حولنا طوال الصباح. شعرها يغطِّي ظهرها ورداؤها أسود من الأسمال البالية. زعمت بأنها من الساكسون[1] لكن ثيابها لا تشبه أي ساكسوني قابلناه في حياتنا قطُّ. حاولت التسلُّل من خلفنا ونحن منهمكات في الغسيل على حافَّة النهر، رأيناها في اللحظة المناسبة وطردناها بعيدًا. لكنها عاودت الرجوع، متظاهرة تارة بأن قلبها منفطر على شيء ما، وتارة أخرى بطلب الطعام. نعتقد، أيُّها السيِّد، أنها كانت طوال ذلك الوقت تصوِّب تعويذتها السحرية مباشرة نحو زوجتك، إذ اضطررنا مرَّتين في هذا الصباح إلى جذب ذراعي بياترِس واحتجازها بالقوَّة، إلى هذا الحدِّ بلغ تصميمها على

(1) قبائل جرمانية قديمة بدأت في قطع بحر الشمال والهجرة والاستيطان في إنجلترا بعد أن سحب الرومان قواتهم من هناك في ٤٢١ م. كانت تلك القبائل حينذاك وثنية وخاضت حروبا مع سكان البلد الأصليين وهم البريتون الذين اعتبروهم غزاة آتين من البحر.

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

الذهاب إلى العفريتة. والآن تمكَّنت من الإفلات منَّا والذهاب إلى «الشوكة العجوز» حيث تجلس العفريتة إلى الآن بانتظارها. احتجزناها بأقصى طاقتنا، أيُّها السيِّد، لكن لا بدَّ من أن قوى العفريتة تسري في بدن بياترِس لأنَّ قوَّتها الجسدية لم تكن طبيعية لامرأة بالغة النحافة ومتقدِّمة في العمر مثل زوجتك.

- الشوكة العجوز...
- انطلقت منذ لحظة لا أكثر، أيُّها السيِّد. لكن من المؤكَّد أن تلك المرأة عفريتة، وإن مضيت في إثرها فانتبه لئلَّا تتعثَّر وتجرح نفسك بشوكة سامَّة لا تبرأ من سمِّها أبدًا.

حاول أكسِل بكل طاقته إخفاء ضيقه من أولئك النسوة، فقال بأدب:

- شكرًا لكنَّ، أيَّتها السيِّدات. سأذهب لأرى ما الذي تفعله زوجتي. اسمحن لي.

بالنسبة لفلَّاحينا، تحمل «الشوكة العجوز» دلالتين في آن واحد، فهي بقعة محلِّية خلَّابة، وهي شجيرة الزعرور الموجودة هناك. كانت تلك الشجرة تبدو وكأنها تنبت مباشرة من الصخرة الواقعة في طرف الجرف الممتدِّ داخل الماء، والذي لا يبعد سوى مسافة قصيرة عن الجُحر. في يوم مشمس، شرط ألَّا تكون الريح شديدة، كانت تلك البقعة مكانًا جميلًا لتزجية الوقت. ولئن وقفت فيها لتمتَّعت بإطلالة مشرفة على الأرض المنحدرة تدريجيًّا صوب الماء، وعلى النهر المتعرِّج وما يليه من مستنقعات. ولرأيت الأطفال أيَّام الآحاد كثيرًا ما يلعبون حول الجذور الضخمة، وكيف يتحدُّون بعضهم أحيانًا في القفز حتى نهاية الجرف، الذي لم يكن في الواقع حادًّا في انحداره ولا يسبِّب الأذى لطفل، بل يتيح التدحرج ببساطة مثل برميل فوق منحدر عشبي. لكن في صباح كهذا، حين ينهمك الكبار والصغار عادة في أداء واجباتهم، تكون تلك البقعة مهجورة. ولهذا لم يُدهش أكسِل، مقبلًا وسط الضباب صوب المنحدر، من رؤية المرأتين وحيدتين هناك وهيئة كل منهما مطبوعة فوق صفحة السماء البيضاء. قطعًا، ثياب

الغريبة، وهي جالسة وظهرها إلى صخرة، مثيرة للفضول. بدا رداؤها عن بعد، على الأقل، مؤلَّفًا من العديد من رقع القماش المختلفة، وكان يرفرف الآن في الريح، مسبغًا على صاحبته مظهر طير عظيم موشك على الإقلاع. بجوارها، بدت بياترِس - ما زالت واقفة، لكنَّ رأسها محنيٌّ صوب جليستها - ضئيلة ضعيفة. كانتا منهمكتين في حديث جدِّي، لكن لدى رؤيتهما أكسِل في الأسفل مقبلًا، توقَّفتا وراقبتاه. ثم مشت بياترِس إلى حافَّة الجرف ونادته:

- قفْ هناك، يا زوجي، ولا تتقدَّم أكثر! أنا سآتي إليك. لكن لا تصعد إلى هنا وتزعج هذه السيِّدة المسكينة بعدما تمكَّنت الآن على الأقل من مدِّ رجليها وتناول القليل من الخبز البائت.

امتثل أكسِل للأمر، وما هي إلَّا هنيهة حتى أبصر زوجته وقد أقبلت عبر الممشى الطويل المنحدِر وسط الحقل إلى حيث كان. قطعت المسافة برمَّتها إلى أن وقفت بقربه، وخشية أن تحمل الريح كلمتاها إلى الغريبة، قالت بصوت منخفض:

- هل أرسلتك أولئك الحمقاوات في إثري، يا زوجي؟ عندما كنت في عمرهنَّ، كنت متأكِّدة أن من عقولهنَّ محشوَّة بالترهات والخوف هنَّ العجائز، معتقدات بأنَّ كل حجر فيه لعنة وكل قطَّة متشرِّدة ما هي إلَّا روح شرِّيرة. لكن بعد أن كبرت وأصبحت أنا نفسي عجوزًا، ماذا أكتشف غير أن الشابَّات هنَّ اللواتي تعمي عقولهنَّ الضلالات، وكأنهنَّ لم يسمعن قطُّ بوعد الربِّ لنا بأنه معنا في كل وقت. انظر إلى تلك الغريبة المسكينة، وتمعَّن في حالها بنفسك. طافت وهي متعبة ووحيدة على كل من هم في الغابة والحقول طوال أربعة أيَّام، والقرية تلو الأخرى توصد الأبواب في وجهها. والأدهى من ذلك، أن هذا البلد الذي قطعته سيرًا على الأقدام هو بلد مسيحيٌّ، لكنَّ أهله ظنُّوها عفريتة أو مجذومة، مع أن جلدها يخلو من أي علامات على ذلك. والآن، يا زوجي، أتمنَّى ألَّا تكون هنا كي تنهاني عن تقديم العون لهذه المسكينة ومنحها ما أحمله من بقايا طعام.

- ما كنت لأنهاكِ عن أمر كهذا، يا أميرة، وكيف أفعل وأنا أرى بنفسي أن ما تقولينه صحيح. كنت أفكر، حتى قبل وصولي إلى هنا، كيف أنه من العار علينا أننا لم نعد نستقبل الغريب كما يليق.
- إذًا امضِ إلى عملك، يا زوجي، فلا أشكُّ في أنهم سيشتكون ثانية ويزعمون بأنك بطيء في عملك، وقبل أن تعرف حتى بما جرى يكونون قد أطلقوا ألسنة صغارهم علينا من جديد.
- لم يقل أحد أبدًا إنني بطيء في عملي، يا أميرة. أين سمعتِ مثل هذا الكلام؟ إنني لم أسمع ولو كلمة شكوى واحدة من هذا القبيل، كما أني قادر على تحمُّل العبء نفسه الذي يحمله أي رجل يصغرني بعشرين سنة.
- إنني أمازحك فقط يا زوجي. إنك محقٌّ تمامًا، لا أحد يشتكي من عملك.
- إن كان هناك صغار يرموننا بالنعوت، فلا علاقة لهذا بكون عملي سريعًا أو بطيئًا، بل لأن أهلهم حمقى، أو على الأرجح منشغلون بالسُكْرِ عن تربية أولادهم على الأدب والاحترام.
- هدِّئ من روعك يا زوجي. قلت لك إني أمازحك فقط ولن أُقْدِم ثانية على ذلك. كانت الغريبة تحدِّثني في أمر يثير اهتمامًا عظيمًا لديَّ وقد يثير يومًا ما اهتمامك أنت أيضًا. لكن لا بدَّ لها من أن تتمَّ حديثها عنه، لهذا دعني أطلب منك ثانية الإسراع في إنجاز ما أنت مكلَّف به، واتركني كي أنصت إليها وأُقَدِّم لها ما أقدر عليه من عون.
- أعتذر، يا أميرة، إن كانت لهجتي قاسية بعض الشيء.

لكن بياترِس كانت قد استدارت وأخذت في صعود الممشى المفضي إلى شجيرة الشوك بإتجاه المرأة البادية كهيئة متدثِّرة برداء مرفرف.

بعد قليل، وإثر إنجاز ما كُلِّف به، كان أكسِل في طريق عودته إلى الحقل، لكنه جازف باختبار صبر رفاق العمل، وانحرف عن طريقه ليمرَّ بقرب الشوكة

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

العجوز ثانية. فهو، في الواقع، وإن كان يشاطر زوجته احتقارها لشكوك النسوة الغرائزيَّة، لكنه عجز عن طرد فكرة «أنَّ الغريبة تمثِّل خطرًا ما» من رأسه، وظلَّ قلقًا مذ ترك بياترِس معها. لهذا، شعر بالارتياح حين رأى من بعيد زوجته وحيدة فوق الجرف، واقفة قبالة الصخرة وبصرها شاخص صوب السماء. بدت غارقة تمامًا في التفكير، ولم تنتبه له إلَّا بعد أن نادى عليها. وحين راقبها وهي تهبط الممشى، أبطأ من المرَّة السابقة، تبادر إلى ذهنه، ليس للمرَّة الأولى، أن ثمَّة شيئًا مختلفًا طرأ على مشيتها مؤخَّرًا. لم يكن عرجًا بالضبط، لكنها تمشي كما لو كانت تعاني من ألم خفيٍّ في موضع ما من جسمها. وحين سألها، لدى اقترابها منه، عمَّا حدث لصاحبتها العجيبة، ردَّت بياترِس ببساطة:

- ذهبت في حال سبيلها.
- لا بدَّ من أنها كانت ممتنَّة لك، يا أميرة. هل تحدَّثتِ معها لوقت طويل؟
- أجل وكان في جعبتها الكثير.
- بمقدوري أن أرى أنها قالت شيئًا شغل بالك يا أميرة. ربما أولئك النسوة على حقٍّ وكان من الأسلم تجنُّب تلك المرأة.
- لم تضايقني، يا أكسِل، بل حملتني على التفكير.
- إنك في مزاج غريب. هل أنت متأكِّدة من أنها لم تسحرك بتعويذة ما قبل أن تتلاشى في الهواء؟
- اصعد إلى الشوكة، يا زوجي، لترى أنها ما زالت تمشي فوق الدرب ولم تغادر إلَّا منذ قليل. كانت تأمل في نيل عطف وإحسان أفضل ممَّن يعيشون حول التلِّ.
- إن كان الأمر كذلك، يا أميرة، فسأتركك، فقد تأكَّدت من أنك لم تصابي بأذى. سيرضى الربُّ عمَّا أبديته من طيبة كما هو دأبك دائمًا.

لكن زوجته بدت متردِّدة في تركه هذه المرَّة. إذ أنها قبضت على ذراعه، كما لو كانت للحظة على أهبَّة السقوط أرضًا، ثم تركت رأسها يستقرُّ في صدره.

ارتفعت يده، كما لو أن لها غريزة مستقلَّة بها، كي تمسِّد شعر بياترِس، بعد أن تشابك بفعل الريح، وحين رماها بنظرة خاطفة فوجئ برؤية أن عينيها ما زالتا مفتوحتين على اتساع. قال:

- إنك حقًا في مزاج غريب، ما الذي قالته لك تلك الغريبة؟

أبقت رأسها فوق صدره للحظة أطول ثم اعتدلت قائلة:

- الآن وأنا أُعمِلُ التفكير في الأمر، يا أكسِل، أرى أنك قد تكون على حقٍّ في ما تردِّده دائمًا. غريب حقًّا كيف ينسى العالم الأشخاص والأشياء والأحداث التي حصلت في الأمس أو أمس الأوَّل فقط. كأن علَّة ما هبطت علينا جميعًا.

- تمامًا مثلما أردِّد دائمًا يا أميرة. خذي تلك المرأة الصهباء...

- لا تشغل نفسك بتلك الصهباء يا أكسِل. ما لا نتذكَّره من أمور أخرى هو الأهمُّ.

قالت ذلك وهي ترنو إلى الأفق المغطَّى بطبقات من الضباب، لكنها حين نظرت إليه مباشرة تمكَّن من رؤية ما يملأ عينيها من حزن وحنين. وتلك كانت هي اللحظة - كان متأكِّدًا تمامًا - التي قالت له فيها:

- منذ زمن طويل وأنت ترفض رفضًا باتًّا، يا أكسِل، أعلم ذلك. لكن حان أوان التفكير فيه من جديد. هناك رحلة علينا القيام بها، ولا مجال لمزيد من التأجيل.

- رحلة يا أميرة؟ أيّ رحلة هذه؟

- رحلة إلى قرية ابننا. إنها ليست بعيدة، يا زوجي، ونحن نعرف ذلك. وهي رغم خطواتنا البطيئة، على مسيرة بضعة أيَّام على أقصى تقدير، إنها إلى الشرق قليلًا وراء السهل الكبير. كما أن الربيع سيحلُّ علينا قريبًا.

- قد نقوم برحلة كهذه، بالطبع، يا أميرة. هل قالت تلك الغريبة شيئًا حملك الآن على التفكير في هذا؟

- إنه أمر يشغلني منذ زمن طويل، يا أكسِل، ولكن ما قالته تلك المسكينة توًّا حملني على عدم الرغبة في التأجيل. ابننا ينتظرنا في قريته، إلى متى نتركه ينتظر؟
- عندما يحلُّ الربيع، يا أميرة، سنفكِّر قطعًا في القيام برحلة كهذه. لكن لماذا تقولين إن رغباتي كانت دومًا حجر عثرة في طريق ذلك؟
- لا أذكر الآن كل ما دار بيننا بهذا الخصوص، يا أكسِل. أعرف فقط بأنك عارضت الفكرة دومًا، رغم حرقتي وتوقي للقيام بها.
- حسنًا يا أميرة، دعينا نتحدَّث بشأنها أكثر عندما لا يكون هناك عمل ينتظر وجيران على أهبَّة اتهامنا بالبطء. دعيني أذهب في طريقي الآن. سنتكلَّم فيها أكثر عمَّا قريب.

لكن، في الأيَّام اللاحقة، حتى وإن تناولا فكرة الرحلة تلميحًا، إلَّا أنهما لم يتحدَّثا فيها كما ينبغي قطُّ. إذ اكتشفا أن ذكر الموضوع فقط يصيبهما وعلى نحو غريب بعدم الارتياح، وبعد هنيهة حلَّ بينهما تفاهم صامت، على شاكلة ما يعرف بالمسكوت عنه بين الزوج وزوجه، يقضي بتجنُّب طرح الموضوع قدر المستطاع. أقول «قدر المستطاع»، إذ كانت تتبدَّى أحيانًا حاجة - أو رغبة قاهرة، إن جاز التعبير - كان لا بدَّ للواحد أو للآخر من الرضوخ لها. لكنَّ الأحاديث التي فُتحت تحت ظروف كهذه كانت حتمًا تؤول سريعًا إمَّا إلى التهرُّب أو إثارة مزاج عكر. وفي المرَّة الوحيدة التي سأل فيها أكسِل زوجته مباشرة عمَّا قالته لها المرأة الغريبة في ذلك اليوم عند الشوكة العجوز، تلبَّد وجه بياترِس، وبدت للحظة على وشك البكاء. بعد ذلك، حرص أكسِل على تجنُّب أيِّ إشارة إلى تلك الغريبة.

وبعد أجل لم يعد أكسِل قادرًا على تذكُّر كيف بدأ الكلام عن تلك الرحلة، ولا ما كانت تعنيه لهما على الإطلاق. لكن بعد ذلك، وفي هذا الصباح، أثناء جلوسه في الخارج تلك الساعة الباردة قبيل الفجر، بدأ ما يغلِّف ذاكرته من غشاوة بالانقشاع ولو جزئيًّا على الأقل، فاستعاد في ذهنه العديد من الأشياء:

الصهباء؛ مارتا؛ الغريبة ذات الأسمال القاتمة؛ وذكريات أخرى ليس من داعٍ هنا لأن نشغل أنفسنا بها. وتذكَّر، بوضوح شديد، ما حصل قبل بضعة آحاد فقط، عندما أخذوا شمعة بياترِس منها.

كانت الآحاد أيَّام عطلة هؤلاء القرويين، إلى حدٍّ القعود عن العمل في الحقول على الأقل. أمَّا الماشية فكانت، مع ذلك، بحاجة إلى من يتولَّى الاعتناء بها، وبوجود كثير من المهمَّات العديدة الأخرى التي تنتظر من يقوم بها أيضًا، تنازل القسُّ وتقبَّل أنَّ منع كل الأعمال بالمطلق هو أمر غير عمليٍّ. وهكذا عندما خرج أكسِل ووقف تحت شمس الربيع في ذلك الأحد المحدَّد، وبعد صباح قضاه في إصلاح النعال، قابله مشهد جيرانه المنتشرين في كل مكان أمام الجُحر، بعضهم جالس فوق رقع من العشب، وبعضهم الآخر فوق كراسٍ صغيرة أو قطعٍ من الحطب، وهم يتكلَّمون، ويضحكون، ويعملون. أمَّا الصغار فكانوا يلعبون في كل مكان، كما تحلَّقت مجموعة منهم حول رجلَين يركِّبان عجلًا لعربة فوق العشب. كان أوَّل أحدٍ في السنة يسمح الطقس فيه بمزاولة أنشطة كهذه في الهواء الطلق، فعمَّ الجميع ما يشبه الأجواء الاحتفالية. رغم ذلك، أثناء وقوفه أمام مدخل الجُحر وتحديقه إلى ما وراء الفلَّاحين من أرض منحدرة نحو المستنقعات، لاحظ أكسِل تصاعد الضباب من جديد، ورأى أن الجميع سيغرقون بحلول العصر في الرذاذ الرمادي من جديد.

لبث واقفًا هناك لبعض الوقت قبل أن يفطن إلى جلبة في الأسفل، جانب سور مراعي الماشية. لم يحفل بذلك في البداية، لكن أذنه التقطت فيما بعد شيئًا حمله على الاعتدال في وقفته. فرغم ما طال عينيه من غبش مزعج بتطاول العمر، ظلَّ سَمْع أكسِل يُعتمَد عليه، ولهذا ميَّز وسط صراخ المتجمهرين قرب السور، صوت بياترِس وقد علا مكروبًا.

الآخرون أيضًا كانوا قد توقَّفوا عن مشاغلهم كي يستديروا ويحدِّقوا. لكنَّ أكسِل هرول الآن بينهم، محاولًا تفادي الصغار والأدوات المبعثرة فوق العشب بصعوبة. وقبل تمكُّنه من الوصول إلى الجمهرة الصغيرة الملتحمة والمتدافعة

بالمناكب، انفضَّت فجأة، وظهرت بياترِس في الوسط، ضامَّة شيئًا بقبضتيها الاثنتين إلى صدرها. كانت معظم الوجوه المحيطة بها تعلوها إمارات التسلية، لكن قسمات المرأة التي ظهرت بسرعة عند كتف زوجته - أرملة حدَّاد توفِّي محمومًا السنة الماضية - كانت منقبضة من الحنق. دفعت بياترِس معذِّبتها عنها، بوجه صارم في قسماته طوال الوقت، كأنه صخرة صمَّاء، لكنها حين رأت أكسِل مقبلًا نحوها، تفلَّقت الصخرة وتدفَّقت منها العواطف.

متأمِّلًا الآن في ذلك، بدا لأكسِل أن النظرة التي علت وجه زوجته آنذاك، كانت، وقبل أي شيء آخر، تنمُّ عن شعور طاغٍ بالارتياح. لم يعنِ هذا أن بياترِس تعتقد أن كل شيء سيسير على ما يرام فور وصوله؛ بل أن وجوده كان فارقًا بالنسبة لها. فنظرتها إليه لم تقتصر على الارتياح فقط، بل كان فيها ما يشبه التضرُّع أيضًا، ثم دفعت إليه بما كانت تحرسه بغيرة شديدة قائلة:

- هذه لنا يا أكسِل! لن نجلس في العتمة بعد الآن. خذها بسرعة، يا زوجي، إنها ملكنا!

مدَّت يدها إليه بشمعة قصيرة غليظة ومشوَّهة الشكل. حاولت أرملة الحدَّاد اختطافها من جديد، لكنَّ بياترِس ضربت على اليد الغازية وأبعدتها قائلة:

- خذها يا زوجي! تلك الصغيرة هناك، نورا، جلبتها لي هذا الصباح بعد أن صنعتها بيديها الاثنتين، ظنًّا منها بأننا تعبنا من قضاء ليالينا على نحو ما نقضيها عليه.

أطلق هذا جولة أخرى من الصراخ وبعض الضحك أيضًا. لكن بياترِس واصلت التحديق إلى أكسِل، وعيناها ممتلئتان ثقة وتوسُّلًا، وصورة وجهها في تلك اللحظة هي أوَّل ما استعادته ذاكرته في هذا الصباح فوق المقعد خارج الجُحر منتظرًا بزوغ الفجر. كيف تسنَّى له نسيان هذه الحادثة، ولم يمرَّ عليها أكثر من ثلاثة أسابيع ربما؟ كيف يمكن ألَّا تخطر بباله ثانية حتى هذا اليوم؟

رغم أنه مدَّ ذراعه، إلَّا أنه لم يتمكَّن من أخذ الشمعة - منعه الجمع من الوصول إليها - فردَّد حينذاك، بصوت عالٍ وببعض اليقين:

- لا تقلقي، يا أميرة. لا تقلقي.

كان يعي تمامًا أنَّ كلماته تلك جوفاء حتى أثناء نطقه بها، ولهذا أصابته الدهشة عندما صمت الجميع، وتقهقرت حتى أرملة الحدَّاد خطوة إلى الوراء. حينذاك فقط أدرك أن ردَّ الفعل هذا لم يكن بسبب كلماته، بل جرَّاء إقبال القسِّ من وراء ظهره.

تجاوز القسُّ أكسِل بعينين تقدحان شررًا صوب الجمع الذي خيَّم عليه الصمت الآن. ثم قال موبِّخًا:

- أيُّ أدب هذا في يوم الربِّ؟ ما الذي يجري؟

ردَّت أرملة الحدَّاد:

- إنها السيِّدة بياترِس، يا سيِّدي. حصلت لنفسها على شمعة.

تحوَّل وجه بياترِس ثانية إلى صخرة صمَّاء، لكنها لم تتجنَّب نظرات القسِّ التي استقرَّت عليها. قال لها:

- بمقدوري أن أرى بنفسي أن هذا الأمر صحيح، سيِّدة بياترِس. لا أظنُّ أنك نسيت قرار المجلس القاضي بعدم السماح لك أنت وزوجك باستخدام شموع في حجرتكما.

- نحن لم نُسقِط أرضًا، لا أنا ولا زوجي، ولو شمعة واحدة في حياتنا. لن نجلس في الظلام ليلة تلو الأخرى.

- اتُّخذ القرار وعليك التقيُّد به إلى أن يقرِّر المجلس خلاف ذلك.

أبصر أكسِل اتِّقاد الغضب في عينيها. «إنه محض قسوة ليس إلَّا. هذا كل ما هنالك». قالت هذا بصوت مكتوم، كما لو كانت تكلِّم نفسها، ولكنها لم ترفع عينيها عن عينيِّ القسِّ.

قال القسُّ:

- خذوا الشمعة منها. نفِّذوا ما أقول. خذوها منها.

أثناء امتداد الأيدي نحوها، بدا لأكسِل أنها لم تستوعب تمامًا ما قاله القسُّ. إذ وقفت وسط المناكب المتدافعة وقد علت وجهها نظرة حائرة، مواصلة

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

التشبُّث بالشمعة، وكأن ما يحملها على ذلك دافع غريزي مجهول. ثم بدا أن الذعر استولى عليها، فمدَّت يدها بالشمعة ثانية نحو أكسِل، رغم أنها قد دُفِعت أرضًا. لكنها لم تسقط بسبب الأجساد المحيطة بها، وبعدما استعادت توازنها، مدَّت الشمعة نحوه للمرَّة الثالثة. حاول أن يأخذها، لكن يدًا أخرى اختطفتها، وعندها انفجر صوت القسِّ:

- كفى! اتركوا السيِّدة بياترِس بسلام، ولا يخاطبنَّها أحد منكم ولو بكلمة واحدة غير طيِّبة. إنها عجوز لا تدرك كل ما تصنعه. أقول كفى! هذه تصرُّفات لا تليق بيوم الربِّ.

ضمَّها أكسِل بين ذراعيه، بعد وصوله إليها أخيرًا، وانفضَّ الجمع. حين استعاد هذه اللحظة في ذهنه، بدا له أنهما بقيا هكذا ردحًا طويلًا من الزمن، أحدهما ملتصق بالآخر، ورأسها مرتمٍ على صدره، تمامًا على نحو ما فعلته يوم مرور الغريبة بقريتهم، كما لو أنها متعبة فقط وتودُّ التقاط أنفاسها. واصل احتضانها فيما نادى القسُّ ثانية على الناس كي يتفرَّقوا. وعندما فضَّا التحامهما ونظرا حولهما، وجدا نفسيهما وحيدين في مرعى البقر وبوَّابته الخشبية الموصدة. قال:

- ما الأمر يا أميرة؟ ما الذي ينقصنا من غير شمعة؟ ألم نعتد على التحرُّك في حجرتنا جيِّدًا من دون واحدة؟ كما ألسنا نتسلَّى بالحديث على نحو طيِّب، بشمعة أو من دون شمعة؟

تفحَّصها جيِّدًا. بدت حالمة، ولم تكن متضايقة على وجه التحديد. قالت:

- آسفة، يا أكسِل. طارت الشمعة من بين أيدينا. كان ينبغي أن أُبقي عليها سرًّا بيننا نحن الإثنين. لكن السعادة تملَّكتني حين جلبَتها تلك الصغيرة وأخبرتني بأنها صنعتها بيدها لأجلنا نحن فقط. والآن طارت من بين أيدينا، كأن شيئًا لم يكن. لا يهمُّ.
- لا يهمُّ على الإطلاق، يا أميرة.
- يظنُّون أننا حمقاوان، يا أكسِل.

اقتربت خطوة ووضعت رأسها على صدره ثانية. وكانت تلك هي اللحظة التي قالت فيها، وصوتها مكتوم في صدره، فظنَّ أنه أساء السمع في البداية:

- ابننا يا أكسِل. أتذكر ابننا؟ عندما كانوا يدفعونني قبل قليل، تذكَّرت ابننا. رجل طيِّب، وقويٌّ، ومنتصب القامة. لماذا يتوجَّب علينا البقاء في هذا المكان؟ دعنا نذهب إلى قرية ابننا. سيحمينا وسيمنع أيَّ أحد من معاملتنا بسوء. ألن يتغيَّر ما في قلبك، يا أكسِل، تجاه هذا الأمر بعد مرور كل هذه السنين؟ أما زلت تقول إنه لا يمكننا الذهاب إليه؟

خلال قولها ذلك، بصوت مكتوم في صدره، زلزلت شظايا ذكرى ما ذهنَ أكسِل بقوَّة، بقوَّة عاتية حتى كاد أن يسقط مغشيًا عليه. عندها، أرخى ذراعيه عن بياترِس وخطا إلى الوراء، خشية أن يميل مترنِّحًا فيُفقدها توازنها.

- ما هذا الذي تقولينه يا أميرة؟ هل كنتُ أنا من وقف يومًا في وجه ذهابنا إلى قرية ابننا؟
- لكن حتمًا كنت أنت من فعل ذلك يا أكسِل. قطعًا كنت أنت.
- متى عارضت القيام برحلة كهذه يا أميرة؟
- طالما ظننت أنك فعلت هذا، يا زوجي. آه، يا أكسِل، لم أعد أذكر الآن بوضوح وأنت تطرح عليَّ هذه التساؤلات. ثم لماذا نقف هنا في الخارج، مع أنه يوم جميل؟

بدت بياترِس مشوَّشة من جديد. نظرت إلى وجهه، ثم إلى ما حولها، إلى أشعَّة الشمس الجميلة، إلى جيرانهما الذين انصرفوا إلى أعمالهم. ثم قالت بعد مدَّة:

- لنذهب ونجلس في حجرتنا. دعنا نختلِ بأنفسنا لبعض الوقت. يوم جميل بحقٍّ، لكني متعبة للغاية. هيا نذهب إلى الداخل.
- أنت محقَّة يا أميرة. اجلسي وارتاحي قليلًا، بعيدًا عن هذه الشمس. ستشعرين بالتحسُّن قريبًا.

كان هناك الآن آخرون ممَّن استيقظوا في جميع أرجاء الجُحر. كما لا بدَّ من أن يكون الرعاة قد انطلقوا قبل مدَّة، لكنه لم يسمعهم لشدَّة استغراقه في

أفكاره. في الطرف الآخر من الحجرة، همهمت بياترِس كما لو كانت تتهيَّأ للغناء، ثم انكفأت على بطنها تحت البطَّانيات. معتادًا على تلك الحركات، قطع أكسِل الغرفة بصمت متَّجهًا صوب الفراش، ثم جلس على حافَّته بحذر وانتظر.

تقلَّبت بياترِس واستقرَّت فوق ظهرها، ثم انشقَّت عيناها وحدَّقت في أكسِل. بعد ذلك حيَّته قائلة:

- صباح الخير يا زوجي. يسعدني أن الأرواح شاءت ألَّا تأخذك أثناء نومي.
- يا أميرة، هناك أمر أريد أن أكلِّمك فيه.

واصلت بياترِس النظر إليه بعينين شبه مغمضتين. ثم رفعت جذعها وجلست، وعندئذ اخترق وجهها ذاك الشعاع الذي أضاء العنكبوت سابقًا. كان شعرها الأشيب مثل لبدة الأسد، يتدلَّى متلبِّدًا أسفل كتفيها، لكن أكسِل، مع ذلك، شعر بالسعادة تمور في داخله لمنظرها هذا تحت نور الفجر.

قالت بياترِس:

- ما الذي تريد قوله، يا أكسِل، ولا تصبر حتى أفرك النوم من جفنيَّ؟
- تحدَّثنا من قبل، يا أميرة، عن رحلةٍ قد نقوم بها. حسنًا، ها قد حلَّ الربيع، وربما حان أوان انطلاقنا.
- انطلاقنا، يا أكسِل؟ انطلاقنا متى؟
- حالما نتمكَّن من ذلك. لن تطول غيبتنا، نحن بحاجة فقط لبضعة أيَّام. يمكن للقرية الاستغناء عنا خلال تلك المدَّة. سنكلِّم القسَّ.
- وسنذهب لرؤية ابننا يا أكسِل؟
- هذه هي الوجهة التي سنذهب إليها. كي نرى ابننا.

تغريد العصافير في الخارج أصبح الآن نشيدًا جماعيًّا. حوَّلت بياترِس نظرها نحو النافذة وما ينفذ عبر غطائها من أشعَّة الشمس، ثم قالت:

- في بعض الأيَّام أتذكَّره بوضوح. ثم في اليوم الذي يليه أشعر وكأن حجابًا ثقيلًا هبط فوق ذكراه. لكنَّ ابننا رجل صالح وطيِّب، لا يخامرني أيُّ شكٍّ في ذلك.

- لماذا هو ليس موجودًا معنا هنا الآن، يا أميرة؟
- لا أدري يا أكسِل. ربما تشاجر مع كبار القوم واضطرَّ أن يرحل من هنا. سألت من هم حولنا ولم يتذكَّره أحد. لكنه ما كان ليفعل أي شيء قد يجلب العار عليه، أنا متأكِّدة من ذلك. ألا تذكر أيَّ شيء بهذا الخصوص يا أكسِل؟
- عندما كنتُ في الخارج قبل قليل، بذلت قصارى جهدي وسط السكون في تذكُّر كل ما يمكنني، واستطعت استعادة العديد من الأمور. لكني لم أفلح في تذكُّر ابننا، لا وجهه ولا صوته، مع أني أعتقد أحيانًا بأنني أراه عندما كان صبيًّا صغيرًا، وأنا أقوده من يده عند حافَّة النهر، أو عندما بكى ذات مرَّة وحاولت تطييب خاطره. لكن ما شكله اليوم، أين يعيش، إن كان له ابن من صلبه، لا أذكر أيَّ شيء من هذا على الإطلاق. كنت آمل أن تكوني أنت قد تذكَّرت المزيد يا أميرة.
- إنه ابننا، لذا فإنني قادرة على الشعور بأمور متعلِّقة به، حتى وإن لم أتذكَّر بوضوح. وأنا أعرف أنه يتوق إلينا ويريد منا أن نترك هذا المكان وأن نذهب للعيش في كنفه وتحت حمايته.
- إنه من دمنا ولحمنا، فلماذا لن يكون سعيدًا بانضمامنا إليه؟
- رغم ذلك، سأفتقد هذا المكان يا أكسِل. هذه الحجرة الصغيرة وهذه القرية. ليس بالأمر الهيِّن أن تترك مكانًا عرفته طوال حياتك.
- لا أحد يطالبنا بفعل ذلك من دون تفكير يا أميرة. حينما كنت أنتظر بزوغ الفجر قبل قليل، فكَّرت في أننا نحتاج إلى القيام بهذه الرحلة إلى قرية ابننا والحديث معه. ولكن، حتى وإن كنَّا أمَّه وأباه، لا يحقُّ لنا أن نصل إليه في يوم رائق جميل ونطالب بالعيش في كنفه كجزء من قريته.
- أنت محقٌّ يا زوجي.
- هناك أمر آخر يشغل بالي يا أميرة. هذه القرية ربما تكون على مسيرة بضعة أيَّام حسبما تقولين، لكن كيف سنعثر عليها؟

ران الصمت على بياترِس، وفيما حدَّقت إلى الفراغ أمامها، كان كتفاها يعلوان ويهبطان مع حركة أنفاسها. وفي نهاية المطاف، قالت:

- أعتقد أننا سنعرف طريقنا إلى حدٍّ معقول يا أكسِل. حتى وإن كنَّا لا نعرف قريته على وجه التحديد بعد، لا بدَّ من أنني طفت على القرى القريبة منها عددًا كافيًا من المرَّات برفقة نساء قريتنا لأجل مقايضة عسلنا وقطعنا القصديرية. سأعرف طريقي وأنا معصوبة العينين إلى السهل الكبير، ومنه إلى قرية الساكسون، حيث اعتدنا على الاستراحة. قرية ابننا لا يمكن إلَّا أن تكون على مسافة أبعد بقليل، لذا سنعثر عليها ببعض الجهد. أكسِل، أحقًّا سنذهب قريبًا؟
- أجل يا أميرة. سنبدأ اليوم في تجهيز أنفسنا.

الفصل الثاني

كان عليهما، مع ذلك، من تدبير أمور عديدة قبل أن يصبح الانطلاق في الرحلة ممكنًا. ففي قرية كهذه، كانت لوازم السفر الأساسية - من بطّانيات، وقِرب الماء، وأدوات إشعال النار - ملكيّتها جماعية، وتأمينها يتطلّب قدرًا لا يُستهان به من المقايضة والتفاوض مع الجيران. إضافة إلى هذا، كان أكسِل وبياترِس، رغم تقدُّمهما في العمر، مكلَّفين بقسط من الأعباء اليومية، ولا يمكنهما ترك القرية ببساطة من دون موافقة من أهلها. وحتى عندما أصبحا جاهزين أخيرًا، عطَّلهما ما طرأ على الطقس من تحوُّل. فأيُّ حكمة في خوض غمار السفر وسط الضباب، والمطر، والبرد إن كانت الشمس المشرقة قطعًا على الأبواب؟

لكنهما انطلقا في نهاية المطاف، بعكّاز في يد كل منهما وصرَّتين فوق ظهريهما، ذات صباح صحوٍ، نسيمه شديد وسماؤه مزدانة بغيم رقيق. كان أكسِل قد رغب في الانطلاق فجرًا - حين اتَّضح له أن الطقس سيكون مناسبًا - لكن بياترِس أصرَّت على التريُّث إلى حين ارتفاع الشمس قليلًا. فقرية الساكسون التي سيقضيان ليلتهما الأولى فيها، حسبما جادلت، من السهل الوصول إليها خلال يوم واحد، لكنَّ الأهمَّ من ذلك هو قطع زاوية السهل الكبير عند حلول الظهيرة بالضبط، حين تكون قوى ذلك المكان الظلامية قد هجعت على الأرجح، وبات شرُّها مأمونًا.

مرَّ زمن طويل منذ قيامهما معًا بقطع أي مسافة سيرًا على الأقدام، ولهذا كان أكسِل قلقًا من قدرة زوجته على تحمُّل عناء المسير. لكنه بعد ساعة لمس

اطمئنانًا في نفسه: رغم أن وتيرة سيرها بطيئة - لاحظ اعوجاجًا في مشيتها ثانية، وكأنها تتفادى ألمًا ما - لكنها واظبت على التقدُّم، برأس مناطح للريح في العراء، ومن دون تردُّد في مواجهة الأشواك والجذور الغليظة المتشابكة. وفوق منحدرات التلال، أو البقاع الموحلة وما تتطلَّبه من جهد دفعِ قدمٍ أمام الأخرى، كانت تتباطأ في المشي، لكنها لا تتوقَّف.

في الأيَّام التي سبقت انطلاقهما، تعاظمت ثقة بياترِس في تذكُّرها للطريق الذي سيسلكانه، حتى قرية الساكسون، على الأقل، التي زارتها دوريًّا برفقة النساء على مرِّ السنين. لكن ما إن غابت التلال المخدَّدة فوق قريتهما، وقطعا الوادي خلف المستنقعات، حتى أصبحت ثقتها مزعزعة. كانت عند مفترق طريق، أو حقل حرثته الريح، تُمسك عن المشي وتقف لوقت طويل، ثم يُطِلُّ الذعر من عينيها وهما تمسحان الأرض من حولها. وفي لحظات كهذه، كان أكسِل يقول:

- لا تقلقي يا أميرة. لا تقلقي وخذي من الوقت ما تحتاجين.

وكانت تردُّ بعد التفاتها نحوه:

- لكن، يا أكسِل، لا وقت لدينا. يجب أن نقطع السهل الكبير عند الظهيرة إن أردنا تجنُّب الأذى.

- سنكون هناك في الوقت المناسب، يا أميرة. خذي من الوقت ما تحتاجين.

ولعلِّي أشير هنا إلى أن الاهتداء إلى الطرق من مكان لآخر في عموم البلاد كان أصعب بكثير في تلك الأيَّام، وليس بسبب عدم توفُّر بوصلة أو خريطة فقط. فنحن لم يكن لدينا بعد تلك الأسيجة النباتية التي تقسِّم اليوم الريف على نحو آسرٍ إلى حقول ودروب ومروج. لهذا، كان المسافر في تلك الأيَّام، يجد نفسه محاطًا، على الأغلب، بأرض لا معالم لها، ويرى المشهد نفسه تقريبًا أينما ولَّى وجهه. سلسلة حجرية في الأفق البعيد، انعطاف غدير، ارتفاع وادٍ وانحدار آخر: كانت علامات كهذه هي الوسائل الوحيدة التي تُحدِّد خريطة طريق ما. أمَّا إن سلك المرء منعطفًا خاطئًا فعاقبة ذلك الهلاك على الأرجح. دع عنك احتمالات

الهلاك بردًا: كان ثمن الزيغ عن الطريق هو التعرُّض أكثر من أي وقت آخر لخطر المغيرين والمتربِّصين - من بشر أو حيوان أو قوى خارقة للطبيعة - ممَّن يكمنون بعيدًا عن الطرقات المأهولة.

ولربما كنت ستتعجَّب من قلَّة ما نطق به هذان الزوجان أثناء سيرهما، سيَّما وأن لدى كل منهما في العادة الكثير ممَّا يشارك به الآخر. لكن، إذ كانت إصابة المرء بكاحل مكسور أو كشط ملتهب إصابات تهدِّد حياته، فمن البديهي أن يكون بينهما إقرار على أن التركيز في كل خطوة أمر محمود. ولعلَّك كنت ستلاحظ أيضًا أنه حيث ضاق الدرب على السير جنبًا إلى جنب، كانت بياترِس، لا أكسِل، من يتقدَّم المسيرة دائمًا. ولربما أدهشك هذا أيضًا، لأن تقدُّم الرجل للسير في أرض ذات مخاطر محتملة قد يبدو طبيعيًّا أكثر، ووفق هذا الافتراض، كانا، بالفعل، يتبادلان المواقع من دون نقاش، ولكن في الغابات أو حيث تتزايد احتمالات وجود ذئاب أو دببة. أمَّا خلال معظم الطريق، فكان أكسِل حريصًا على أن تكون زوجته في المقدَّمة، لأنهما سيواجهان على الأرجح عفريتًا وأرواحًا شرِّيرة، وتلك، كما هو معروف، تستهدف طرائدها في المؤخِّرة - على غرار ما يتعقَّب سبْعٌ ظبيًا في ذيل القطيع، كما أحسب. كانت هناك تلك الحالات الكثيرة التي ما إن يلتفت فيها مسافر إلى رفيقه من خلفه، حتى يكتشف أنه أصبح أثرًا بعد عين. رعبًا من أمر كهذا، كانت بياترِس خلال سيرهما تسأل بين الفينة والأخرى: «أما زلت هناك يا أكسِل؟» ما يردُّ عليه تلقائيًّا: «ما زلت هنا يا أميرة».

وصلا حافَّة السهل الكبير أواخر الصباح. وعندها اقترح أكسِل أن يغذَّا السير ويتركا المخاطر وراءهما، لكن بياترِس أصابها العناد وأصرَّت على وجوب الانتظار حتى يحلَّ أوان الظهيرة. فجلسا على صخرة تتربَّع قمَّة التلِّ المنحدر صوب السهل، وراقبا خيالي عكَّازيهما الآخذين في القِصر باهتمام بالغ. ثم قالت بياترِس:

- ربما تكون هذه السماء طيِّبة، فلم أسمع بأي شرٍّ تنزَّل على شخص في هذه الزاوية من السهل. ومع ذلك، من الأفضل أن ننتظر حلول

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

الظهيرة، فليس من عفريت يكترث حينذاك حتى للتلصُّص في الأرجاء ليرانا أثناء مرورنا.

- سننتظر، حسبما تريدين تمامًا، يا أميرة. كما أنك على حقٍّ، فهذا هو السهل الكبير في نهاية المطاف، حتى وإن كانت الطيبة تظلِّل هذه البقعة منه.

جلسا هكذا لمدَّة بسيطة، محدِّقين إلى ما انبسط أمامهما من أرض شاسعة في الأسفل، وصامتين في الأغلب. وفي لحظة ما قالت بياترِس:

- عندما نرى ابننا، يا أكسِل، سيصرُّ حتمًا على أن نقيم معه في قريته. ألن يكون غريبًا بعد كل هذه السنين أن نترك جيراننا، حتى وإن كانوا يسخرون أحيانًا من شيبتنا؟

- لم يُتخذ أي قرار بعد، يا أميرة. سنناقش هذا مع ابننا حين نراه.

صمت أكسِل وتابع التحديق إلى السهل الكبير. ثم هزَّ رأسه وقال بصوت منخفض:

- أمر عجيب! كيف أعجز تمامًا عن استحضاره في ذهني الآن.

- أظنُّ أني حلمت به ليلة أمس. كان واقفًا قرب بئر ماء، ملتفتًا إلى جنب، ثم نادى على شخص ما. أمَّا ما سبق ذلك وما تلاه فتبدَّد تمامًا من رأسي.

- رأيتِه على الأقل، يا أميرة، حتى ولو في الحلم. ألا تصفينه لي؟

- وجهه قويٌّ وسيم، أتذكَّر هذا القدر. أما لون عينيه، شكل وجنته، فلا أثر لهما في ذاكرتي.

- إنني لا أستحضر وجهه على الإطلاق. لا بدَّ من أن هذا كله من عمل الضباب. حقًّا، ما كنت لأكترث بالتنازل له عن كثير من الأشياء، بل وأفعل ذلك عن طيب خاطر، لكن العجز عن تذكُّر أمر عزيز نفيس كهذا مسألة قاسية للغاية.

تحرَّكتْ واقتربتْ منه، تاركة رأسها يرتاح فوق كتفه. باتت الريح تصفقهما بشدَّة الآن، فارتخى جزء من ردائها. طوَّقها أكسِل بذراعه، جاذبًا طرف ردائها فوقها بإحكام. ثم قال:

- على أيٍّ حال، أتصوَّر أن أحدنا سيتذكَّره عمَّا قريب.
- دعنا نحاول يا أكسِل. فلنحاول معًا. نحن كمن أضاع حجرًا كريمًا، لكننا حتمًا سنعثر عليه ثانية إن حاولنا معًا.
- قطعًا سنحاول يا أميرة. لكن انظري، خيالا العكازين على وشك الاختفاء. حان وقت الهبوط إلى الأسفل.

اعتدلت بياترِس وبدأت تنقِّب في صرَّتها. ثم قالت:

- خذ، سنحمل هذين.

ناولته ما يشبه حجرين أملسين، لكنه رأى أشكالًا معقَّدة محفورة فوق وجهيهما حين تفحَّصهما. ثم أردفت بياترِس:

- ضعهما داخل حزامك، يا أكسِل، وانتبه إلى بقاء الإشارات في مواجهة ما يقابلك. ستساعد السيِّد المسيح على حفظنا. سأحمل هذين الآخرين.
- واحد منها يكفيني، يا أميرة.
- كلا، يا أكسِل، سنقتسمها مناصفة. والآن، ما أتذكَّره هو وجود درب نسلكه فيهبط بنا إلى هناك، وما لم يكن المطر قد محا أثره، سيكون المشي فيه أسهل من كل ما قطعناه حتى الآن. لكن في قطعة منه علينا توخِّي الحذر. أكسِل، هل أنت منصت إليَّ؟ إنه ذاك الجزء الذي يعلو البقعة التي دُفن فيها العملاق. لمن لا يعرفها، ما هي إلَّا تلَّة عادية، لكني سأعطيك إشارة وعندما تراها عليك أن تتبعني، إذ سنترك الدرب ونلفُّ حول التلِّ من دون أن نعلوه حتى نصل إلى الجزء الثاني الهابط من الدرب. لن نجازف بوطء ذلك القبر، سواء كنَّا في لحظة بدء الظهيرة أم لا. هل تفهم تمامًا ما قلتُه، يا أكسِل؟

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- لا تقلقي، يا أميرة، فهمتك جيِّدًا.
- ولستُ في حاجة إلى تذكيرك. إن رأينا غريبًا في دربنا، أو نادى علينا من الجوار، أو وقع بصرك على حيوان مسكين في فخٍّ، أو مجروح في خندق، أو أي شيء مماثل قد يسترعي انتباهك، فلن تنطق بكلمة أو تبطئ الخُطى لأجله.
- لست أحمق يا أميرة.
- حسنًا إذا يا أكسِل، حان أوان الرحيل.

كما وعدت بياترِس، لم يكن مطلوبًا منهما سوى قطع مسافة قصيرة فقط من السهل الكبير. ظلَّ دربهما، وإن كان موحلًا أحيانًا، واضحًا ولم يحملهما بعيدًا عن ضوء الشمس قطُّ. بعد انحداره في البداية، ارتفع على نحو متصاعد، إلى أن وجدا نفسيهما سائرين على طول حافَّة مرتفعة، والأراضي البرِّية محيطة بهما على الجانبين. كانت الريح عنيفة، لكنها مثل ترياق أيضًا ضدَّ شمس الظهيرة. الأرض مفروشة بأزهار الـخلنج البنفسجية والجولق الصفراء، التي لم تتجاوز الركبة في طولها، ولم يقع بصرهما على شجرة عرضًا إلَّا مرَّة واحدة، وتلك كانت منزوية، كعجوز شمطاء، ومحنيَّة بيد ريح لا نهاية لها. ثم ظهر وادٍ إلى يمينهما، فذكَّرهما بجبروت السهل الكبير وغموضه، وبأن ما انتهكاه من حرمته الآن لم يكن سوى رقعة ضئيلة منه.

سارا متقاربين جدًّا، بل كان أكسِل يوشك على الالتصاق بزوجته من الخلف. رغم ذلك، وعلى طول الطريق، ظلَّت بياترِس تترنَّم كل خمس أو ستِّ خطوات، وكأنها كاهنة تؤمُّ جموع المؤمنين: «أما زلت هناك يا أكسِل؟» فيردُّ أكسِل من خلفها قائلًا: «ما زلت هنا يا أميرة». عدا هذا التبادل الطقسيِّ للكلام، لم يتفوَّها بأيِّ شيء آخر. حتى عندما وصلا مدفن العملاق فوق التلَّة الصغيرة، وصنعت بياترِس إشارات على عجل لترك الدرب والسير فوق نبات الخلنج، واصلا هذا الدعاء والتأمين بوتيرة ونبرة ثابتة، كما لو كانا يرميان إلى تضليل من يسمعهما من عفاريت عن نواياهما الحقيقية. وعلى مدار الوقت،

كان أكسِل يرصد أيَّ تحرُّك سريع للضباب أو اكفهرار فجائيٍّ للسماء، لكن لم تلُح أي نُذر على ذلك، ثم سرعان ما أصبح السهل الكبير من ورائهما. وأثناء تسلُّقهما الطريق عبر غابة صغيرة صادحة بغناء الطير، لم تعلِّق بياترِس بشيء، لكنه لاحظ ما اعترى هيئتها من ارتياح، وفهم أن استنكافها عن الكلام قد بلغ مداه الأخير.

استراحا قرب جدول، حيث غسلا أقدامهما، وأكلا خبزًا، ثم تزوّدا بالماء. انطلاقًا من تلك النقطة، اقتضت وجهتهما سلوك طريق روماني قديم، أرضيَّته تداعت منذ عهد طويل، وتحفُّه أشجار البلُّوط والدردار. أمَّا السير فيه فأسهل بكثير، وإن تطلَّب الحذر من عابري سبيلٍ قد يصادفونهم فيه. وهكذا كان. خلال الساعة الأولى، صادفا: امرأة مع اثنين من أطفالها، وصبيًّا يسوق حميرًا، وممثِّلين استعراضيين مهرولين للَّحاق بفرقتهما المتجوِّلة. في كل تلك المرَّات، توقَّفا لتبادل المجاملات، لكن في واحدة منها، وبعد التقاطهما ضجيج عجلات ووقع حوافر حصان، اختبآ في خندق على جانب الطريق. ثم تبيَّن لهما، في هذه المرَّة أيضًا، ألَّا ضرر سيلحق بهما - مزارع ساكسوني مع حصان وعربة مكدَّسة بالحطب.

قرب منتصف العصر، أخذت السماء تتلبَّد بالغيوم، منذرةً بعاصفة وشيكة. كانا يستريحان تحت بلُّوطة ضخمة، وهما متواريان عن أعين المارَّة وظهراهما للطريق. ولما كانت فسحة خالية من الشجر تنداح أمام ناظريهما، تمكَّنا على الفور من التقاط ما طرأ على الطقس من تغيير.

قال أكسِل:

- لا تقلقي يا أميرة. ستحمينا هذه الشجرة من شرِّ البلل إلى أن تعاود الشمس الظهور.

لكنَّ بياترِس هبَّت على قدميها، قائلة وهي تميل إلى الأمام ويدها تقي عينيها من المطر:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- أرى أن الطريق ينحني في الأفق، ما يعني أن الفيلا القديمة ليست ببعيدة. لجأتُ إليها مرَّة من قبل أنا ومن كنت برفقتهنَّ من نساء. خرابة، لكن كان السقف حينذاك لا يزال جيِّدًا.
- هل نستطيع الوصول إليها قبل اندلاع العاصفة يا أميرة؟
- سنصلها إن انطلقنا الآن.
- إذًا دعينا نسرع بالذهاب. فليس ما يحملنا على لقاء حتفنا غرقًا بالمطر. وهذه الشجرة، بعد أن تأمَّلتها الآن، مليئة بثقوب أرى منها معظم السماء.

***

كانت الفيلا الخرِبة تنحرف عن الطريق بمسافة أبعد مما تذكَّرت بياترِس. وعند هطول زخَّات المطر الأولى واسوداد السماء من فوقهما، وجدا أنهما يسيران بمشقَّة بالغة في مسلك طويل ضيِّق يتطاول فيه القرَّاص حتى الخصر، فاضطرَّا إلى شقِّ طريقهما عبره ضربًا بالعكَّازين. ومع أنها كانت واضحة حين كانا على الطريق، أصبحت الآثار الخربة أثناء تقدُّمهما مستترة خلف الأشجار والنباتات المورقة، ولهذا أصيب المسافران بالدهشة، والارتياح كذلك، لما وجدا نفسيهما فجأة أمامها.

لا بدَّ من أن الفيلا كانت فخمة أيَّام الرومان، لكن لم يتبقَ قائمًا منها الآن سوى جزء صغير. كانت الأرضيَّات البديعة في الزمن الغابر ممدَّدة تحت سطوة عناصر الطقس، شوَّهتها البُرك الآسنة، والحشائش الضارَّة، والعشب الناتئ من البلاط الكالح. أما بقايا الجدران، التي لم يكن بعضها يصل كاحل القدم، فحدَّدت مخطَّط البناء القديم. ثمَّة قوس حجري يُفضي إلى داخل الجزء الناجي من الفيلا، وأكسِل وبياترِس تحرَّكا الآن نحوه بحذر، متوقِّفين لدى العتبة لإصخاء السمع. بعد مدَّة هتف أكسِل: «هل من أحد هنا؟» وعندما لم يلقَ جوابًا،

مضى في النداء قائلًا: «نحن عجوزان من البريتون[1] نلتمس اللجوء من العاصفة. السلام على كل من هو في الداخل».

رغم ذلك، ظلَّ الصمت مطبِقًا، فعبرا من تحت القوس إلى عتمة مكانٍ ما، لا بدَّ من أنه كان ردهة ذات يوم. دلفا إلى الضوء الرمادي لغرفة فسيحة، لكن حتى هنا أيضًا، كان حائط بأكمله قد وقع. أما الغرفة الملاصقة فاختفت برمَّتها، ومنها انطلقت النباتات دائمة الخضرة في زحف شرس يهدِّد بابتلاع الأرضية. لكن الحوائط الثلاثة الباقية وفَّرت ملاذًا معقولًا من المطر بما يعلوها من سقف جيِّد. هنا، على خلفية الحجارة المتَّسخة لمَّا كان ذات مرَّة حوائط ناصعة البياض، ثمَّة هيئتان قاتمتان، إحداهما واقفة، والأخرى جالسة، وبينهما مسافة فاصلة.

فوق قطعة حجرية من البناء المنهار، جلست عجوز ضئيلة، لها هيئة الطير - أكبر سنًّا من أكسِل وبياترِس - وملتحفة برداء داكن، قلنسوته منزلقة إلى حدٍّ رؤية ملامحها المتغضِّنة. عيناها غائرتان ومن الصعب رؤيتهما بسهولة. قوس ظهرها لم يكن ملامسًا الحائط من خلفها. تململ شيء في حضنها ورأى أكسِل أنه كان أرنبًا، مثبتًا بإحكام بين يديها النحيلتين.

ثمَّة شابٌّ في النقطة الأبعد على الحائط الصغير نفسه، كأنه موضع نفسه كي يكون بعيدًا عن العجوز، ويبقى في الوقت نفسه محميًّا من المطر. شابٌّ نحيف وطويل بشكل غير معهود. كان في معطف سميك طويل، يشبه ما يتدثَّر به الرعاة خلال مناوبة ليلية باردة، لكن عند نهاية أطرافه، كانت الأجزاء السفلى المكشوفة من رجليه عارية. في قدميه نعل من صنف ما كان أكسِل قد رآه في أقدام صيَّادي السمك. ومع أنه بدا شابًا، إلَّا أن قمَّة رأسه كانت صلعاء مصقولة،

---

(1) من أقدم الأقوام التي سكنت بريطانيا قبل الغزو الأنغلو ساكسوني في بداية القرن الخامس م. وعلى هذا فهم يعتبرون من سكان البلاد الأصليين الذين حُملوا بسبب حروبهم مع الساكسون والقبائل الجرمانية الغازية الأخرى على الهروب والتمركز في أقصى الغرب. وقد انتشرت المسيحية بينهم في عهد الرومان قبل مجيء الساكسون الوثنيين.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

فيما أورقت نتف من الشعر الداكن حول أذنيه. كان الرجل يقف بتصلُّب، ظهره إلى الغرفة، ويده على الحائط أمامه، وكأنه يُنصت باهتمام بالغ لأمر يدور على الجانب الآخر من الغرفة. ألقى بنظرة خاطفة من فوق كتفه عند دخول أكسِل وبياترِس، لكنه لم ينطق بحرف. كانت العجوز أيضًا تحملق فيهما بصمت، ولم يتحرَّر الاثنان قليلًا من جمودهما إلَّا عندما قال أكسِل: «سلامٌ عليكما»، فردَّ الرجل الطويل: «اقتربا أكثر، أيُّها الصديقان، وإلَّا أغرقكما المطر».

كان هذا صحيحًا، إذْ فتحت السماء أبوابها الآن، وراح المطر الهاطل من السطح المهدَّم يهطل أرضًا ويرتدُّ رذاذًا مغرِقًا الضيفين. متمتمًا بعبارات الشكر، قاد أكسِل زوجته إلى الحائط، منتقيًا بقعة وسطًا بين مضيفيهما. ثم ساعد بياترِس على إنزال صرَّتها عن ظهرها، وأزاح هو الآخر متاعه عن عاتقه.

بقي الأربعة على تلك الحال لمدَّة من الوقت، فيما اشتدَّت العاصفة وأضاء لمعان برقها الملجأ. وكأنَّما سحرت الهيئة الصنمية العجيبة للرجل الطويل والعجوز كلًّا من أكسِل وبياترِس، إذ ظلَّا هما أيضًا متجمِّدين صامتين. وكأنهما صادفا لوحة وعبرا إلى داخلها، فأُرغِما بدورهما على التحوُّل إلى هيئتين مرسومتين.

ثم حين استقرَّ هطول المطر على وتيرة واحدة، كسرت العجوز الصمت أخيرًا. قالت وهي تقبض على الأرنب بيد وتمسِّد فروته بالأخرى:

- ليكن الربُّ معكما، يا ابني العمِّ. سامحاني على عدم تحيَّتكما عند دخولكما، إذ أدهشتني رؤيتكما هنا. لكن، فلتعلما أن وجودكما مرحَّب به مع ذلك. بدا يومًا رائقًا للسفر إلى أن هبَّت هذه العاصفة. لكنها من ذلك النوع الذي ينتهي فجأة كما بدأ. لذا لن تتعطَّل رحلتكما طويلًا، ولعلَّ في هذا خيرًا لكما أيضًا، إذ تستغلَّان الوقت في نيل قسط من الراحة. إلى أين الوجهة، يا ابني العمِّ؟

ردَّ أكسِل قائلًا:

- نحن في طريقنا إلى قرية ابننا الذي ينتظرنا بلهفة هناك. لكنَّنا في هذه الليلة نلتمس المأوى في قرية ساكسونية، ونرجو أن نبلغها قبل هبوط الليل.

قالت العجوز:

- للساكسون عادات همجية، لكنهم أكثر استعدادًا للترحيب بغريب مسافر من أبناء جلدتهم. اجلسا، يا ابني العمِّ. جذع الشجرة هذا جافٌّ، كثيرًا ما جلست عليه بارتياح.

انصاع أكسِل وبياترِس للاقتراح، ثم خيَّم الصمت لبضع لحظات بينما واصل المطر هطوله. وفي نهاية المطاف، حملت حركة من العجوز أكسِل على إلقاء نظرة خاطفة نحوها. كانت تجذب أُذني الأرنب إلى الخلف، وبينما حاول الحيوان تحرير نفسه، أبقت يدُها الشبيهة بمخلب عليه في قبضتها. ثم، وتحت ناظري أكسِل، أخرجت العجوز سكِّينًا طويلة صدئة بيدها الأخرى ووضعتها فوق نحر الأرنب. ولما أجفلت بياترِس، أدرك أكسِل أن البقع الداكنة تحت قدميه، وفي كافة أرجاء الأرضيَّة الخربة، لم تكن سوى دماء قديمة، وأن اختلاطها بروائح اللبلاب وعفن الحجارة شكَّل رائحة أخرى للذبح، واهية ولكنها مقيمة.

بعد وضعها السكين على نحر الأرنب، تجمَّدت العجوز مثل الصنم مرَّة أخرى. كانت عيناها الغائرتان، كما أدرك أكسِل، مسلَّطتين على الرجل الطويل في الطرف الأقصى من الحائط، كما لو أنها تنتظر إشارة منه. لكن الرجل ظلَّ على هيئته المتصلِّبة السابقة، وجبينه يكاد يمسُّ الحائط. وهو إمَّا لم يلاحظ العجوز، أو كان مصمِّمًا على تجاهلها.

قال أكسِل:

- أيَّتها السيِّدة الطيِّبة، اذبحي الأرنب إن كان عليك هذا. لكن اكسري عنقه بحذق، وإلَّا خذي حجرًا ودقِّي رأسه به.
- لو كانت لديَّ القوَّة، أيُّها السيِّد، لفعلت، لكنني ضعيفة جدًّا ولا أقوى على ذلك. معي سكِّين حادَّة وهذا كل ما يتطلَّبه الأمر.
- إذًا سأمدُّ لك يد العون بسرور. لا حاجة لسكِّينك.

نهض أكسِل ومدَّ يده لها، لكن العجوز لم تُبدِ أيَّ حركة تنمُّ عن رغبتها في إعطائه الأرنب. ظلَّت كما كانت تمامًا من قبل، سكِّينها على عنق الحيوان،

وبصرها مسلَّط على الرجل عند الحائط. وأخيرًا، استدار الرجل الطويل ليقابلهم وجهًا لوجه قائلًا:

- أيُّها الصديقان، دُهشت حين رأيتكما تدخلان، لكني أشعر الآن بالسرور تجاهكما. إنني أرى أنكما شخصان طيِّبان، وأتوسَّل إليكما، خلال المكوث هنا حتى انجلاء العاصفة، أن تنصتا إلى بلواي. أنا ملَّاح رقيق الحال، أعيش من نقل المسافرين في المياه المائجة. ولست ممَّن يشكون من عمل كهذا، بل أنا راضٍ به، رغم ساعاته الطويلة، ورغم عدم نيل سوى قسط ضئيل من النوم وأنين ذراعيَّ مع ضربة كل مجذاف، تحديدًا أيَّام ازدحام الراغبين بالعبور. أكُدُّ تحت المطر والريح والشمس الحارقة، لكني أحافظ على دوام الهمَّة بما أمنِّي به النفس من أيَّام الراحة. إذ أنا واحد من بين عدد من الملَّاحين، وهذا ما يتيح لنا التناوب على أيَّام الراحة، حتى وإن كنا لا ننعم بها إلَّا بعد أسابيع طويلة من الكدح. وخلال تلك الأيَّام، اتَّخذ كلٌّ منَّا لنفسه مكانًا خاصًّا لقضائها فيه، وهذا، يا أصدقائي، هو مكاني. هذا البيت الذي عشت فيه ذات يوم طفلًا خالي البال. لم يعد على حاله كما كان في الماضي، لكنه بالنسبة لي عامرٌ بالذكريات الغالية، ولا ألتمس من المجيء إليه سوى الهدوء لأنعم بتلك الذكريات. والآن انظرا في هذه المسألة. كلَّما آتي إلى هنا، وخلال ساعة من وصولي، تعبر هذه العجوز من تحت ذلك القوس. ثم تجلس وتعنِّفني ساعة تلو الأخرى، ليلًا ونهارًا. تختلق اتِّهامات قاسية مجحفة. وتحت جنح الظلام، ترميني بأقبح اللعنات والمذمَّات. لا تمنحني ولو دقيقة واحدة من الراحة. أحيانًا، كما ترون، تجلب معها أرنبًا، أو ما شابه من حيوانات صغيرة، كي تذبحه وتلوِّث هذا المكان العزيز بدمائه. بذلت كل ما في وسعي لإقناعها بتركي في حالي، لكنها، ومهما كان الربُّ قد بثَّ في روحها من شفقة، إلَّا أنها تعلَّمت تجاهلها. فلا هي تذهب، ولا هي

تتوقَّف عن التوبيخ. حتى الآن، دخولكما المفاجئ فقط، حملها على إيقاف اضطهادها لي. وسريعًا ما سيحين أوان عودتي، وقضاء مزيد من الأسابيع الطويلة كادحًا في الماء. يا صديقيَّ، أتوسَّل إليكما، ابذلا ما في وسعكما لحملها على ترك هذا المكان. حاولا إقناعها بأن ما تفعله لا يُرضي الربَّ. ربما يكون لكما تأثير عليها، كونكما غريبين من الخارج.

خيَّم الصمت بعد انتهاء الملَّاح من حديثه. وتذكَّر أكسِل لاحقًا أنه لم يشعر حينذاك بواجب الردِّ على الملَّاح، لكنه في الوقت نفسه أحسَّ كما لو أن الرجل كلَّمه أثناء حلم. بياترِس هي الأخرى بدت وكأنها لم تشعر بشيء يحملها على الردِّ، إذ ظلَّت عيناها على العجوز، التي كانت قد أبعدت السكِّين عن عنق الأرنب، وراحت تمسِّد، بحنان تقريبًا، فروته بحافَّة السكِّين. في نهاية المطاف، قالت بياترِس:

- أيَّتها السيِّدة، أتوسَّل إليك، دعي زوجي يساعدك. لا حاجة إلى إراقة الدماء في مكان كهذا، تحديدًا وأنه لا يوجد وعاء لجمعه فيه. إنك لا تجلبين الفأل السيِّئ لهذا الملَّاح فقط، بل ولنفسك أيضًا وسائر اللاجئين إلى هذا المكان. أبعدي السكِّين جانبًا واذبحي الحيوان برفق في مكان آخر. ثم ما جدوى ما تقدمين عليه من تعنيف رجل كهذا، ملَّاح مكافح ومجدٍّ؟

قال أكسِل برفق:

- نحن لا نعرف ما الذي جرى بين هذين الشخصين. هذا الملَّاح يبدو صادقًا، لكن في المقابل، هذه السيِّدة قد يكون لديها قضيَّة عادلة من وراء المجيء إلى هنا، وقضاء وقتها حسب ما وصف لنا.

ردَّت العجوز:

- لا يمكن أن توفَّق في الحديث أكثر من ذلك، أيُّها السيِّد. هل أفكِّر أن هذه طريقة فاتنة لقضاء أيَّامي الذاوية؟ إنني، بالطبع، أفضِّل أن أكون

أبعد ما يمكن عن هذا المكان، بصحبة زوجي نفسه، لكنَّ هذا الملَّاح هو من تسبَّب في فراقنا. كان زوجي رجلًا حكيمًا حذرًا، أيُّها السيِّد، وقد أمضينا معًا وقتًا طويلًا في التخطيط لرحلتنا، تحدَّثنا عنها وحلمنا بها على مرِّ سنين عديدة. وعندما أصبحنا جاهزين أخيرًا، ولدينا كل ما نحتاجه، انطلقنا واهتدينا بعد عدَّة أيَّام إلى الخليج الصغير حيث نستطيع العبور إلى الجزيرة. انتظرنا الملَّاح، وبعد مدَّة، رأينا قاربه مقبلًا صوبنا. لكن وكما شاء الحظُّ، لم يكن من جاء إلينا غير هذا الرجل. انظرا كم هو طويل. واقفًا في زورقه فوق الماء، ومن خلفه السماء، بمجذافه الطويل بدا طويلًا نحيفًا مثل هؤلاء اللاعبين المترنِّحين فوق عصيِّهم الخشبية الطويلة. وصل إلى حيث كنت وزوجي واقفَين على الصخور وربط زورقه. ولا أعرف حتى يومنا هذا، كيف فعل فعلته، لكنه تمكَّن من خديعتنا بطريقة ما. أفرطنا في الثقة به. وبحجَّة أن الجزيرة قريبة جدًّا، أخذ هذا الملَّاح زوجي وتركني أنتظر فوق الشاطئ، بعد أربعين سنة أو يزيد من كوننا زوجًا وزوجة ومن دون افتراقنا ولو ليوم واحد. لا أستطيع أن أفكِّر أو أفهم كيف فعل هذا. لا بدَّ من أن صوته وضعنا في حلم، لأنني قبل أن أدرك ما حدث كان قد جذَّف مبتعدًا بزوجي وأنا بعدُ فوق البرِّ. حتى في ذلك الحين، لم أصدِّق ما حدث. إذ من يخطر بباله أن القسوة قد تصل بملَّاح إلى هذا الحدِّ؟ لهذا انتظرت. قلت في نفسي: الزورق وببساطة لا يمكن أن يحمل أكثر من مسافر في المرَّة الواحدة، إذ كان الماء هائجًا في ذلك اليوم، والسماء لا تقلُّ اكفهرارًا عمَّا هي عليه الآن. وقفت هناك على الصخرة وراقبت الزورق يصغر شيئًا فشيئًا حتى أصبح نقطة. ومع ذلك انتظرت، وبعد مدَّة أخذت النقطة تكبر وتكبر إلى أن تحوَّلت إلى هذا الملَّاح. وسرعان ما رأيت رأسه مثل حصاة ملساء، ولم يبقَ من مسافر في زورقه. ظننت أنه دوري الآن، وأنني سأصبح بعد هنيهة برفقة زوجي الحبيب. لكنه لمَّا

وصل إلى حيث كنت أنتظر، وربط حبله بعمود، هزَّ رأسه ورفض نقلي إلى الجزيرة. جادلته وبكيت وزجرته، لكنه ما كان ليستجيب. عرض عليَّ عوض ذلك - ويا لقسوته! - عرض عليَّ أرنبًا، قال إنه عثر عليه واقعًا في فخٍّ على شاطئ الجزيرة. جلبه لي ظنًّا بأنه عشاء يليق بليلتي الأولى من الوحدة. ثم، وحين رأى أنه لم يكن هناك أيُّ أحد آخر لنقله إلى الجزيرة، دفع زورقه بعيدًا، وتركني فوق الشطِّ باكية، وأنا أحمل أرنبه البائس. أطلقته بين زهور الـخلنج بعد لحظة، لأنني، دعوني أقل لكما، فقدت شهيَّتي في تلك الليلة ولليالٍ عديدة بعدها. ولهذا أجلب له هديتي الصغيرة هذه كل مرَّة. أرنًبا لحسائه جزاء معاملته الطيِّبة في ذلك اليوم.

علا صوت الملَّاح عبر الغرفة مقاطعًا:

- كان الأرنب سيكون عشائي في ذلك المساء. لكني أعطيته لها بداعي الشفقة. ولم أقصد من وراء ذلك سوى عمل خير متواضع.

ردَّت بياترِس:

- لا علم لنا بما جرى بينكما، أيُّها السيِّد، لكنَّ تركك لهذه السيِّدة وحيدة على الشاطئ بتلك الطريقة يبدو خديعة قاسية بالفعل. ما الذي حملك على صنع أمر كهذا؟

- أيتها السيِّدة الطيِّبة، الجزيرة التي تتكلَّم عنها هذه العجوز ليست جزيرة عادية. نحن الملَّاحون نقلنا الكثيرين إليها على مدار السنين. وفي هذا الوقت، مئات يقطنون حقولها وغاباتها. لكنها مكان ذو سمات غريبة، فمن يصلها يمشي بين خضرتها وأشجارها وهو في عزلة مطبقة، ولن يرى أبدًا أيَّ روح أخرى. أحيانًا، في ليلة مقمرة أو حينما تقترب عاصفة ما، قد يستشعر وجود نظرائه من أهل الجزيرة. لكن في معظم الأيَّام، وبالنسبة لأي راحل منهم، يكون الأمر كما لو كان هو المقيم الوحيد فيها. كنت لأنقل هذه المرأة بسرور، لكنها حين أدركت بأنها

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

لن تكون مع زوجها، قالت إنها في غنى عن عزلة كتلك ورفضت الذهاب. امتثلت لقرارها، حسب ما أنا ملزم به، وتركتها تذهب في حال سبيلها. أما الأرنب، فكما ذكرت، أعطيته لها كعمل خير متواضع. وأنتما تريان الآن كيف تشكرني عليه.

ردَّت العجوز:

- هذا الملَّاح ماكر خبيث. لن يتورَّع عن خديعتكما، حتى وأنتما من الخارج. سيحملكما على التصديق بأن كل روح تهيم في عزلة داخل تلك الجزيرة، لكن هذا غير صحيح. هل كنت لأحلم أنا وزوجي لسنوات طويلة بالذهاب إلى مكان كهذا؟ الحقيقة هي أن هناك العديد ممَّن يُسمح لهم بالعبور معًا كزوج وزوجة والعيش معًا فوق تلك الجزيرة. العديد ممَّن يتجوَّلون في تلك الغابات والشطآن الهادئة متأبِّطي الأذرع. أنا وزوجي كنَّا على معرفة بهذا. كنا على معرفة به منذ الصغر. يا ابني العمِّ الطيِّبين، إن نقَّبتما في الذاكرة جيِّدًا، فستتذكَّران صدق هذا حتى وأنا أتكلَّم عنه الآن. لم تكن لدينا أي فكرة لدى انتظارنا في الخليج الصغير عن مدى قسوة الملَّاح الذي سيأتينا.

ردَّ الملَّاح:

- هناك جزء واحد فقط من الصحَّة فيما تقوله. في بعض الأحيان قد يُسمح لزوجين بالعبور معًا إلى الجزيرة، لكنَّ هذا أمر نادر. إذ يتطلَّب وجود رابطة حبٍّ قويَّة واستثنائية فيما بينهما. هذا يحصل أحيانًا، وأنا لا أنكر ذلك، ولهذا السبب فإننا عندما نقابل رجلًا وزوجته، أو حتى عاشقين غير متزوِّجين، ممن يريدون العبور إلى الجزيرة، فواجبنا يُملي علينا استجوابهما بدقَّة وحذر. إذ تقع على عاتقنا مهمَّة تحديد إن كانت الرابطة فيما بينهما قويَّة إلى حدِّ السماح بعبورهما معًا. هذه السيِّدة لا تجرؤ على تقبُّل الأمر، لكن رابطتها مع زوجها كانت

وببساطة واهية. دعوها لتنظر في قلبها، ثم لنرَ إن كانت تجرؤ على القول بأن حكمي كان مخطئًا في ذلك اليوم.

قالت بياترِس:

- أيَّتها السيِّدة، ما قولك؟

ظلَّت العجوز صامتة. أبقت على ناظريها في الأسفل، وراحت تمرِّر السكِّين بحذر فوق فروة الأرنب. عندها قال أكسِل:

- أيَّتها السيِّدة، حالما يتوقَّف المطر، سنعود إلى الطريق. لم لا تتركين هذا المكان وتأتين معنا؟ نحن على استعداد للمشي معك مسافة من طريقك. سيتاح لنا الوقت للحديث عن كل ما ترغبين به. اتركي هذا الملَّاح الطيِّب بسلام كي يستمتع فيما تبقَّى من هذا البيت قبل سقوطه بالكامل. ما الذي يمكن أن تجنيه هنا من الجلوس هكذا؟ وإن رغبت، سأقتل الأرنب قبل أن تفرِّقنا الطريق. ما رأيك؟

لم يصدر عن العجوز ردٌّ، أو علامة تدلُّ على سماعها كلمات أكسِل. وبعد مدَّة، نهضت ببطء على قدميها، والأرنب مضموم إلى صدرها. كانت قامة العجوز قصيرة ورداؤها يرفل خلفها وهي تتوجَّه إلى الجانب المنهار من الغرفة. انهمر بعض الماء من جزء من السقف، لكنها بدت غير مكترثة لذلك. وعندما وصلت إلى نهاية الأرضية، نظرت إلى المطر المنهمر في الخارج والخضرة الزاحفة من دون هوادة. وعندها انحنت ببطء، ثم وضعت الأرنب قرب قدميها. لكن الحيوان، ربما متجمِّدًا من الخوف، لم يتحرَّك في البداية. ثم فرَّ مختفيًا وسط العشب.

اعتدلت العجوز بحذر. ولمَّا استدارت بدت وكأنها تنظر إلى الملَّاح - عيناها الغائرتان على نحو غريب جعلت التأكُّد من ذلك صعبًا - ثم قالت:

- هؤلاء الغرباء بدَّدوا شهيَّتي للأكل. لكنها ستعود، لا شكَّ لديَّ في ذلك.

إثر ذلك، رفعت طرف ردائها، وهبطت ببطء فوق العشب، وكأنها تنزل بهدوء في بركة ماء. تساقط المطر فوقها بشدَّة، فشدَّت القلنسوة فوق رأسها قبل أن تنطلق بين شجيرات القرَّاص الطويلة. نادى أكسِل عليها:

- انتظري بضع لحظات وسنذهب معك.

لكنه شعر بيد بياترِس فوق ذراعه، وسمعها تهمس في أذنه:

- من الأفضل ألَّا نتدخَّل في أمرها، يا أكسِل. دعها تذهب.

عندما مشى أكسِل إلى البقعة التي هبطت منها العجوز، توقَّع أن يراها في نقطة ما وقد أعاقتها النباتات الملتفَّة ومنعتها من الانطلاق. لكن لم يكن لها الآن من أثر.

قال الملَّاح من خلفه:

- شكرًا، أيُّها الصديقان. لعلَّني في هذا اليوم على الأقل، سأحظى بشيء من الهدوء كي أتذكَّر طفولتي.

ردَّ أكسِل:

- نحن أيضًا سنمضي في طريقنا، أيُّها الملَّاح ، حالما يتوقَّف المطر.

- لا داعي للعجلة، أيُّها الصديقان. نطقتما بالحكمة والإنصاف وأنا أشكركما على ذلك.

راح أكسِل يحدِّق إلى المطر. ثم سمع زوجته تقول من خلفه:

- لا بدَّ من أن هذا المنزل كان فخمًا فيما مضى، أيُّها السيِّد.

- أوه، كان حقًّا كذلك، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة. عندما كنت صبيًّا، لم أكن مدركًا لمدى فخامته، إذ أنه كل ما عرفت. كانت هناك لوحات وكنوز ثمينة، وخدم طيِّبون ماهرون. في تلك المساحة بالضبط كانت قاعة الولائم.

- أنت بالتأكيد تشعر بالأسى لرؤيته وهو في هذه الحالة، أيُّها السيِّد.

- إنني ببساطة، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة، أشعر بالامتنان لأنه ما زال قائمًا ولم يُهدم بالكامل. فهذا المنزل شهد أيَّام حرب، أُحرقت فيها

كثير من المنازل الأخرى وأصبحت الآن أكوامًا تعلوها الحشائش والخلنج.

ثم سمع أكسِل خطوات بياترِس متَّجهة نحوه وشعر بيدها فوق كتفه. سألته بصوت منخفض:

- ماذا هناك يا أكسِل؟ تبدو عليك الحيرة من شيء ما، أستطيع رؤية ذلك؟

- لا شيء يُذكر، يا أميرة. فقط هذا الخراب من حولي هنا. شعرت لوهلة كما لو كنت أنا من يحاول تذكُّر أشياء هنا.

- أي أشياء بالضبط يا أكسِل؟

- لا أدري يا أميرة. عندما يتكلَّم الرجل عن حروب وحرق بيوت، يساورني الشعور بأن شيئًا يكاد يعود إلى ذهني. من الأيَّام التي سبقت معرفتي بك، لا بدَّ من أنها حتمًا كذلك.

- وهل كان هناك زمن قطُّ لم نكن فيه نعرف بعضنا، يا أكسِل؟ أشعر أحيانًا بأننا كنا معًا مذ كنَّا رضيعين.

- يبدو الأمر كذلك بالنسبة لي أنا أيضًا، يا أميرة. إنه بعض الحماقة التي أصابتني في هذا المكان الغريب.

نظرت إليه بتفكُّر، ثم ضغطت على يده، وقالت بصوت منخفض:

- هذا مكان غريب بالفعل وقد يجرُّ علينا وبالًا أكبر من المطر. أرجو أن نتركه يا أكسِل، قبل أن تعود تلك المرأة أو أن يحصل ما هو أسوأ.

أومأ أكسِل برأسه، ثم استدار ونادى على الملَّاح عبر الغرفة:

- حسنًا، أيُّها الملَّاح، يبدو أن السماء بدأت تصحو، لذا سنمضي في طريقنا. شكرًا جزيلًا على السماح لنا باللجوء إلى هنا.

لم يردَّ الملَّاح، لكن أثناء رفع المتاع فوق ظهريهما، اقترب للمساعدة، وقال لدى مناولتهما العكَّازين:

- رحلة موفَّقة، أيُّها الصديقان. أرجو أن تجدا ابنكما في صحَّة وعافية.

شكراه ثانية، وخلال توجُّههما نحو القوس توقَّفت بياترِس فجأة ونظرت إلى الوراء:

- ما دمنا سنتركك، أيُّها السيِّد، وقد لا نلقاك ثانية، لا أدري إن كنت تسمح لي بسؤال صغير.

كان الملَّاح، لدى وقوفه في بقعته جنب الحائط، يراقبها بعناية. فتابعت بياترِس القول:

- تحدَّثت سابقًا، أيُّها السيِّد، عن واجبك في استجواب أي زوجين يريدان عبور الماء. وذكرت الحاجة إلى اكتشاف إن كانت رابطة الحبِّ بينهما تسمح لهما بالعيش معًا في الجزيرة. حسنًا، أيُّها السيِّد، ما يشغل بالي هو هذا، كيف تستجوبهما لتكتشف هذا؟

بدا الملَّاح متردِّدًا لهنيهة، ثم ردَّ قائلًا:

- بصراحة، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة، لا ينبغي لي الخوض في مسألة كهذه. لكن، وللإنصاف، لقاؤنا اليوم لم يكن بتدبير مسبق، بل بمحض صدفة عجيبة وأنا لا آسف عليها. كلاكما كنتما طيِّبين وانحزتما لي، وفي المقابل أنا ممتنٌّ للغاية. لذا سأحاول الإجابة قدر استطاعتي. من واجبي، كما قلت، استجواب كل من يرغب في العبور إلى الجزيرة. ولو كانا زوجين على شاكلة من أشرت إليه، ممَّن يزعمون لأنفسهم رابطة حبٍّ متينة، فحينذاك يجب أن أطلب منهما أن يطلعاني على أعزِّ ذكرياتهما. أطلب من الأوَّل، ثم من الثاني. يجب أن يحدِّثني كل منهما بمعزل عن الآخر. وبهذه الطريقة سرعان ما تنكشف طبيعة رابطتهما الحقيقية.

سألته بياترِس:

- لكن أليس صعبًا، أيُّها السيِّد، أن ترى حقيقة ما تُبطنه قلوب البشر؟ فالمظاهر تخدع بسهولة.

- هذا صحيح، أيتها السيِّدة الطيِّبة، لكننا معشر الملَّاحين مرَّت علينا على مدى السنين أصناف عديدة من الناس، حتى لم نعد نستغرق وقتًا طويلًا في استشفاف ما وراء الخداع والتحايل. فضلًا عن ذلك، عندما يتحدَّث المرتحلون عن أعزِّ ذكرياتهم، يستحيل عليهم إخفاء الحقيقة. قد يزعم زوجان أن ما يربط بينهما هو الحبُّ، لكننا نحن الملَّاحين قد نرى بدل ذلك السخط، والغضب، وحتى الكره، أو المرارة العظيمة. وأحيانًا الخوف من الوحدة لا غير. أما الحبُّ الراسخ الذي يصمد في وجه السنين - فهذا ما لا نراه إلَّا نادرًا. وحينما يحدث ذلك فعلًا، نحمل الزوجين معًا إلى الجزيرة بسرور بالغ. أيَّتها السيِّدة الطيِّبة، حدَّثتك بأكثر مما ينبغي لي.
- وأنا أشكرك على هذا، أيُّها الملَّاح. إنه فقط لإشباع فضول عجوز. سنتركك الآن بسلام.
- رحلة موفَّقة.

***

اقتفيا أثر خطاهما السابقة عبر الممشى، شاقَّين طريقهما فيه بضرب القرَّاص والخنشار. لكن العاصفة جعلت الأرض زلقة تحت أقدامهما، ولهذا، رغم لهفتهما الشديدة للابتعاد عن الفيلا، اضطرَّا إلى السير بخطى وئيدة. وعندما وصلا أخيرًا إلى الطريق الروماني المنحدر، لم يكن المطر قد توقَّف بعد، فاحتميا تحت أوَّل شجرة ضخمة عثرا عليها.

- هل بلغ البللُ اللحمَ يا أميرة؟
- لا تقلق يا أكسِل، قام هذا الرداء بواجبه. ما وضعك أنت؟
- لا شيء تعجز الشمس عن تجفيفه حال عودتها.

أنزلا متاعهما واستندا إلى جذع الشجرة، ملتقطين أنفاسهما. بعد مدَّة، قالت بياترِس بهدوء:

- أكسِل، أشعر بالخوف.
- لماذا، ما الأمر يا أميرة؟ ليس من أذى يمكن أن يصيبك الآن.
- هل تذكر تلك الغريبة ذات الأسمال القاتمة التي رأيتني أتحدَّث معها عند الشوكة العجوز في ذلك اليوم؟ ربما بدت امرأة متجوِّلة مجذوبة، لكن القصَّة التي روتها لي تشبه إلى حدٍّ بعيد قصَّة العجوز التي قابلناها قبل قليل. زوجها أيضًا أُخِذَ منها على يد ملَّاح وتُركت وحيدة عند الشاطئ. وخلال عودتها من الخليج الصغير، وهي تبكي من حرقة الوحدة، وجدت نفسها في طرف وادٍ مرتفع، وحين نظرت أمامها وخلفها، رأت على طول الطريق الطويل أناسًا يبكون مثلها. عندما سمعت هذا لم أخَف إلَّا قليلًا، وقلت في نفسي لا شأن لنا بهذا، يا أكسِل. لكنها مضت في الحديث قائلة كيف أصبحت هذه الأرض ملعونة بضباب من النسيان، وهو ما لاحظناه نحن بأنفسنا وكثيرًا ما علَّقنا عليه. ثم سألتني: كيف يمكنك أنت وزوجك إثبات حبِّكما لبعضكما وأنتما لا تستطيعان تذكُّر الماضي الذي تقاسمتماه معًا؟ ومنذ ذلك الحين وأنا أفكر في هذا الأمر. أحيانًا يحملني التفكير فيه على الخوف بشدَّة.
- لكن ما الذي يحملك على الخوف، يا أميرة؟ فنحن لا ننوي الذهاب إلى جزيرة كتلك، ولا رغبة لنا أصلًا في القيام بذلك.
- حتى وإن كان الأمر كذلك، يا أكسِل. ماذا لو ذبل حبُّنا حتى قبل أن تسنح لنا فرصة التفكير في الذهاب إلى مكان كهذا؟
- ما الذي تقولينه يا أميرة؟ كيف يمكن لحبِّنا أن يذبل؟ أليس هو الآن أشدَّ قوَّة ممَّا كان عليه عندما كنَّا شابَّين غريرين؟
- لكن، يا أكسِل، نحن لا نستطيع تذكُّر تلك الأيَّام، أو أيًّا من السنين فيما بينها. لا نتذكَّر شجاراتنا العنيفة أو لحظاتنا الجميلة الغالية. لا نتذكَّر ابننا أو لماذا هو بعيد عنا.

- نستطيع حمل كل تلك الذكريات على العودة إلينا يا أميرة. علاوة على ذلك، ما أحسُّ به تجاهك في قلبي سيظلُّ تمامًا على حاله، بصرف النظر عمَّا أتذكَّره أو أنساه. ألا تحسِّين بالشيء نفسه يا أميرة؟

- أشعر بذلك، يا أكسِل. لكن حينذاك أتساءل من جديد إن لم يكن ما نشعر به في قلوبنا اليوم هو مثل حبَّات المطر هذه، التي ما زالت تتساقط علينا من أوراق الشجرة المبتلَّة، مع أن السماء نفسها توقَّفت منذ أمد طويل عن المطر. إنني أتساءل إن لم يكن أمام حبِّنا، في ظلِّ غياب ذكرياتنا، من مصير سوى الاضمحلال والموت.

- الربُّ لن يسمح بأمر كهذا، يا أميرة.

قال أكسِل كلماته تلك بصوت مكتوم، كما لو أنه يتمتم بينه وبين في نفسه، إذ أحسَّ حينذاك بانبثاق خوف مجهول في صدره.

تابعت بياترِس:

- يوم تحدَّثت مع الغريبة عند الشوكة العجوز، حذَّرتني من إهدار مزيد من الوقت. قالت علينا أن نبذل ما في وسعنا كي نتذكَّر عشرتنا الطويلة، بحلوها ومرِّها. والآن ذاك الملَّاح، في طريق الخروج، ردَّ عليَّ بالجواب عينه الذي كنت أتوقَّعه وأهابه. كيف الخلاص، يا أكسِل، وحالنا على ما هو عليه؟ لو سألنا شخص مثله عن أعزِّ ذكرياتنا وأغلاها على قلبنا؟ أكسِل، أنا خائفة جدًّا.

- أميرة، ليس هناك ما يستدعي الخوف. ذكرياتنا لم تختفِ إلى الأبد، إنها مفقودة فقط في مكان ما بسبب هذا الضباب اللعين. سنعثر عليها ثانية، واحدة تلو الأخرى إن لزم الأمر. أليس هذا ما انطلقنا لأجله في هذه الرحلة؟ حال أن يقف ابننا أمام أعيننا، ستبدأ الذكريات بالعودة إلينا لا محالة.

- أتمنَّى ذلك. كلمات ذلك الملَّاح جعلتني خائفة تمامًا.
- انسيه يا أميرة. ما الذي نرجوه من زورقه، أو جزيرته في الواقع؟ كما أنك على حقٍّ، توقَّف المطر هناك، وسنكفي أنفسنا شرَّ مزيد من البلل بالخروج من تحت هذه الشجرة. دعينا ننطلق في طريقنا، وكفى حديثًا عن مخاوف كهذه.

الفصل الثالث

كانت قرية الساكسون ستبدو لكم، من مسافة وعلى ارتفاع معين، أقرب إلى «قرية» مقارنة بجُحر أكسِل وبياترِس. أحد أهم أسباب ذلك، هو عدم وجود ذلك الحَفْر في جانب التلّ - ربما لأن الساكسون حسَّاسون للغاية من رهاب العيش داخل الأماكن المغلقة. ولو هبطتم جانب الوادي المنحدر، كما كان حال أكسِل وبياترِس في آخر ذلك النهار، لرأيتم في الأسفل نحو أربعين بيتًا منفصلًا أو يزيد، موزَّعة في بطن الوادي بما يشبه الدائرتين، الواحدة في حضن الأخرى. ولعلَّكم ستكونون على مسافة بعيدة تمنعكم من ملاحظة ما بين تلك البيوت من اختلاف في الحجم والأبَّهة، ولكنكم ستميِّزون أسطحها المحبوكة من القشّ، وحقيقة أنَّ غالبيتها «بيوتٌ دائرية»، وهذا لا يجعلها بعيدة الصلة عن تلك التي نشأ فيها بعضكم أو ربما ذووكم. وإن كان لدى الساكسون الاستعداد للتضحية بقليل من الأمن مقابل التمتُّع بمنافع العيش في الهواء الطلق، فقد كانوا حريصين أيضًا على تعويض ذلك: سور عالٍ من الأعمدة الخشبية المشدودة بإحكام جنبًا إلى جنب، أطرافها مدبَّبة مثل أقلام رصاص عملاقة، كان يحيط بالقرية. وارتفاع هذا السور، في أيِّ نقطة منه، يناهز قامة الرجل بمرَّتين على الأقل، ولتعقيد الوضع أكثر على من يحاول اعتلاءه، حفروا خندقًا عميقًا محيطًا به من الخارج إحاطة السوار بالمعصم.

سيكون ذلك هو المشهد الذي أطلَّ عليه أكسِل وبياترِس لدى وقوفهما لالتقاط أنفاسهما أثناء هبوط التلّ. في تلك اللحظة، كانت الشمس تؤذن بالغياب

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

عن الوادي، وبياترِس، صاحبة البصر الأقوى، تميل بجذعها ثانية إلى الأمام، متقدِّمة أكسِل بخطوة أو اثنتين، والعشب والهندباء من حولها بطول خصرها. قالت:

- أرى أربعة، بل خمسة رجال يحرسون البوَّابة. أعتقد أنهم يحملون رماحًا. عندما كنت هنا برفقة النساء آخر مرَّة، لم يكن هناك سوى حارس واحد مع كلبين.
- هل أنت متأكِّدة من أنهم سيرحِّبون بنا يا أميرة؟
- لا تقلق يا أكسِل، إنهم يعرفونني الآن إلى حدٍّ معقول. كما أن أحد كبار القوم هنا من البريتون، وجميعهم يعتبرونه قائدًا حكيمًا، حتى وإن لم يكن من أبناء جلدتهم. سيتولَّى أمر تدبير سقف آمن لنا في هذه الليلة. مع ذلك، يا أكسِل، أعتقد أن شيئًا ما قد حدث ولا أشعر بالاطمئنان. الآن، ها هو رجل آخر يصل حاملًا رمحًا، وتلك من ورائه مجموعة كلاب شرسة.
- من يستطيع التكهُّن بما يجري بين الساكسون، لعلَّ من الأجدر بنا البحث عن مكان آخر للمبيت.
- سيحلُّ الظلام سريعًا، يا أكسِل، وتلك الحراب لم تُعدَّ لنا. فضلًا عن ذلك، هناك امرأة في هذه القرية أودُّ زيارتها، إنها ماهرة في التطبيب، ولا يدانيها في ذلك أحد في قريتنا.

انتظرها أكسِل للإفصاح عن المزيد، وعندما تابعت مهمَّتها الاستكشافية عن بُعد، سألها:

- وما حاجتك إلى السعي وراء التطبيب يا أميرة؟
- أمر بسيط يتعبني وأشعر به من حين لآخر. هذه المرأة قد تكون على علم بما يخفِّفه عني.
- ما طبيعته يا أميرة؟ أين يتعبك؟
- ليس بأمر ذي بال. لم يخطر في بالي إلَّا لأننا بحاجة إلى المبيت هنا.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- لكن أين موضعه يا أميرة؟ هذا الألم؟

ردَّت من دون أن تستدير نحوه قائلة: «أوه...»، ثم ضغطت يدها فوق جنبها، أسفل القفص الصدري مباشرة. ضحكت بعدها وقالت:

- أمر لا يستحقُّ الذكر. فهو، وكما رأيت، لم يبطئني اليوم خلال السير إلى هنا.

- لم يبطئك ولو خطوة واحدة، يا أميرة، بل إنني أنا من كان يطالب بالوقوف لنيل الراحة.

- هذا ما قصدته يا أكسِل. لذا فإنه لا يستحقُّ منك القلق.

- لم يبطئك أبدًا. بل، في الواقع، ما تتمتَّعين به من لياقة يعادل ما تتمتَّع به أي امرأة لها من العمر نصف سنوات عمرك. مع ذلك، إن كان هناك أحد يستطيع تخفيف ما تشعرين به من ألم، فما الضير في زيارته؟

- هذا بالضبط ما قلته يا أكسِل. أحضرت بعض القطع القصديرية لأقايضها بالدواء.

- من يريد أوجاعًا خفيفة كتلك؟ نحن جميعًا نعانيها، وبودِّنا التخلُّص منها لو استطعنا. بالطبع، لنذهب إلى تلك المرأة ما دامت هنا، وإذا سمح لنا هؤلاء الحرس بالعبور.

كان الظلام على وشك الهبوط عندما عبرا الجسر فوق الخندق المائيِّ، والمشاعل على جانبي البوَّابة موقدة. ورغم ما كان يتمتَّع به الحرس من أجسام ضخمة وبنية متينة، إلَّا أن الذعر أطلَّ من وجوههم لدى اقترابهما. همست بياترِس لأكسِل:

- انتظر لحظة، سأذهب بمفردي كي أكلِّمهم.

- لا تقتربي من رماحهم يا أميرة. يبدو على الكلاب الهدوء، لكن هؤلاء الساكسون يبدون حمقى لما يظهر عليهم من خوف.

- إن كنت أنت يا أكسِل مصدر خوفهم، مجرد عجوز مثلك، فلن يتطلَّب مني أمر حملهم على اكتشاف خطئهم الفظيع هذا وقتًا طويلًا.

سارت نحو الحرس بجرأة وإقدام. تجمَّع الرجال حولها، وأثناء حديثها إليهم قذفوا أكسِل بنظرات خاطفة متشكِّكة. ثم نادى عليه أحدهم، بلسان ساكسوني، كي يقف تحت ضوء المشاعل، ربما ليتأكَّدوا من أنه لم يكن شابًّا متخفِّيًا. وبعد مدَّة من تبادل الحديث مع بياترِس سمح الحرس لهما بالعبور.

أصيب أكسِل بالحيرة، فكيف لقرية بدت بيوتها مرتَّبة في حلقتين عن بُعد أن تتحوَّل الآن عند سيرهما في أزقَّتها الضيِّقة إلى متاهة عشوائية؟ أجل، كان ضوء النهار يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه أثناء تتبُّعه لبياترِس، لم يفلح في تبيُّن أي منطق يحكم تقسيم المكان وتنظيمه. تظهر المباني فجأة ومن دون سابق إنذار، سادَّة طريقهما ومرغمة إيَّاهما على سلوك أزقَّة جانبية مربكة. كانا مجبرين، فوق ذلك، على السير بحذر أكبر من سيرهما في العراء: لم تكن الطرق مليئة بالحفر والبرك جراء العاصفة السابقة فقط، بل يبدو أيضًا أن الساكسون يعتبرون إلقاء كل ما هبَّ ودبَّ في الطريق أمرًا مقبولًا، حتى قطع الأنقاض. لكن أكثر ما أشكل على أكسِل تلك الرائحة التي اشتدَّت وبهتت على طول الطريق، ولكنها لم تتبدَّد أبدًا. مثل سائر أبناء ذلك الزمن، كان متصالحًا للغاية مع روائح البراز، إنْ لبشر أو حيوان، لكن تلك كانت أفظع بكثير. ثم ما لبث أن حدَّد مصدرها: في سائر أنحاء القرية ترك الأهالي أمام بيوتهم أو على جنبات الطرق، أكوامًا من اللحوم المتعفِّنة قرابين لآلهتهم المتعدِّدة. وفي موضع ما، بُوغت بغارة أعنف على أنفه، كان أكسِل قد استدار فرأى، من الحافَّة البارزة لسطح كوخ، جسمًا متدلِّيًا قاتمًا تغيَّر شكله أمام ناظريه لحظة تفرُّق مستوطنة كاملة من الذباب المعشعش فوقه. وبعد لحظات صادفا في الطريق خنزيرًا تجرجره من أذنيه كومة أطفال؛ كلابًا، وبقرًا وحميرًا سارحة من دون رقيب. أمَّا القلائل ممن صادفاهم من أهل القرية فإمَّا حملقوا فيهما بصمت، أو اختفوا سريعًا خلف باب أو نافذة. همست بياترِس أثناء سيرهما قائلة:

- ثمَّة أمر غريب يجري هذه الليلة. في العادة يكونون جلوسًا أمام أكواخهم، أو ربما في حلقات متضاحكين متسامرين. كما ينبغي أن

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

يجري الأطفال خلفنا طارحين مئة سؤال وهم يتردَّدون بين أن يطلقوا ألسنتهم علينا بالشتائم أم يعتبرونا من الأصدقاء. كل شيء يسير على نحو مريب وهذا لا يُشعرني بالاطمئنان.

- هل ضللنا الطريق، يا أميرة، أم ما زلنا متَّجهين صوب المكان الذي سيستضيفوننا فيه؟
- فكَّرت في المرور أوَّلًا على بيت المرأة للعلاج. لكن بما أن الأمور من حولنا على ما هي عليه، لعلَّ من الأفضل أن نتَّجه مباشرة إلى البيت الطويل القديم والابتعاد عن الأذى.
- هل نحن بعيدان عن بيت تلك المرأة؟
- على ما أذكر، لم يعد بعيدًا أبدًا الآن.
- إذًا دعينا نرى إن كانت هناك. حتى وإن كان ألمك تافهًا، كما نعلم، ليس من الحكمة تركه من دون علاج إن كان يمكن تخليصك منه.
- يمكنه الانتظار إلى الصباح يا أكسِل. إنه ألم لا ألاحظه إلَّا عندما نتحدَّث عنه.
- حتى إن كان كذلك، يا أميرة، ما دمنا هنا الآن، فلمَ لا تذهبين لرؤية هذه الحكيمة؟
- سنفعل هذا إن كنت راغبًا فيه على وجه التحديد، يا أكسِل. مع أني لا أمانع أبدًا في تركه حتى الصباح، أو ربما إلى حين مرورنا ثانية بهذا المكان.

خلال حديثهما، دلفا من زاوية إلى فسحة بدت كساحة للقرية. كانت في وسطها نيران عظيمة، وحولها من جميع الجهات المضاءة بوهجها، حشد غفير من الناس. ساكسون من جميع الأعمار، حتى أطفال رضَّع بين أذرع ذويهم، وأوَّل خاطر داهم أكسِل أنهما صادفا احتفالًا وثنيًا. لكن عند توقُّفهما للتمعُّن فيما قابلهما من مشهد، لاحظ أنه لم يكن هناك بؤرة تستقطب انتباه الحشد. وكان ما استطاع رؤيته من وجوهٍ متجهِّمًا، وربما وجِلًا. أما الأصوات فخافتة،

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

ومجموعها يعلو في الهواء كغمغمة قلقة. نبح كلب على أكسِل وبياترِس، فطردته ولاحقته على الفور أخيلة بشر. أما من انتبه للضيفين من الحشد فحدَّق إليهما بنظرات فارغة قبل فقدان الاهتمام بهما. حينذاك قالت بياترِس:

- من يدري بما يقلقهم هنا يا أكسِل. كنت سأمضي في حالي لولا أن بيت الحكيمة في مكان ما هنا. دعني كي أرى إن كان ما زال بوسعي العثور عليه.

أثناء توجُّههما نحو صفٍّ من الأكواخ إلى يمينهما، تنبَّها لوجود أعداد أكبر من الناس في الظلّ، عاكفين بصمت على مراقبة الحشد المتجمهر حول النيران. توقَّفت بياترِس كي تتحدَّث إلى أحدهم، امرأة واقفة أمام باب بيتها، وبعد هنيهة أدرك أكسِل بأن هذه لم تكن سوى الحكيمة بعينها. لم يتمكَّن من رؤيتها جيِّدًا وسط العتمة، لكنه ميَّز هيئة منتصبة الظهر لامرأة طويلة، لعلَّها في منتصف العمر، متدثِّرة بشال أحكمت جذبه حول كتفيها وذراعيها. انخرطت هي وبياترِس في الحديث بصوت منخفض، ملقيتين بنظرات خاطفة نحو الحشد تارة، وصوب أكسِل تارة أخرى. وفي النهاية، أشارت المرأة لهما بالدخول إلى كوخها، لكن بياترِس، وبعد أن اقتربت منه، قالت برقَّة:

- دعني أكلِّمها بمفردي يا أكسِل. ساعدني على إنزال متاعي عن ظهري وانتظرني هنا.

- ألا يمكن لي أن أرافقك، يا أميرة، مع أني لا أفقه هذا اللسان الساكسوني؟

- هذه شؤون نسائية يا زوجي. دعني أكلِّمها على انفراد، كما أنها تقول إنها ستفحص جسدي العجوز بدقَّة.

- أعتذر منك، يا أميرة، لم أفكِّر في الأمر بعمق. دعيني آخذ متاعك وسأنتظرك هنا قدر ما تشائين.

بعد ذهاب المرأتين إلى الداخل، شعر أكسِل بإرهاق عظيم، تحديدًا في كتفيه ورجليه. متخفِّفًا من حمله، استند إلى الحائط العشبي خلفه وحملق

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

في الحشد. كان هناك تململ متزايد الآن: مجموعة تنبثق من العتمة المحيطة به وتغذُّ السير نحو الحشد، وآخرون يدبِرون مهرولين ثم يكرُّون راجعين بعد لحظة. أضاء وهج النيران بعض الوجوه بحدَّة، وترك أخرى غارقة في الأخيلة، لكن بعد مدَّة، خلص أكسِل إلى أن هؤلاء الناس كانوا يترقَّبون، وهم في حالة من القلق، خروج شخص أو شيء من القاعة الخشبية إلى يسار النيران. هذا البناء، ولعلَّه مكان اجتماع للساكسون، لا بدَّ من أن فيه نارًا خاصة به، إذ كانت شبابيكه تتراقص بين العتمة والضوء.

كان على وشك الإغفاء، وظهره إلى الحائط، وأصوات بياترِس والحكيمة المكتومة من خلفه، عندما هاج الحشد وماج، مطلقًا زمجرة جماعية خافتة. خرج في تلك اللحظة العديد من الرجال من القاعة الخشبية متَّجهين صوب النيران. شقَّ الحشد لهم الطريق وصمت لأجلهم، كما لو ترقُّبًا لإعلان ما، لكن لم يحدث هذا، وسرعان ما تدافع الناس حول القادمين الجدد، وأصواتهم في تصاعد من جديد. لاحظ أكسِل أن جلَّ التركيز انصبَّ على الرجل الذي كان آخر الخارجين من القاعة. لعلَّه لم يتجاوز الثلاثين من العمر لكنه ذو هيبة عفوية طبيعية. ورغم ما في ملبسه من بساطة، مثل فلَّاح عاديٍّ، لم يبدُ مثل أي شخص آخر في القرية. لا لأنه كان يردُّ طرف ردائه فوق كتفه فقط، كاشفًا عن حزامه وقبضة سيفه، أو لأن شعره كان ببساطة أطول من شعر أيِّ رجل من أهل القرية - واصلًا إلى ما دون كتفيه بقليل ومربوطًا بعصابة منعته من التناثر فوق العينين - في الواقع، كان الخاطر الحقيقي الذي داهم أكسِل هو أن هذا الرجل ربط شعره لمنعه من تشويش بصره **خلال قتال**. وقد جال هذا الخاطر في ذهن أكسِل بصورة تلقائية طبيعية للغاية، ولم يباغت به إلَّا عند تفكُّره فيه، إذ أنه كان ينطوي على عنصر من عناصر الإدراك والتميز. علاوة على هذا، عندما اتجه الغريب صوب الحشد بخطى واسعة، تاركًا يده تهبط فوق مقبض السيف، أحسَّ أكسِل، على نحو ملموس للغاية، بما تولِّده حركة كتلك من خليط فارق يجمع بين الطمأنينة والإثارة والخوف في آن واحد. قائلًا في نفسه إنه سيعاود النظر في

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

هذه الأحاسيس المثيرة للفضول لاحقًا، أوصد باب التفكير عليها وصبَّ تركيزه على ما يجري أمامه.

إنَّ وقفة الرجل وحركاته هي ما جعلته فارقًا عن سائر من هم حوله. «مهما حاول إيهام الآخرين بأنه ساكسوني عادي»، تمتم أكسِل في نفسه، «لكن هذا الرجل ما هو إلَّا **محارب**». وربما أحد القادرين على إنزال بطش ودمار هائلين إن شاء.

كان يحوم من خلف هذا المحارب اثنان من الرجال الذين خرجوا من القاعة، وكلما جنح المحارب نحو الحشد، بذل الرجلان أقصى الجهد في البقاء بقربه، مثل طفلين مذعورين من مغبَّة ترك والدهما لهما. كانا، وكلاهما شابٌّ، يتمنطقان أيضًا بسيفين، علاوة على حملهما لرمحين، لكن كان واضحًا تمامًا أنهما غير معتادين على أسلحة كتلك. كانا، فوق هذا، متشنِّجين من الخوف وظهرا عاجزين عن الاستجابة لما بذله لهما أهل قريتهما من عبارات التشجيع. وكلَّما ربَّتت الأيدي على كتفيهما أو مسحت ظهريهما قابلاها بنظرات زائغة.

قال صوت بياترِس قريبًا من أذنه:

- صاحب الشعر الطويل غريب وصل قبلنا بساعة أو اثنتين فقط. ساكسوني، لكنه من بلد بعيد. الـفَنلاند[1] إلى الشرق من هنا، حسب قوله، حيث كان مؤخَّرًا يقاتل الغزاة الآتين من البحر.

شعر أكسِل منذ مدَّة بأن صوت المرأتين أصبح أكثر وضوحًا، وعندما استدار، رأى أن بياترِس ومضيفتها قد خرجتا من البيت ووقفتا عند العتبة من خلفه مباشرة. تكلَّمت الحكيمة الآن لبعض الوقت، بصوت منخفض، وبلسان ساكسوني، وإثر انتهائها قالت بياترِس في أذنه:

- فيما يبدو عاد أحد رجال القرية خلال النهار مقطوع الأنفاس ومصابًا

(1) سهول فسيحة في شرق بريطانيا، أراضٍ سبخية ومغطاة بالمستنقعات، وهي من أولى المناطق التي وصلها الساكسون من البحر واستوطنوها منذ القرن الخامس الميلادي.

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

في الكتف، وبعد أن هدَّأ الجميع من روعه، قصَّ عليهم كيف انطلق مع شقيقه وابنه، الغلام ذي الأحد عشر ربيعًا، لصيد السمك في بقعتهم المعهودة عند النهر فهاجمهم غولان. غير أن هذين، بالنسبة للرجل المصاب، لم يكونا غولين عاديين، بل كانا أكثر وحشية ورشاقة وأعظم دهاء من أي غول رآه في حياته. العفريتان الأمردان - إذ هكذا بات أهل هذه القرية يشيران إليهما الآن - قتلا شقيقه على الفور واختطفا الصبي، وهو حيٌّ يرزق ويقاوم بعنف. لم يتمكَّن الرجل الجريح نفسه من النجاة إلَّا بعد مطاردة طويلة على طول النهر، وخلال ذلك، كانت زمجرتهما البغيضة تقترب من خلفه شيئًا فشيئًا، لكنه تمكَّن في النهاية من التغلُّب عليهما في العدْو. ذاك سيكون هو، يا أكسِل، صاحب الجبيرة فوق الكتف، من يتحدَّث مع الغريب. رغم إصابته، بلغ قلقه على ابن أخيه حدَّ قيادة فريق من أشدِّ رجال هذه القرية والعودة إلى تلك البقعة، وحينئذ أبصروا دخانًا متصاعدًا من نار عند ضفَّة النهر، وأثناء تسلُّلهم بهدوء نحوها، وأسلحتهم جاهزة للقتال، انشقَّت الشجيرات وتبيَّن أن العفريتين الأمردين قد نصبا كمينًا. قالت الحكيمة إن ثلاثة قُتلوا حتى قبل أن يتسنَّى للآخرين التفكير في الفرار، ورغم عودة هؤلاء سالمين، إلَّا أن معظمهم الآن يرتجفون ويتمتمون لأنفسهم في الفراش، عاجزين عن الخروج لتوديع هؤلاء الرجال الشجعان الذين يتهيَّؤون الآن للخروج، غير عابئين بالظلام الذي سيخيِّم أو بالضباب الذي سيهبط، لفعل ما لم يتمكَّن اثنا عشر رجلًا قويًّا من فعله في وضح النهار.

- هل يعرفون إن كان الغلام على قيد الحياة؟
- إنهم لا يعرفون شيئًا، لكنهم مع ذلك سينطلقون إلى النهر. بعد عودة الفريق الأوَّل وما لقيه من رعب، ورغم كل ما أطلقه كبار القوم من مناشدة، لم يكن هناك رجل واحد يتحلَّى بما يكفي من الشجاعة

للانضمام إلى حملة بحث جديدة. إثر ذلك، شاءت الصدف أن يصل هذا الغريب إلى القرية بحثًا عن مأوى بعد إصابة حافر حصانه. ومع أنه لم يسمع قبل هذا اليوم بأي شيء عن هذا الغلام أو عائلته، أعلن عن استعداده لمساعدة القرية. سيرافقه أيضًا هذان الرجلان، وهما من أعمام الغلام، لكن ممَّا يستشفُ من منظرهما، سيكونان على الأغلب عِبئًا على المحارب لا عونًا له. انظر، يا أكسِل، إنهما مسكونان بالخوف.

- أرى ذلك بوضوح، يا أميرة. لكنهما، مع ذلك، شجاعان، لعزمهما على الخروج رغم ما ينتابهما من خوف عظيم. اخترنا ليلة مشؤومة لنحلَّ ضيوفًا على هذه القرية. ثمَّة عويل الآن في مكان ما، وربما سيكون هناك الكثير منه قبل انقضاء هذه الليلة.

بدت الحكيمة وكأنها فهمت شيئًا ممَّا قاله أكسِل، إذ تكلَّمت ثانية، بلسان قومها، وبعدئذ قالت بياترِس:

- تقول إن علينا التوجُّه فورًا إلى البيت الطويل وألَّا نخرج منه حتى الصباح. وإن شئنا التجوُّل في القرية، تقول إنها لا تدري طبيعة الترحيب الذي قد يكون من نصيبنا في ليلة كهذه.

- تمامًا حسبما أفكِّر، يا أميرة. دعينا إذًا نعمل بنصيحة هذه السيِّدة الطيِّبة، إن كان ما زال بوسعك تذكُّر الطريق.

لكن في تلك اللحظة بالضبط، صدر من الحشد ضجيج فجائي، ثم تحوَّل الضجيج هتافًا، وتململ الحشد ثانية في مكانه، كما لو كان يتدافع لتغيير شكله. ثم بدأ بالتحرُّك، والمحارب ورفيقاه قرب بؤرته. علت الأصوات بابتهال خافت، وبعد هنيهة انضمَّت إليه أصوات المراقبين في الظلِّ - بما فيهم الحكيمة. أقبل الموكب صوبهم، ومع أن وهج النيران أصبح من ورائه، إلَّا أن العديد من المشاعل كانت تتحرَّك في داخله، ولذا استطاع أكسِل أن يلمح الوجوه، بعضها خائف، وبعضها متحفِّز. وكلما أنار مشعل وجه المحارب، كانت ملامحه تبدو

هادئة، متلفِّتًا يمنة ويسرة استجابة لعبارات التشجيع، ويده من جديد فوق مقبض سيفه. تجاوز الموكب أكسِل وبياترِس، ومضى بين صفٍّ من الأكواخ ثم غاب عن البصر، لكن هتافه الخافت ظلّ مسموعًا لبعض الوقت.

ربما بسبب ما ساد الأجواء من هيبة، لم يتحرَّك أكسِل وبياترِس لبعض الوقت. ثم بدأت بياترِس في سؤال الحكيمة عن الطريق الأمثل لبلوغ البيت الطويل، ثم شعر أكسِل إن المرأتين سرعان ما بدأتا تناقشان الاتجاهات إلى جهة أخرى مغايرة، إذ راحتا تشيران بعيدًا نحو التلال المطلَّة على القرية.

انطلقا أخيرًا نحو مكان المبيت حين أطبق الهدوء على القرية. كان الاهتداء إلى الطريق وسط الظلام أصعب من ذي قبل، أما المشاعل القليلة المتناثرة في بعض الزوايا فبدا أنها لم تسهم إلَّا في زيادة التشوُّش بما تصنعه من أخيلة. كانا يتقدَّمان في الاتجاه المعاكس الذي مضى فيه الحشد، والبيوت التي مرَّا بها مظلمة ومن دون أي علامات واضحة للحياة. همس أكسِل:

- امشي على مهل يا أميرة. إن تعثَّر أحدنا وهوى أرضًا، لست متأكِّدًا من أن أي شخص سيأتي لنجدتنا.
- أكسِل، أعتقد أننا أضعنا طريقنا ثانية. دعنا نعُد إلى آخر زاوية وسأكون متأكِّدة هذه المرَّة من الاهتداء إليها.

استقام الطريق مع الوقت ووجدا نفسيهما يسيران بمحاذاة سور القرية الذي شاهداه من فوق التلِّ. حامت من فوقهما أعمدته المدبَّبة مثل شبح أشد اسودادًا من السماء المظلمة، وأثناء مشيهما، تمكَّن أكسِل من سماع غمغمة في مكان ما من فوقهما. ثم تبيَّن له أنهما لم يعودا وحيدين: بعيدًا في الأعلى على طول شرفات الحراسة، الموزَّعة بانتظام، كانت هناك هيئات أدرك أنها لأشخاص يحدِّقون إلى البرِّية خارج السور. وما إن أطلع بياترِس على هذه المعلومة، حتى سمع خطوات متعاظمة من خلفهما. غذَّا السير، لكن كان ثمَّة مشعل يتحرَّك الآن في الجوار والأخيلة تتأرجح بسرعة من أمامهما. ظنَّ أكسِل لوهلة بأنهما يصادفان جماعة من أهل القرية مقبلة صوبهما، لكنه انتبه بعدها إلى أنه وبياترِس

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

كانا مطوَّقين من كافَّة الاتجاهات. رجال من الساكسون بأعمار وأحجام متباينة، بعضهم حمل رماحًا، والآخرون فؤوسًا، ومناجل وما شاكل، كانوا يتدافعون بالمناكب من حولهما. كلَّمتهما العديد من الأصوات دفعة واحدة، وبدا أن سيل القادمين لا ينقطع. أحسَّ أكسِل بحرارة المشاعل المقحمة في وجهيهما، وبعد أن جذب بياترِس قريبًا منه، حاول ببصره تمييز قائد المجموعة، لكنه لم يستطع العثور على شخص بتلك الصفة. كلُّ وجه، فوق هذا، كان ممتلئًا بالذعر، فأدرك أن أي حركة طائشة قد تؤدِّي إلى كارثة. سحب بياترِس بعيدًا عن شابٍّ متوحِّش النظرات يرفع سكِّينًا مرتجفة في الهواء، ونقَّب في ذاكرته عن بعض العبارات الساكسونية. ولمَّا لم يسعفه ذهنه بشيء، لجأ إلى إصدار أصوات مهدِّئة، مثل ما قد يصنعه أمام حصان جامح.

همست بياترِس:

- كفَّ عن ذلك يا أكسِل. لن يشكروك على الترنُّم بأغنيات المهد.

كلَّمت أحدهم، ثم آخر، بلسان الساكسون، لكن المزاج لم يتحسَّن. اندلعت مشادَّات صارخة، واخترق الجموع كلب يتفلَّت من حبل، للنباح عليهما.

وعلى حين غرَّة، بدت الأجسام المتشنِّجة من حولهما وكأنها ارتخت دفعة واحدة. خفتت أصواتهم حتى لم يعد هناك سوى ذاك الصوت، صارخًا بغضب، من مكان ما على مسافة قصيرة. اقترب الصوت فانشقَّ الجمع مفسحًا لرجل قصير، غليظ الجسم، وممسوخ الهيئة. جرجر رجليه إلى بقعة الضوء متَّكئًا على عصا غليظة.

كان طاعنًا في السنِّ، ومع أن ظهره مستقيم نسبيًّا، إلَّا أن عنقه ورأسه كانا ناتئين من كتفيه بزاوية بشعة. رغم ذلك، بدا الجميع خاضعًا لسلطته - الكلب أيضًا توقَّف عن النباح واختفى بين الأخيلة. ورغم علمه المحدود بلسان الساكسون، تمكَّن أكسِل من التقاط أن غضب الرجل المسخ في جزء منه فقط كان بسبب معاملة أهل القرية للغرباء: كانوا يُوبَّخون على ترك نقاط الحراسة، والوجوه المرئية تحت ضوء المشعل، أصبحت كمدة، وإن امتلأت

أيضًا بالتشوُّش. ولمَّا ارتفع صوت العجوز إلى مستوى جديد من الغضب، بدا على الرجال تذكُّر شيء ما ببطء، ثم انسلَّ الواحد منهم تلو الآخر إلى العتمة من جديد. لكن حتى بعد أن ذهب آخرِهم، وعلت أصوات أقدامهم المتسلِّقة السلالم، واصل الرجل المسخ إمطارهم بوابل من الشتائم.

وأخيرًا استدار نحو أكسِل وبياترِس، وبعد أن تحوَّل إلى لسانهم، قال من دون أي عجمة:

- كيف يتسنَّى لهم نسيان حتى أمر كهذا، ولم تمضِ بعدُ مدَّة تُذكر على رؤيتهم ذهاب المحارب مع اثنين من أبناء عمومتهم للإقدام على ما لم يجد أي أحد منهم الشجاعة لفعله؟ هل الخزي هو ما يجعل ذاكرتهم بهذه الهشاشة أم أنه الخوف ببساطة؟

ردَّت عليه بياترِس:

- استحوذ عليهم الذعر بالكامل، يا آيفور، ولو سقط الآن عنكبوت بقربهم لمزَّقوا بعضهم إربًا. إنه وفد يستحقُّ الرثاء هذا الذي أرسلته لاستقبالنا.

- أعتذر لكِ، سيِّدة بياترِس. ولك أيضًا، أيُّها السيِّد. ليس بالترحيب الذي كنتما ستحظيان به هنا في العادة، لكن كما تريان، وصلتما في ليلة متخمة بالرعب.

ردَّت بياترِس:

- ضللنا الطريق إلى البيت الطويل، يا آيفور، وسنكون في غاية الامتنان إن أرشدتنا إليه. بعد ذلك الترحيب تحديدًا، أتلهَّف أنا وزوجي على المكوث في الداخل ونيل قسط من الراحة.

- كم أودُّ القول إنكما ستحظيان بالترحيب في البيت الطويل، أيُّها الصديقان، لكن في مثل هذه الليلة لا أستطيع تقدير ما قد يراه جيراني فعلًا لائقًا. سأكون مرتاحًا أكثر لو قبلتِ أنتِ وزوجِك الكريم قضاء الليلة تحت سقفي، حيث سأكون مطمئنًّا أن ما من أحد سيزعجكما.

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

شارك أكسِل في الحديث قائلًا:

- نقبل عرضك الكريم بامتنان، أيُّها السيِّد. فأنا وزوجتي بأمسِّ الحاجة إلى الراحة.

- إذًا اتبعاني أيُّها الصديقان. ابقيا قريبين مني واخفضا صوتيكما حتى نصل.

تبعا آيفور تحت جنح الظلام حتى وصلا بيتًا، ومع أنه كان مشابهًا لغيره في البناء، إلَّا أنه أضخم حجمًا ومنفصل عن بقيَّة البيوت. وعندما عبرا من أسفل القوس الواطئ، كان الهواء مثقلًا بدخان الحطب، ورغم ما سبَّبه لصدر أكسِل من ضيق، إلَّا أنه يُشعر بالدفء والترحيب. في وسط الغرفة، نار هامدة، محاطة ببُسط مغزولة، وفرو حيوانات وأثاث منحوت من خشب البلُّوط والدردار. وفيما انهمك أكسِل في إخراج البطَّانيات من متاعهما، تهالكت بياترِس بتلذُّذ فوق كرسيٍّ هزَّاز. آيفور، مع ذلك، بقي واقفًا قرب المدخل، وفوق وجهه نظرة ساهمة. ثم قال:

- كلَّما جاء في بالي ما لقيتماه توًّا من معاملة، ترتعد فرائصي خزيًا وعارًا.

ردَّ أكسِل:

- أرجوك، دعنا لا نفكِّر ثانية في هذا، أيُّها السيِّد. ما أسبغته علينا من كرم يفوق ما نستحقُّه في الواقع. كما أننا وصلنا هذا المساء في وقت شهدنا فيه بأنفسنا انطلاق الرجال الشجعان في مهمَّتهم الخطيرة. ولذا نحن نتفهَّم تمامًا ما يعمُّ الأجواء من ذعر، ولا غرو والحال كذلك أن يتصرَّف البعض بحماقة.

- إن كنتما، وأنتما من الغرباء، تتذكَّران جيِّدًا ما حلَّ بنا من مصيبة، فكيف ينساها هؤلاء الحمقى بتلك السرعة؟ لقد قيل لهم وبكلام يفهمه حتى الصغار أن يرابطوا فوق السور، وألَّا يتركوا مواقعهم مهما حدث، فسلامة القرية بأكملها معتمدة على ذلك، ناهيك عن الحاجة إلى مساعدة أبطالنا في حال قدومهم ركضًا صوب البوَّابة والوحوش

تطاردهم. فماذا صنعوا؟ يمرُّ غريبان بقربهم، ومن دون أن يتذكَّروا شيئًا من الأوامر أو حتى الأسباب التي استدعتها، ينقضُّون عليكما مثل الذئاب المسعورة. كنت لأشكَّ في حواسي نفسها لولا أن حالة النسيان الغريبة هذه كثيرًا ما لُمِست من قبل في هذا المكان.

رد أكسِل:

- الأمر على المنوال ذاته في بلدنا، أيُّها السيِّد. شهدت أنا وزوجتي كثيرًا من حالات النسيان هذه بين جيراننا.

- هذا أمر مثير حقًّا، أيُّها السيِّد. إذ كنت أخشى أن هذا نوع من الطاعون تفشَّى في بلدنا نحن فقط. ولطالما تساءلت: هل لأني عجوز، أم لأني بريتونيٌّ أعيش هنا بين الساكسون، غالبًا ما أكون الوحيد الذي يظلُّ متشبِّثًا بذكرى ما، بينما كل من هم حولي قد تركوها تفلت من قبضتهم؟

- خَبِرنا هذه الحالة تمامًا، أيُّها السيِّد. فرغم معاناتنا إلى حدٍّ كافٍ من الضباب - إذ هذا ما تعارفنا أنا وزوجتي على وصف هذه الحالة به - إلَّا أنَّ تأثُّرنا به فيما يبدو أقل ممن يصغرنا سنًّا. هل ترى من تفسير لذلك، أيُّها السيِّد؟

- سمعت العديد ممَّا قيل بهذا الشأن، أيُّها الصديق، على أن أغلبه لا يعدو أن يكون خرافات ساكسونية. لكن، في الشتاء الماضي مرَّ غريب من هنا لديه ما قاله بهذا الشأن، وكلما فكَّرت فيما ذكره أجدني أمنحه مصداقية أكبر. والآن، ما هذا؟

آيفور، الذي ظلَّ واقفًا قرب الباب وعصاه في يده، استدار بخفَّة مدهشة لمن هو مشوَّه الجسم مثله. ثم قال:

- اعذرا مضيفكما، أيُّها الصديقان. قد يكون سبب هذه الضجَّة هو عودة رجالنا الشجعان. من الأفضل خلال غيابي أن تبقيا هنا بعيدًا عن الأنظار.

ما إن خرج آيفور حتى ظلَّ أكسِل وبياترِس صامتَين لبعض الوقت، أعينهما مغلقة، وهما، كل في مقعده على حدة، ممتنَّان لفرصة نيل قسط من الراحة. ثم تكلَّمت بياترِس بهدوء:

- ماذا تظنُّ، يا أكسِل، أن آيفور كان على وشك القول قبل قليل؟
- بشأن ماذا يا أميرة؟
- كان يتكلَّم عن الضباب والسبب من ورائه.
- إشاعة سمعها ذات مرَّة. دعينا، بالطبع، نطلب منه فيما بعد أن يحدِّثنا عن تفاصيلها. رجل مثير للإعجاب. هل عاش دائمًا بين الساكسون؟
- منذ زواجه بساكسونية قبل زمن طويل، هكذا قيل لي. لكني لم أسمع قطُّ عمَّا حلَّ بها. أكسِل، ألن يكون رائعًا لو عرفنا ما الذي يسبِّب الضباب؟
- سيكون هذا رائعًا بالفعل. أمَّا الفائدة التي ترجى من ذلك، فهي ما أجهله.
- كيف يمكنك أن تقول هذا، يا أكسِل؟ كيف يمكنك أن تتلفَّظ بأمر يخلو من الرحمة والشفقة إلى هذا الحدِّ؟

اعتدل أكسِل في مقعده ونظر إلى زوجته قائلًا:

- ماذا جرى يا أميرة؟ ما الأمر؟ لم أقصد بقولي هذا سوى أن معرفة سببه لن تجعله يختفي، لا هنا ولا في بلدنا نحن.
- لو كان هناك من سبيل حتى لفهم الضباب، فمن الممكن أن يكون ذلك فارقًا بالنسبة لنا. كيف يمكنك الحديث عنه بنبرة في غاية الاستخفاف، يا أكسِل؟
- أعتذر يا أميرة، لم أقصد ذلك. كان ذهني منشغلًا في أمور أخرى.
- كيف يسعك التفكير في أمور أخرى، بعد ما سمعناه اليوم فقط من الملَّاح؟
- أمور أخرى، يا أميرة، من قبيل إن كان هؤلاء الشجعان قد عادوا ومعهم الغلام سالمًا. أو إن كانت هذه القرية بحرَّاسها المذعورين وبوَّابتها

المهلهلة ستتعرَّض الليلة لهجوم عفاريت مردة راغبة في الانتقام جرَّاء ما نالها من اهتمام وقح. هناك الكثير مما يمكن للذهن أن ينصرف إليه، لا عليك من الضباب أو ترهات ملَّاحين غرباء.

- ليس هناك ما يستدعي الفظاظة، يا أكسِل. لم أرغب قطُّ في افتعال شجار بيننا.

- سامحيني يا أميرة. لا بدَّ من أن المزاج العام في هذا المكان يؤثِّر فيَّ.

لكن بياترِس كانت على وشك البكاء، وتمتمت بصوت مكتوم:

- ليس من داعٍ للفظاظة.

نهض أكسِل متَّجهًا نحو كرسيِّها الهزَّاز ثم انحنى وضمَّها إلى صدره:

- آسف يا أميرة. سنتكلَّم قطعًا مع آيفور بشأن الضباب قبل أن نترك هذا المكان.

وبعد لحظة، واصلا خلالها العناق، قال أكسِل:

- بصراحة، يا أميرة، كان بالي منشغلًا بشيء محدَّد.

- ماذا كان يا أكسِل؟

- كنت أسأل نفسي عمَّا قالته الحكيمة لك بشأن الوجع.

- قالت إنه لا شيء سوى ما يُتوقَّع من تعاقب السنين.

- تمامًا حسبما قلت دائمًا يا أميرة. ألم أقل لك إنه ليس من داعٍ للقلق؟

- لم أكن أنا القلقة، يا زوجي. بل أنت من أصرَّ على ذهابنا الليلة لرؤية الحكيمة.

- وحسنًا فعلنا، إذ لن يكون هناك الآن ما يستدعي القلق بشأن وجعك، هذا إن كنَّا أصلًا قد فعلنا ذلك من قبل.

أطلقت نفَسَها برفق من صدرها وتركت كرسيَّها يميل إلى الوراء، ثم قالت:

- أكسِل، ذكرت الحكيمة راهبًا عجوزًا تقول إنه أكثر حكمة منها. ساعد الكثيرين من أبناء هذه القرية، راهبًا يدعى جوناس. ديره على مسيرة يوم من هنا، في أعلى طريق الجبل شرقًا.

- الطريق الجبلي شرقًا.

تمتم أكسِل وهو متَّجه نحو الباب، الذي كان آيفور قد تركه مفتوحًا على مصراعيه، ثم حدَّق إلى الظلام وقال:

- أظنُّ، يا أميرة، أن من السهل علينا أن نكمل طريقنا عبر الطريق العلويِّ تمامًا مثلما هو الحال عبر الطريق السفليِّ وسط الغابة.

- إنه طريق شاقٌّ، يا أكسِل. فيه كثير من التسلُّق. كما سيضيف إلى رحلتنا يومًا آخر على الأقل، وهناك أيضًا ابننا الذي ينتظر وصولنا بفارغ الصبر.

- كل هذا صحيح. لكن من الخسارة أن نقطع كل هذه المسافة ولا نعرِّج على هذا الراهب الحكيم.

- إنه فقط أمرٌ أتت الحكيمة على ذكره، ظنًّا منها بأننا مسافران في ذلك الاتجاه. أخبرتها بأن الوصول إلى قرية ابننا أسهل عبر الطريق السفلي، وعندها قالت إنه أمر لا يستحقُّ منا العناء والوقت، فما يتعبني ليس أكثر من الأوجاع العادية التي تأتي مع مرور الأيَّام.

تابع أكسِل التطلُّع من عتبة الباب إلى الظلام، وقال:

- حتى إن كان كذلك، يا أميرة، قد نفكِّر في هذا الأمر لاحقًا. لكن ها هو آيفور وقد عاد، ولا تبدو عليه إمارات الرضى.

دخل آيفور بخطى واسعة، وأنفاس ثقيلة، ورمى نفسه على كرسي واسع فوقه كومة من الفرو، ثم ترك عصاه تسقط محدثة ضجَّة قرب قدميه. ثم قال بسخط:

- يقسم شابٌّ أحمق على رؤية عفريت اعتلى سورنا من الخارج وأنه الآن يتلصَّص علينا من فوقه. تقوم الدنيا ولا تقعد، كما تتصوَّران، وأجد نفسي مضطرًّا إلى تشكيل فريق للذهاب والتأكُّد من صحَّة الخبر. بالطبع، ليس هناك أي شيء حيث يشير سوى السماء المظلمة، لكنه يصرُّ على القول إن العفريت هناك وإنه يختلس النظر إلينا، أما

البقية فينكمشون خلفي بفؤوسهم ورماحهم مثل الأطفال. ثم يعترف الأحمق بأنه غفا خلال حراسته ورأى عفريتًا في المنام، وحينئذ، هل يسارعون بالعودة إلى مواقعهم؟ يظلُّ الخوف مستبدًّا بهم، فأضطرُّ إلى القسم بضربهم حتى يظنَّ أقرب الناس إليهم بأنهم لحم ضأن مهروس.

نظر آيفور من حوله وهو ما زال لاهثًا:

- اعذرا مضيفكما، يا صديقَيَّ. سأنام في الحجرة الداخلية، هذا لو تمكَّنت أصلاً من النوم في هذه الليلة. لذا اصنعا ما يحلو لكما هنا كي تناما براحة، رغم قلَّة ما يتوفَّر من أسبابها هنا.

ردَّ أكسِل:

- على العكس أيُّها السيِّد. وفَّرت لنا مقامًا طيِّبًا ونحن في غاية الامتنان. آسف لأن ما حملك على الخروج قبل قليل لم يكن من قبيل الأنباء السارَّة.

- ليس من حيلة سوى الانتظار، ربما طوال الليل والصباح أيضًا. إلى أين تشدَّان العزم أيُّها الصديقان؟

- سننطلق شرقًا في الغد، أيُّها السيِّد، إلى قرية ابننا، حيث ينتظرنا بفارغ الصبر. لكن قد يكون بوسعك مساعدتنا بهذا الشأن، إذ كنت أنا وزوجتي نتجادل في أحسن الطرق التي تأخذنا إلى هناك. سمعنا براهب حكيم يُدعى جوناس يعيش في دير قرب الطريق الجبلي وقد نستشيره في مسألة صغيرة.

- جوناس قطعًا يحظى بسمعة موقَّرة، مع أنني لم أقابل الرجل وجهًا لوجه أبدًا. اذهبا إليه بالطبع، لكن كونا على حذر، فالرحلة إلى الدير ليست هيِّنة. إذ يظلُّ الطريق صاعدًا إلى الأعلى بحدَّة خلال معظم النهار. وعند استوائه أخيرًا عليكما ألَّا تضلَّا الطريق، لأنكما حينئذ ستكونان في بلد كويرِغ.

- كويرِغ، التنِّينة كويرِغ؟ لم أسمع أي ذِكر لها منذ زمن طويل. هل ما زالت مرهوبة الجانب في هذا البلد؟

ردَّ آيفور:

- إنها قلَّما تغادر الجبال الآن. وهي قد تهاجم مسافرًا خضوعًا لنزوة ما، إلَّا أنها تُلام في الأغلب على حوادث ترتكبها الحيوانات البرِّية وقطَّاع الطرق. لا أرى أن خطر كويرِغ يتمثل في أفعالها بل في حقيقة وجودها المتواصل. فطالما تُركت طليقة، لن تتوقَّف كل صنوف الشرِّ عن التناسل مثل الطاعون فوق أرضنا. وخير مثال على هذا هو هذه العفاريت المردة التي صبَّت لعناتها الليلة علينا. من أين أتت؟ إنها ليست غيلانًا عادية. لم يرَ أحد هنا مثيلًا لها قطُّ. لماذا أتت إلى هنا، لأجل التخييم فوق ضفَّة نهرنا؟ ربما كانت كويرِغ لا تظهر للعيان إلَّا نادرًا، لكنَّ العديد من قوى الظلام تنبع منها، ومن العار أن تبقى من دون ذبح طوال هذه السنين.

قالت بياترِس:

- لكن، يا آيفور، من سيجرؤ على تحدِّي وحش كهذا؟ فحسبما هو معروف وشائع، كويرِغ تنِّينة عظيمة البأس وتختبئ في أرض وعرة.
- إنك على حقٍّ يا سيدة بياترِس، إنها مَهمَّة جسيمة. لكن في الحقيقة، هناك فارس عجوز بقي من زمن آرثر[1]، كُلِّف من قبل ذلك الملك العظيم قبل سنوات طويلة بذبح كويرِغ. قد تصادفانه إن سلكتما الطريق الجبلي. لا يمكن عدم تمييزه بسهولة، فهو يرتدي درعًا صدئًا من الصفيح ويعتلي جوادًا منهكًا، كما أنه متحمِّس على الدوام للتبجُّح بمهمَّته المقدَّسة، مع أنني أشكُّ في أن هذا العجوز الأحمق قد أرَّق نوم التنِّينة ولو للحظة واحدة. سنبلغ أرذل العمر ونحن ننتظر اليوم الذي سينفِّذ فيه واجبه. قطعًا، أيُّها الصديقان، سافرا إلى

(1) ملك تتغنى الأساطير البريطانية القديمة بفروسيته، وأشهرها آرثر وفرسان الطاولة المستديرة، وتروي بمجملها أخبار الحروب التي خاضها ضدَّ الساكسون أو الغزاة الآتين من البحر.

مكتبة أحمد

t.me/ktabpdf

الدير، لكن توخَّيا الحيطة والحذر وحاولا بلوغ ملاذ آمن قبل هبوط الظلام.

همَّ آيفور بالتوجُّه إلى الغرفة الداخلية، لكن بياترِس سارعت إلى الاعتدال في جلستها ثم قالت:

- تحدَّثت سابقًا، يا آيفور، عن الضباب. كيف أنك سمعت شيئًا بخصوص ما يسبِّبه، لكنك خرجت قبل إكمال حديثك. نحن متلهِّفان الآن على سماع ما كنت تريد قوله حول هذا الشأن.

- آه، الضباب. تسمية حسنة. من يستطيع الحكم على مقدار صحَّة ما نسمع، يا سيِّدة بياترِس؟ أعتقد أني كنت أتكلَّم عن الغريب الذي مرَّ ببلدنا في السنة الماضية طلبًا للمأوى. إنه من بلد الـفَنْلاند، تمامًا مثل ضيفنا المغوار في هذه الليلة، ولكنه يتكلَّم بلهجة محلِّية صعبة على الفهم في الغالب. عرضت عليه الإقامة في هذا البيت المتواضع، كما فعلت معكما، وتحدَّثنا في شؤون عديدة خلال المساء، ومن بينها هذا الضباب، حسبما تطلقان عليه وعلى نحو موفَّق للغاية. أثارت بلوانا الغريبة هذه اهتمامًا عظيمًا لديه، فراح يسألني تارة بعد أخرى عن هذا الأمر. ثم اجترأ على قول شيء لم أكترث به للتوِّ، لكن منذ ذلك الحين وأنا أعمل التفكير فيه. اعتقَد الغريب أن مردَّ هذا الأمر قد يكون أن الربَّ ذاته قد نسي قسطًا كبيرًا من ماضينا، أحداثًا من الماضي البعيد، وأحداثًا من الماضي القريب، بل ما يقع في النهار نفسه. وإن لم يكن الشيء موجودًا في عقل الربِّ، فما السبيل إلى بقائه في عقول الفانين من البشر؟

حملقت بياترِس في آيفور قائلة:

- هل هذا أمر معقول، يا آيفور؟ نحن، بل كل واحد منا، هو ابنه الغالي. هل ينسى الربُّ حقًّا ما ارتكبناه وما فُعل بنا؟

- عين سؤالي بالضبط، سيِّدة بياترِس، الذي لم يعثر الغريب على جواب له. لكن منذ ذلك الوقت، وأنا أجد نفسي دائم التفكير أكثر فأكثر في

كلامه. ربما يكون تفسيرًا جيِّدًا مثله مثل سواه لما تسمِّينه بالضباب. اعذراني الآن، أيُّها الصديقان، عليَّ أن أنال قسطًا من الراحة ما دام في وسعي ذلك.

***

أدرك أكسِل شيئًا فشيئًا أن بياترِس تهزُّ كتفه. لم تكن لديه أي فكرة عن المدَّة التي قضياها في النوم. ما زال الظلام مخيِّمًا، لكن ثمَّة ضجَّة في الخارج، ثم سمع آيفور قائلًا من مكان ما من فوقه:

- عساها تكون الأخبار السارَّة، وليست نهايتنا.

عندما نهض أكسِل قعودًا، كان مضيفهما قد ذهب، وبياترِس تقول:

- أسرع، يا أكسِل، كي نرى أيَّ الأمرين وقع.

تأبَّط ذراع زوجته، وبصره ما زال غائمًا من أثر النوم، ثم خرجا مترنِّحين تحت جنح الظلام. هناك عدد أكبر من المشاعل المتَّقدة الآن، بعضها متوهِّج من شرفات الحراسة فوق السور، ما سهَّل رؤية الطريق أكثر من قبل. الناس يتحرَّكون في كل مكان، والكلاب تنبح والأطفال يبكون. وشيئًا فشيئًا، بدأ بعض النظام بفرض نفسه على الجميع، ووجد أكسِل وبياترِس نفسيهما يسيران في موكب مهرول في اتجاه واحد. ثم توقَّف الموكب دفعة واحدة، ودُهش أكسِل عندما اكتشف أنهم قد وصلوا إلى ساحة القرية - من الواضح أن هناك طريقًا أقصر من بيت آيفور مقارنة بالذي سلكاه سابقًا. كانت ألسنة النيران أكثر شراسة من ذي قبل، حتى ظنَّ أكسِل لوهلة أن لظاها هو ما حمل أهل القرية على التوقُّف. لكنه حين ألقى بصره بين صفوف الرؤوس من أمامه، رأى أن المحارب قد عاد. كان واقفًا هناك بهدوء بالغ، إلى يسار النار، أحد جنبيه مضاء، والآخر في الظلِّ. شطرُ وجهه المرئيُّ مغطىً بما رآه أكسِل حبيبات دقيقة من الدماء، كما لو كان قد أقبل ماشيًا على الفور عبر ضباب شفيف من تلك المادة. شعره الطويل، وإن كان ما زال معصوبًا، إلَّا أنه ارتخى وبدا عليه البلل. ثيابه

ملطَّخة بالوحل وربما بالدماء أيضًا، ورداؤه الذي كان طرفه قبل ذهابه مرميًّا من دون مبالاة فوق كتفه، أصبح الآن ممزَّقًا في مواضع عديدة. لكن الرجل نفسه لم يبدُ مصابًا، وكان يتحدَّث بصوت منخفض في تلك اللحظة مع ثلاثة من كبار القرية، آيفور من بينهم. كما تمكَّن أكسِل أيضًا من رؤية أن المحارب يحمل شيئًا تحت طيَّة ذراعه.

في هذه الأثناء، انطلق الهتاف منخفضًا في البدء، ثم راح يشتدُّ، إلى أن استدار المحارب في النهاية استجابة له. كانت تصرُّفاته خالية من أي زهوٍّ فجٍّ بالنفس. وعندما شرع في مخاطبة الحشد، بدا صوته جهوريًّا وكافيًا لإسماع الجميع، لكنَّ نبرته منخفضة وحميمة وتليق بما للموضوع من هيبة وجلال.

همدت أصوات مستمعيه حرصًا على التقاط كل كلمة، وسرعان ما انتزع منهم شهقات التأييد أو الرعب. ولما بلغ نقطة من حديثه أشار إلى بقعة خلفه، فلاحظ أكسِل للمرَّة الأولى الرجلين اللذين ذهبا برفقة المحارب قعودًا على الأرض وبالكاد داخل دائرة الضوء. بدا منظرهما وكأنهما سقطا هناك من مرتفع ومنعهما الدوار من النهوض. شرع الحشد في الهتاف لهما، لكن ممَّا بدا على الرجلين فإنهما لم يلاحظا ذلك، مواصلين عوض ذلك التحديق إلى الهواء أمامهما.

استدار المقاتل بعد ذلك نحو الحشد ثانية وتفوَّه بشيء بدَّد الهتاف. اقترب من النيران، قابضًا بيده على الشيء الذي يحمله، ثم رفعه عاليًا في الهواء.

رأى أكسِل ما بدا رأس كائن ذي عنق غليظ منحور من أسفل الحلق تمامًا. كانت خصل داكنة من الشعر تتدلَّى من هامته، وتحيط بوجه مرعب من دون معالم: حيث يجب أن تُوجد عينان وأنف وفم كان هناك فقط لحم طافح بالبثور، مثل ذاك الذي لإوزَّة، ونتف من زغب مشابه لريشها فوق الوجنتين. أفلتت زمجرة من الحشد وأحسَّ أكسِل به وقد انكمش إلى الوراء. حينذاك فقط أدرك أن ما ينظرون إليه لم يكن رأسًا على الإطلاق، بل مقطعًا من كتفٍ وساعد كائن ضخم على نحو غير سويٍّ أو مشابه للإنسان. كان المحارب، في الواقع، يرفع

برهان انتصاره من طرف الساعد المبتور القريب من العضل الذي تتربَّع فوقه نهاية الكتف، وفي تلك اللحظة رأى أكسِل أن ما ظنَّه خُصلًا من الشعر لم يكن سوى قطع الأحشاء المتدلِّية من الموضع الذي جرى فيه فصل المقطع كاملًا عن البدن.

بعد مدَّة قصيرة، أنزل المحارب برهان انتصاره وتركه يرتمي عند قدميه، كما لو أنه لم يعد مكترثًا الآن بإلحاق إهانة أبلغ من تلك ببقايا ذلك الكائن. للمرَّة الثانية، انكمش الحشد، ثم ما لبث أن تزحزح مجدَّدًا إلى الأمام، ثم تصاعد الهتاف من جديد. لكنه هذه المرَّة تبدَّد على الفور تقريبًا لأن المحارب استأنف خطابه، ومع أن أكسِل لم يكن قادرًا على فهم أي شيء منه، إلَّا أنه استشعر الانفعالات المحمومة من حوله على نحو ملموس. قالت بياترِس في أذنه:

- قتل بطلنا الوحشين. أحدهما حمل جرحه القاتل إلى الغابة، ولن يعيش حتى الفجر. أما الآخر فواجه وقاتل، وجزاء آثامه جلب المقاتل منه ما تراه ملقى على الأرض هناك. ما تبقَّى من العفريت الأمرد زحف إلى البحيرة لتخدير آلامه، وغرق هناك تحت الماء المظلم. الغلام، يا أكسِل، هل ترى هناك ذلك الغلام؟

خلف وهج النيران مباشرة، كانت ثلَّة من النساء تحيط بغلام نحيف داكن الشعر يجلس فوق حجر. وهو وإن كان يوشك على أن يداني الرجال طولًا، فإن العين رغم البطَّانية المشدودة حول جسمه لا تخطئ النظر، فبنيته ما تزال بنية الغلمان الممطوطة الضامرة. جلبت إحداهنَّ سطلًا وراحت تغسل الوسخ عن وجهه وعنقه، لكنه بدا في عالم آخر. ومع أن عينيه لم تتزحزحا عن ظهر المقاتل المقابل له مباشرة، إلَّا أنه كان من حين لآخر يميل برقبته إلى جنب، كأنه يتلصَّص حول قدمَي المحارب على الشيء المطروح أرضًا هناك.

دُهش أكسِل من نفسه، لأن رؤية الغلام الذي تمَّ إنقاذه، حيًّا ومن دون إصابة قاتلة بادية للعين، لم تبعث في نفسه لا ارتياحًا ولا ابتهاجًا، بل شيئًا من القلق الغامض. ردَّ الأمر في البداية إلى سلوك الصبيِّ الغريب نفسه، لكن لاح

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

له فيما بعد السبب غير السويّ وراء ذلك: كانت طريقة استقبال هذا الصبي، الذي استحوذت سلامته قبل هنيهة على عقول أهل القرية، يعوزها شيء ما. فقد اعتراها شيء من التحفُّظ، يكاد يكون برودًا، وهو ما ذكَّر أكسِل بالحادثة المتعلِّقة بالصغيرة مارتا في قريته، وتساءل إن كان هذا الغلام، مثلها، داخل طور يتعرَّض فيه للنسيان. لكن هذا غير صحيح قطعًا. فالناس حتى في هذه اللحظة يشيرون بأصابعهم نحو الغلام، والقائمات على رعايته من نسوة يقابلن ذلك بنظرات دفاعية.

أسرَّت بياترِس في أذنه:

- لا أستطيع التقاط ما يقولونه يا أكسِل. شجار ما يتعلَّق بالغلام، مع أن عودته سالمًا وما يبديه من هدوء مدهش بعد كل ما رأته عيناه اليافعتان يُعَدُّ بمثابة رحمة عظيمة.

عند هذا الحدِّ، كان المقاتل ما زال خطيبًا في الحشد، لكنَّ نبرة استعطاف تخلَّلت صوته. بدا أثر ذلك في مستمعيه كما لو أنه وجَّه اتهامًا لهم، ولمس أكسِل على الفور ما طرأ على المزاج العام. تنحَّت مشاعر الانبهار والامتنان مفسحة المجال أمام مشاعر أخرى، كان هناك تشوُّش وحتى خوف في الهدير المتصاعد من حوله. تكلَّم المقاتل ثانية، بصوت صارم، مشيرًا إلى الغلام من خلفه. ثم عبر آيفور دائرة الضوء، ولدى وقوفه إلى جانب المحارب قال شيئًا اجتذب زمجرة أقل حدَّة من بعض المستمعين. ثم صرخ صوت من خلف أكسِل بشيء، فانفجر الجدل من كل الجهات. وعندها، رفع آيفور صوته فساد الصمت للحظة، لكن الصراخ عاد واندلع على الفور، ثم عمَّ التدافع بالمناكب بين القابعين في العتمة.

صرخت بياترِس في أذنه:

- أوه، أكسِل، أرجوك، لنسرع بالذهاب من هنا! لا ينبغي لنا البقاء في هذا المكان.

أحاط أكسِل كتفيها بذراعه وبدأ في شقِّ طريق للخروج، لكن شيئًا ما حمله على إلقاء نظرة إلى الوراء مرَّة أخرى. لم يكن الغلام قد غيَّر من موضعه، ولا

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

من مواصلته التحديق إلى ظهر المحارب، غافلًا بوضوح عمَّا يجري أمامه من هيجان وثورة. لكن المرأة التي كانت ترعاه تنحَّت عنه، وراحت تنقل نظرات حائرة بين الغلام والحشد. جذبت بياترِس ذراع أكسل قائلة:

- أكسِل، أرجوك، خذنا بعيدًا عن هنا. أخشى أن نتعرَّض للأذى.

لا بدَّ من أن القرية برمَّتها كانت في الساحة، لأنهما لم يصادفا أيَّ أحد في طريق العودة إلى بيت آيفور. لكن أكسِل لم يسأل عمَّا حصل إلَّا بعد أن لاح البيت أمام ناظريهما:

- ماذا كانوا يقولون عندما تركناهم يا أميرة؟

- لست متأكِّدة على الإطلاق يا أكسِل. كان اللغط شديدًا وأعظم من قدرتي المتواضعة على الفهم. شجار ما بخصوص الغلام الذي جرى إنقاذه، وفقدان البعض لأعصابهم. أحسنَّا صنعًا بالابتعاد، وسنفهم لاحقًا حقيقة ما حصل.

***

عندما استيقظ أكسِل في الصباح، وجد أشعَّة الشمس تتخلَّل الغرفة. كان مستلقيًا فوق الأرض، لكنه نام فوق فراش من البُسُط الناعمة وتدثَّر ببطَّانيات دافئة - ترفٌ لم يعتد عليه - وذاقت أطرافه طعم الراحة. كما فتح عينيه وهو في مزاج رائق، لأن ذكرى جميلة كانت تطوف في رأسه.

تململت بياترِس إلى جنبه، لكنَّ جفنيها بقيا مسبلين وظلَّت أنفاسها على وتيرة واحدة. تأمَّلها أكسِل، كما كان ديدنه في مثل هذه اللحظات، مترقِّبًا أن يغمر صدره إحساس دافئ من البهجة. وسرعان ما حصل ذلك، تمامًا كما توقَّع، لكنه امتزج اليوم بلمسة من الحزن. فاجأه هذا الشعور، فمرَّر يده برفق على طول كتف زوجته، كما لو أن هذا كفيل بطرد ذلك الطيف الأسود بعيدًا.

تناهت إلى سمعه أصوات ضجيج في الخارج، لكن كانت هذه، خلافًا لتلك التي أيقظتهم خلال الليل، لأناس منهمكين في أشغالهم صباح يوم عادي. تفطَّن

إلى أن نومه هو وبياترِس حتى وقت متأخِّر لم يكن حكيمًا، لكنه مع ذلك امتنع عن إيقاظ زوجته وواصل تأمُّله فيها. ثم نهض بعد مدَّة بهدوء، واتَّجه صوب الباب الخشبي وشقَّه قليلًا. هذا الباب - الذي كان بابًا «بمعنى الكلمة» مثبتًا بمفاصل خشبية - أصدر صريرًا ثم تدفَّقت الشمس بشدَّة من الفتحة الضيِّقة، لكن بياترِس، مع ذلك، ظلَّت مستغرقة في النوم. الآن وقد انتابه بعض القلق، رجع أكسِل إلى حيث كانت مستلقية وقرفص قربها، شاعرًا بتيبُّس ركبتيه لدى قيامه بذلك. أخيرًا، فتحت زوجته عينيها ورفعت بصرها نحوه. فقال، مواريًا تنفُّسه الصعداء:

- حان وقت النهوض يا أميرة، القرية استيقظت ومضيفنا خرج منذ وقت طويل.
- إذًا كان عليك أن توقظني في وقت أبكر يا أكسِل.
- كنت ترقدين بسلام، وبعد ذلك اليوم الطويل تصوَّرت أنك بأمسِّ الحاجة إلى النوم. كما أنني كنت على حقٍّ لأنني أرى وجهك الآن مشرقًا مثل صبيَّة صغيرة.
- بدأت في ثرثرتك حتى قبل أن نعرف ما حصل أثناء الليل. يبدو من الأصوات في الخارج، أنهم لم يسحقوا عظام بعضهم بعضًا. أسمع أصوات الأطفال ويبدو أن الكلاب أُطعمت وتشعر بالسعادة. أكسِل، هل هناك من ماء هنا كي نغسل وجهينا؟

بعد مدَّة قصيرة، إثر إصلاح هندامهما قدر المستطاع - وفي ظلِّ عدم مجيء آيفور - خرج الاثنان إلى الهواء الطلق بحثًا عمَّا يأكلانه. بدت القرية الآن لأكسِل مكانًا ودودًا أكثر بكثير من ليلة البارحة. الأكواخ الدائرية التي بدت في الظلام متناثرة عشوائيًّا، انتظمت أمامهما الآن في صفوف مرتَّبة، أمَّا ظلالها المطابقة لها فشكَّلت دربًا واضحًا عبر القرية. هناك رجال ونساء يتحرَّكون بنشاط حاملين عدَّة العمل أو طشوت الغسيل، ومجموعات من الأطفال تمضي في أعقابهم. كما أن الكلاب، مع أن عددها كبير مثل ليلة أمس، بدت وديعة. أمَّا المشهد

الوحيد الذي ذكَّر أكسِل بالمكان الجامح الذي طرقه في الليلة الفائتة فلم يكن سوى حمار أمام بئر يتغوَّط بتلذُّذ تحت الشمس. حتى أنهما حظيا اليوم بإيماءات وتحيَّات مقتضبة من القرويين أثناء مرورهما، مع أن أحدًا منهم لم يمضِ أبعد من ذلك بالحديث إليهما.

لم يكونا قد ذهبا بعيدًا حين أبصرا الهيئتين المتنافرتين لآيفور والمقاتل واقفتين أمامهما في الطريق، يلتصق رأساهما أثناء انهماكهما في الحديث. عند اقتراب أكسِل وبياترِس، خطا آيفور إلى الوراء مبتسمًا بفطنة ثم قال:

- لم أرغب في إيقاظكما قبل الأوان. لكنني مضيف سيِّئ ولا بدَّ من أنكما تتضوَّران جوعًا. اتبعاني إلى البيت الطويل وسأشرف بنفسي على تقديم ما يشبع بطنيكما. لكن، أيُّها الصديقان، ألقيا التحيَّة أوَّلًا على بطل ليلتنا الماضية. ستكتشفان أن السيِّد وِستَن يفهم لساننا بسهولة.

استدار أكسِل نحو المحارب وأومأ برأسه قائلًا:

- أنا وزوجتي نتشرَّف بلقاء رجل يتحلَّى بمثل هذه الشجاعة، والنخوة، والمهارة. أفعالك ليلة أمس رائعة.

اتَّسمت نبرة المحارب، كما كانت ليلة أمس، بالرفق، ولاحت في عينيه ابتسامة لدى ردِّه:

- كنت محظوظًا للغاية ليلة أمس، وإلى جانب ذلك، حظيت بمساعدة فذَّة من رفيقيَّ الشجاعين.

علَّق آيفور:

- الرفيقان اللذان يتحدَّث عنهما كانا مشغولين بالتغوُّط في ملابسهما عوضًا عن الانضمام إلى المعركة. من قضى على العفاريت المردة هو هذا الرجل وبمفرده.

توجَّه المحارب إلى آيفور بالحديث، لكنه كان يحدِّق الآن بشدَّة إلى أكسِل، كما لو كانت في وجهه علامة تستحوذ تمامًا على اهتمام المحارب. قال:

- حقًّا، أيُّها السيِّد، لا داعي إلى قول المزيد في هذا الموضوع.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

ردَّ أكسِل، وقد باغتته تلك النظرات المتفحِّصة:

- إنك تُحسن الحديث بلساننا، أيُّها السيِّد.

واصل المحارب تفرُّسه في أكسِل، ثم تفطَّن إلى ذلك فضحك قائلًا:

- عذرًا، أيُّها السيِّد. اعتقدت للحظة... لكن اعذرني. إنني ساكسوني حتى النخاع، لكنني ترعرعت في بلد ليس ببعيدٍ من هنا وعشت غالبًا بين البريتون. وهكذا تعلَّمت الكلام بلسانكم إلى جانب لسان قومي. لكني أصبحت في هذه الأيَّام أقل تعوُّدًا عليه، إذ أنني أعيش بعيدًا في الـفَنْلاند، حيث يسمع المرء العديد من الألسنة الغريبة عدا لسانكم. لهذا يجب أن تسامحني على ما أقع فيه من أخطاء.

ردَّ أكسِل:

- على العكس تمامًا، أيُّها السيِّد، يصعب على السامع الظنُّ أنك لا تتحدَّث بلسانك الأمِّ. في الحقيقة، لاحظت ليلة البارحة الطريقة التي تشدُّ بها سيفك إلى وسطك، حيث يكون أقرب وأعلى فوق الخاصرة ممَّا تعوَّد عليه الساكسون، فتهبط يدك بسهولة على مقبضه لدى المشي. آمل ألَّا تشعر بالإساءة حين أقول إنها طريقة أكثر شبهًا بما يفعله البريتون.

ضحك وِسْتِن ثانية، وردَّ قائلًا:

- رفاقي من الساكسون لا يكفُّون عن التهكُّم لا على طريقة شدِّ سيفي إلى خاصرتي فقط، بل وعلى طريقتي في المبارزة أيضًا. لكن لتعلم أني اكتسبت مهاراتي وتعلَّمتها على أيدي البريتون، ولم أرغب في حياتي قطُّ بأيِّ تدريب آخر. إذ يعود له الفضل في خروجي سالمًا من غمار كثير من المهالك، ومن بينها ليلة أمس أيضًا. سامحني على التطفُّل، أيُّها السيِّد، لكنني ألاحظ أنك أنت نفسك لست من هذه النواحي. هل يمكن أن يكون بلدك الأصلي إلى الغرب من هنا؟

- نحن من البلد المجاور، أيُّها السيِّد. مسيرة يوم من هنا لا أكثر.

- مع ذلك، ربما عشت فيما مضى على مسافة أبعد غربًا؟
- كما أقول لك، أيُّها السيِّد، أنا من البلد المجاور.
- اعذرني على ما بدر مني من سوء أدب. بعد ما قطعته من مسافة بعيدة إلى الغرب، أجدني أحنُّ إلى الماضي وما قضيته من أيَّام في بلد طفولتي، رغم معرفتي بأنه ما زال على مسافة بعيدة من هنا. أجدني ألمح في كل مكان أطياف وجوه لا أتذكَّرها تمامًا. هل ستعود أنت وزوجتك إلى بلدك في هذا الصباح؟
- كلَّا، أيُّها السيِّد، نحن متَّجهان شرقًا إلى قرية ابننا، ونرجو أن نبلغها خلال يومين.
- آه، الطريق الذي يقطع الغابة إذًا.
- في الواقع، أيُّها السيِّد، ننوي الذهاب عبر الطريق العلويِّ فوق الجبال، ثمَّة رجل حكيم في الدير هناك نأمل أن يسمح لنا بمقابلته.
- «حقًّا؟» أومأ وِسْتِن بتفكُّر، وعاد يحدِّق بشدَّة إلى أكسِل. ثم استأنف القول، «قيل لي إنه طريق شاهق ووعر».

قال آيفور مقاطعًا:

- لم يتناول ضيفاي طعام الإفطار بعد. اعذرني، سيِّد وِسْتِن، عليَّ مرافقتهما إلى البيت الطويل. وبعدها لو سمحت، أيُّها السيِّد، سأكون راغبًا في استئناف ما كان دائرًا بيننا من حديث.

خفض آيفور صوته مكملًا قوله بلسان الساكسون، ما قابله وِسْتِن بإيماءة من رأسه. ثم وبعد استدارته نحو أكسِل وبياترِس، هزَّ آيفور رأسه وقال بنبرة مهمومة:

- رغم ما بذله هذا الرجل من جهد عظيم ليلة أمس، إلَّا أنَّ مشاكلنا أبعد ما تكون عن الانتهاء. لكن هيَّا بنا، يا أصدقاء، لا بدَّ من أنكما متضوِّران جوعًا.

انطلق آيفور بمشيته المترنِّحة، ضاربًا الأرض بعصاه في كلِّ خطوة. بدا عليه الاستغراق في التفكير حتى أنه لم يلاحظ تخلُّف ضيفيه عنه في الأزقَّة

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

المكتظَّة. وفي نقطة ما، وعندما كان آيفور على بُعد خطوات عديدة، قال أكسِل لبياترِس:

- إن ذلك المحارب رجل جدير بالإعجاب، ألا تعتقدين ذلك يا أميرة؟

ردَّت بصوت منخفض:

- لا شكَّ في ذلك، لكنَّ طريقة تحديقه إليك كانت غريبة يا أكسِل.

لم يكن هناك من وقت لقول المزيد، إذ كان آيفور واقفًا في زاوية بانتظارهما، بعدما فطن إلى أنه كان على وشك فقدان أثرهما.

بعد مدَّة قصيرة وصلوا إلى فناء مشمس. كان الإوزُّ يسرح في أرجائه هنا وهناك، وجدول الماء الذي يشطره نصفين - قناة ضحلة شقَّتها يد بشر - ينساب على عجل. وفي الجزء الأعرض من الجدول، صنعت مخاضة من صخرتين مسطَّحتين، وفي تلك اللحظة كان صبيٌّ يقرفص فوق واحدة منهما، منهمكًا في غسل الثياب. سحر هذا المشهد الريفي أكسِل بجماله، وكان سيقف لتأمُّله أكثر لو لم يواصل آيفور سيره بثبات نحو البناء الواطئ المعمَّم بسطح كثيف من القشِّ المحبوك والممتدِّ على طول الفناء.

ولئن دخلتم إليه، لما ظننتم أن هذا البيت الطويل يختلف كثيرًا عن مقاصف الطعام ذات النمط الريفي التي خبرها العديد منكم داخل مؤسسة أو أخرى. فهناك صفوف من الطاولات الطويلة والمقاعد الخشبية، وفي زاوية منه، مطبخ وبقعة لسكب الطعام وتقديمه. أما الفارق الرئيس بينه وبين أي مرفق حديث فسيكون ذلك الوجود الطاغي للقشِّ: فوق رأس المرء، ومن تحت قدميه، وإن من دون قصد، فوق أسطح الطاولات أيضًا. كانت تذُرُّ أرجاءه تيَّارات ريح لا تبارح عبور المكان. وفي صباح كهذا، أثناء جلوس مسافرينا لتناول الإفطار، كانت الشمس المتدفِّقة عبر ما يشبه نوافذ السفن الدائرية ستفضح الهواء نفسه وما يحمله من ذرَّات قشٍّ سابحة فيه.

كان البيت الطويل القديم خاليًا من الناس عند وصولهم، لكن آيفور توجَّه إلى المطبخ، وبعد لحظة ظهرت عجوزان تحملان خبزًا، وعسلًا، وكعكًا،

وإبريق حليب وإبريق ماء. ثم عاد آيفور نفسه بصينيَّة لحوم دواجن، شرع أكسِل وبياترِس في التهام ما فيها بامتنان بالغ.

تناولا الطعام في البداية من دون كلام، إذ لم يدركا كم كانا يتضوَّران جوعًا إلّا في تلك اللحظة. أمَّا آيفور، الذي كان يقابلهما على الجانب الآخر من الطاولة، فانغمس في التفكير بشرود، وبعد مدَّة من الوقت قالت بياترِس:

- يبدو أن هؤلاء الساكسون عبء ثقيل على كاهلك يا آيفور. ربما تتمنَّى العودة إلى أبناء جلدتك والعيش معهم، حتى وإن كان الغلام قد أُعيد سالمًا وذُبحت تلك الغيلان.

- لم تكن تلك غيلانًا، أيَّتها السيِّدة، أو أي كائنات شوهدت من قبل في هذه الأنحاء. قتلهم وزوال خطر اقترابهم من بوَّاباتنا أراحنا من خوف عظيم. أمَّا الصبيُّ، مع ذلك، فهو مسألة أخرى. ربما أُعيدَ إلى هنا، لكنه أبعد ما يكون عن السلامة.

مدَّ آيفور نفسه فوق الطاولة مقتربًا منهما ثم خفض صوته، مع أنهم أصبحوا وحيدين في القاعة من جديد:

- إنَّك محقَّة، سيِّدة بياترِس، أنا أعجب من نفسي على العيش بين متوحِّشين كهؤلاء. السكن في جُحر فئران أفضل. ما الذي يمكن أن يظنَّه بنا ذلك الغريب الشجاع، بعد كل ما فعله لأجلنا ليلة البارحة؟

سأله أكسِل:

- لماذا، أيُّها السيِّد، ما الذي حصل؟ كنَّا عند النيران ليلة أمس، لكن حين شعرنا باندلاع شجار عنيف، انسحبنا وما زلنا نجهل ما جرى.

- أحسنتما صنعًا بالاختباء أيُّها الصديقان. ثارت غرائز عبدة الأوثان هؤلاء ليلة أمس حتى كانوا على وشك اقتلاع أعين بعضهم من محاجرها. أمَّا كيف كانوا سيعاملون زوجين غريبين من البريتون فهو ما لا أجرؤ على التفكير فيه. أعيد الغلام إذوِن سالمًا، لكن حين بدأت القرية بالتهليل، عثرت النسوة في جسده على جرح صغير. تفحَّصته

بنفسي مع جميع كبار القرية. لم يكن أكثر من خدش أسفل صدره، وليس أسوأ ممَّا يصيب طفلًا بعد تعثُّره وسقوطه أرضًا. لكن النسوة، ومعهنَّ قريباته، أعلنَّ على الملأ بأن ذلك الجرح هو عضَّة، وهذا ما أصبحت القرية تطلقه على ذلك الخدش في هذا الصباح. كان عليَّ أن أحبس الغلام في الحظيرة وأوصد عليه بابها بإحكام حفاظًا على سلامته، ورغم ذلك، رفاقه، بل وأفراد عائلته أنفسهم، رجموا الباب بالحجارة وطالبوا بإخراجه وذبحه.

سألته بياترِس:

- كيف ذلك، يا آيفور؟ هل هذا من عمل الضباب ثانية الذي اختطف منهم ذكرى ما تعرَّض له الغلام من أهوال قبل مدَّة وجيزة؟

- ليت الأمر كان كذلك، أيتها السيِّدة. لكن يبدو في هذه المرَّة أنهم يتذكَّرون تمامًا كل ما حصل. لن ينظر عبدة الأوثان إلى أبعد ممَّا تقضي به خرافاتهم. إنها قناعتهم بأنه طالما تعرَّض لعضَّة من عفريت أمرد، فإن الصبيَّ نفسه سيتحوَّل بدوره وخلال مدَّة وجيزة إلى عفريت أمرد، وعندها سيرتكب الفظائع هنا من داخل أسوارنا. إنهم يرهبونه، ولو ظل هنا بينهم، سيواجه مصيرًا بفظاعة ذاك الذي أنقذه منه السيِّد وِسْتِن ليلة أمس.

قال أكسِل:

- يجب أن يكون هنا، أيُّها السيِّد، بعض من يتحلَّى بالحكمة لإقناع الآخرين بخطأ أمر كهذا.

- إن كان لهؤلاء من وجود، فنحن قلَّة، وحتى إن أمرنا بضبط النفس ليوم أو اثنين، سيتمكَّن الجهلاء في نهاية المطاف من فعل ما يريدونه.

- إذًا ما الذي يمكن فعله، أيُّها السيِّد؟

- لا يقلُّ المحارب عنكما رعبًا، وطوال هذا الصباح كنَّا نقلِّب النظر في الأمر معًا. اقترحت عليه أن يأخذ الغلام معه عندما يستأنف سفره،

على ما في هذا من إقحامه ثانية في هذه المشكلة، ثم يتركه في إحدى القرى البعيدة حيث قد تتسنَّى له فرصة حياة جديدة. شعرت بالخزي من أعماقي لطلب أمر كهذا من رجل لم تمضِ سوى فترة وجيزة على تعريض حياته للخطر من أجلنا، لكن ما باليد من حيلة. وسِتِن يفكِّر الآن في اقتراحي، رغم أنه في مهمَّة كلَّفه بها ملكه، وقد تأخَّر في تنفيذها بسبب حصانه وما حصل ليلة أمس. في الواقع، يتوجَّب عليَّ أن أتأكَّد أوَّلًا من سلامة الغلام، ثم سأذهب لأرى إن توصَّل المحارب إلى قرار.

نهض آيفور والتقط عصاه، ثم قال:

- أيُّها الصديقان، لا تذهبا قبل المرور لتوديعي. مع أني لن ألومكما إن رغبتما في ترك هذا المكان على عجل ومن دون إلقاء نظرة إلى الوراء.

***

تابع أكسِل من الباب هامة آيفور وهي تقطع الفناء المشمس بخطى واسعة. ثم قال:

- أخبار تثير الحزن والألم، يا أميرة.
- هي كذلك فعلًا، يا أكسِل، لكن لا علاقة لنا بها. دعنا لا نضيِّع مزيدًا من الوقت هنا. طريقنا اليوم شاقٌّ ووعر.

كان الطعام والحليب طازجين للغاية، فتابعا تناول فطورهما لمدَّة وهما صامتان. ثم قالت بياترِس:

- هل تجد أيَّ صواب فيه، يا أكسِل؟ ما قاله آيفور ليلة أمس بشأن الضباب، من أن الربَّ نفسه هو من كان وراء نسياننا.
- لم أعرف كيف أفكِّر في هذا، يا أميرة.
- أكسِل، جاءتني فكرة بخصوص ذلك هذا الصباح، تمامًا عند استيقاظي من النوم.

- ما هي يا أميرة؟
- إنها فكرة لا أكثر. خطر لي أن الربَّ ربما يكون غاضبًا من عمل اقترفناه. أو لعلَّه ليس بغاضب، بل يشعر بالخزي.
- فكرة مثيرة للفضول، يا أميرة. لكن إن كان الأمر حقًّا كما تقولين، فلماذا لا يعاقبنا؟ لماذا يجعلنا ننسى كالحمقى أمورًا وقعت حتى قبل ساعة فقط؟
- ربما يشعر الربُّ بخزي عظيم منَّا، من عمل اقترفناه، حتى أنه أمر ذاته بالنسيان. وكما قال الغريب لآيفور، حينما يستنكف الربُّ عن التذكُّر، فلا عجب أن نعجز نحن عن ذلك.
- ما الذي اقترفناه بحقِّ السماء حتى أصبنا الربَّ بهذا الخزي كلِّه؟
- لا أدري يا أكسِل. لكنني أجزم بأنه عمل لم نرتكبه قطُّ، لا أنا ولا أنت، إذ أن الربَّ حبانا بمحبَّته على الدوام. لو صلَّينا له، صلَّينا وطلبنا منه أن يتذكَّر ولو بعضًا من ذكرياتنا الأغلى على الأقل، فمن يدري، قد يسمعنا وينعم علينا بما سألنا.

علت في الخارج موجة صاخبة من الضحك. مائلًا بعنقه قليلًا، تمكَّن أكسِل من رؤية بعض الصغار في الفناء ممَّن كانوا يحاولون التوازن على الصخرتين المسطَّحتين أعلى الجدول الصغير. وأثناء مراقبتهم، سقط أحدهم في الماء مطلقًا زعيقًا حادًّا.

قال أكسِل:

- من يدري يا أميرة. لعلَّ الراهب الحكيم في الجبال يفسِّر لنا هذا الأمر. لكن ما دمنا قد أتينا على الإشارة إلى الاستيقاظ في هذا الصباح، فهناك ما استعدته أنا الآخر، ربما في اللحظة نفسها التي بدأت تتوارد فيها هذه الأفكار عليكِ. لقد كانت ذكرى، ذكرى واحدة بسيطة، لكنها بعثت السرور في قلبي.
- أوه يا أكسِل! ذكرى ماذا؟

- تذكَّرت وقت كنَّا نسير في سوق أو مهرجان. في قرية، لكنها لم تكن قريتنا، وأنت تلبسين ذلك الرداء الأخضر الفاتح ذا القلنسوة.

- لا بدَّ من أن يكون هذا حلمًا، وإلَّا فإنه وقع منذ زمن بعيد، يا زوجي. فأنا لا أملك أي رداء أخضر.

- تمامًا، إنني أتحدَّث عن أمر وقع منذ زمن طويل، يا أميرة. أحد أيَّام الصيف، لكن كانت هناك ريح باردة حيث كنَّا، وكنت قد دثَّرتِ نفسك بالرداء الأخضر، لكن من دون وضع القلنسوة فوق رأسك. في سوق أو ربما مهرجان ما. كانت قرية فوق منحدر، ولمَّا دخلناها كان أوَّل ما مررنا به زريبة للغنم.

- وما الذي كنَّا نفعله هناك يا أكسِل؟

- كنَّا نتمشَّى شابكين ذراعينا، ثم ظهر في طريقنا فجأة غريب، رجل من القرية، وما إن رماكِ بنظرة خاطفة واحدة، حتى حدَّق إليكِ كأنَّما وقع بصره على إلهة. هل تذكرين يا أميرة؟ رجلًا شابًّا، لكن أعتقد أننا كنَّا حينذاك نحن أيضًا شابَّين. ثم عبَّر عن إعجابه قائلًا بأن عينيه لم تقعا على امرأة بهذا الجمال أبدًا. ثم مدَّ يده ولمس ذراعك. هل تذكرين أي شيء من هذا يا أميرة؟

- طيف ذكرى يراودني، لكنه غير واضح. أفكِّر في أن هذا الذي تتحدَّث عنه كان رجلًا مخمورًا؟

- ربما ثملًا بعض الشيء، لا أدري يا أميرة. كان يوم احتفال، كما ذكرتُ لكِ. على أي حال، رآك فبُهت. قال إنك أجمل ما وقعت عيناه عليه في حياته.

- إن كان الأمر كذلك فقطعًا حصل هذا قبل زمن طويل جدًّا! ألم يكن هذا هو اليوم الذي انتابتك فيه الغيرة وتشاجرت مع الرجل، حتى وصل بنا الحال إلى مباشرة الفرار من القرية؟

- لا أذكر شيئًا من هذا القبيل يا أميرة. الوقت الذي أسترجعه، كنتِ أنتِ فيه تلبسين رداءك الأخضر، وكان يوم احتفال ما، وهذا الغريب نفسه، بعدما أدركَ بأني حاميكِ، استدار نحوي وقال: إنها أجمل من رأيت في حياتي، احرص على رعايتها حقَّ الرعاية يا صديقي. هذا ما قاله.
- يراودني التذكُّر بعض الشيء، لكني متأكِّدة من أنك اشتبكت معه حينذاك في شجار بسبب الغيرة.
- كيف يمكن أن أكون قد أقدمت على أمر كهذا وأنا حتى في هذه اللحظة أشعر بالفخر في داخلي بسبب كلمات هذا الغريب؟ أجمل ما رآه في حياته. وكان يقول لي بأن أبذل كل ما في وسعي للاعتناء بك.
- إن كنت قد شعرت بالفخر، يا أكسِل، فقد انتابتك الغيرة أيضًا. ألم تتعرَّض للرجل مع أنه كان مخمورًا؟
- لا أذكر الأمر على هذا النحو يا أميرة. ربما تظاهرت بالغيرة من باب الدعابة والتهكُّم. لكنني كنت سأعرف بأن الرجل لم يقصد أي أذى. هذا ما استيقظت عليه هذا الصباح، رغم أنه حدث قبل سنين طويلة.
- إن كنت تتذكَّره على هذا النحو يا أكسِل، فليكن إذًا كذلك. بوجود هذا الضباب من فوق رؤوسنا، فإن أيَّ ذكرى تظلُّ غالية وعلينا التشبُّث بها.
- يشغلني ما حلَّ بذلك الرداء، فطالما كنتِ حريصة عليه للغاية.
- إنه رداء، يا أكسِل، ومثله مثل أيِّ رداء آخر يجب أن يكون قد بليَ بفعل السنين.
- ألم نفقده في مكان ما؟ ربما نسيناه فوق صخرة تحت الشمس؟
- تذكَّرت هذا الآن، حتى أنني لمتك بشدَّة على ضياعه.
- أعتقد أنك فعلت، يا أميرة، رغم عجزي الآن عن التفكير بأيِّ وجه حقٍّ فعلت ذلك.

- أوه، أكسِل، إنه لأمر مطمئن أن يكون ما زال بوسعنا تذكُّر ولو القليل، بوجود الضباب أو من دونه. لعلَّ الربَّ سمعنا وهو يسرِّع في مساعدته لنا على التذكُّر.
- وسنتذكَّر أكثر وأكثر، يا أميرة، عندما نركِّز في ذلك. لن يكون هناك ملَّاح خبيث ليتحايل علينا، حتى وإن جاء يوم ورغبنا فيه بثرثرته الحمقاء تلك. لكن، لننهِ طعامنا الآن فقد ارتفعت الشمس وتأخَّرنا في الانطلاق نحو ذلك الطريق المرتفع.

***

كانا في طريق العودة إلى بيت آيفور، ولمَّا تجاوزا البقعة التي كادا يتعرَّضان فيها للعدوان ليلة أمس، سمعا صوتًا ينادي عليهما من الأعلى. مسحا محيطهما بنظرات خاطفة، فأبصرا وِسْتِن فوق شرفة للحراسة، رابضًا كطائر فوق منصَّة المراقبة. هتف المحارب لهما:

- يسرُّني أنكما لم ترحلا بعد أيُّها الصديقان.

ردَّ أكسِل بصوت عالٍ، مقتربًا بضع خطوات من السور:

- ما زلنا هنا، لكننا في عجلة من أمرنا وسننطلق قريبًا. وأنت أيُّها السيِّد؟ هل ستقضي اليوم هنا طلبًا للراحة؟
- يجب أن أنطلق أنا أيضًا بعد قليل. لكن إن سمحت لي، أيُّها السيِّد، أودُّ اقتطاع شيء من وقتك لأجل حديث قصير، وسأكون شاكرًا للغاية. كما أعدك بأني لن أطيل عليك.

تبادل أكسِل وبياترِس النظر، ثم قالت بصوت منخفض:

- تحدَّث معه إن شئت يا أكسِل. أما أنا فسأعود إلى بيت آيفور لتجهيز ما نحتاجه من مؤونة.

أومأ أكسِل ثم استدار نحو وِسْتِن هاتفًا:

- حسنًا أيُّها السيِّد. أترغب في أن أصعد إليك؟

- كما تحبُ أيُّها السيِّد. سأكون سعيدًا بالنزول إليك، لكنَّ هذا الصباح رائع، والمنظر الذي يقابلني خلَّاب للغاية، ويجعل المرء في مزاج رائق. إن لم يكن في صعود السلَّم من مشكلة، فإنني أحثُّك على الانضمام إليَّ.

قالت بياترِس بصوت منخفض:

- اصعد يا أكسِل واعرف منه ما يريد. لكن كن على حذر، ولا أعني بذلك السلَّم فقط.

صعد السلَّم بانتباه شديد حتى وصل المحاربَ الذي كان ينتظره بيد ممدودة. وقف أكسِل بحرص فوق المنصَّة الضيِّقة، ولما نظر إلى أسفل رأى بياترِس تراقبه في الأسفل. لم تتزحزح من مكانها إلَّا بعد أن لوَّح لها بحرارة، ثم انطلقت بشيء من التردُّد نحو بيت آيفور - الذي بدا واضحًا الآن من الموقع الذي يطلُّ منه على القرية بأكملها. تابعها بنظره للحظة، ثم استدار وتأمَّل ما يقابله من فوق حافَّة السور.

قال وِسْتِن، لدى وقوفهما جنبًا إلى جنب في مواجهة الريح:

- أترى أني لم أكذب عليك، أيُّها السيِّد. المنظر رائع على امتداد البصر.

ولعلَّ ما قابلهما من مشهد في ذلك الصباح ما كان ليختلف كثيرًا لو أنهما أطلَّا عليه من النوافذ العالية لبيت إنجليزي ريفيٍّ في يومنا الحاضر. كان الرجلان سيبصران، إلى يمينهما، جانب الوادي الهابط بحواف متدرِّجة خضراء مألوفة، بينما إلى أقصى اليسار، سيبدو المنحدر المقابل، المغطَّى بأشجار الصنوبر، أشدَّ ضبابية، لبُعد المسافة، ولتداخله مع الجبال في صفحة الأفق البعيد. أمَّا ما كان يقابلهما مباشرة، فمنظر مفتوح على طول بطن الوادي؛ للنهر المتعرِّج برفق في لحاقه بالممرِّ لدى غيابه عن البصر؛ لمدى البرِّية الرحب الذي تقطع امتداده رقعتان، إحداهما لبركة والأخرى لبحيرة في المدى البعيد. وستكون قرب الماء أشجار من الدردار والصفصاف وغابات كثيفة، مما كان في تلك الأيَّام كفيلًا بإثارة الهواجس في النفوس. أما في البقعة التي تبتلع فيها

الظلال أشعَّة الشمس على الضفَّة اليسرى للنهر فستبدو أطلال قرية مهجورة منذ زمن بعيد.

قال وِسْتِن:

- قطعت البارحة جانب هذا التلِّ، فأطلقت فرسي قوائمها للريح وكأن ما دفعها إلى ذلك شعور طاغٍ بالفرح. طارت بي عبر الحقول، متجاوزة البحيرة والنهر، فحلَّقت نفسي غبطة وسرورًا. أمر عجيب، شعرت كما لو كنت عائدًا إلى مشاهد من حياة سابقة، رغم أني، وعلى حدٍّ علمي، لم أزر هذا البلد قطُّ. أيمكن أن أكون قد عرَّجت على هذا الطريق بينما كنت صبيًّا أصغر من أن يدرك مكان وجوده وأكبر من ألَّا يسجِّل ذهنه هذه المشاهد؟ أشعر كما لو أن هذه البرِّية وتلك الأشجار وحتى السماء نفسها تتشبَّث بتلابيب ذكريات ضائعة.

ردَّ أكسِل:

- هذا جائز، لأن هذا البلد يحمل كثيرًا من السمات المشتركة مع ذلك الأبعد غربًا حيث ولدتَ.
- هذا ممكن، أيُّها السيِّد. إذ ليس لدينا من تلال تُذكر في الـفَنْلاند، كما تفتقد الأشجار والحشائش فيها إلى هذا اللون الماثل أمامنا الآن. لكن أثناء ذلك العدو الضاجِّ بالفرح انكسرت حدوة فرسي، ورغم أن الأهالي الطيِّبين هنا تفضَّلوا عليها بحدوة جديدة، إلَّا أني مجبر على قيادتها برفق لأن حافرها مصاب. في الواقع، أيُّها السيِّد، لم أجلبك إلى الأعلى لإبداء الإعجاب بالبلد فقط، بل لنكون بعيدين عن مسامع الفضوليين. أحسب أنك بحلول هذا الوقت قد سمعت بما جرى للغلام إِدْوِنْ؟
- أخبرنا السيِّد آيفور، ووجدناها أنباء مؤسفة عقب تدخُّلك الشهم.
- لعلَّك تعرف أيضًا كيف ناشدني كبار القرية، بعد شعورهم باليأس ممَّا قد يحصل للغلام هنا، كي آخذه معي عند رحيلي اليوم عن القرية.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

طلبوا مني أن أترك الغلام في قرية بعيدة، بعد أن أنسج قصَّة ما حول عثوري عليه تائهًا جائعًا في الطريق. كنت سأفعل عن طيب خاطر، لكنني أخشى أن خطَّة كهذه لن تؤدِّي إلى إنقاذه. إذ سيشيع الخبر بسهولة في طول البلاد وعرضها، ولن يمرَّ شهر أو سنة إلَّا ويجد الغلام نفسه في محنة اليوم ذاتها، بل ستكون أكثر بشاعة، نظرًا لقصر مدَّة وصوله والجهل بحسبه ونسبه. هل تدرك ما أرمي إليه يا سيِّدي؟

- تخوُّفك من مآل كهذا هو الصواب بعينه، سيِّد وِسْتِن.

بينما كان يحدِّق أثناء حديثه إلى المنظر الطبيعي من أمامه، دفع المحارب خصلة متشابكة من شعره إلى الوراء بعد أن قذفتها الريح في عرض وجهه. ولدى قيامه بذلك، بدا فجأة وكأنه رأى شيئًا ما في قسمات أكسِل نفسها، وللحظة قصيرة، نسي ما كان سيقوله. تفرَّس في وجه أكسِل باهتمام بالغ وقد مال برأسه. ثم أطلق ضحكة صغيرة، وقال:

- عذرًا أيُّها السيِّد، تذكَّرت الآن شيئا ما. لكن بالعودة إلى ما كنَّا نتكلَّم فيه، فإنني لم أكن أعرف أي شيء عن هذا الغلام قبل ليلة أمس، لكنني أعجبت برباطة جأشه في مواجهة ما حلَّ به من هولٍ بعد الآخر. إن رفيقيَّ ليلة أمس، على ما تحلَّيا به من شجاعة خلال انطلاقنا في مهمَّتنا، شلَّهما الخوف عند اقترابنا من موضع العفاريت المردة. أمَّا الغلام، في المقابل، ورغم تركه تحت رحمة العفاريت لساعات طويلة، بقي ثابت الجنان على نحو أثار عجبي. سيؤلمني جدًّا التفكير في أن مصيره الآن بات محسومًا. ولهذا بحثت عن مخرج من هذا المأزق، وإن وافقت أنت وزوجتك الطيِّبة على تقديم يد العون، فربما تسير كل الأمور على ما يرام.

- نحن متحمِّسان لبذل ما في وسعنا، أيُّها السيِّد. أسمعني ما تودُّ اقتراحه.

- عندما طلب مني الكبار أخذ الغلام إلى قرية بعيدة، كانوا يقصدون قطعًا قرية ساكسونية. وهنا تكمن المشكلة بالضبط، فالغلام لن يكون

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

في مأمن أبدًا في أي قرية ساكسونية، لأن الساكسون هم من يؤمن بتلك الخرافة المتعلِّقة بالعضَّة التي يحملها. لكنه، مع ذلك، إن تُرك بين البريتون، الذين ينظرون إلى هذه السخافة على ما هي عليه، فلن يكون من خطر على حياته، حتى ولو طاردته القصَّة إلى هناك. إن بنيته قويَّة، وكما ذكرت، يتمتَّع أيضًا بشجاعة مذهلة، وإن كان مقلًا في الحديث. سيكون عونًا لأي قوم يحلُّ بينهم فور وصوله. والآن، أيُّها السيِّد، ذكرت لي سابقًا بأنك متَّجهٌ شرقًا نحو قرية ابنك. أتصوَّر أن هذه ستكون قرية مسيحية كالتي نبحث عنها بالضبط. ولو ناشدت أنت وزوجتك أهل تلك القرية لقبول بقاء الغلام بينهم، ربما بمساعدة من ابنكم أيضًا، فمن شأن هذا وبالتأكيد تأمين خاتمة طيِّبة لهذه المسألة. قد يقبل هؤلاء الناس الطيِّبون باستلام الغلام مني، ولكن في هذه الحالة سأكون شخصًا غريبًا بالنسبة لهم، وقد يُثير هذا خوفهم وظنونهم. فضلًا عن ذلك، فإن المهمَّة التي حملتني إلى هذا البلد تحول بيني وبين السفر بعيدًا نحو الشرق.

- تقترح إذًا أن آخذ أنا وزوجتي الغلام من هنا.
- هذا ما أقترحه بالفعل، أيُّها السيِّد. مع ذلك، مهمَّتي تسمح لي بالسفر لجزء ما من الطريق نفسه. ذكرت أنك ستسلك الطريق الجبليَّ. سأكون سعيدًا بمرافقتكم، أنتما والغلام، حتى الجانب الآخر على الأقل. سيثقل وجودي عليكم وستكون صحبتي مزعجة من دون شكٍّ، لكن يجب ألَّا ننسى أن سلوك الجبال أمر ينطوي على مخاطر معروفة، وحينذاك قد يكون سيفي في خدمتكما. كما بإمكاني حمل متاعكما فوق الفرس، فهي وإن كانت تعاني من حافرها، لكنها لن تشتكي من ذلك. ما رأيك أيُّها السيِّد؟
- أعتقد أنها فكرة ممتازة. عندما سمعنا أنا وزوجتي بمحنة الغلام أصابنا الكدر، وسنفرح إن كان بوسعنا تقديم يد العون وصولًا إلى حلٍّ ما. ما

تقوله يا سيِّدي هو عين الصواب، قطعًا، سيكون الغلام بين البريتون أكثر أمنًا. ليس لدي أدنى شكٍّ في أنه سيُستقبل بحرارة في قرية ابني، فهو يُعدُّ هناك شخصية تحظى بالاحترام، وهو عمليًّا في عداد كبار القرية ويحظى بما يتمتَّعون به عدا العمر. إنني على ثقة بأنه سيزكِّي الغلام ويؤمِّن له حسن الاستقبال.

- أشعر بارتياح كبير الآن. سأُطلع السيِّد آيفور على خطَّتنا، وسأبحث عن طريقة لإخراج الغلام من الحظيرة من دون لفت انتباه أحد. هل أنت وزوجتك جاهزان للرحيل بعد قليل؟
- أجل، إن زوجتي تجهِّز الآن ما نحتاجه من زاد.
- إذًا أرجو أن تنتظرا قرب البوَّابة الجنوبية. سأمضي إلى هناك بعد قليل برفقة فرسي والصبيِّ إدْوِنْ. دعني أعبِّر لك عن امتناني لمساهمتك في حمل جزء من هذه المشكلة. كما أنني سعيد بأننا سنكون رفاق سفر ليوم أو اثنين.

الفصل الرابع

لم يسبق له أن رأى قريته من مثل تلك المسافة وذاك الارتفاع قطُّ، فأثار المنظر الدهشة في نفسه. بدت وكأنها شيء يمكن التقاطه بيده، فبسط وقبض أصابعه صوبها مجرِّبًا عبر ضباب الضحى. كانت العجوز، التي راقبته بقلق أثناء تسلُّقه، ما تزال أسفل الشجرة، ونادت عليه كي لا يعلو أكثر. لكنَّ إدْوِنْ تجاهلها، فمعرفته بالأشجار تفوق معرفة أي شخص آخر. حين أوكل إليه المحارب مهمَّة المراقبة، عمد إلى اختيار شجرة الدردار بعناية فائقة، عارفًا بأنها رغم مظهرها السقيم، سوف تستجمع قوَّتها المتوارية عن الأنظار وترحِّب به. كما كانت، علاوة على ذلك، توفِّر الإطلالة الأمثل على الجسر، وعلى طريق الجبل المؤدِّي إليه، ولهذا كان قادرًا بوضوح على رؤية الجنود الثلاثة خلال حديثهم مع الخيَّال. والآن ترجَّل الأخير عن جواده المتململ، وقبض على لجامه، ثم انخرط في جدال عنيف مع الجنود.

كان يعرف أشجاره - وشجرة الدرار هذه تشبه ستيفا تمامًا. «ليحملوه ويلقوا به في الغابة كي يتعفَّن،» هذا ما كان الصبية الأكبر منه يردِّدونه دومًا بحقِّ ستيفا. «أليس هذا ما يحصل لكل من هو عجوز كسيح عاجز عن العمل؟» لكنَّ إدْوِنْ كان ينظر إلى ستيفا على ما كانَهُ: محاربًا قديمًا، ما زال قويًّا في الخفاء، وقدرته على الفهم تفوق حتى ما لدى كبار القرية أنفسهم. ستيفا، هو الوحيد في القرية، الذي عرف ساحات الوغى في الماضي - وساحات الوغى تلك

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

هي التي اختطفت ساقيه - وهذا، بدوره، هو السبب الذي مكّن ستيفا من رؤية إدْوِنْ على ما كانَهُ. هناك صبيان آخرون أقوى منه، ممن قد يسلُّون أنفسهم أحيانًا بتثبيت إدْوِنْ أرضًا وضربه. لكنَّ إدْوِنْ، وليس أيًّا منهم، هو من كان يمتلك روح المقاتل.

قال له ستيفا العجوز ذات مرَّة: «راقبتك أيُّها الصبيُّ. تحت عاصفة من اللكمات، عيناك ظلَّتا هادئتين، كما لو كانتا تحفظان كل لكمة عن ظهر قلب. عينان رأيتهما فقط في وجوه خيرة المحاربين وهم يتحرَّكون ببرود عند احتدام المعركة. يومًا ما وعن قريب ستصبح أنت من يثير الرعب في القلوب».

والآن بدأ ذلك. بدأ ذلك في التحقُّق، تمامًا كما تنبَّأ ستيفا.

حين مالت الشجرة تحت وطأة الريح، نقل إدْوِنْ قبضته إلى غصن آخر، وحاول ثانية استعادة أحداث ذلك الصباح. انقبض وجه عمَّته متجاوزًا حدود التعرُّف عليه. وفي تلك اللحظة، رفعت عقيرتها عليه بلعنة، لكن الكبير آيفور لم يدعها تكمل ودفعها بعيدًا عن مدخل الحظيرة، سادًّا مجال رؤية إدْوِنْ لها عند قيامه بذلك. طالما عاملته عمَّته بطِيبة، لكنها إنْ أرادت أن تلعنه الآن، لما عناه الأمر. لقد حاولت حمله منذ أمد غير بعيد على مناداتها بـ «أمِّي»، لكنه لم يفعل ذلك أبدًا. لأنه يعرف أن أمَّه الحقيقية مسافرة. أمُّه الحقيقية ما كانت لتصرخ فيه بتلك الطريقة، وما كانت لتُجرَّ بعيدًا على يد الكبير آيفور. وفي هذا الصباح، داخل الحظيرة، سمع صوت أمِّه الحقيقية.

كان الكبير آيفور قد دفعه إلى الداخل، إلى قلب الظلام، ثم أُغلِقَ الباب، مغيِّبًا وجه عمَّته المكفهرَّ - وسائر الوجوه الأخرى. في البداية، بدت العربة كهيئة سوداء رابضة وسط الحظيرة. لكنه شيئًا فشيئًا ميَّز أسطحها، ولما بلغها متحسِّسًا طريقه بيديه، بدا له ملمس خشبها رطبًا عفنًا. في الخارج، ضجَّت الأصوات بالصياح، ثم علا ضجيج الطقطقة. صدر أوَّلًا بشكل عشوائي متفرِّق، ثم تحوَّل إلى رشقات متتالية، صاحبها صوت تصدُّع، وعلى إثره بدت الحظيرة أقل عتمة بقليل.

أدرك إدْوِنْ أن ذلك الضجيج ما هو سوى صوت حجارة ترجُم جدران الحظيرة المتداعية، لكنه تجاهله كيما يركِّز في العربة من أمامه. كم مرَّ من الوقت منذ استُخدمت لآخر مرَّة؟ لماذا تقف على هذا النحو المعوجِّ للغاية؟ وإن كان لا نفع منها الآن، فما الغاية من الاحتفاظ بها هكذا في الحظيرة؟

كانت تلك هي اللحظة التي سمع فيها صوتها: صَعُبَ عليه تمييزه في البداية، بسبب ضوضاء الخارج وأصوات الحجارة، لكنه صار شيئًا فشيئًا أكثر وضوحًا. كانت تقول:

- لا عليك يا إدْوِنْ، لا عليك أبدًا. بوسعك تحمُّل كل هذا ببساطة.

قال في الظلام، وإن بتمتمة بينه وبين نفسه، حتى لدى مسح يده جانب العربة:

- لكن، قد لا يتمكَّن كبار القرية من صدِّهم إلى الأبد.
- لا عليك يا إدْوِنْ، لا عليك أبدًا.
- وقد تحطِّمُ الحجارةُ هذه الجدران الرقيقة.
- لا تقلق يا إدْوِنْ. ألا تعرف؟ هذه الحجارة تحت سيطرتك. انظر، ما هذا الشيء أمامك؟
- عربة قديمة مهترئة.
- حسنًا إذًا، هيًا. دُرْ حول العربة ودُرْ يا إدْوِنْ. دُرْ حول العربة ودرْ، لأنك أنت البغل المربوط بالعجلة الكبيرة. دُرْ ودُرْ يا إدْوِنْ. العجلة الكبيرة تستطيع الحركة فقط إن حرَّكتَها، وفقط إن حرَّكتها تستطيع الحجارة الاستمرار في الهطول. دُرْ حول العربة ودُرْ يا إدْوِنْ. دُرْ حول العربة ودُرْ ودُرْ.
- لماذا يجب أن أدير العجلة يا أمِّي؟

حتى عند نطقه بتلك الكلمات، كانت قدماه قد شرعتا في الدوران حول العربة.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- لأنك أنت البغل يا إدْوِنْ. دُرْ ودُرْ. ضجيج التصدُّع الحادُّ الذي تسمعه، لا يمكن أن يستمرَّ ما لم تَدُرْ العجلة. أدرها، يا إدْوِنْ، ودُرْ ودُرْ. دُرْ حول العربة ودُرْ.

وهكذا امتثل لأمرها، مبقيًا يديه على حافَّة العربة العلوية، وناقلًا يدًا من فوق أخرى حفاظًا على زخم حركته. كم مرَّة دار على هذا النحو؟ مئة؟ مئتين؟ أثناء ذلك، ظلَّ بصره يقع، في إحدى الزوايا، على حُدبة غامضة من الأرض؛ وفي أخرى، حيث كان شعاع رفيع من ضوء الشمس قد وقع فوق أرضية الحظيرة، على غراب نافق ممدَّد على جنبه، وريشه على حاله. وسط الظلام غير الدامس، دار هذان المنظران - حُدبة الأرض والغراب النافق - معه مرَّات ومرَّات.

وذات مرَّة سأل بصوت عالٍ:

- هل لعنتني عمَّتي حقًّا؟

لكنه لم يتلقَّ جوابًا، فتساءل إن كانت أمُّه قد ذهبت. لكنَّ صوتها عاد من جديد:

- قُمْ بما عليك من واجب، يا إدْوِنْ. أنت البغل. لا تتوقَّف الآن، ليس بعد. بيدك مفتاح السيطرة على كل شيء. إن توقَّفت، سيتوقَّف أيضًا هذا الضجيج. لمَ الخوف منهم إذًا؟

دار أحيانًا حول العربة ثلاث أو حتى أربع مرَّات من دون سماع صوت تصدُّعٍ واحد. لكن، بعدئذ كما لو من باب التعويض، كانت أصوات تصدُّع عديدة تعلو دفعة واحدة، والصراخ في الخارج يرتفع معها درجة أعلى.

كان قد سأل مرَّة واحدة:

- أين أنت يا أمِّي؟ أما زلتِ مسافرة؟

لم يأتِه ردٌّ، لكن بعد لفَّات عديدة، قالت:

- وددتُ أن أمنحك إخوة وأخوات يا إدْوِنْ، الكثير منهم. لكنك وحيد. ولهذا التمس القوَّة في نفسك لأجلي. بلغت الثانية عشرة من العمر،

وتكاد تبلغ أشدَّك. يجب أن تعادل أنت وحدك أربعة أو خمسة أبناء أقوياء أشدَّاء. تحلَّى بالقوَّة وتعالَ وأنقذني.

عندما طوَّحت الريح شجرة الدردار ثانية، تساءل إدْوِنْ إن كانت الحظيرة التي مكث فيها هي تلك التي اختبأ فيها الناس يوم مجيء الذئاب إلى القرية. لقد روى له ستيفا العجوز تلك القصَّة مرارًا:

- كنت صغيرًا جدًّا حينذاك، أيُّها الصبيُّ، ربما أصغر من أن تتذكَّر. ذئاب، في وضح النهار، ثلاثة منها، تمشي بهدوء واطمئنان إلى قلب القرية.

وعند هذا الحدِّ كان صوت ستيفا يفيض ازدراء واحتقارًا:

- وأهل القرية يختبئون بخوف. بعض الرجال بعيدون في الحقول، هذا صحيح. لكن العديد منهم كان ما زال هنا. اختبؤوا في حظيرة درس الحبوب. لا النساء والأطفال فقط بل الرجال أيضًا. الذئاب لها أعين عجيبة، قالوا. الأفضل عدم تحدِّيها. وهكذا نالت الذئاب كل ما اشتهته. فتكت بالدجاج، وصنعت وليمة من الغنم. وطوال ذلك كلِّه، والقرية مختبئة. البعض في بيوتهم. والغالبية في حظيرة درس الحبوب. كسيحًا كما أنا، تركوني حيثما كنت، جالسًا في عربة، وهاتان الرجلان المعطوبتان تطلَّان منها، جنب خندق الماء عند بيت السيِّدة مِندرِد. هرولت الذئاب نحوي. تعالي والتهميني، قلت، لن أختبئ في حظيرة خوفًا من ذئب. لكنها لم تكن مهتمَّة بي. راقبتها وقد مرَّت، فراؤها مسَّ هاتين القدمين العقيمتين. أخذت كل ما اشتهته، وبعد رحيلها بوقت طويل فقط زحف هؤلاء الرجال الشجعان من مخابئهم. ثلاثة ذئاب في وضح النهار، وليس من رجل هنا للوقوف في وجهها.

فكَّر في قصَّة ستيفا أثناء دورانه حول العربة. ثم سأل ثانية:

- هل ما زلتِ على سفر يا أمِّي؟

ومرَّة ثانية لم يأته جواب. بدأت رجلاه تصابان بالإعياء، واستبدَّ به الضجر من رؤية حُدبة الأرض والغراب النافق، عندما قالت أخيرًا:

- يكفي يا إدْوِنْ. عملت بجدٍّ واجتهاد. استدعِ محاربك الآن إن شئت. ضع نهاية للأمر.

تنفَّس إدْوِنْ الصعداء عند سماع ذلك، لكنه تابع الدوران حول العربة. فاستدعاء وِسْتِن، كما يعرف، أمر يتطلَّب مجهودًا جبَّارًا. وحسبما فعل ليلة البارحة، عليه أن يستحضر إرادة مجيئه من أعماق قلبه.

لكنه بصورة أو بأخرى تمكَّن من العثور على القوَّة في نفسه، وفي اللحظة التي أيقن فيها بأن المحارب في طريقه، أبطأ إدْوِنْ الخُطى - إذ حتى البغال تصاب بالبطء في آخر النهار - ولاحظ برضى أن أصوات التصدُّع آخذة بالخفوت. لكنه لم يتوقَّف عن الدوران إلَّا بعد أن ساد الصمت ولمدَّة طويلة، وعندئذ استند إلى جنب العربة ملتقطًا أنفاسه. ثم فُتح باب الحظيرة، ووقف المحارب هناك ومن ورائه نور الشمس المبهر.

دخل وِسْتِن تاركًا الباب من خلفه مفتوحًا على مصراعيه، وكأنما تقصَّد إبداء احتقاره لكل قوى العداء التي تجمَّعت مؤخرًا في الخارج. تسلَّلت رقعة مستطيلة ضخمة من الضوء إلى داخل الحظيرة، وعندما ألقى إدْوِنْ نظرة خاطفة من حوله، بدت العربة، بما كان لها من حضور طاغٍ في العتمة، متهالكة إلى حدٍّ يدعو إلى الرثاء. هل دعاه وِسْتِن بـ «الرفيق الشابّ» على الفور؟ لم يكن إدْوِنْ متأكِّدًا، لكنه يتذكَّر أن المحارب قاده إلى رقعة الضوء، ثم رفع قميصه متفحِّصًا جرحه. وبعد أن اعتدل وِسْتِن، مختطفًا بحذر نظرة من فوق كتفه، قال بصوت منخفض:

- إذًا، يا صديقي الشابَّ، هل حافظت على ما قطعته من وعد ليلة أمس؟ بشأن جرحك هذا؟
- أجل يا سيِّدي. نفَّذت ما قلتَه لي بالضبط.
- لم تخبر أي أحد، حتى عمَّتك الطيِّبة؟
- لم أخبر أحدًا يا سيِّدي. رغم أنهم يظنُّون أنها عضَّة غول ويكرهونني بسببها.

- دعهم يواصلون الاعتقاد بهذا، أيُّها الرفيق الشاب. سيكون الوضع أسوأ عشر مرَّات لو عرفوا حقيقة إصابتك به.
- لكن ماذا عن عمَّيَّ اللذين جاءا معك يا سيِّدي؟ ألا يعرفان الحقيقة؟
- عمَّاك، رغم شجاعتهما، أقعدهما ما انتابهما من مرض عن دخول بقعة التخييم. لهذا نحن الاثنان فقط علينا كتمان هذا السرِّ، وحال التئام الجرح لن يكون هناك ما يثير تساؤل أي أحد. حافظ عليه نظيفًا قدر ما أمكن، ولا تحكَّه أبدًا، لا ليًلا ولا نهارًا. هل تفهم؟
- أفهم يا سيِّدي.

في السابق، أثناء تسلُّق جانب الوادي، توقَّف إدْوِن لمنح العجوزين البريتونيَّين فرصة اللحاق به، وحاول تذكُّر الظروف التي أدَّت إلى إصابته بالجرح. في تلك المرَّة، أثناء وقوفه وسط شجيرات الخلنج الهزيلة ممسكًا برسن فرس وِسْتِن، لم يتشكَّل بوضوح أي شيء في ذهنه. لكن الآن، وهو فوق أغصان شجرة الدردار، محدِّقًا إلى الهيئات الصغيرة عند النهر في الأسفل، أحسَّ إدْوِنْ في داخله باسترجاع النتانة الباردة والظلمة المطبقة؛ الرائحة الطاغية لجلد الدبِّ الذي كان يغطِّي القفص الخشبي الصغير؛ الإحساس بتساقط الخنافس الصغيرة فوق رأسه وكتفيه كلما ارتجَّ القفص. استرجع محاولاته في التشبُّث بالواجهة المهتزَّة لتفادي السقوط أثناء جرِّ القفص فوق الأرض. وبعد ذلك، خيَّم السكون من جديد، وانتظر أن يُرفع جلد الدبِّ، ليتدفَّق الهواء البارد من حوله، وليلقي نظرة خاطفة على الليل تحت وهج النيران المجاورة. هذا ما كان قد حصل مرَّتين في تلك الليلة، وتكراره انتزع الحدَّة من خوفه. تذكَّر المزيد: رائحة الغيلان المقزِّزة، وهجوم الكائن الشرس الصغير على قضبان القفص المتداعية، مرغِمًا إدْوِنْ على التقهقر إلى أقصى الوراء.

انقضاض ذلك الكائن بسرعة خاطفة منعه من التقاط صورة واضحة له. إلَّا أنَّ هيئته كانت توحي بشيء يشبه الديك في حجمه وشكله، ولكن من دون منقار أو ريش. هاجمه بأنياب ومخالب، مطلقًا زعيقًا حادًّا طوال الوقت. وضع إدْوِنْ

ثقته في القضبان الخشبية لحمايته من الأنياب والمخالب. ولكن، بين الحين والآخر، كان ذيل الكائن الصغير يسوط القفص بمحض الصدفة، وحينذاك يصبح كل شيء أكثر هشاشة. ومن حسن الحظِّ أن الكائن - الذي ما زال يافعًا، على ما خمَّنَ إدْوِنْ - لم يفطن لما في ذيله من قوَّة.

ومع أن تلك الهجمات بدت حينذاك وكأنها استمرَّت إلى الأبد، رأى إدْوِنْ الآن أنها ما كانت تدوم طويلًا قبل سحب الكائن من طوقه إلى الخلف. وبعدئذ يهبط جلد الدبِّ مرتطمًا بسطح القفص، ويعمُّ الظلامُ كل شيء ثانية، ويضطرُّ إلى التشبُّث بالقضبان عند جرِّ القفص إلى بقعة أخرى.

كم مرَّة كان عليه احتمال تعاقب هذا المسلسل؟ مرَّتين أو ثلاثًا فقط؟ أم نحو عشر مرَّات، أو حتى إحدى عشرة مرَّة ؟ لعلَّه بعد المرَّة الأولى وقع في أسر النوم، رغم تلك الظروف، وحلم بالهجمات الباقية.

ثم وفي ذلك الهجوم الأخير، لم يُرفع جلد الدبِّ لمدَّة طويلة من الوقت. انتظر، أصخى السمع إلى زعيق الكائن، أحيانًا بعيدًا جدًّا، وأحيانًا أقرب بكثير، وإلى زمجرة الغولين أثناء تجاذب الحديث، وأدرك وقتها أن أمرًا مختلفًا على أهبَّة الوقوع. كانت تلك اللحظات المشحونة بترقُّب مهول هي التي لجأ فيها إلى التماس قدوم منقذ لنجدته. رفع التماسه من صميم كل ذرَّة في وجدانه، وكان أقرب ما يكون إلى الدعاء، وما إن اتَّخذ شكلًا في ذهنه، حتى تيقَّن من أنه سيُستَجاب.

وفي تلك اللحظة بالضبط بدأ القفص بالارتجاج، وأدرك إدْوِنْ أن الواجهة الأمامية برمَّتها، مع قضبانها الواقية، تُزاح جانبًا. ارتدَّ إدْوِنْ إلى الخلف منكمشًا، ثم أُزيح جلد الدبِّ وطار الكائن الشرس مندفعًا نحوه. في وضعية جلوسه تلك، كانت غريزته تقضي برفع رجليه والركل بهما، لكن الكائن انقضَّ بسرعة خاطفة، فلم ينتبه إلَّا وهو يكيل له الضربات بذراعيه وقبضتيه. ولمَّا ظنَّ بأن المخلوق نال منه، أغلق عينيه للحظة، لكن حين فتحهما ثانية رأى خصمه ينهش الهواء بأنيابه لدى جرِّه من طوقه إلى الخلف. كانت تلك من المرَّات القليلة التي مكَّنته

من اختطاف نظرة جيّدة للكائن، فرأى حينذاك أن انطباعه السابق كان دقيقًا: كان يشبه دجاجة منتوفة، لكن له رأس ثعبان عربيد. هاجمه من جديد، فعاود إدْوِنْ ضربه بأقصى طاقته. وعلى حين غرَّة، أُنزلت واجهة القفص من أمامه، ورماه جلد الدبِّ في غياهب الظلام. عقب ذلك فقط، وجسمه ملتفٌّ على نفسه داخل القفص الصغير، أحسَّ بوخز في جانبه الأيسر، تمامًا أسفل الضلوع، وبرطوبة دبقة هناك.

عدَّل إدْوِنْ موطئ قدميه فوق شجرة الدردار ثانية، ثم أنزل يده اليمنى، متحسِّسًا جرحه برفق. لم يعد هناك أي ألم حادٍّ. أثناء تسلُّق جانب الوادي، حملته خشونة قميصه أحيانًا على التقطيب، لكن عند وقوفه ساكنًا من دون حراك، كما هو الآن، كان لا يكاد يشعر بشيء. وحتى لما كان في الحظيرة هذا الصباح، وفحصه المحارب في مدخلها، لم يبدُ الجرح سوى كتلة عنقودية من الثقوب الصغيرة كوخز الإبر. كان جرحًا سطحيًا - ليس ببشاعة العديد من جراحه السابقة. ومع ذلك، لأن الناس صدَّقت بأنه عضَّة غول، تسبَّب له في كل هذه المتاعب. لو أنه واجه الكائن بتصميم وعزم أشد، لتمكَّن ربما من تجنُّب الإصابة بأي جراح.

لكنه يعرف بأن مواجهته لمحنته لم تكن مخزية على الإطلاق. فهو لم يصرخ من الرعب قطُّ، أو يستجدي الرحمة من الغولين. وبعد هجمات الكائن الصغير الأولى - التي أخذته على حين غرَّة - واجه إدْوِنْ برأس مرفوع. بل كان ما لديه من حضور الذهن كافيًا ليلاحظ صغر عمر الكائن، وأن من الممكن إلقاء الرعب في نفسه، تمامًا كما قد يصنع المرء مع كلب جامح. ولهذا أبقى على عينيه مفتوحتين وحاول صدَّه عبر التحديق إليه. كان يدرك أن هذا بالتحديد سيحمل أمَّه على الافتخار به. وبالفعل، الآن وهو يُعمل التفكير في ما حدث، بدا له أن الشراسة التي ميَّزت تلك الجولات الأولى سرعان ما تبدَّدت، وأصبح إدْوِنْ هو من يمسك بزمام المواجهة شيئًا فشيئًا. ثم حضره ثانية نهش الكائن للهواء، وبدا له الآن أن ذلك لم يكن علامة على حماس الكائن لمواصلة القتال،

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

بل من الممكن أنه كان وببساطة ذعرًا من الاختناق بطوقه. ومن الممكن جدًّا، في الواقع، أن الغولين حكما بانتصار إدْوِنْ في تلك المواجهة، ولهذا أنهيا تلك الجولة.

كان ستيفا العجوز قد قال له ذات مرَّة: «راقبتكَ أيُّها الصبيُّ. لديك شيء نادر. ستعثر يومًا ما على من يعلِّمك مهارات تليق بروحك المقاتلة. وحينذاك ستصبح مرهوب الجانب بالفعل. لن تكون رجلًا يختبئ في حظيرة بينما تجوس بضع ذئاب في حمى الديار».

كل ما جرى أصبح في عداد الماضي. أما الآن فوقع اختيار المحارب عليه، وها هما ذاهبان معًا لتنفيذ مهمَّة. لكن بماذا كانا مكلَّفين؟ وِسْتِن لم يُفصح عن التفاصيل، بل اكتفى بالقول إن مَلِكه، بعيدًا في الـفَنْلاند، يترقَّب حتى اللحظة سماع خبر إنجازها. ولمَ السفر برفقة هذين العجوزين من البريتون اللذين يحتاجان إلى استراحة عند كل منعطف؟

نظر إدْوِنْ إليهما في الأسفل. كانا منخرطين في نقاش جدِّي مع المحارب. نسيته العجوز وكفَّت عن محاولة إقناعه بالنزول، وكان ثلاثتهم يراقبون الآن الجنود فوق الجسر مستترين خلف شجرتي صنوبر عملاقتين. من موقعه الأمثل في الأعلى، تمكَّن إدْوِنْ من رؤية الخيَّال يمتطي جواده ثانية ويصدر إشارات في الهواء. ثم ابتعد الجنود الثلاثة عنه، فأدار الخيَّال عنق جواده وانطلق عدوًا بعيدًا عن الجسر، عائدًا إلى الطريق الذي أتى منه صوب أسفل الجبل.

كان إدْوِنْ قد تساءل في السابق عن سرِّ تردُّد المحارب الشديد في سلوك الطريق الجبليِّ الرئيس، مصرًّا على السير في مسالك جانبية مختصرة ولكنها أشدُّ وعورة؛ بات واضحًا الآن أنه كان يحاول تجنُّب خيَّالة مثل من رأوه توًّا. لكن لا يبدو الآن أن ثمَّة طريقًا آخر لاستئناف رحلتهم من دون النزول إلى الطريق، وقطع شلَّال الماء عبر الجسر، تحت سمع وبصر الجنود الموجودين هناك. هل استطاع وِسْتِن من موقعه في الأسفل رؤية رحيل الخيَّال؟ أراد إدْوِنْ لفت نظره إلى هذا التطوُّر، لكنه أحسَّ بأن عليه ألَّا يصرخ من أعلى الشجرة

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

مخافة التقاط الجنود صوته بصورة ما. سيتعيَّن عليه النزول إذًا وإعلام وِسْتِن بالأمر. ربما، عندما كان هناك أربعة خصوم محتملين، تردَّد المحارب في خوض مواجهة، لكن الآن بوجود ثلاثة فقط فوق الجسر، قد يعتبر احتمالات المواجهة في صالحه. لو كان الأمر مقتصًرا على إدْوِنْ والمحارب، لنزلا قطعًا منذ وقت طويل للقاء الجنود، لكن لا بدَّ من أن وجود العجوزين ألزم وِسْتِن أخذ الحيطة والحذر. لا شكَّ في أن وِسْتِن جلبهما معه لسبب وجيه، كما أن معاملتهما لإدْوِنْ حتى الآن طيِّبة، لكنهما على أيِّ حال رفيقا سفر مثيران للإحباط.

تذكَّر ثانية انقباض قسمات وجه عمَّته. وكيف صاحت فيه وهمَّت بلعنه. لكن كل ذلك لم يعد مهمًّا الآن. هوذا مع المحارب الآن، وهو مسافر، تمامًا مثل أمِّه الحقيقية. من بمقدوره الزعم بأنهم قد لا يصادفونها؟ ستكون فخورة برؤيته واقفًا هناك، جنبًا إلى جنب المحارب. أمَّا من يرافقها من رجال فسترتعد فرائصهم خوفًا.

t.me/ktabpdf

الفصل الخامس

بعد تسلُّق شاقٍّ طوال معظم ساعات الصباح، اكتشف الفريق أن طريقهم مسدود بنهر عظيم الجريان. وهكذا هبطوا جزءًا ممَّا صعدوه عبر غابات اكتنفها الضباب بحثًا عن طريق الجبل الرئيس، الذي قدَّروا أن يكون فيه جسر لعبور النهر.

كانوا مصيبين بشأن الجسر، لكنهم حين رأوا الجنود فوقه، قرَّروا الاستراحة وسط أشجار الصنوبر إلى حين رحيلهم. في البداية، لم يبدُ على الجنود أنهم متمركزون هناك في مهمَّة، بل كان منظرهم يوحي بالتوقُّف لأجل إنعاش أنفسهم وجيادهم من شلَّال الماء فقط. لكن الوقت مضى من دون ظهور بوادر على رحيل الجنود. كانوا يتناوبون التمدُّد على بطونهم، ثم اغتراف الماء الجاري من تحت الجسر ونثره على الوجوه؛ أو الجلوس والاستناد إلى جانب الجسر الخشبي ولعب القمار بأحجار النرد. وفي الأثناء، أهلَّ عليهم رابع فوق صهوة جواده، ما حملهم جميعًا على النهوض، وحين بلغهم أصدر لهم أوامر ما.

رغم عدم تمتُّعهم بإطلالة جيِّدة مثل إدْوِنْ من أعلى الشجرة، تمكَّن أكسِل وبياترِس والمحارب من مراقبة كل ما جرى إلى حدٍّ معقول وهم مستترون خلف الأشجار، وعند انطلاق الخيَّال ثانية، تبادلوا نظرات الاستفسار. وعندئذ قال وِسْتِن:

- قد يطيلون المكوث هنا، وأنتما في عجلة لبلوغ الدير.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

ردَّ أكسِل:

- من الأسلم لنا أن نصل إلى هناك مع هبوط الظلام، أيُّها السيِّد. سمعنا بأن التنِّينة كويرِغ تجوب آفاق ذلك البلد، ولا يبقى ليلًا في الخارج إلَّا الحمقى فقط. هل لديك أي فكرة عن هويَّة هؤلاء الجنود؟

- ليس سهلًا تمييز ذلك من هذه المسافة، أيُّها السيِّد، كما أن معرفتي بأزياء الجند في هذا البلد متواضعة. لكني أعتقد أنهم من البريتون، وأظنُّهم من أتباع اللورد برونُس. قد تصحِّح السيِّدة بياترِس معلوماتي هذه.

أجابته بياترِس قائلة:

- إنهم بعيدون ويصعب على عينيَّ الهرمتين تمييزهم. لكني أعتقد أنك على صواب، سيِّد وِسْتِن. فهم يرتدون زيًّا داكنًا كثيرًا ما رأيته على رجال اللورد برونُس.

حينئذ قال أكسِل:

- ليس لدينا ما نخفيه. إن شرحنا لهم سبب حاجتنا إلى العبور، سيتركوننا نمرُّ بسلام.

ردَّ المحارب:

- إنني متأكِّد من هذا.

صمت المحارب لبعض الوقت محدِّقًا إلى الجسر. وفي الأثناء، عاد الجنود إلى الجلوس ثانية، وبدا أنهم على أهبَّة اللعب بأحجار النرد من جديد. ثم استأنف الحديث:

- لكن مع ذلك، إن كنا سنعبر الجسر تحت أعينهم، فدعوني أقترح الآتي. سيِّد أكسِل، ستمشي أنت والسيِّدة بياترِس في المقدِّمة ثم تكلِّم الرجال بحكمة ولباقة. سيتبعكم الغلام ممسكًا برسن الفرس، أما أنا فسأسير إلى جنبه بحنكٍ مرتخٍ كالأبله وعينين زائغتين. يجب أن تقولا للجنود إني أخرس معتوه، وإنني والغلام شقيقان سنعمل في خدمتكما

سدادًا لدين لكما على أهلنا. سأخفي هذا السيف ونطاقه جيِّدًا بين المتاع فوق الفرس. وفي حال عثورهم عليه، تزعمان بأنه ملككما.

سألته بياترِس:

- هل هذه المسرحية ضرورية حقًّا، سيِّد وِسْتِن؟ ربما يُعرف هؤلاء الجنود بالفظاظة، لكننا قابلنا العديد منهم سابقًا ولم نتعرَّض لحادث مؤسف واحد.
- ما من شكٍّ أيَّتها السيِّدة. لكن رجالًا مع أسلحة، وبعيدين جدًّا عن قادتهم، ليس من السهل الوثوق بهم. ثم إنني غريب قد يظنُّونه شخصًا يتحلَّى بما يكفي من روح معنوية لتحمُّل سخريتهم أو تحدِّيهم. لهذا دعونا نطلب من الغلام النزول من فوق الشجرة، ولنفعل ما اقترحته عليكم.

عندما خرجوا من الغابة كانوا على مسافة من الجسر، لكن الجنود أبصروهم مباشرة فهبُّوا وقوفًا.

قالت بياترِس بهدوء:

- سيِّد وِسْتِن، أخشى أن هذا لن يمرَّ على خير. ما زال في هيئتك ما يدلُّ على أنك محارب، رغم كل محاولاتك في أن تبدو كالأبله.
- إنني ممثِّل غير محترف أيَّتها السيِّدة. إن كان لديك ما يساعدني على التنكُّر جيِّدًا، فسأكون سعيدًا بسماعه.
- خطاك الواسعة يا سيِّدي. أنت تمشي كما يمشي المحاربون. حاول أن تستعيض عن ذلك بخطوات صغيرة، ثم أتبعها بخطوة واسعة، وكأنك ستتعثر في أي لحظة أثناء المشي.
- نصيحة جيِّدة، أشكرك أيَّتها السيِّدة. عليَّ ألَّا أتفوَّه الآن بكلمة، وإلَّا فقد يلاحظون أني لست بأخرس. سيِّد أكسِل، تكلَّم معهم بفطنة وذكاء، وشُقَّ لنا طريق المرور من وسطهم.

عند اقترابهم من الجسر، اشتدَّ هدير الماء المنحدر فوق الصخور ومن أسفل أقدام الجنود المنتظرين، فبعث صداه الشؤم في نفس أكسِل. تقدَّم القافلة،

منصتًا من خلفه لخطى الفرس فوق الأرض الطحلبية، ثم أوقف القافلة عندما وصلوا مسافة مناسبة لإلقاء التحيَّة على الرجال.

لم تكن عليهم دروع من زرد أو خوذات، لكن زيَّهم الداكن الموحَّد، وأحزمتهم المشدودة من الكتف الأيمن وحتى الفخذ الأيسر، كانت تعلن عن حرفتهم بجلاء. ومع أن سيوفهم كانت حتى تلك اللحظة في أغمادها، إلَّا أن اثنين منهم وقفا متأهِّبين ويداهما فوق مقبضي سيفيهما. أحدهما قصير ثخين عظيم المنكبين؛ والآخر، شابٌّ لا يكبر إذْونْ بكثير، وفيه أيضًا شيء من القِصَر، وكلاهما حليقا الشعر. على النقيض منهما، كان الجندي الثالث طويل القامة، ذا شعر رمادي طويل، مسرَّح بعناية ومنسدل حتى كتفيه، ومشدود بعصابة داكنة محيطة بجمجمته. لم يكن فارقًا في مظهره فقط، بل كانت تصرُّفاته أيضًا مختلفة إلى حدٍّ لافت عن رفيقيه؛ فقد انتصبا بتشنُّج منذ مدَّة معترضين طريق العبور، فيما بقي هو خلفهما على بعد خطوات عديدة، متَّكئًا باسترخاء على سور الجسر الخشبي، طاويًا ذراعيه فوق صدره، كما لو كان ينصت إلى حكاية خلال السمر ليلًا حول نار مشتعلة.

تحرَّك الجندي القصير الثخين خطوة نحوهم، ولهذا وجَّه أكسِل له التحيَّة:

- نهاركم سعيد أيُّها السادة. لا نضمر شرًّا لأحد ولا نسعى إلَّا وراء استئناف طريقنا بسلام.

لم يردَّ القصير الثخين. ثم تجلَّت على وجهه علامات الارتباك، وراح يحدِّق إلى أكسِل بمزيج من الارتياب والاحتقار. اختطف نظرة إلى الجندي الشابِّ من خلفه، ولمَّا لم يلمح ما يعينه على الردِّ، عاد يحدِّق إلى أكسِل من جديد.

لمس أكسِل شيئًا من الالتباس: كان الجنود يتوقَّعون وصول أشخاص مختلفين تمامًا، وهم لم يدركوا بعد ما وقعوا به من خطأ. لهذا خاطب الجندي المقابل له قائلًا:

- نحن يا سيِّدي فلَّاحون بسطاء متَّجهون نحو قرية ابننا.

مستجمعًا الآن زمام نفسه، ردَّ الجندي القصير الثخين بصوت عالٍ لم يكن له داعٍ:

- من هؤلاء الذين تسافر برفقتهم أيُّها الفلَّاح؟ يبدو أنهم من الساكسون.
- شقيقان عُهد بهما إلينا توًّا، ولا بدَّ لنا من تدريبهما على العمل. كما ترى، أحدهما طفلٌ، والآخر أخرس معتوهٌ، ولهذا مهما قدَّما لنا من عون فسيظلُّ متواضعًا.

أثناء كلام أكسِل، بدا الجندي الطويل ذو الشعر الرمادي وكأنه قد تذكَّر فجأة شيئًا ما، فأزاح نفسه عن سور الجسر، ورأسه مائل إلى جنب من شدَّة التركيز. خلال ذلك، كان الجندي القصير الثخين يحدِّق بغضب إلى ما وراء أكسِل وبياترِس. ثم، وقبضته لمَّا تزل فوق مقبض سيفه، تجاوزهما بخطى واسعة كي يتفحَّص الآخرين. كان إدْوِنْ ممسكًا بالفرس ويراقب تقدُّم الجندي بعينين فارغتين من أي تعبير. أمَّا وِسْتِن فكان يقهقه مع نفسه بصوت عالٍ، وعيناه تتقلَّبان في محجريهما، وفمه فاغرٌ على اتساعه.

نقَّل الجندي الثخين بصره بين الاثنين كما لو كان يبحث عن علامة ما. وعندما استولى عليه اليأس تمامًا، قبض على شعر وِسْتِن وجذبه بحنق شديد ثم صرخ في أذنه:

- ليس من أحد ليقصَّ لك شعرك أيُّها الساكسوني؟

ثم شدَّ وِسْتِن من شعره كما لو كان يحاول حمله على الركوع. ترنَّح وِسْتِن، لكنه تمكَّن من الثبات على قدميه، مطلقًا نشيجًا مثيرًا للشفقة.

قالت بياترِس:

- لا يستطيع الكلام، أيُّها السيِّد، وكما ترى لم يؤتَ من العقل إلَّا قليلًا. إنه وإن كان لا يعترض على خشن المعاملة، إلَّا أنه يُعرف بمزاج حادٍّ لا بدَّ لنا من ترويضه فيما بعد.

أثناء حديث زوجته، صدرت حركة خفيفة من الخلف حملت أكسِل على الاستدارة نحو الجنديين اللذين ما زالا فوق الجسر. رأى في تلك اللحظة الرجل الطويل ذا الشعر الرمادي وقد رفع إحدى ذراعيه؛ كفُّه مشدودة وأصابعها تشير في كل الاتجاهات ثم ارتخت وهوت بشكل لا معنى له. وأخيرًا ترك ذراعه

تسقط إلى جنبه، لكن عينيه ظلّتا تراقبان ما يجري باستنكار. متابعًا ذلك، شعَر أكسِل فجأة بأنه التقط، بل أدرك، ما ألمَّ بالجندي ذي الشعر الرمادي: ما إن كانت عبارات زجر وتوبيخ على أهبَّة الانطلاق من فمه، حتى تذكَّر في اللحظة الأخيرة أنه لا يتمتَّع بسلطة الأمر على زميله الثخين. كان أكسِل واثقًا من أنه مرَّ بتجربة كهذه ذات مرَّة في مكان ما، لكنه طرد هذا الخاطر من رأسه، وقال بنبرة استرضاء:

- لا بدَّ من أنكم مشغولون بمهامكم، أيُّها المحترمون، ونحن نعتذر لإلهائكم عنها. إن سمحتم لنا بالعبور، فسنرحل سريعًا من طريقكم.

لكنَّ الجندي الثخين، مستمرًّا في تعذيب وِسْتِن، ردَّ قائلًا:

- سيكون غبيًّا لو احتدَّ مزاجه تجاهي أنا!

ثم جأر بصوته قائلًا:

- ليفعل وليذوقنَّ ثمن ذلك!

بعد ذلك ترك وِسْتِن أخيرًا في حاله، وعاد بخطى واسعة إلى موقعه فوق الجسر ثانية. لم يتفوَّه بشيء، وبدا مثل رجل غاضب نسي تمامًا لمَ كان غاضبًا.

زاد ضجيج الماء الجاري من توتُّر الأجواء، وتساءل أكسِل في نفسه عمَّا سيفعله الجنود إن استدار وقاد قافلته تجاه الغابة من جديد. لكن في تلك اللحظة بالضبط، تقدَّم الجندي ذو الشعر الرمادي إلى أن أصبح بموازاة رفيقيه وتكلَّم للمرَّة الأولى قائلًا:

- هناك، أيُّها العمُّ، بعض العوارض المكسورة في أرضيَّة هذا الجسر. قد يكون هذا هو سبب وقوفنا هنا، لتحذير الطيِّبين من أمثالكم، وتنبيههم إلى ضرورة العبور بحيطة وحذر، وإلَّا فالسقوط في قعر الوادي وسط الأمواج المتدفِّقة.

- شكرًا لك يا سيِّدي، سنمضي إذًا بحيطة وحذر.

- فرسك، أيُّها العمُّ، أظنُّ أنني رأيتها تعرج حين أقبلتم علينا.

- حافرها مصاب، أيُّها السيِّد، لكننا نرجو ألَّا يكون أمرًا خطيرًا، ولهذا فنحن لا نمتطيها كما ترى.

- تعفَّنت تلك العوارض الخشبية جرَّاء التعرُّض لرذاذ الماء، ولهذا نحن هنا، رغم أن رفيقيَّ يظنَّان بأن ما جلبنا إلى هنا لا بدَّ من أن يكون مهمَّة أكبر من ذلك. وعلى ذلك، سأسألك، أيُّها العمُّ، إن كنت أنت أو زوجتك الطيِّبة قد رأيتما أي غرباء خلال سفركما.

ردَّت بياترِس:

- نحن أنفسنا نُعدُّ من الغرباء في هذه الأرض، أيُّها السيِّد، ولهذا ليس بمقدورنا تمييز الآخرين بسهولة. مع هذا، لم نرَ على مرِّ يومين من الترحال أي شيء غير عادي.

ملتفتًا إلى بياترِس، أطلَّت من عيني الجندي ذي الشعر الرمادي الرقَّة والابتسامة. ثم ردَّ عليها قائلًا:

- مسيرة طويلة لتقطعها امرأة في مثل سنِّك إلى قرية ابنها، أيَّتها السيِّدة. ألا تفضِّلين العيش معه حيث يتسنَّى له رعايتك يوميًّا، عوض أن تسيري هكذا لرؤيته، وتعرِّضي نفسك لمخاطر الطريق؟

- أتمنَّى ذلك، أيُّها السيِّد، وحين نراه، سأكلِّمه أنا وزوجي في هذا الأمر. لكن من ناحية ثانية، مرَّ زمن طويل منذ رأيناه آخر مرَّة، ولهذا لا نعرف كيف سيستقبلنا.

واصل الجندي ذو الشعر الرمادي معاملتها برفق قائلًا:

- قد لا يكون هناك ما يستدعي القلق. أنا نفسي أعيش بعيدًا عن أمِّي وأبي، ولم أرهما منذ وقت طويل. ربما قيلت ذات مرَّة بعض الكلمات القاسية، من يدري؟ لكنهما لو انطلقا غدًا للبحث عنِّي، وقطعا مسافات طويلة كما تفعلان أنتما الآن، هل تظنَّان أنني لن أستقبلهما وقلبي يكاد يطير فرحًا؟ لا علم لي بابنك، يا سيِّدتي، لكني أراهن على أنه لا يختلف عنِّي كثيرًا، وأن دموع الفرح ستنهمر من عينيه لحظة تقعان عليكما.

- إنك طيِّب للغاية، أيُّها السيِّد. أظنُّك على حقٍّ، وغالبًا ما رددنا أنا وزوجي هذا الكلام نفسه، لكن سماعه من الآخرين يبثُّ الطمأنينة في النفس أكثر، وبالأخصِّ من ابن بعيد عن بيت أبويه.
- واصلوا رحلتكم بسلام، سيِّدتي. وإن صادفتما أمِّي وأبي على الطريق، وافدين من الاتجاه المعاكس، تكلَّما معهما برفق وقولا لهما أن يُعجِّلا المسير، لأن رحلتهما لن تكون عقيمة.

تنحَّى الجندي ذو الشعر الرمادي جانبًا كي يفسح لهما طريق العبور قائلًا:
- أرجوكما أن تتذكَّرا العوارض المكسورة. أيُّها العمُّ، من الأفضل أن تقود الفرس بنفسك. ليس من المحبَّذ ترك مهمَّة كهذه للأطفال أو من قضى الربُّ عليهم بالعَتَه.

بدا على الجندي الثخين، رغم امتعاضه ممَّا يجري، الإذعان إلى ما يتمتَّع به رفيقه من سلطة عفوية. ثم أدار ظهره لهم جميعًا، واستند بكسلٍ فوق سور الجسر الخشبي، وراح يسرِّح بصره في الماء. أمَّا الجندي الشابُّ فانتابه شيء من التردُّد، لكنه توجَّه في نهاية المطاف ووقف بجانب الرجل ذي الشعر الرمادي، ثم أومأ كلاهما بأدب لأكسِل لدى شكره لهما للمرَّة الأخيرة، قائدًا الفرس فوق الجسر، ساترًا عينيها حتى لا تبصر الهاوية في الأسفل.

***

حال أن غاب الجنود والجسر عن مرمى البصر، توقَّف وِسْتِن مقترحًا ترك الطريق الرئيس وسلوك ممرٍّ ضيِّق صاعد نحو الغابة:
- لطالما تمتَّعت بغريزة الاهتداء إلى وجهتي عبر أي غابة، ويراودني الشعور بأن هذا الممرَّ سيختصر علينا قطع زاوية طويلة من الجبل. كما سيكون أكثر أمنًا من هذا الطريق الذي يكثر فيه مرور الجنود وقطَّاع الطرق.

لمدَّة من الوقت بعد ذلك، كان المحارب هو من قاد القافلة، ضاربًا ومنحِّيًا العلَّيق والأشواك بعصا عثر عليها. إذْنْ، ممسكًا بلجام الفرس، وهامسًا على

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

الدوام في أذنها، اقتفى خطوات المحارب عن قرب، وهكذا عند سير أكسِل وبياترِس في أعقابهما، كان الدرب أسهل وطأً. مع ذلك، فإن الطريق المختصر - إن كان ذلك طريقًا مختصرًا - أصبح وعرًا شيئًا فشيئًا: اشتدَّت الأشجار كثافة من حولهم، وحملتهم الجذور والأشواك المتشابكة على الانتباه لكل خطوة. وحسب عادتهما، قلَّما نطق أكسِل وبياترِس بشيء خلال سيرهما، لكن عند نقطة ما، وكانا قد تخلَّفا بمسافة عن رفيقي رحلتهما، نادت بياترِس قائلة:

- أما زلت هنا يا أكسِل؟

ردَّ أكسِل وهو على بعد خطوات قليلة من خلفها:

- ما زلت هنا يا أميرة. لا تقلقي، لا تُعرف هذه الغابات بمخاطر خاصَّة، وهي طريق جيِّد من السهل الكبير.
- كنت أفكِّر يا أكسِل، في أن أداء محاربنا لم يكن رديئًا البتَّة. حركاته التمثيلية التي أخفى بها هويَّته كان يمكن أن تنطلي حتى عليَّ، وكيف ظلَّ متمسِّكًا بها ولم يفقد أعصابه، حتى عندما شدَّه ذلك الهمجيُّ من شعره.
- كان أداؤه بارعًا بحقٍّ، يا أميرة.
- كنت أفكِّر يا أكسِل. سيمرُّ وقت طويل على غيابنا عن قريتنا. ألا تتعجَّب من سماحهم لنا بالسفر وما زال هناك الكثير من أعمال الزراعة وإصلاح الأسيجة والبوَّابات؟ هل تظنُّ أنهم سيتبرَّمون من غيابنا حين تطرأ الحاجة لنا؟
- سيفتقدوننا، من دون شكٍّ، يا أميرة. لكننا لم نغِبْ طويلًا، كما أن القسَّ يتفهَّم رغبتنا برؤية ابننا.
- آمل أن يكون ذلك صحيحًا يا أكسِل. لا أريدهم أن يقولوا إننا اخترنا السفر وهم في أمسِّ الحاجة لنا.
- سيكون هناك دائمًا بعض من يقول ذلك، لكن أغلبيتهم ستتفهَّم حاجتنا، بل إنهم سيرغبون في فعل الأمر نفسه لو كانوا في مكاننا.

سارا لبعض الوقت من دون كلام، ثم قالت بياترِس مجدَّدًا:

- أما زلت هنا يا أكسِل؟
- ما زلت يا أميرة.
- لم يكن أمرًا مقبولًا منهم. أن يأخذوا منَّا شمعتنا.
- من يهتمُّ الآن لهذا يا أميرة؟ فقد بات الصيف على الأبواب.
- كنت أحاول التذكُّر والتأمُّل في هذا الأمر يا أكسِل، ثم لاح لي أنني ربما أُصبت بهذا الوجع الذي ما زال ملازمًا لي إثر حرمانهم لنا من استخدام الشمعة.
- ما الذي تقولينه يا أميرة؟ كيف يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟
- أظنُّ أن الظلام هو السبب.
- حاذري في مشيك عبر شجيرة الأشواك تلك. حتمًا، ليست ببقعة يمكنك تحمُّل كلفة التعثُّر والسقوط فوقها.
- سأنتبه يا أكسِل، وانتبه أنت الآخر.
- كيف يمكن للظلام أن يسبِّب لك وجعًا كهذا يا أميرة؟
- هل تذكر يا أكسِل ما شاع من حديث في الشتاء الماضي حول رؤية جنيٍّ صغير بالقرب من قريتنا؟ نحن لم نره بأنفسنا أبدًا، لكنهم قالوا إنه يعشق الظلام. خلال تلك الساعات الطويلة التي قضيناها في العتمة، أظنُّ أنه ربما كان معنا أحيانًا من دون أن ندري، في حجرتنا نفسها، وجرَّ عليَّ هذه المشكلة.
- كنَّا سنعرف لو أنه كان معنا يا أميرة، في العتمة أو من دونها. حتى في الظلام الدامس، كنَّا سنسمعه عندما يتحرَّك أو تندُّ عنه تنهيدة.
- الآن وأنا أفكِّر في هذا، يا أكسِل، أعتقد أنني استيقظت عدَّة مرات أثناء الليل في الشتاء الماضي، وبينما كنت أنت مستغرقًا في النوم إلى جواري، وإنني متأكِّدة أن ما أيقظني كان صوتًا غريبًا في الحجرة.
- على الأرجح صوت فأر أو كائن ما يا أميرة.

- لم يكن من قبيل تلك الأصوات، وأظنُّني سمعته أكثر من مرَّة. الآن وأنا أمعن النظر في الأمر، أرى أنه حدث في الفترة نفسها التي بدأت أشعر فيها بالوجع.
- حسنًا، لو أنه جنِّيٌّ صغير فما الضير في ذلك يا أميرة؟ وجعك ليس أكثر من مسألة بسيطة، صنيعة كائن أمْيَل إلى المرح منه إلى الشرِّ، تمامًا مثل ذاك الطفل الشقيِّ الذي وضع رأس فأر ذات مرَّة في سلَّة نسيج السيِّدة إنيد، ليراقبها فقط وهي تركض مذعورة هنا وهناك.
- إنَّك محقٌّ يا أكسِل. أمْيَل إلى المرح منه إلى الشرِّ. أعتقد أنَّك محقٌّ. رغم ذلك يا زوجي...

صمتت وهي تقلِّب النظر في المرور بين جذعَي شجرتين معمِّرتين، يضغط كلٌّ منهما على الآخر. ثم تابعت حديثها قائلة:

- رغم ذلك، عند عودتنا أريد شمعة كي أستخدمها في الليل. لا أريد أن يجرَّ علينا هذا الجنِّيُّ الصغير أو أي جنِّيٍّ آخر أي شيء أسوأ.
- سنتدبَّر هذا الأمر، يا أميرة، لا عليك. سنكلِّم القسَّ حال عودتنا. لكنَّ الرهبان في الدير سيُسدون لك النصح الحكيم بشأن وجعك، لن يكون هناك أي ضرر دائم.
- أعرف هذا يا أكسِل. الأمر لا يثير قلقًا ذا شأن.

***

كان الحكم على زعم وِستِن بأن الطريق الذي سلكوه اختصر عليهم مسافة طويلة أمرًا صعبًا، لكنهم على أي حال، خرجوا من الغابة، بُعيد منتصف النهار، فوجدوا أنفسهم من جديد فوق الطريق الرئيس. كان الطريق محفَّرًا من عجلات العربات وممتلئًا بالماء، لكنهم أصبحوا قادرين الآن على السير بحرِّية أكبر، كما أصبح الطريق بعد مدَّة ممهَّدًا بشكل أفضل وأكثر جفافًا. وتحت ما تخلَّلَ الأغصان العالية وتساقط فوق الطريق من أشعَّة الشمس الجميلة، تابعوا السير بسعادة.

ثم أوقفهم وِسْتِن فجأة من جديد مشيرًا إلى الطريق أمامهم قائلًا:

- هناك خيَّال واحد أمامنا وهو ليس على مسافة بعيدة منَّا.

لم يقطعوا مسافة تُذكر قبل أن يبصروا رقعةً خالية وسط الشجر أمامهم بجوار الطريق، وأثرًا حديثًا لحوافر حصان منعطفة باتجاهها. تبادلوا نظرات خاطفة ثم انطلقوا بحذر.

عندما أصبحت الرقعة الخالية وسط الشجر أكثر وضوحًا، رأوا أن مساحتها كبيرة: لعلَّ أحدهم فيما مضى، وفي زمن أكثر ازدهارًا، كان ينوي بناء بيت هنا محاط ببستان. كان الممرُّ الذي يمتدُّ من الطريق الرئيس، رغم ما فيه من شجيرات وأعشاب تطاولت، قد شُقَّ بعناية، وكان يُفضي إلى مساحة دائرية كبيرة، مشرَّعة على السماء إلَّا من شجرة بلُّوط ضخمة متربِّعة في وسطها. ومن النقطة التي يقفون فيها الآن، تمكَّنوا من تمييز هيئة شخصٍ جالسٍ في ظلِّ الشجرة، وظهره مستند إلى جذعها. كان مكشوفًا لهم في تلك اللحظة من جنب، بدا مدرَّعًا: رِجلان من صفيحٍ ممدَّدتان بتصلُّبٍ فوق العشب وبهيئةٍ تشبه جلوس الأطفال. أمَّا الوجه نفسه فكان مختفيًا خلف أوراق مورِقة من الجذع، لكنهم لاحظوا أنه من دون خوذة. على مقربة منه حصان مُسرج يقضم العشب. هتف الرجل من تحت الشجرة قائلًا:

- أعلنوا عن صفتكم! إن كنتم قطَّاع طرق أو لصوصًا فسأنهض لمواجهتكم بحدِّ السيف!

همس وِسْتِن:

- ردَّ عليه، سيِّد أكسِل. دعنا نعرف ما شأنه.

هتف أكسِل مجيبًا:

- نحن عابرو سبيل من البسطاء، أيُّها السيِّد. لا نتوخَّى سوى المرور بسلام.

- كم نفرًا أنتم؟ وهل أسمع صوت حصان؟

- فرسٌ عرجاء، أيُّها السيِّد. عدا ذلك فنحن أربعة. أنا وزوجتي عجوزان من البريتون، ومعنا غلام لم ينبت شعر ذقنه بعد، ومعتوه أخرس، أُعطيا لنا مؤخَّرًا من قبل أهلهما من الساكسون.

-	إذًا أقبلوا عليَّ أيُّها الأصدقاء! لديَّ خبز هنا يمكنني اقتسامه معكم، لا بدَّ من أنكم تتوقون لنيل قسط من الراحة، كما أتوق أنا إلى الصحبة.

تساءلت بياترِس:

-	هل نذهب إليه يا أكسِل؟

قال وِسْتِن قبل أن يتمكَّن أكسِل من الردِّ:

-	أرى أن نفعل ذلك، فهو لا يمثِّل خطرًا علينا، ويبدو أنه رجل عجوز. رغم ذلك، دعونا نؤدِّ المسرحية التي قمنا بها من قبل. سأعمد ثانية إلى إرخاء حنكي وتقليب عينيَّ ببلاهة.

ردَّت عليه بياترِس:

-	لكنَّه يرتدي درعًا من الصفيح، وهو مسلَّحٌ أيُّها السيِّد. هل أنت متأكِّد من سرعة وصولك إلى سلاحك وهو مخبَّأ فوق ظهر الفرس بين البطَّانيات وجرار العسل؟

-	سيفي مخفيٌّ بعيدًا عن الأعين المتلصِّصة، أيَّتها السيِّدة. لكنني سأجده بالسرعة المطلوبة حال حاجتي إليه. إدْوِنْ سيمسك بالرسن ويحرص على عدم ابتعاد الفرس عني.

هتف الرجل الغريب من دون أن يعدِّل من جلسته المتصلِّبة:

-	تقدَّموا أيُّها الأصدقاء! لن يصيبكم أي أذى! إنني فارس ومن البريتون أيضًا. مسلَّحٌ، أجل، لكن اقتربوا وسترون أني عجوز أحمق بشنب. هذا السيف وذاك الدرع لا أحملهما إلَّا التزامًا بواجبي تجاه ملكي، آرثر العظيم الحبيب، الذي مرَّت سنوات عديدة منذ غيابه عنَّا في الفردوس الأعلى، ومنذ ذلك الحين تقريبًا لم أسحب سيفي بغضب من غمده. حصاني العجوز، هُورِس، خاض معي كل المعارك، إنه هناك. عانى على مرِّ السنين من حمل كل هذا الصفيح. انظروا إليه، قوائمه تقوَّست، وظهره انحنى. أوه، إنني أشعر بمعاناته كلما أمتطيته. لكن قلبه كبير، هُورِسي هذا، وأعلم أنه ما كان ليرضى بغير ذلك. سنرتحل هكذا،

بدرع صفيحي كامل، وباسم ملكنا العظيم، وسنظلُّ نفعل ذلك إلى أن نعجز عن السير معًا خطوة أخرى. تعالوا أيُّها الأصدقاء، لا تخافوا مني!

انعطفوا نحو البقعة الخالية وسط الشجر، ولما اقتربوا من شجرة البلُّوط، رأى أكسِل بأمِّ عينه أن الفارس لم يكن بالفعل مدعاة للخوف. بدا طويلًا للغاية، لكنه، حسبما ظنَّ أكسِل، كان من تحت درعه نحيفًا، إن لم يكن هزيلًا. كان درعه باليًا صدئًا، مع أنه ومن دون شكٍّ بذل كل ما في جهده لصيانته والحفاظ عليه. أمَّا قميصه الكتَّاني، الذي كان أبيض في سابق عهده، فظهرت عليه علامات الرتق والترقيع المتكرِّرة. الوجه الناتئ من الدرع الصفيحي أجعد، ومن فوقه، رفرفت، خصل طويلة من شعر ثلجي منحدر من هامة جرداء. كان منظره محزنًا، متهالكًا على الأرض لا يستطيع حراكًا، ورجلاه ممدودتان بزاوية منفرجة، لكن الشمس التي كانت تتخلَّل الأغصان ألقت عليه بقعًا من الضوء والظلِّ جعلته يبدو مثل ملك متوَّج فوق عرش. قال لهم:

- المسكين هُورِس فاته الإفطار في هذا الصباح، فعندما أفقنا وجدنا نفسينا في أرض صخرية. وحينذاك أدركني حماس شديد لمواصلة السير بسرعة طوال الصباح، وعليَّ أن أعترف بأني كنت في مزاج عَكِرٍ أيضًا. لم أسمح له بالتوقُّف. تباطأت خطواته شيئًا فشيئًا، لكني بعد هذا العمر بتُّ أعرف حيله جيِّدًا، ولم أسمح لأي منها بأن تنطلي عليَّ. قلت له: أعرف أنك لست متعبًا! ثم نخسته قليلًا بالمهماز. تلك الألاعيب التي يلعبها معي، أيُّها الأصدقاء، لن أقبل بها! لكنه راح يتباطأ في السير، وأنا المغفَّل صاحب القلب الرقيق، رغم يقيني من أنه يضحك بينه وبين نفسه، لنت وقلت: حسنًا يا هُورِس، توقَّف وأطعم نفسك. وهكذا تجدونني جالسًا هنا بعد أن ضحك عليَّ من جديد. أقبِلوا أيُّها الأصدقاء وانضمُّوا إليَّ.

مدَّ نفسه إلى الأمام، فقرقع درعه مشتكيًا، ثم أخرج رغيف خبز من كيس فوق العشب من أمامه قائلًا:

- إنه طازج، حصلت عليه عند مروري بمطحنة قبل أقل من ساعة. تعالوا أيُّها الأصدقاء واجلسوا بقربي كي نقتسمه.

أمسك أكسِل بذراع بياترِس لدى هبوطها للجلوس فوق جذور البلُّوطة الضخمة، ثم جلس بدوره بين زوجته والفارس العجوز. شعر على الفور بالامتنان من اللحاء الطحلبي الذي أسند ظهره إليه، ومن الطيور المغرِّدة المتدافعة فوق رأسه، وعندما وصلته حصَّته من الخبز، كانت طريَّة طازجة. أسندت بياترِس رأسها فوق كتفه، وعلا صدرها وهبط قبل أن تشرع هي الأخرى في الأكل بتلذُّذ.

لكنَّ وِستِن لم يجلس. وبعد ما افتعله من قهقهة، وعرض مستفيض لبلاهته أمام الفارس العجوز، جال هنا وهناك حتى وصل إلى حيث كان إدْوِنْ واقفًا بين العشب الطويل، وممسكًا برسن الفرس. إثر ذلك، كانت بياترِس قد فرغت من التهام الخبز، فمالت إلى الأمام كي تكلِّم الغريب:

- اعذرني لأني لم ألقِ عليك التحيَّة لدى وصولنا. لكننا لا نرى فارسًا كل يوم، فأذهلني هذا الخاطر وسط غمرة من التقدير والاحترام. آمل ألَّا تكون قد شعرت بالإهانة.
- إطلاقًا أيَّتها السيِّدة، بل إنني سعيد بصحبتكم. هل ما زالت رحلتكم طويلة؟
- قرية ابننا أصبحت على مسيرة يوم بعد أن سلكنا طريق الجبل، لأنني أرغب في زيارة راهب حكيم في الدير الواقع فوق تلك التلال.
- آه، الآباء القدِّيسون. إنني متأكِّد من أنهم سيرحِّبون بك ويحسنون استقبالك. أسدوا معروفًا كبيرًا لحصاني هُورِس في الربيع الماضي، بعد معاناته من تسمُّم في حافره كنت أخشى أن يودي به إلى الهلاك. وأنا الآخر، وجدت كثيرًا من الراحة على أيديهم أثناء علاجي من سقطة قبل بضع سنوات. لكن إن كنتِ تسعين وراء دواء لفتاك الأخرس، فأخشى أنه ليس هناك من أحد قادر على إنطاق شفتيه سوى الربِّ نفسه.

قال الفارس ذلك ملقيًا بنظرة خاطفة نحو وِسْتِن، وإذ به يجده ماشيًا نحوه، وقد اختفت النظرة البلهاء من محيَّاه. ثم نظر وِسْتِن إلى الفارس قائلًا:

- دعني أفاجئك إذًا، أيُّها السيِّد، لقد أصبحت قادرًا على الكلام.

أصاب الفزع الفارس العجوز، ولما لوى جذعه كي يحدِّق إلى أكسِل مستوضحًا، قرقع درعه.

تابع وِسْتِن القول:

- لا تعتبْ على صديقيَّ أيُّها الفارس. فهما لم يفعلا إلَّا ما رجوتهما فعله. لكن، إذ تبيَّن لي ألَّا سبب يستدعي الخوف منك، نحَّيت هذا القناع الزائف الذي أتخفَّى وراءه. أرجوك أن تسامحني.

ردَّ الفارس العجوز:

- لا بأس عليك، أيُّها السيِّد، فالحيطة واجبة في عالمنا هذا. لكن أخبرني الآن بحقيقة هويَّتك حتى لا يكون عندي في المقابل سبب يدعوني للخوف منك.

- اسمي وِسْتِن، أيُّها السيِّد، وأنا من الـفَنْلاند شرقًا، أسافر في هذه الأنحاء بناء على مهمَّة كلَّفني بها ملكي.

- آه، بعيدًا عن بلدك بالفعل.

- بعيدًا عن بلدي، أيُّها السيِّد، ولهذا ينبغي أن تكون هذه الطرقات غريبة بالنسبة لي. لكني أشعر عند كل منعطف كما لو أن ذكريات بعيدة تتململ في رأسي.

- إذًا لا بدَّ من أن تكون، أيُّها السيِّد، قد سلكت هذه الطرقات من قبل.

- لا بدَّ من ذلك، إذ قيل لي بأنني لم أولد في الـفَنْلاند، بل في بلد إلى الغرب من هنا. ولهذا فنحن محظوظون أكثر بمصادفتك، أيُّها الفارس، فأنت، على ما أحسب، السِّير غَاوِن، من تلك الأراضي الغربيَّة نفسها، ويُعرف عنك التجوُّل في هذه الأرجاء.

- أنا غَاوِن بعينه، ابن أخت العظيم آرثر، الذي حكم هذه الأراضي في الماضي بالحكمة والعدل. أقمت لسنين عديدة غربًا، لكنني في هذه الأيَّام أسافر أنا وهُورِس أينما طاب لنا السفر.
- لو كنت أملك الوقت، لاتَّجهت غربًا على الفور وتنفَّست هواء ذلك البلد. لكني ملزم بتنفيذ مهمَّتي والعودة على جناح السرعة. مع ذلك، أتشرَّف بلقاء أحد فرسان آرثر العظيم، بل وابن شقيقته أيضًا. ربما أكون من الساكسون، لكني أُكنُّ له ولاسمه كل التقدير.
- يُسعدني سماع ذلك أيُّها السيِّد.
- سير غَاوِن، بعد استعادتي القدرة على الكلام بشكل معجز للغاية، أودُّ أن أطرح عليك سؤالًا بسيطًا.
- سلْ ما شئت.
- هذا الرجل المحترم الذي يجلس بجوارك الآن، هو السيِّد الطيب أكسِل، مزارع من قرية مسيحية تقع على مسيرة يومين. رجل شهد ما عاصرته أنت على مرِّ سنوات عمرك. سير غَاوِن، أطلب منك الآن، أن تستدير وتُمعن النظر إليه. هل وجهه من الوجوه التي رأيتها من قبل، حتى وإن كان ذلك منذ زمن بعيد؟

تحرَّكت بياترِس، التي ظنَّها أكسِل غافية فوق كتفه، ومالت ثانية إلى الأمام قائلة:

- بحقِّ السماء، سيِّد وِسْتِن! ما هذا الطلب الذي تطلبه؟
- لا أقصد أي سوء، أيَّتها السيِّدة. بما أن السير غَاوِن من البلاد الغربية، فأعتقد أنه ربما لمح زوجك في الأيَّام الغابرة. ما الضير في سؤال كهذا؟

قال أكسِل:

- سيِّد وِسْتِن، لاحظت أنك ومنذ لقائنا أوَّل مرَّة وأنت تنظر إليَّ من حين لآخر على نحو غريب، وقد انتظرت منك تفسيرًا لذلك. ما الذي تتصوَّر أنك تعرفه عني؟

قرفص وِسْتِن، الذي كان واقفًا بينما كان ثلاثتهم جلوسًا جنبًا إلى جنب تحت البلُّوطة الضخمة. لعلَّه فعل ذلك كي يبدو أقل تحدِّيًا، لكنَّ أكسِل شعر كما لو أن المحارب كان يرمي إلى التدقيق في وجوههم عن قرب. ثم قال وِسْتِن:

- ليفعل السير غَاوِن ما طلبته منه أوَّلًا. كل ما يتطلَّبه الأمر هو التفاتة صغيرة برأسه. أو لنقل إنها لعبة من ألعاب الأطفال إن شئتم. أرجوك، أيُّها السير، أن تنظر إلى هذا الرجل وتخبرنا إن كنت قد رأيته من قبل.

ضحك السير غَاوِن ضحكة مكتومة، ثم مال بجذعه إلى الأمام. بدا متحمِّسًا لشيءٍ من التسلية، كما لو أنه دُعي بالفعل إلى المشاركة في لعبة. لكنه عندما حدَّق إلى وجه أكسِل، تحوَّلت تعبيرات وجهه إلى الدهشة - بل وحتى الصدمة. غريزيًّا، أدار أكسِل وجهه بعيدًا، في اللحظة نفسها التي بدا فيها الفارس العجوز متأهِّبًا لدفع ظهره إلى جذع الشجرة من جديد.

سأل وِسْتِن وقد راقب ما جرى باهتمام بالغ:

- حسنًا أيُّها السير؟

ردَّ السير غَاوِن:

- لا أعتقد أني قابلت هذا المحترم قبل هذا اليوم.
- هل أنت متأكِّد؟ لا تنسَ ما يصنعه تعاقب السنين بوجوه البشر.

قاطعته بياترِس:

- سيِّد وِسْتِن، ما الذي تبحث عنه في وجه زوجي؟ لمَ تطلب أمرًا كهذا من هذا الفارس الطيِّب، وهو إلى هذه اللحظة ليس أكثر من غريب عنَّا جميعًا؟
- سامحيني أيتها السيِّدة. توقظ هذه البلاد كثيرًا من الذكريات في نفسي، مع أن كل واحدة منها أشبه بعصفور مُجفلٍ أعلم بأنه سيطير في أي لحظة هاربًا مع الريح. ظلَّ وجه زوجك يراودني طوال اليوم ويعدني بذكرى مهمَّة. وفي الحقيقة، هذا هو ما حملني على أن أعرض عليكما

السفر برفقتي، رغم أن رغبتي في تأمين الحماية لكما عبر هذه الطرق المتوحِّشة مخلصة أيضًا.

- ولكن لماذا تظنُّ أن زوجي من الغرب مع أنه عاش دائمًا في بلد مجاور؟

- لا عليك يا أميرة. اختلط الأمر على السيِّد وِسْتِن فظنَّ أنني شخص آخر كان يعرفه في الماضي.

قال السير غَاوِن:

- لا بدَّ من أن الأمر كذلك أيُّها الأصدقاء! أنا وهُورِس كثيرًا ما تلتبس علينا الوجوه بين الحاضر والماضي. أقول له: هل ترى هناك يا هُورِس. إنه تيودور، صديقنا القديم، أمامنا على الطريق، ثم نتذكَّر بأنه سقط قتيلًا في معركة جبل «بايدون». وعندما نقترب أكثر، يطلق هُورِس صهيلًا كالشخير، ولسان حاله يقول: يا لك من أحمق يا غَاوِن، هذا الرجل شابٌّ إلى حدٍّ أن يكون حفيده، كما أنه ليس هناك من شبه بين الاثنين ولو من بعيد!

قالت بياترِس:

- سيِّد وِسْتِن، أجبني فقط عن هذا السؤال. هل يذكِّرك زوجي بشخص أحببته عندما كنت طفلًا؟ أم بشخص كنت ترهبه؟

- دعكِ من هذا الأمر يا أميرة.

لكنَّ وِسْتِن، وبينما كان يهزُّ نفسه على عقبيه، أطال التفرُّس في وجه أكسِل، ثم قال:

- لا بدَّ من أنه كان شخصًا أحببته، أيَّتها السيِّدة. فعندما التقينا هذا الصباح، قفز قلبي من الفرح. لكن بعد برهة قصيرة...

واصل وِسْتِن تحديقه إلى أكسِل بصمت، وبدت عيناه وكأنهما في حلم. بعد ذلك، امتقع وجهه، وبعدما نهض ثانية، استدار موليًا ظهره لهم، ثم قال:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- لا أستطيع الإجابة عن سؤالك، سيِّدة بياترِس، لأني أنا نفسي أجهل الجواب. ظننت أن السفر برفقتكما سيحرِّك ذكرياتي ويوقظها، لكنَّ ذلك لم يحدث بعد. سير غَاوِن، هل أنت بخير؟

فعلًا، كان غَاوِن جالسًا وقد ارتخى جسده ومال إلى الأمام. اعتدل مطلِقًا تنهيدة ثم قال:

- أنا بخير، شكرًا على اهتمامك. لكني قضيت وهُورِس ليالي عديدة من دون سرير ليِّن أو ملاذ معقول، وكلانا مرهق. هذا كل ما هنالك.

رفع غَاوِن يده وتحسَّس بقعة فوق جبينه، لكنَّ غرضه الحقيقي من تلك الحركة، حسبما بدا لأكسِل، ربما كان رغبته في حجب بصره عن الوجه المحاذي له. وعندها طرح أكسِل سؤالًا:

- سيِّد وِسْتِن، بما أننا نتكلَّم الآن بصراحة، فلعلَّك تسمح لي أن أسألك بدوري عن أمر ما. قلت إنك في هذه البلاد بسبب تكليف من ملكك. لكن لمَ تحرص على إخفاء حقيقة أمرك بشدَّة وأنت ترتحل في بلد يعمُّه السلام منذ أمد طويل؟ إن كانت زوجتي وهذا الغلام سيسافران برفقتك، فمن حقِّنا أن نعرف حقيقة أمرك، من هم أصدقاؤك ومن هم أعداؤك.

- إنك محقٌّ تمامًا، أيُّها السيِّد، في قولك. وكما ذكرت بنفسك، وضعت الحرب أوزارها في هذه البلاد وعمَّ السلام. مع ذلك، أنا ساكسوني يمرُّ في أرض يحكمها البريتون، وهذه النواحي بالذات تخضع لحكم اللورد برونُس، وهو يبثُّ جنوده في أرجائها بحرِّية لجمع الضريبة على القمح والماشية. ولأني لا أريد التورُّط في مواجهات ناجمة عن سوء الفهم، آثرت إخفاء حقيقة أمري، أيُّها السيِّد، وهذا بدوره سيوفِّر لنا قدرًا أكبر من التنقُّل بسلامة وأمن.

ردَّ أكسِل:

- لعلَّك مصيب، سيِّد وِسْتِن، لكني لاحظت أن جنود اللورد برونُس لم يكونوا فوق الجسر لإضاعة الوقت، بل كانوا هناك في مهمَّة،

ولولا الضباب الذي لفَّ عقولهم بالغشاوة، لربما أخضعوك لمزيد من التمحيص. هل يمكن الزعم، أيُّها السيِّد، بأنك عدوٌّ للورد برونُس؟

بدا وِسْتِن شارد الذهن للحظة، مقتفيًا بعينيه جذرًا نافرًا من جذع البلوطة وممتدًّا إلى حيث كان يقف قبل دفن نفسه في بطن الأرض. في النهاية، اقترب ثانية وجلس هذه المرَّة فوق الحشيش. ثم أجاب قائلًا:

- حسنا أيُّها السيِّد. سأتحدَّث بصراحة تامَّة. لا مانع عندي من فعل ذلك أمامكم وأمام هذا الفارس النبيل. وصلتنا في الشرق إشاعات تقول إن أبناء عمومتنا الساكسون ممَّن يعيشون في هذه الأرض يتعرَّضون لسوء المعاملة من قبل البريتون. إثر ذلك، أرسلني ملكي، قلقًا على أبناء العمِّ، في هذه المهمَّة كي أراقب الوضع عن كثب. هذه حقيقة ما أفعله هنا، أيُّها السيِّد، وكنت في مهمَّتي السلميَّة هذه عندما أصابت فرسي حافرها بالسوء.

ردَّ غَاوِن:

- أتفهَّم موقفك جيِّدًا أيُّها السيِّد. كثيرًا ما أجد نفسي أنا وهُورِس في أراضٍ خاضعة للساكسون فنشعر بما تحسُّ به من حاجة للحيطة والحذر. وحينذاك أتمنَّى لو كان بإمكاني التخلُّص من هذا الدرع الصفيحيِّ كي أبدو فلَّاحًا بسيطًا. لكننا إن تركنا هذا المعدن في أي مكان، فكيف سيتأتَّى لنا العثور عليه ثانية؟ كما وإن كانت سنوات عديدة قد انقضت على مصرع آرثر في ساحة المعركة، أليس من واجبنا رفع شعاره من بعده بكلِّ فخر أمام أعين الجميع؟ لهذا فإننا ننطلق بجرأة، وعندما يرى الرجال أني أحد فرسان آرثر، يسعدني أن أخبركم بأنهم ينظرون إلينا بعين الرفق واللين.

ردَّ عليه وِسْتِن:

- ليس غريبًا أن تلقى الترحيب في هذه البقاع، سير غَاوِن، لكن هل تلقى مثله حقًّا في البلاد التي كانت تعتبر آرثر عدوًّا مريعًا فيما مضى؟

- أنا وهُورِس نجد أن اسم ملكنا يحظى بالترحيب في كل مكان، أيُّها السيِّد، حتى في تلك البلاد التي ذكرتها. ومردُّ ذلك إلى ما اتَّصف به آرثر من كرم كبير تجاه من يهزمهم، حتى أنهم كانوا سرعان ما يقعون في حبِّه ويتمنُّون لو أنه كان أحد ملوكهم.

لبعض الوقت - في الحقيقة، مذ ذكر اسم آرثر لأوَّل مرَّة - أرهق أكسِل شعورٌ ملحاح مقلق. أخيرًا الآن، وبينما كان منصتًا لحديث وِسْتِن والفارس العجوز، عادت إليه شظيَّة من الذاكرة. لم تكن بالكثير، لكنها مع ذلك بثَّت في نفسه راحة العثور على شيء والتشبُّث به وتفحُّصه. تذكَّر أنه كان واقفًا داخل خيمة فسيحة من صنف ما ينصبه جيش قرب ساحة معركة. كان الوقت ليلًا، وهناك شمعة غليظة متراقصة اللهب، والريح في الخارج تحمل جوانب الخيمة على الشهيق والزفير. معه في الخيمة آخرون. العديد منهم، ربما، لكنه لم يستطع تذكُّر وجوههم. أما هو، أكسِل، فكان غاضبًا من شيء ما، لكنه كان مدركًا لأهمية إخفاء غضبه خلال ذلك الوقت على الأقل. ثم قالت بياترِس وهي بجواره:

- سيِّد وِسْتِن، دعني أخبرك بأن هناك العديد من العائلات الساكسونية التي تعيش في قريتنا وهي تعتبر من بين الأكثر احترامًا. وأنت نفسك رأيت حال القرية الساكسونية التي انطلقنا منها اليوم. هؤلاء الناس يعيشون في انتعاش ورخاء، ومع أنهم يعانون أحيانًا، إلَّا أن ذلك يجري على يد العفاريت المردة من أمثال من قضيت عليهم بشجاعة، لا بيد أي من البريتون.

عقَّب السير غَاوِن على كلامها قائلًا:

- نطقت السيِّدة الكريمة بالحقِّ. أرسى آرثر الحبيب دعائم سلام دائم هنا بين البريتون والساكسون، ومع أننا ما زلنا نسمع باندلاع حروب في أماكن بعيدة، إلَّا أننا هنا أصبحنا ومنذ أمد بعيد أصدقاء وأقرباء.

ردَّ وِسْتِن:

- كل ما رأيته يتَّفق مع كلامك، وكم يحدوني الحماس لنقل هذه الأخبار السارَّة عند عودتي، لكن ما زال عليَّ أن أشهد أوضاع الأراضي خلف

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

هذه التلال. سير غَاوِن، لا أدري إن كانت ستسنح لي فرصة ثانية لطرح سؤال آخر على شخص حكيم مثلك، ولهذا دعني أفعل ذلك الآن. بأي مهارة عجيبة تمكَّن ملكك العظيم من شفاء هذه الأراضي من جراح الحرب حتى بات من يسافر فيها اليوم يكاد لا يلحظ أي آثار لها؟

- سؤال سديد أيُّها السيِّد. وأجيب عليه بأن خالي كان حاكمًا لم ينزل نفسه قطُّ منزلة أعظم من الربِّ، وكان يدعو دائمًا بنيل السداد وحسن البصيرة. ولهذا كان المغلوبون، لا يقلُّون عمن حاربوا إلى جنبه، في رؤية إنصافه وعدله والرغبة في أن يكون ملكهم هم أيضًا.

- مع ذلك، أليس من العجب، أيُّها السير، أن ترى الرجل ينادي الآخر يا أخي وهو من قتل له أطفاله بالأمس فقط؟ رغم ذلك، يبدو أن آرثر تمكَّن من إنجاز هذا الأمر بعينه.

- أصبت كبد الحقيقة بقولك هذا، سيِّد وِسْتِن. ذكرت ذبح الأطفال، مع أن آرثر أمرنا دائمًا بعدم سفك دماء من يقع في براثن الحرب من الأبرياء. وفوق هذا، أيُّها السيِّد، أمرنا كلما كان في وسعنا أن نعمل على إنقاذ وحماية النساء والأطفال وكبار السنِّ، سواء كانوا من البريتون أو من الساكسون. فوق أساس متين من مثل هذه التوجيهات والأفعال قامت أواصر الثقة، حتى حينما كانت المعارك مندلعة بجنون.

- كلامك ينضح بالصواب، ولكن، رغم ذلك، ما زال الأمر بالنسبة لي مدعاة للعجب والفضول. سيِّد أكسِل، ألا تشعر بأن توحيد آرثر لهذه البلاد أمر استثنائيٌّ؟

ردَّت بياترِس متعجِّبة:

- سيِّد وِسْتِن، أسألك من جديد، من يكون ذلك الشخص الذي تحسبه زوجي؟ إنه، أيُّها السيِّد، لا علم له بأي شيء عن تلك الحروب!

لكن فجأة لم يعد هناك من منصتٍ لأي حديث، إذ ارتفع صراخ إدوِن، الذي جنح في مشيه صوب الطريق، ثم علا صوت حوافر تنهب الأرض

باتجاههم. لاحقًا، عندما فكَّر أكسِل فيما حدث، بدا له أن وِسْتِن استغرق تمامًا في تساؤلاته الفضولية بشأن الماضي، ذاك أن المحارب، ورغم ما يتحلَّى به عادة من حيطة وحذر، بالكاد تمكَّن من النهوض على قدميه في اللحظة التي انعطف فيها الخيَّال إلى البقعة الخالية وسط الشجر، ثم خفَّف سرعة حصانه بسيطرة مثيرة للإعجاب، وتقدَّم خبوًا باتجاه البلُّوطة الضخمة.

تعرَّف أكسِل فورًا على الجندي الطويل ذي الشعر الرمادي الذي اتَّسم حديثه مع بياترِس فوق الجسر بالرقَّة. كانت ابتسامة واهية ما تزال فوق محيَّاه، لكنه أطلَّ عليهم بسيف مسلول من غمده، وإن كان مصوَّبًا إلى أسفل، وقبضته ملاصقة لحافَّة السرج. توقَّف فجأة، ولو واصل جواده السير بضع خطوات لوصل الشجرة. بعدها أومأ برأسه قليلًا وقال:

- نهارك سعيد، سير غَاوِن.

رفع الفارس العجوز نظره باحتقار من حيث كان جالسًا، وردَّ قائلًا:

- ما الذي تقصده بهذا، أيُّها السيِّد، تأتي إلى هنا بسيف مسلول؟

- اعذرني سير غَاوِن. لا أريد سوى التحقُّق من هويَّة جلسائك.

ثم خفض الخيَّال بصره نحو وِسْتِن الذي كان قد أرخى حنكه من جديد، وراح يقهقه بينه وبين نفسه. من دون أن يرفع الجندي عينيه عن المحارب صرخ قائلًا:

- أيُّها الغلام، لا تحضر الفرس إلى هنا!

كان إِدْوِنْ بالفعل يقترب من خلف الجندي برفقة فرس وِسْتِن. تابع الجندي صراخه:

- هل تسمعنى أيُّها الغلام! اترك الرسن وتعال قف أمامي هنا إلى جانب أخيك الأبله. إنني أنتظر أيُّها الفتى.

بدا على إِدْوِنْ التقاط ما يريده الجندي، رغم جهله باللسان الذي تكلَّم به، فقد ترك الفرس وأقبل كي ينضمَّ إلى وِسْتِن. وحال أن فعل ذلك، عدَّل الجندي قليلًا من مكان جواده. ملاحظًا ذلك، أدرك أكسِل على الفور أن الجندي وضع

نفسه في زاوية محدَّدة من الخصم وعلى مسافة تكفل له الأفضلية في حال اندلاع مواجهة فجائية. أمَّا لو ظلَّ في مكانه السابق، وبالنسبة للنقطة التي كان يقف فيها وِسْتِن، كان رأس جواد الجندي نفسه سيعترض للحظة طريق ضربته الأولى بالسيف، وهو ما يمنح وِسْتِن وقتًا ثمينًا، إمَّا لإفزاع الحصان أو الركض إلى النقطة المحجوبة عن مجال البصر، وحينذاك تتضاءل قدرة السيف على الوصول إلى الخصم، إن لجهة المجال المفتوح من أمامه أو لشدَّة الضربة المسدَّدة، ذاك أن السيف سيكون في هذه الحالة متقاطعًا مع جسم الجندي نفسه. أما الآن، فإن تعديل موضع الجواد قليلًا جعل هجوم رجل أعزل، كما كان حال وِسْتِن، على الخيَّال من قبيل المهمَّات الانتحارية عمليًا. ويبدو أن تموضع الجندي الأخير كان محنَّكًا أيضًا لجهة أخذه بعين الاعتبار فرس وِسْتِن، التي كانت طليقة وعلى مسافة غير بعيدة خلف ظهر الجندي. إذ أصبح وِسْتِن في هذه الحالة عاجزًا عن اللجوء إلى فرسه إلَّا بالعدو في منحنى واسع تجنُّبًا للمرور من الجانب الذي يحمل فيه الخيَّال سيفه، وهذا يعني قطعًا اللحاق به من الخلف قبل بلوغ غايته.

لاحظ أكسِل كل ذلك بمزيج من الإعجاب بمهارات الجندي الاستراتيجية والفزع أيضًا ممَّا لها من عواقب عليهم. ذات مرَّة، عمد أكسِل، هو الآخر، إلى لكز حصانه ليتقدَّم، في مناورة خفيَّة وبالغة الأهمِّية، كي يموضع نفسه في خطٍّ مستقيم مع رفيقه. ما الذي كان يفعله في ذلك اليوم؟ كان الاثنان، هو ورفيقه، ينتظران فوق ظهري حصانيهما، ويحدِّقان إلى الامتداد الشاسع لأرض بور كالحة. حتى تلك اللحظة، كان جواد رفيقه في المقدِّمة، لأن أكسِل تذكَّر أن ذيله كان من أمامه يلوِّح يمينًا وشمالًا وإلى أعلى وأسفل، وأنه تساءل حينذاك كم كان مردُّ ذلك إلى انقباض عضلات الحيوان نفسه، وإلى الريح الهوجاء التي كانت تعصف فوق الأرض الجرداء.

دفع أكسِل تلك الخواطر الملغزة من رأسه جانبًا محاولًا الوقوف بجهد بالغ، ثم ساعد زوجته على النهوض. ظلَّ السير غَاوِن جالسًا، عالقًا فيما يبدو

أسفل الشجرة، ومحدِّقًا بغضب إلى الوافد الجديد. ثم قال لأكسِل على عجل:

- أيُّها السيِّد، ساعدني على النهوض.

تطلَّب وقوف الفارس على قدميه تدخُّلًا من أكسِل وبياترِس أيضًا، أمسك كل منهما بيد وجذبا، لكنه حين اعتدل أخيرًا ونصب جسده الفارع داخل درعه الصفيحيِّ ثم شدَّ كتفيه، كان منظره مثيرًا للإعجاب. لكن السير غَاوِن اكتفى فقط بتسديد نظرات حادَّة إلى الجندي، وهكذا كان أكسِل هو من خاطبه قائلًا:

- لمَ أقبلت علينا بهذا الشكل، أيُّها السيِّد، وما نحن سوى عابري سبيل من البسطاء؟ ألا تذكر أنك حقَّقت معنا قبل أقل من ساعة عند شلَّال الماء؟

- أتذكَّر ذلك جيِّدًا أيُّها العمُّ. لكنَّا عندما التقينا هناك تنزَّلت علينا تعويذة غريبة أثناء حراستنا للجسر حتى نسينا سبب وجودنا. الآن فقط، بعد انتهاء وظيفتي وأثناء توجُّهي نحو المعسكر، استعدت فجأة كل ما حصل. وعندئذ فكَّرت فيك، أيُّها العمُّ، وفي قافلتك وهي تنسلُّ عابرة الجسر تحت أنظارنا، فأدرت حصاني وانطلقت مسرعًا خلفكم. أيُّها الصبيُّ! لا تتحرَّك هنا وهناك! عد والزم جانب أخيك الأبله!

عاد إدْوِنْ بتراخ إلى جنب وِسْتِن وتفرَّس في المحارب. كان وِسْتِن ما زال يقهقه بصوت منخفض، وخيط من اللعاب يتدلَّى من زاوية فمه، وعيناه تتقلَّبان بسرعة جنونية، لكنَّ أكسِل قدَّر بأن المحارب كان في الواقع يحسب وبدقَّة ما يفصله من مسافة عن فرسه، ومدى قرب خصمه منه، وأنه على أي حال خلص إلى ما خلص إليه أكسِل.

همس أكسِل:

- سير غَاوِن، في حال وقوع أي متاعب الآن، أناشدك أن تساعدني في الدفاع عن زوجتي الطيِّبة.

- أقسم لك بشرفي أني سأفعل ذلك، أيُّها السيِّد. كن على ثقة من ذلك.

أومأ أكسِل بامتنان، بينما شرع الجندي ذو الشعر الرمادي بالترجُّل عن

حصانه. ومن جديد، لم يتمالك أكسِل نفسه من الإعجاب بمهارة الجندي في فعل ذلك، فبعدما وقف أخيرًا في مواجهة وِسْتِن والغلام، كان ثانية على المسافة والزاوية الصحيحتين تمامًا منهما؛ سيفه، فوق ذلك، كان محمولًا على نحو لا يُرهق ذراعه، فيما كان حصانه يعترض أي هجوم غير متوقَّع من الخلف. ثم خاطب الجنديُ أكسِل قائلًا:

- سأخبرك بما تبدَّد من أذهاننا عندما التقينا آخر مرَّة، أيُّها العمُّ. كان قد وصلنا للتوَّ خبرٌ عن محارب ساكسوني غادر إحدى القرى المجاورة برفقة غلام مصاب.

أومأ الجندي نحو إذْوِنْ وتابع القول:

- غلام بعمر هذا. والآن، أيُّها العمُّ، لا أدري ما صلتك أنت وهذه المرأة الطيِّبة بهذا الأمر. لكنني أسعى خلف هذا الساكسوني وغلامه. تحدَّثا بصراحة ولن يلحقكما أي أذى.
- لا وجود لمحارب هنا، أيُّها السيِّد. ونحن ليس لدينا أي خصومة معك، أو مع اللورد برونُس الذي أظنُّه سيِّدك.
- هل تعي حقيقة ما تتكلُّم عنه، أيُّها العمُّ؟ وفِّر لأعدائنا ستارًا وحينذاك تصبح في موضع مساءلة منَّا، مهما كانت سنوات عمرك. من هما هذان الشخصان اللذان ترتحل معهما، هذا الأخرس وذاك الفتى؟
- كما قلت سابقًا، أيُّها السيِّد، لقد مُنِحا لنا سدادًا لدين على ذويهما، بدل القمح والقطع القصديرية. سيعملان لدينا مدَّة سنة سدادًا لدين عائلتهما.
- أواثق من أنك غير مخطئ أيُّها العمُّ؟
- لا أعرف من اللذين تبحث عنهما، أيُّها السيِّد، لكنهما ليسا هذين الساكسونيين المسكينين. بينما تهدر الوقت بملاحقتنا، فإن عدوَّك حرٌّ طليق في مكان آخر.

تمعَّن الجندي في هذا الكلام - إذ حمل صوت أكسِل نبرة غير متوقَّعة من السلطة - وبدأ الشكُّ يعتري تصرُّفاته. ثم قال:

- سير غَاوِن، ما الذي تعرفه عن هؤلاء الأشخاص؟
- أتوا إلى هنا مصادفة بينما كنت أنا وهُورِس نستريح. أعتقد أنهم من البسطاء.

تفرَّس الجندي ثانية في قسمات وِسْتِن قائلًا:

- أخرس ومعتوه، هه؟

تقدَّم خطوتين ورفع سيفه مستهدفًا عنق وِسْتِن بحرفه، ثم أكمل:

- لكنه قطعًا يهاب الموت مثلنا جميعًا.

انتبه أكسِل إلى أن الجندي ارتكب، وللمرَّة الأولى، خطأً. اقترب كثيرًا جدًّا من خصمه، ومع أن المجازفة بشعة، لكن أصبح بمقدور وِسْتِن الآن الانقضاض فجأة والقبض على الذراع التي تحمل السيف قبل أن تتمكَّن من تسديد ضربتها. لكنَّ وِسْتِن، مع ذلك، تابع القهقهة، ثم ابتسم ببلاهة في وجه إدْوِنْ الذي كان بجواره. غير أن فعلة الجندي استثارت غضب السير غَاوِن، فانفجر غاضبًا:

- ربما كانوا قبل ساعة غرباء بالنسبة لي، لكني لن أسمح بمعاملتهم بفظاظة.
- هذا أمر لا يعنيك، سير غَاوِن. سأطلب منك التزام الصمت.
- هل تجرؤ على مخاطبة أحد فرسان آرثر بهذه الطريقة، أيُّها السيِّد؟

تجاهل الجندي السير غَاوِن تمامًا ومضى قائلًا:

- أيمكن أن يكون هذا المعتوه هو المحارب نفسه ولكنه متخفٍّ؟ حتى وإن لم يكن معه سلاح، فلن يختلف الأمر كثيرًا. إذ أن حدَّ سيفي قاطع سواء كان محاربًا أم لا.

تمتم السير غَاوِن بينه وبين نفسه:

- يا لجرأته!

خطا الجندي ذو الشعر الرمادي، ربما بعدما أدرك فجأة خطأه، خطوتين إلى الوراء حتى أصبح في مكانه السابق بالضبط، ثم خفض سيفه إلى خاصرته قائلًا:

- أيُّها الغلام، تقدَّم نحوي.

قال أكسِل:

- إنه يتكلَّم بلسان الساكسون فقط، أيُّها السيِّد، كما أنه شديد الخجل.
- لا يحتاج إلى الكلام، أيُّها العمُّ. سنرفع قميصه فقط، وسنعرف حينذاك إن كان هو الغلام الذي غادر قريته بصحبة المحارب أم لا. اقترب أيُّها الغلام خطوة أخرى.

عندما اقترب إدْوِنْ، مدَّ الجندي يده الطليقة نحوه. وإثر ما أعقب ذلك من مشادَّة، إذ حاول إدْوِنْ إبعاد يد الجندي عنه، سرعان ما رُفع قميص الصبيِّ عن بطنه. رأى أكسِل، تحت الضلوع مباشرة، رقعة منتفخة من الجلد محاطة بنقاط صغيرة من الدماء المتيبِّسة. وعن يمين أكسِل وشماله، انحنى كل من غَاوِن وبياترِس كي ينظرا بصورة أفضل، أمَّا الجندي نفسه، متردِّدًا في سحب عينيه بعيدًا عن وِسْتِن، فلم يختطف نظرة إلى الجرح إلَّا بعد مدَّة. وعندما فعل ذلك أخيرًا، اضطرَّ إلى الاستدارة برأسه على نحو خاطف، وفي تلك اللحظة، أصدر إدْوِنْ ضجيجًا حادًّا صمَّ الآذان - لم يكن صرخة بالضبط، لكنه صوتٌ ذكَّر أكسِل بما يطلقه ابن آوى من عواء طلبًا للغوث. تشوَّش الجندي للحظة، فاغتنم إدْوِنْ الفرصة للإفلات من قبضته. وحينذاك فقط أدرك أكسِل أن الضجيج لم يصدر عن الغلام، بل وِسْتِن؛ وأن الفرس، التي كانت إلى ما قبل صدوره تقضم العشب بكسل واسترخاء، أجابت صاحبها واستدارت فجأة ثم انطلقت كالسهم نحوهم.

تململ حصان الجندي من خلفه بذعر، ما سبَّب له مزيدًا من التشوُّش، وحين تدارك نفسه، كان وِسْتِن قد أصبح في مأمن من ضربات السيف. واصلت الفرس تقدُّمها بسرعة مرعبة، ووِسْتِن، يتحرَّك بمراوغة، حينًا هنا وحينًا هناك، ثم أطلق صرخة مدوِّية جديدة. أبطأت الفرس سرعتها، ووقفت بين وِسْتِن وخصمه، ما أتاح للمحارب، وعلى نحو مريح، التموضع على بُعد خطوات عديدة من شجرة البلُّوط. تحرَّكت الفرس ثانية، مقتفية أثر سيِّدها بذكاء. حين تحرَّك الحيوان، ظنَّ أكسِل بأن وِسْتِن يريد امتطاءها، إذ كان المحارب يقف الآن متأهِّبًا، ويداه مشرَّعتان في الهواء. حتى أن أكسِل رآه يمدُّ نفسه نحو السرج قبيل

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

اللحظة التي سدَّت فيها الفرس مجال رؤيته. على أن الفرس انطلقت بعد ذلك من دون خيَّال نحو البقعة التي كانت تستمع فيها قبل هنيهة بمضغ العشب. أما وِسْتِن فبقي في مكانه من دون حراك، لكن السيف أصبح الآن في قبضته.

ندَّ عن بياترِس صوت خفيض دلالة على الدهشة، فطوَّقها أكسِل بذراعه وقرَّبها إلى جنبه. على جنبه الآخر، همهم غَاوِن إعجابًا بمناورة وِسْتِن. كان الفارس العجوز قد رفع قدمه فوق جذر ضخم لشجرة البلُّوط، وراح يراقب بحماس بالغ، ويده فوق ركبته.

كان ظهر الجندي ذي الشعر الرمادي الآن مقابلًا لهم: بالطبع لم يكن أمامه من خيار آخر، إذ كان عليه الآن مواجهة وِسْتِن. كان أكسِل متفاجئًا من رؤية ما أصاب هذا الجندي من تشتُّت بالغ رغم كل ما تحلَّى به من انضباط وحنكة منذ لحظة فقط. رمق جواده الذي هرول بعيدًا عنه من الذعر - وكأنه يلتمس بعض الطمأنينة، ثم رفع سيفه، وحافَّته العلوية فوق مستوى كتفيه بقليل، قابضًا عليه بكلتا يديه. اتخاذ تلك الوضعية، حسب تقدير أكسِل، كان سابقًا لأوانه، لأنها لن تسهم إلَّا في ارهاق ذراعيه. وِسْتِن، في المقابل، بدا هادئًا، تمامًا كما كان في الليلة الماضية التي رأوه فيها للمرَّة الأولى عند انطلاقه خارج القرية. تقدَّم ببطء نحو الجندي، متوقِّفًا بضع خطوات من أمامه، وسيفه مرفوع على مستوى منخفض وبيد واحدة فقط.

قال الجندي وقد سرت نبرة جديدة في صوته:

- سير غَاوِن، أسمع حركتك من خلفي. ألا تقف في صفِّي ضدَّ هذا الخصم؟
- بل أقف هنا لحماية هذين الزوجين الطيِّبين أيُّها السيِّد. عدا ذلك، فهذا الخلاف ليس من شأني، كما قلت أنت بنفسك منذ قليل. قد يكون هذا المحارب خصمًا لك، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لي بعد.
- هذا الرجل محارب ساكسوني، سير غَاوِن، وهو هنا لإثارة المتاعب بيننا. ساعدني على مواجهته، فرغم حماستي لأداء واجبي، إلَّا أن

هذا الرجل، إن كان هو نفسه من نطارده، فهو رجل ذو بأس بشهادة الجميع.

- أي سبب هذا الذي يحملني على رفع السلاح في وجه رجل لأنه ببساطة غريب؟ أنت أيُّها السيِّد من أتى إلى هذا المكان الذي تعمره السكينة فغمرته بتصرُّفاتك الوقحة.

خيَّم الصمت لمدَّة، ثم قال الجندي مخاطبًا وِسْتِن:

- هل ستبقى على خرسك أيُّها السيِّد؟ أم ستكشف عن هويتك الآن، بعد أن أصبحنا وجهًا لوجه!
- أنا وِسْتِن، أيُّها السيِّد، محارب من الشرق في زيارة لهذه البلاد. يبدو أن سيِّدك اللورد برونُس يريد إلحاق الأذى بي، ولست أدري لأي جرم على وجه التحديد، فأنا مسافر بشكل سلميٍّ لأداء مهمَّة كلَّفني بها ملكي. فضلًا عن هذا، أعتقد أنك تريد إلحاق الأذى بهذا الغلام البريء، وبرؤيتي ذلك يتوجَّب عليَّ منعك من هذا.

صرخ الجندي:

- سير غَاوِن، ألا تنصر أحد أبناء جلدتك من البريتون، إني أسألك ثانية. إن كان هذا وِسْتِن فقد قيل إن أكثر من خمسين نورديًّا[1] سقطوا بحدِّ سيفه.
- إن كان قد أجهز بنفسه على خمسين من الفايكنغ، فأي فرق سيُحدثه وجود فارس عجوز متعب في نتيجة ما سيحصل الآن أيُّها السيِّد؟
- أتوسَّل إليك، سير غَاوِن، كفَّ عن التهكُّم الآن. هذا الرجل متوحِّش، وسيهجم في أي لحظة. أرى ذلك في عينيه. إنه هنا لإلحاق الأذى بنا جميعًا، أنصت لي.

---

(1) النورديون قبائل وثنية ذات أصول ألمانية ولكنها تقطن ما يعرف بإسكندنافيا اليوم. كانت تلك القبائل تغزو انجلترا لأجل الغنائم في البداية ثم بدأت تدرك قيمة الأرض فأصبحت غزواتها لأجل السيطرة والاستيطان في الأرض. يعرفون كذلك بالفايكنغ.

ردَّ وِسْتِن:

- لماذا لا تقول لنا ما هو هذا الأذى الذي جئت لإنزاله بكم إذًا؟ إنني أسافر في بلدكم بشكل سلمي، وأحمل سيفًا وحيدًا في متاعي لحماية نفسي من الكائنات المتوحِّشة وقطَّاع الطرق. إن استطعت أن تحدِّد جريمتي، فافعل الآن، فأنا على استعداد لسماع التهمة قبل أن أقرِّر الهجوم عليك.
- أجهل طبيعة ما ستلحقه بنا من أذى، لكني أثق برغبة اللورد برونُس في التخلُّص منك.
- إذًا ليس هناك من تهمة محدَّدة، ومع ذلك هرولت إلى هنا لذبحي.
- سير غَاوِن، ساعدني، أتوسَّل إليك! مقابل شراسته في القتال، قد ننجح أنا وأنت في التغلُّب عليه معًا باستراتيجية محكمة.
- دعني أذكِّرك، أيُّها السيِّد، إنني فارس من فرسان آرثر، ولست محض جندي من جنود سيِّدك اللورد برونُس. أنا لا أرفع سلاحي في وجه الغرباء بسبب إشاعة أو لأن الدماء التي تجري في عروقهم أجنبية. كما يبدو لي أنك غير قادر على تقديم سبب وجيه لعدائك له.
- إنك ترغمني على الكلام إذًا، رغم أنها معلومات سرِّية لا يحقُّ لجندي في رتبتي المتواضعة أن يفشيها، حتى وإن كان اللورد برونُس بنفسه قد سمح لي بسماعها. جاء هذا الرجل إلى بلدنا في مهمَّة لقتل التنِّينة كويرِغ. وهذا ما دعاني إلى المجيء إلى هنا!

ردَّ السير غَاوِن وقد صُعق تمامًا ممَّا سمعه:

- قتل كويرِغ؟

ترك الشجرة خلفه وتقدَّم بخطى واسعة، ثم حدَّق في وِسْتِن كما لو كان يراه للمرَّة الأولى قائلًا:

- هل هذا صحيح أيُّها السيِّد؟
- لا نيَّة لي في الكذب على أحد فرسان آرثر، ولذلك دعني أعلنها على الملأ. إلى جانب المهمَّة التي أخبرتكم عنها سابقًا، كلَّفني ملكي

بقتل التنِّينة الطليقة في هذا البلد. لكن ما العيب الذي يثير الرفض والاعتراض على مهمَّة كهذه؟ إنها تنِّينة ضارية تلحق الهلاك بالجميع ومن دون تمييز. قل لي، أيُّها الجندي، لماذا تجعلني مهمَّة كهذه عدوًّا لك؟

راح السير غَاوِن يصرخ الآن قائلًا:

- تذبح كويرِغ؟ حقًّا تنوي قتل كويرِغ؟ لكن، أيُّها السيِّد، **أنا** من عُهد إليه بهذه المهمَّة! ألا تعرف ذلك؟ إنها مهمَّة أوصاني بها آرثر نفسه!

- هذا خلاف سنتناوله في وقت آخر، سير غَاوِن. دعني أتصدَّى أوَّلًا لهذا الجندي الذي جعل مني ومن أصدقائي أعداء بسبب مرورنا بشكل سلميٍّ في هذا البلد.

- سير غَاوِن، إن لم تهبَّ إلى نجدتي، فأخشى أن تكون هذه آخر ساعة في حياتي! أستحلفك يا سيِّدي، أن تتذكَّر ما يكنُّه اللورد برونُس من حبٍّ لآرثر وذكراه، وأن تشهر سلاحك في وجه هذا الساكسوني!

- إنَّ ذبح كويرِغ واجبي **أنا**، سيِّد وِسْتِن! أنا وهُورِس وضعنا خططًا محكمة لاستدراجها ونحن لا نلتمس أي مساعدة من أحد!

خاطب وِسْتِن الجندي قائلًا:

- ضع سيفك أرضًا، أيُّها السيِّد، وسأدعك تنجو بحياتك. وإلَّا فإن نهايتك ستكون في هذه البقعة.

اعترى التردُّد الجندي، لكنه ما لبث أن قال:

- بوسعي الآن أن أرى كم كنتُ أحمق عندما ظننت بأني قادر على الإطاحة بك بمفردي، أيُّها السيِّد. لعلِّي سأُعاقب على ما أصابني من العُجب بالنفس. لكنني لا أستطيع أن أضع سيفي أرضًا مثل الجبناء.

هتف سير غَاوِن قائلًا:

- بأي حقٍّ يأمرك ملكك بالمجيء إلى بلد آخر واغتصاب واجب كُلِّف به أحد فرسان آرثر؟

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- عذرًا، سير غَاوِن، لكنَّ سنوات طويلة انقضت مذ كان عليك قتل كويرِغ، وخلال تلك الفترة كبر الصغار وأصبحوا رجالًا. إن كان بإمكاني إسداء خدمة لهذا البلد وتخليصه من هذا البلاء، فعلام الغضب؟

- علام الغضب أيُها السيِّد؟ أنت ليس لديك أدنى فكرة عمَّا أنت بصدد الإقدام عليه! أتظنُّ أن قتل كويرِغ أمر سهل؟ إن ما تتحلَّى به من ذكاء لا يقلُّ عمَّا تمتلكه هي من شراسة! وأنت لن تفلح بحماقتك إلَّا في إثارة غضبها، وحينذاك سيعاني هذا البلد بأسره من وطأة غضبها، سيَّما ونحن هنا لم نسمع عنها أي شيء خلال السنوات العديدة الماضية. إن هذه المسألة تتطلَّب معالجة دقيقة للغاية، أيُّها السيِّد، وإلا ستحلُّ نكبة بالأبرياء في طول هذا البلد وعرضه! لمَ تظن أن هُورِس وأنا دخلنا في مراهنة على الوقت؟ لأن الإقدام على خطوة واحدة غير محسوبة يترتَّب عليه عواقب وخيمة أيُّها السيِّد!

صرخ الجندي، محاولًا الآن بذل جهده في إخفاء خوفه، قائلًا:

- ساعدني إذًا، سير غَاوِن، دعنا نتغلَّب معًا على هذا الشقيِّ!

نظر السير غَاوِن إلى الجندي بشيء من الحيرة، كما لو أنه نسي في تلك اللحظة من يكون ذلك الرجل. ثم قال بنبرة أهدأ:

- لن أساعدك، أيُّها السيِّد. لست صديقًا لسيِّدك، لأنني أتخوَّف من دواعيه الشريرة. كما أتخوَّف أيضًا من نواياك في إلحاق الأذى بالآخرين من حولنا، وهم قطعًا أبرياء عالقون وسط ما يحيط بنا من خلاف.

- سير غَاوِن، إنني عالق هنا بين الحياة والموت مثل ذبابة في بيت العنكبوت. أناشدك للمرَّة الأخيرة، رغم عدم استيعابي الكامل لهذا الأمر، إلَّا أني أتوسَّل إليك أن تفكِّر فيه مليًّا، لماذا يأتي إلى بلدنا إن لم يكن لإلحاق الأذى بنا!

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

- لقد طرح سببًا وجيهًا من وراء مهمَّته هنا، أيُّها السيِّد، ومع أنه أثار غضبي بسبب خططه الطائشة، إلَّا أن ذلك ليس سببًا كافيًا يدعوني إلى الانضمام إليك ورفع السلاح في وجهه.

قال وِسْتِن بنبرة استرضاء إلى حدٍّ ما:

- واجهني الآن وقاتل، أيُّها الجندي. قاتل ولنضع حدًّا لهذا الأمر.

قالت بياترِس فجأة:

- أهناك ضير، سيِّد وِسْتِن، في أن تسمح لهذا الجندي بتسليم سيفه والرحيل من هنا على جواده؟ عندما كلَّمني فوق الجسر فعل ذلك بكل طيبة، ولعلَّه ليس شرِّيرًا.

- لو فعلتُ ما تطلبينه مني، سيِّدة بياترِس، فإنه سيحمل أخبارنا ثم يرجع لملاحقتنا برفقة ثلاثين أو أكثر من الجنود خلال زمن قصير. وحينذاك بالكاد سنلمس منهم أيَّ رحمة. كذلك، دعيني أذكِّرك أيضًا بأنه يقصد إلحاق الأذى بالغلام.

- لعلَّه لا يمانع في أن يعاهدنا على عدم خيانتنا وإفشاء خبرنا.

تدخَّل الجندي ذو الشعر الرمادي من دون رفع عينيه عن وِسْتِن قائلًا:

- إنني متأثِّر للغاية من طيبتك أيَّتها السيِّدة. لكنني لست وغدًا ولن أستغلَّها بخسَّة. ما يقوله الساكسوني صحيح. إن أطلق سراحي فسأفعل تمامًا مثلما قال، ذاك أن أداء الواجب لا يتيح لي أي خيار آخر. مع ذلك فإني أشكرك على كلماتك الحانية، وإن كانت هذه لحظاتي الأخيرة، فسأغادر هذا العالم وقد أشعرتني بشيء من السلام.

ردَّت بياترِس:

- زيادة على ذلك، أيُّها السيِّد، أنا لم أنس ما طلبته مني سابقًا، بشأن أمِّك وأبيك. أعلم أنك فعلت ذلك من باب المداعبة، وأن من غير المحتمل أن نصادفهما في الطريق. لكن إن حدث ذلك، فسيعرفان بمدى انتظارك وشوقك لرؤيتهما ثانية.

- أشكرك ثانية أيَّتها السيِّدة. لكن المقام لا يحتمل الاستغراق في مثل هذه الأفكار التي ترقِّق القلوب. من يدري، ربما يحالفني الحظُّ في هذه المبارزة، رغم ما لهذا الرجل من سمعة، وحينذاك قد تندمين على التماس الرحمة لي.

تنهَّدت بياترِس قائلة:

- هو كذلك على الأرجح. إذًا، سيِّد وِسْتِن، يجب أن تبذل قصارى جهدك لأجلنا. سأشيح بوجهي، إذ لا يسرُّني أن أرى مشاهد الذبح والقتل. أرجو أن تطلب من السيِّد إدْوِنْ فعل الأمر نفسه لحداثة سنِّه، فهو لن ينصاع إلَّا إن صدر الأمر منك.

ردَّ عليها وِسْتِن قائلًا:

- عذرًا، أيَّتها السيِّدة، لكني أريد من الغلام أن يشهد كل ما سيجري، تمامًا مثلما كانوا يفعلون بي عندما كنت في سنِّه. أعرف أن جفنه لن يطرف ولن يفرغ ما في معدته وهو يراقب طرائق المحاربين عند المواجهة.

ثم أردف الآن بجمل عديدة بلسان ساكسوني، فمشى إدوِن، الذي كان واقفًا وحيدًا على مسافة قصيرة، إلى الشجرة ووقف بجانب أكسِل وبياترِس. بدت عيناه اليقظتان وكأنهما لم تطرفا أبدًا.

كان أكسِل يسمع أنفاس الجندي ذي الشعر الرمادي، إذ ارتفع صوتها الآن بإطلاق الرجل زمجرة خافتة مع كلِّ نفس. وعندما هجم مندفعًا إلى الأمام فعل ذلك وسيفه عالٍ فوق مستوى رأسه ما بدا هجومًا غير محنَّك، بل انتحاريًّا؛ لكن قبيل وصوله إلى وِستِن، حرف مساره فجأة، مناورًا بالتوجُّه إلى يساره، ثم هبط بسيفه إلى مستوى فخذه. كان الجندي ذو الشعر الرمادي، حسبما أدرك أكسِل بشيء من الإشفاق، لمعرفته بانعدام الفرصة أمام الجندي في حال تطوُّر المبارزة، قد راهن بكل شيء في سبيل هذه الحيلة الوحيدة اليائسة. لكن وِسْتِن توقَّعها، أو لعلَّ غريزته كانت وحدها كافية. تجنَّبه الساكسوني بخطوة جانبية

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

حاذقة، هاويًا بسيفه في عرض الرجل المندفع نحوه بحركة بسيطة واحدة. أطلق الجندي صوتًا أشبه بارتطام دلو بسطح الماء؛ ثم خرَّ صريعًا إلى الأمام. تمتم السير غَاوِن بصلاة، وسألت بياترِس:

- هل انتهى الأمر يا أكسِل؟
- انتهى يا أميرة.

حدَّق إدْوِنْ إلى القتيل، وقسمات وجهه بالكاد اختلفت عمَّا كانت عليه في السابق. متتبِّعًا بصر الصبي، رأى أكسِل أن ثعبانًا، أزعجه سقوط الجندي فوق العشب، كان ينزلق الآن من تحت الجثَّة. ورغم قتامة لونه، إلَّا أنه كان مرقَّطًا بالأصفر والأبيض، وفيما أخذ في الكشف عن أجزاء أكبر من جسمه، زاحفًا بسرعة فوق الأرض، التقط أنف أكسِل الرائحة النفاذة لأحشاء الصريع. خطى غريزيًّا إلى جنب، مبعدًا بياترِس معه، حذرًا من اقتراب الحيوان الزاحف نحو أقدامهما. رغم ذلك ظلَّ الثعبان يشقُّ طريقه نحوهما، منقسمًا إلى قسمين بالالتفاف حول شجيرة أشواك بنفسجية، كانفلاق جدول حول صخرة، قبل أن يصبح كلًّا واحدًا مرَّة ثانية مواصلًا الاقتراب أكثر فأكثر.

قال أكسِل وهو يقود بياترِس:

- ابتعدي يا أميرة. قُضي الأمر، وحُسم لصالحنا. أراد بنا هذا الرجل شرًّا، مع أن السبب ما زال غير واضح.

ردَّ وِسْتِن قائلًا:

- دعني أبصِّرك قدر ما أستطيع، سيِّد أكسِل.

كان منهمكًا بتنظيف سيفه على الأرض، لكنه نهض الآن وتوجَّه نحوهم قائلًا:

- صحيح أن أبناء عمومتنا من الساكسون يعيشون بانسجام كبير مع أبناء جلدتكم. لكن وصلتنا أخبارٌ في ديارنا تفيد بأن اللورد برونُس يطمح إلى غزو هذا البلد وإخضاعه لهيمنته وشنِّ حرب على كل من يعيش فيه من الساكسون.

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

علَّق السير غَاوِن قائلًا:

- سمعت هذه الأخبار نفسها أيُّها السيِّد. وهذا هو السبب الآخر الذي حملني على عدم الوقوف إلى جانب هذا التعس ببطنه المبقورة مثل سمكة سلمون مرقَّطة. أخشى أن هذا اللورد برونُس ليس سوى رجل يرمي إلى نقض السلام العظيم الذي أرسى آرثر دعائمه بعد انتصارات ممهورة بالدماء.

ردَّ وِسْتِن قائلًا:

- سمعنا في بلدنا المزيد، أيُّها السير. بلغنا أن برونُس يستضيف في قلعته ضيفًا خطيرًا. رجلًا نورديًّا قيل إنه يمتلك القدرة على ترويض التنانين. فخاف ملكي أن يكون ما يرمي إليه اللورد برونُس هو القبض على كويرِغ كي تقاتل في صفوف جيشه. ولو صحَّ ذلك فإن هذه التنِّينة ستكون بيدقًا شرسًا بالفعل، وحينذاك سيكون برونُس مصيبًا في اعتقاده بإمكانية تحقيق طموحه. لهذا السبب أرسلت إلى هنا للقضاء على التنِّينة قبل تسليط شرِّها على كل من يعارض اللورد برونُس. سير غَاوِن، تبدو مشدوهًا، لكنني لا أقول إلَّا الصدق.

- إن كنتُ مشدوهًا، يا سيِّدي، فذلك لأن كلامك له وقع في نفسي. عندما كنت شابًّا، واجهت تنِّينًا يقاتل في صفوف الخصم، وكان شيئًا مرعبًا. تجمَّد رفاقي، رغم تعطُّشهم قبل لحظات لإحراز النصر، من المنظر، ولم يكن لذلك الكائن نصف ما لدى كويرِغ من السطوة والمكر. إن حُملت كويرِغ على أن تصبح خادمة للورد برونُس، فسيغريه ذلك قطعًا على شنِّ حروب جديدة. مع ذلك، فإني أُعلِّق الأمل على جموحها واستحالة ترويضها من قِبل أي رجل.

توقَّف لمدَّة عن الكلام ونظر نحو الجندي الصريع ثم هزَّ رأسه.

توجَّه وِسْتِن إلى حيث كان إدْوِنْ واقفًا، ثم أمسكه من ذراعه وقاده برفق نحو الجثَّة. ثم وقف الاثنان جنبًا إلى جنب فوق الجندي لمدَّة من الوقت،

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

عكف وِسْتِن خلالها على الحديث بصوت منخفض، مشيرًا بيديه بين الحين والآخر، ومتطلِّعًا في وجه إدْوِنْ كي يتفحَّص ردَّة فعله. وعند نقطة معيَّنة، رأى أكسِل إصبع وِسْتِن يرسم خطًّا مستقيمًا في الهواء، ربما أثناء شرحه للغلام مسار ضربة سيفه. وطوال ذلك، ظلَّ إدْوِنْ محدِّقًا بنظرات فارغة إلى القتيل.

قال السير غَاوِن وقد أصبح الآن إلى جانب أكسِل:

- من المحزن أن تلوِّث الدماء هذه البقعة المعمورة بالسكينة، فهي قطعًا نعمة من الربِّ لكل المسافرين المنهكين. دعونا ندفن هذا الرجل سريعًا، قبل مرور أي شخص من هذا الطريق. سآخذ جواده إلى معسكر اللورد برونُس، وسأقول إني عثرت عليه صريعًا بعيد هجوم قطَّاع الطرق عليه، وسأخبر أصدقاءه بمكان قبره. في هذه الأثناء أيُّها السيِّد - استدار مخاطبًا وِسْتِن - أحثُّك على العودة مباشرة إلى الشرق. لا تفكِّر في كويرِغ، إذ بوسعك الاطمئنان إلى أنني وهُورِس، وبعد سماعنا كل ما سمعناه اليوم، سنضاعف من جهودنا لقتلها. والآن هيَّا، أيُّها الأصدقاء، لِنُوَارِ هذا الرجل الثرى، وعسى أن يعود إلى بارئه بسلام.

مكتبة

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

الجزء الثاني

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

الفصل السادس

رغم إعيائه الشديد، ظلَّ النوم يراوغ جفني أكسِل. استضافهم الرهبان في غرفة علويَّة، وهي وإن كفت عظامه شرَّ برد التراب، إلَّا أنها حرمته من الرقود فوق الأرض التي ما كان ليغفو على علوٍ منها بسهولة قطُّ. حتى عند التماسه المبيت في الحظائر والإسطبلات وصعود السلالم للرقود في أجزائها العلوية، كانت لياليه فيها قلقة مهجوسة بما يقبع من حيِّز مفتوح في الأسفل منه. أو لعلَّ سبب قلقه هذه الليلة هو تلك الطيور الملتحفة بعتمة الليل في الأعلى. خيَّم السكون عليها الآن، لكن كلما ندَّت عنها، بين الفينة والأخرى، حركة خافتة أو ضربة جناح، همَّ ببسط ذراعه فوق بياترِس النائمة بجواره كي يحميها من الريش القذر الهابط عبر الهواء.

كانت تلك الطيور موجودة هناك عند دخولهم الغرفة في وقت سابق من ذلك اليوم. ألم يشعر، حتى حينذاك، بشيء شرِّير في نظرة تلك الغربان والشحارير السود وحمام الغاب الرابضة فوق عوارض السقف الخشبية؟ أم أن ذاكرته تحوَّرت وتحرَّفت بما جرى من أحداث لاحقة؟

وقد يكون سبب أرقه ضجيج تقطيع وِسْتِن للحطب، الذي يتردَّد صداه حتى تلك اللحظة عبر ساحة الدير. لم يمنع الضجيج بياترِس من الغرق بسهولة في النوم، وعلى طرف الغرفة المقابل، خلف الشكل المظلم الذي يعلم بأنه الطاولة التي تناولوا فوقها طعامهم سابقًا، انتظمت أنفاس إدْوِنْ في شخير رقيق.

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

لكن وِسْتِن، على حدِّ علم أكسِل، لم ينم أبدًا. بقي المحارب جالسًا في زاوية الغرفة القصيَّة، منتظرًا رحيل آخر الرهبان عن ساحة الدير في الأسفل، ثم خرج في الظلام. وها هو يعود الآن من جديد - رغم تحذير الأب جوناس - إلى تقطيع مزيد من الحطب.

لم يتفرَّق الرهبان بعد خروجهم من اجتماعهم إلَّا بعد مدَّة. وكلما هوى أكسِل في لجَّة النوم انتشلته أصواتهم الآتية من الأسفل وأيقظته من جديد. كانت أحيانًا لأربعة أو خمسة منهم، منخفضة على الدوام، وممتلئة بالغضب أو الخوف على الأغلب. مرَّت فترة من الوقت الآن ولم يصدر أي صوت، مع ذلك، لم يستطع أكسِل، والكرى يداعب جفنيه، التخلُّص من الشعور بوجود رهبان أسفل النافذة، لا بضعة منهم فقط، بل عشرات من الهيئات الملتحفة بأردية الرهبنة، تقف بصمت تحت أشعَّة القمر، وتنصت إلى ضربات فأس وِسْتِن المتردِّدة في الأرجاء.

سابقًا، عندما كانت شمس العصر ما زالت تغمر الغرفة، نظر أكسِل من النافذة ورأى تجمُّعًا بدا وكأنه ضمَّ أهل الدير قاطبة. أكثر من أربعين راهبًا، كانوا يتوزَّعون في حلقات على طول فناء الدير الداخلي، وعلى نحو ينمُّ عن ترقُّب شيء ما. حركاتهم وشت بما يسود بينهم من مزاج باطني، فكل حلقة كان أفرادها يتهامسون كما لو أنهم حريصون على عدم إسماع الآخرين، كما لاحظ أكسِل أيضًا ما تبادلوه من نظرات عدائية فيما بينهم. كانوا جميعًا يرتدون زيًّا موحَّدًا من قماش بنِّي، البعض من دون قلنسوة أو أكمام. وبدوا متحرِّقين للدخول إلى المبنى الحجري الضخم المقابل، لكن يبدو أن تأخيرًا حدث، وجعل نفاد صبرهم ملموسًا.

طوال دقائق عديدة، ظلَّ أكسِل محدِّقًا إلى الفناء حتى سمع صوتًا حمله على الميل بجذعه من النافذة والنظر مباشرة إلى أسفل. رأى الجزء الخارجيَّ من حائط المبنى، متوهِّجًا بتلاوين صفراء جرَّاء انعكاس الشمس على حجارته الفاتحة، وأبصر ما يلتصق به من درج يعلو من الأرض نحو الغرفة. وفي منتصف

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

الدرج، كان راهب - استطاع أكسِل رؤية هامته - يحمل بين يديه صينية فوقها طعام وإبريق حليب. توقَّف الرجل محاولًا أن يوازن الصينية بين يديه، وهي مناورة تابعها أكسِل بقلق بالغ، لمعرفته بأن تلك الدرجات لم تكن مستوية من شدَّة الوطء، وأنه لا بد لمن يرتقي الدرج غير المسوَّر، من التزام جانب الحائط تفاديًا للسقوط فوق الأرضية الحجرية. زيادة على ذلك، كان الراهب الذي استأنف صعوده الآن أعرج، لكنه مع ذلك واصل صعوده، ببطء واتزان.

توجَّه أكسِل نحو الباب كي يريح الرجل من ثقل الصينية، لكن الراهب - الأب بريان، كما سيتعرَّفون على اسمه بعد قليل - أصرَّ على حملها بنفسه إلى الطاولة قائلًا:

- أنتم ضيوفنا، لذا دعوني أقُم على خدمتكم بما يقتضيه الحال.

حينذاك كان وِسْتِن والغلام قد تركا الغرفة، ولعلَّ صوت تقطيع الحطب كان مُلعلعًا في الأرجاء قبل مدَّة. لذا لم يكن من أحد غيره هو وبياترِس حاضرين للجلوس إلى الطاولة الخشبية، جنبًا إلى جنب، والتهام الخبز والفاكهة والحليب بامتنان بالغ. وأثناء ذلك، أسهب الأب بريان في الحديث بسعادة، وأحيانًا بصورة حالمة، عن الزوّار السابقين، والسمك الذي يُصاد من عيون الماء المجاورة، والكلب الضالِّ الذي عاش في كنفهم إلى أن مات في الشتاء الماضي. ومن حين لآخر، كان الأب بريان، العجوز ولكن الرشيق أيضًا، يترك الطاولة ويتجوَّل في أنحاء الغرفة مجرجرًا رجله المعطوبة، من دون أن يكفَّ عن الحديث، ثم يتَّجه، بين الفينة والأخرى، إلى النافذة كي يتفحَّص رفاقه في الأسفل.

خلال ذلك، كانت الطيور، من فوق رؤوسهم، تقطع سقف الغرفة جيئة وذهابًا، فيتساقط ريشها ملطِّخًا سطح الحليب. وكان بودِّ أكسِل أن يطردها من الغرفة، لكنه أمسك عن ذلك خشية أن يكون لها منزلة خاصَّة في قلوب الرهبان. وفي تلك اللحظة، باغته سماع خطى مهرولة فوق الدرج، واقتحام الغرفة من قبل راهب عظيم الجثَّة ذي لحية داكنة ووجه شديد الاحمرار. صرخ الراهب محدِّقًا بغضب إلى عوارض السقف الخشبية:

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

- أرواح شرِّيرة! أرواح شرِّيرة! سأغرقها في الدماء!

كان الوافد الجديد يحمل مخلاة من القشّ، دسَّ يده فيه، وأخرج حجرًا قذف به الطيور صارخًا:

- أرواح شرِّيرة! أرواح شرِّيرة خبيثة، أرواح شرِّيرة، أرواح شرِّيرة!

وبينما ارتدَّ الحجر الأوَّل بعد ارتطامه أرضًا، قذف بثانٍ ثم ثالث. ورغم تساقط الحجارة بعيدًا عن الطاولة، إلَّا أن بياترِس غطَّت رأسها بذراعيها، فنهض أكسِل وبدأ بالتوجُّه نحو الرجل الملتحي. لكنَّ الأب بريان وصل أوَّلًا، وقبض على ذراعيِّ الرجل قائلًا:

- أيُّها الأخ إيرازمَس، أتوسَّل إليك! توقَّف وهدِّئ من روعك قليلًا!

كانت الطيور الآن تزعق وتطير في كل الاتجاهات، والراهب ذو اللحية يصرخ فوق صخبها قائلًا:

- أعرفها! أعرفها!
- اهدأ أيُّها الأخ!
- لا تصدَّني عنها أيُّها الأب! إنها من جند الشيطان!
- أو لعلَّها من جند الربِّ يا إيرازمَس. نحن لا نعرف ذلك بعد.
- أعرف أنها من جند الشيطان! انظر إلى عيونها! كيف يمكن أن تكون جندًا للربِّ وهي تحدِّق إلينا بمثل هذه العيون؟
- هدِّئ من روعك يا إيرازمَس. إننا في حضرة ضيفينا.

إثر النطق بتلك الكلمات، شعر الراهب ذو اللحية بوجود أكسِل وبياترِس. حدَّق إليهما بغضب، ثم قال للأب بريان:

- لِمَ نستقبل ضيوفًا في وقت كهذا؟ ما الذي دعاهما إلى المجيء هنا؟
- إنهما زوجان طيِّبان على سفر، أيُّها الأخ، ونحن كالعادة سعداء باستضافتهما.
- أيُّها الأب بريان، حماقة منك أن تُطلع الغرباء على شؤوننا! انظر، إنهما يتجسَّسان علينا!

- لا، هما لا يتجسَّسان على أحد، وليس لديهما أي اهتمام بمشاكلنا، بل إنني على يقين من أن لديهما ما يكفيهما من المشاكل.

أخرج الرجل ذو اللحية فجأة حجرًا آخر واستعدَّ لقذفه، لكن الأب بريان تمكَّن من منعه قائلًا:

- عُد من حيث أتيت يا إيرازمَس، ودعك من التشبُّث بهذه المخلاة. هيَّا، اتركها معي. ليس من خير يُرجى من حملها إلى كل مكان تذهب إليه.

دفع الرجل ذو اللحية الراهب الأكبر سنًّا منه، وضمَّ مخلاته بغيرة إلى صدره. فما كان من الأب بريان سوى أن سمح لإيرازمَس بهذا الانتصار الصغير، وقاده إلى عتبة الباب. وعندما استدار الأخير للتحديق ثانية إلى السقف، دفعه الأبَ بريان برفق نحو الدرج قائلًا:

- عد من حيث أتيت يا إيرازمَس. إنهم يفتقدونك في الأسفل. اذهب وانتبه لئلا تسقط عن الدرج.

عندما ذهب الرجل أخيرًا، رجع الأب بريان كاشًّا الريش السابح في الهواء، ثم قال:

- دعوني أعتذر منكما. إنه رجل طيِّب، لكن الحياة بهذه الطريقة لم تعد مناسبة له. أرجوكما أن تجلسا ثانية وتنهيا طعامكما بسلام.

ردَّت بياترِس:

- مع ذلك أيُّها الأب، ربما كان الرجل محقًّا في قول إننا نتطفَّل عليكم في وقت عصيب. نحن لا نرغب في الإثقال عليكم، لذا إن سمحت لنا باستشارة الأب جوناس، وهو المعروف جيِّدًا بحكمته ومعرفته، فسنغادر على الفور. هل من خبر حول حظوتنا بلقائه؟

هزَّ الأب بريان رأسه قائلًا:

- الوضع كما أخبرتك سابقًا أيَّتها السيِّدة. يعاني جوناس منذ مدَّة من المرض، ولهذا أصدر رئيس الدير أوامر مشدَّدة تقضي بعدم إزعاج أي شخص له إلَّا بإذن من الرئيس نفسه. إنني مدرك لرغبتكما في لقاء

جوناس، وما تحمَّلتماه من مشقَّة القدوم إلى هنا، ولهذا ما زلت أحاول منذ وصولكما الحصول على إذن رئيس الدير. لكنكما، وكما تريان، جئتما في وقت مزدحم، إذ وصل للتوِّ ضيف مهمٌّ للقاء رئيس الدير، ما أخَّر انعقاد اجتماعنا. حتى أن رئيس الدير عاد إلى مكتبه للتحدُّث مع الزائر بينما مكث بقيَّتنا في الخارج إلى حين رجوعه.

كانت بياترِس واقفة أمام النافذة لمراقبة الراهب ذي اللحية لدى هبوطه درجات السلَّم الحجري، فرفعت إصبعها في تلك اللحظة وأشارت قائلة:

- أيُّها الأب الطيِّب، أليس هذا رئيس الدير وقد رجع الآن؟

أبصر أكسِل، بعد وصوله إلى جنب بياترِس، هيئة نحيلة متَّجهة بثقة صاحب السلطة إلى وسط الفناء الداخلي. وعندها توقَّف جميع الرهبان عن الكلام وتحرَّكوا نحوه.

ردَّ الأب قائلًا:

- آه أجل، ها هو رئيس الدير وقد عاد مجدَّدًا. أكملا تناول طعامكما الآن بسلام. أمَّا بالنسبة للقاء جوناس فعليكما بالصبر، لأنني أخشى ألَّا أحمل لكما قرار رئيس الدير إلَّا بعد انتهاء هذا الاجتماع. مع ذلك فإنني لن أنسى، أعدكما بذلك، وسأقدِّم التماسًا جيِّدًا بالنيابة عنكما.

كانت ضربات فأس المحارب آنذاك، كما هي عليه الآن، تطنُّ عبر الفناء الداخلي. في الحقيقة، كان بمقدور أكسِل أن يستعيد في ذهنه بوضوح سؤاله لنفسه، خلال مراقبته تدافع الرهبان داخل المبنى المقابل، إن كانت أذنه تلتقط صوت حطَّاب واحد أم اثنين؛ إذ كانت ضربة ثانية تلحق بالأولى كوقع الحافر على الحافر فيصعب الحكم بأنها ضربة حقيقية أم محض صدى. متأمِّلًا الآن في ذلك، وهو مستلقٍ في الظلام، كان أكسِل متأكِّدا من أنَّ إدْوِنْ كان يقطِّع الحطب مع وِسْتِن، مماثلًا ضربات المحارب ضربة تلو أخرى. في وقت سابق من ذلك اليوم، قبل وصولهم إلى هذا الدير، أذهلهم إدْوِنْ جميعًا بقدرته على الحفر بسرعة مدهشة مستخدمًا حجرين منبسطين عثر عليهما في الجوار.

توقَّف أكسِل عن الحفر، بعد أن أقنعه المحارب بادِّخار قوَّته لأجل تسلُّق الطريق الموصل إلى الدير. وهكذا وقف إلى جانب جثَّة الجندي التي كانت تنزف دمًا، مبعدًا عنها الطيور المتجمِّعة فوق الأغصان. استخدم وِسْتِن، حسبما استعاد أكسِل في ذهنه، سيف الرجل الصريع في حفر القبر، معلِّلًا امتناعه عن استخدام سيفه بضرورة الحفاظ على نصله. أمَّا السير غَاوِن فقال معلِّقًا:

- قضى هذا الجندي نحبه بشرف، بغضِّ النظر عن مكائد سيِّده، واستخدام سيف الفارس في حفر قبر له أمر حسن.

بيد أن الرجلين توقَّفا لمدَّة راقبا فيها بعجب ما أحرزه الغلام من تقدُّم في الحفر بأدواته البدائية. ثم، لدى استئنافهما أعمال الحفر، قال وِسْتِن:

- أخشى، يا سير غَاوِن، من أن اللورد برونُس لن يصدِّق تلك الحكاية.

ردَّ غَاوِن مواصلًا الحفر:

- سيصدِّقها إلى حدٍّ معقول أيُّها السيِّد. ثمَّة جفوة بيننا، لكنه يظنُّني صادقًا مغفَّلًا تعوزني حنكة حبك حكايات ملتوية. قد أروي لهم كيف أخبرني الجندي عن قطَّاع الطرق أثناء نزفه حتى الموت بين ذراعيَّ. ربما يعتقد البعض أن أكذوبة كهذه هي إثم عظيم، لكني أعرف أن الربَّ سينظر إليها بعين الرحمة، ألن تحول دون سفك مزيد من الدماء؟ سأحمل برونُس على تصديقي أيُّها السيِّد. رغم ذلك، ما زلت أنت عرضة للخطر وبات لديك الآن سبب وجيه يحملك على العودة إلى بلدك على جناح السرعة.

- سأفعل ذلك، سير غَاوِن، ومن دون تأخير حال انتهائي من مهمَّتي هنا. إن لم يبرأ حافر فرسي قريبًا، فربما أقايضها بفرس أخرى، إذ أن الطريق إلى الـفَنْلاند بعيدة. مع ذلك، سأشعر بالأسف على فراقها لأنها خيل نادرة.

- نادرة بكل تأكيد! هُورِسي، وللأسف، ما عاد يمتلك مثل تلك الرشاقة والألمعيَّة، لكنه هبَّ إلى نجدتي في العديد من أوقات الشدَّة، تمامًا كما

فعلت فرسك قبل قليل. فرس نادرة، وستحزن على فراقها بالتأكيد. مع ذلك، فإن السرعة مطلوبة، لذا امض في طريقك ولا تكترث لمهمَّتك. سأتصدَّى مع هُورِس لأمر تلك التنِّينة، ولهذا لا داعي لتفكِّر في شأنها. على كل حال، الآن وقد أصبح متاحًا لي تقليب الأمر، فإني أرى أن اللورد برونُس لا يمكنه النجاح أبدًا في تجنيد كويرِغ في جيشه. إنها من أشدِّ الكائنات وحشية، ولا سبيل إلى ترويضها، فهي لن تتردَّد في نفث نيرانها ضدَّ العدوِّ والصديق. الفكرة من أساسها عجيبة غريبة أيُّها السيِّد. لا تفكِّر فيها أكثر من ذلك وسارع إلى بلدك قبل أن يحيط بك أعداؤك.

وعندما واصل وِسْتِن الحفر من دون ردٍّ، استأنف السير غَاوِن الحديث، وسأله:

- هل تعدني بذلك، سيِّد وِسْتِن؟
- أعدك بماذا، سير غَاوِن؟
- بألَّا تفكِّر بالتنِّينة وأن تسارع إلى بلدك.
- تبدو متحمِّسًا لسماع ذلك مني.
- لا أفكِّر بسلامتك، أيُّها السيِّد، وحسب، بل أيضًا بمن ستمطرهم كويرِغ بغضبها إن قمت باستفزازها. وماذا عن هؤلاء الذين تسافر بصحبتهم؟
- هذا صحيح، سلامة هؤلاء الأصدقاء تثير القلق في نفسي. سأمضي بصحبتهم حتى نصل إلى الدير، إذ لا يمكنني تركهم من دون حماية فوق هذه الطرقات الخطيرة. بعد ذلك، ربما يكون من الأفضل أن نفترق.
- إذًا بعد الوصول إلى الدير، ستعود إلى بلدك.
- سأنطلق صوب بلدي حال أكون جاهزًا، أيُّها الفارس المحترم.

حملت رائحة أمعاء الرجل الصريع أكسِل على الابتعاد خطوات إلى الوراء، وعندما فعل، أدرك أنه بات يحظى بإطلالة أفضل على السير غَاوِن. لم يكن

ظاهرًا من الفارس الآن وهو داخل الحفرة العميقة سوى الجزء العلويِّ منه، من الرأس وحتى الخاصرة. وكان جبينه غارقًا في العرق، وربما كان ذلك هو السبب في اختفاء مسحة الودِّ والطيبة المعهودتين في قسماته. كان ينظر في وِسْتِن بعداء شديد، بينما واصل الآخر حفر القبر وهو في غفلة عن ذلك.

أمَّا بياترِس فأصابها الانزعاج من مقتل الجندي. وعندما أصبح القبر عميقًا، مشت ببطء نحو البلُّوطة الضخمة ثم جلست في ظلِّها وحنت رأسها. رغب أكسِل في الذهاب إليها والجلوس معها، لكن مهمَّة هشِّ الغربان المتجمِّعة منعته من ذلك. الآن، راقدًا في الظلام، شعر هو الآخر بالحزن على الرجل الصريع. تذكَّر أدب الجندي ولطف معاملته فوق الجسر الصغير، وطريقته الودودة في الكلام مع بياترِس. كما استعاد أكسِل أيضًا الطريقة الدقيقة التي موضع فيها حصانه لدى عبوره الفسحة الخالية وسط الشجر. طريقة قيامه بذلك هزَّت ذاكرته في ذلك الحين، والآن، في سكون الليل، تذكَّر أكسِل ارتفاع وانخفاض الأرض السبخة، والسماء المكفهرَّة، وقطيع الغنم المقبل عبر شجيرات الخلنج.

كان على حصانه، ورفيقه أمامه ممتطيًا جواده، رجل يدعى هارفي، رائحة جسده النفَّاذة تطغى على رائحة جواديهما معًا. توقَّفا فجأة وسط البرِّية التي تعصف فيها الريح، بعد أن لمحا حركة من بعيد، وحين اتَّضحت الرؤية تبيَّن لهما أنها لم تكن مصدرًا لأي خطر عليهما. مدَّ أكسِل ذراعيه - إذ سارا مدَّة طويلة فوق جواديهما - وراقب ذيل جواد هارفي وهو يتحرَّك من جنب إلى جنب كما لو كان يحاول منع الهوام من الاستقرار فوق مؤخِّرته. ومع أن وجه رفيقه كان محجوبًا عنه في تلك اللحظة، إلَّا أن جذع هارفي، بل هيئته برمَّتها، كشفت عمَّا أثاره فيه منظر القافلة المقبلة من ضغينة وشرٍّ.

رمى أكسِل بصره إلى الأفق متجاوزًا هارفي، فرأى نقاطًا سوداء لم تكن سوى رؤوس أغنام، يسير بينها أربعة رجال - أحدهم فوق حمار، والآخرون مشاة على الأقدام. لم يبد أن بصحبتهم أي كلاب. لا بدَّ من أن الرعاة، حسبما افترض أكسِل، لاحظوهما منذ أمد طويل - هيئتين لخيَّالين في صفحة الأفق -

لكنهم إن كانوا قد شعروا بالتوجُس والريبة منهما، فلم تظهر عليهم أي إمارات تنبئ بذلك أثناء خوضهم العسير في الوحل وسيرهم البطيء. لم يكن هناك، على أي حال، سوى درب واحد فقط يقطع الأرض السبخة، ولهذا قدَّر أكسِل أن السبيل الوحيد أمام الرعاة لتجنُّبهما هو الاستدارة والرجوع من حيث أتوا.

حينما اقترب الرعاة، لاحظ أكسِل أن الرجال الأربعة، البعيدين تمامًا عن الهرم، بدا عليهم الهزال والمرض. دفعت هذه الملاحظة قلبه على الغوص في أعماق صدره، لعلمه بأن حالة الرجال تلك لن تستثير سوى مزيد من الهمجية في نفس رفيقه. انتظر أكسِل إلى أن بلغت الجماعة مسافة إلقاء التحيَّة، ثم لكز حصانه ليتقدَّم إلى الأمام، وموضَع نفسه بدقَّة إلى جانب هارفي، حيث كان لا بدَّ للرعاة، ومعظم القطيع، من المرور. كما حرص على إبقاء حصانه على مسافة إصبع إلى الخلف، ليسمح بتمتُّع رفيقه بوهم الأسبقية والرئاسة. لكن أكسِل أصبح الآن في موقع يحمي الرعاة من أي اعتداء مباغت قد يشنُّه هارفي بسوطه، أو بالمضرب المتدلِّي من سرج حصانه. وطوال ذلك الوقت، لم توحِ هذه المناورة في الظاهر بغير روح الزمالة، وعلى كل حال، لم يكن لدى هارفي من الفطنة ما يكفي لإدراك الغرض الحقيقي من ورائها. وفعلًا، استعاد أكسِل كيف أومأ له رفيقه بذهن غائب عند اقترابه منه، ثم عاد ثانية إلى التحديق بمزاجية عبر الأرض السبخة.

أما سبب قلق أكسِل تجاه الرعاة المقبلين فهو ما حصل قبل أيَام قليلة في قرية ساكسونية. كان ذاك الصباح مشمسًا، وما أصاب أكسل من الذهول عند وقوع تلك الحادثة لم يكن أقل ممَّا أصاب أيَّ شخص آخر في القرية. إذ لكز هارفي حصانه، دونما سابق إنذار، وهجم على الأهالي المتجمهرين لسحب الماء من البئر وأمطرهم بوابل من الضربات. هل استخدم هارفي حينذاك سوطه أم مضربه؟ حاول أكسِل استعادة تلك التفصيلة في ذلك اليوم في الأرض السبخة. لو اختار هارفي الاعتداء على الرعاة المقبلين بسوطه، فمجال وصوله إليهم متاح أكثر ويتطلَّب جهدًا أقل من ذراعه؛ ولعلَّه يجرؤ كذلك على تسديد

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

ضرباته من فوق رأس حصان أكسِل. أما إن اختار مضربه، فوجود أكسِل في الموقع الذي كان فيه الآن، سيرغم هارفي على دفع حصانه وتجاوز أكسِل ثم الاستدارة قليلًا قبل الهجوم. لكن مناورة كتلك ستبدو لرفيقه حركة فيها الكثير من القصد والتعمُّد: كان هارفي من النوع الذي يحبُّ أن تبدو همجيته تلقائية سهلة ومن دون مجهود يذكر.

لم يستطع الآن أن يتذكَّر إن كان تدبيره الحذر قد أنقذ الرعاة أم لا. كان يتذكَّر على نحو واهٍ مرور الأغنام ببراءة من جنبه، أما الرعاة أنفسهم فاشتبكت ذكراهم على نحو مشوَّش بذلك الهجوم على القرويين قرب البئر. لماذا وفدا على تلك القرية في ذلك الصباح؟ تذكَّر أكسِل صيحات الغضب، وبكاء الأطفال، ونظرات العداء، وحنقه هو، لا على هارفي نفسه، بل على من أقعدوه وكبَّلوا يديه بصحبة رفيق على تلك الشاكلة. مهمَّتهما، لو أنجزت، لكانت قطعًا إنجازًا فريدًا لا سابق له، من صنف الإنجازات الباهرة التي يَعُدُّها حتى الربُّ نفسه بمثابة لحظة فارقة يقطع فيها البشر خطوة أقرب إليه. لكن كيف يمكن لأكسِل أن يأمل في تحقيق أي شيء ويداه مغلولتان بمثل هذا الكائن البهيمي؟

عاد الجندي ذو الشعر الرمادي إلى ذهنه من جديد، وما صنعه من نصف إشارة بسيطة فوق الجسر. عندما كان زميله الثخين يصرخ في وِسْتِن جاذبًا شعره بقسوة، رفع الرجل ذو الشعر الرمادي ذراعه، وأصابعه تكاد ترسم إشارة ما، وعبارات التوبيخ والتقريع توشك أن تفلت من بين شفتيه. ثم ترك ذراعه تهبط إلى جنبه. التقط أكسِل تمامًا ما مرَّ به الرجل ذو الشعر الرمادي خلال تلك اللحظات. بعد ذلك، تحدَّث الجندي بنبرة ودودة خاصَّة مع بياترِس، وكان أكسِل ممتنًّا له على ذلك. استعاد تعبيرات وجه بياترِس أثناء وقوفها أمام الجسر، وكيف تحوَّلت من قسمات عصبية محسوبة بدقَّة إلى أخرى رقيقة مبتسمة وعزيزة للغاية على نفسه. استحوذت الآن تلك الصورة على قلبه، وأخافته في الوقت ذاته. لم يتطلَّب الأمر من غريب - وكان واردًا أنه خطير في ذلك الموقف - سوى النطق ببعض الكلمات الطيِّبة لحملها على الثقة في كل العالم من جديد. أقلقه

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

ذلك الخاطر وداهمه شعور جامح بتمرير يده برفق فوق الكتف الذي كان يحاذيه في تلك اللحظة. لكن ألم تكن دومًا كذلك؟ ألم يكن هذا جزءًا مما يجعلها غالية ولا تقدَّر بثمن بالنسبة إليه؟ ألم تفلح كذلك في النجاة من أي أذى عظيم على مرِّ السنين الطويلة؟

تذكَّر بياترِس وهي تقول له بصوت عارم بالقلق:

- لا يمكن أن تكون إكليل الجبل، أيُّها السيِّد.

كان حينذاك مقرفصًا وإحدى ركبتيه تلامس التراب، إذ كان اليوم رائقًا والتربة جافَّة. لا بدَّ من أن بياترِس كانت خلفه، يمكنه أن يتذكَّر أن ظلَّها كان مرتسمًا فوق أرض الغابة أمام ناظريه حين أبعد الحشائش والأعشاب بيديه. ثم كرَّرت قولها ثانية:

- لا يمكن أن تكون إكليل الجبل أيُّها السيِّد. ومن ذا الذي رأى من قبل إكليل غار بزهور صفراء كهذه؟

ردَّ أكسِل:

- أخطأتُ إذًا في تسميتها أيَّتها الصبيَّة. بيد أني متأكِّد من أنها عشبة شائعة، ولا تُعدُّ من بين تلك التي تجلب الفأل السيِّئ لمن يراها.
- لكن هل تعتبر نفسك خبيرًا في الأعشاب فعلًا أيُّها السيِّد؟ عرَّفتني أمِّي بكل ما ينبت في هذا البلد من أعشاب برِّية، ومع ذلك فإنني أجد ما ننظر إليه الآن غريبًا؟
- من المحتمل إذًا أنها نبتة دخيلة بدأت في الانتشار في هذه الربوع. لمَ تشعرين بكل هذا القلق أيَّتها الصبيَّة؟
- أشعر بالقلق، أيُّها السيِّد، لأنها على الأرجح عشبة ضارَّة نشأتُ على الخوف منها.
- ليس ما يستدعي الخوف من عشبة ضارَّة، إلَّا إن كانت سامَّة، وحينذاك لا يتطلَّب الأمر أكثر من عدم لمسها. ومع ذلك، قمتِ بلمسها، وحملتني على فعل الأمر نفسه!

- أوه، إنها ليست سامّة أيُّها السيِّد! ليس على النحو الذي تظنُّه. وصفت لي أمّي، ذات مرّة، نبتة تشبه هذه، وحذَّرتني من أن رؤيتها وسط الخلنج تجلب الفأل السيِّئ على أيِّ صبيَّة يافعة.
- أي فأل سيِّئ أيَّتها الصبيَّة؟
- لا أملك جرأة كافية على قول ذلك لك أيُّها السيِّد.

رغم ما قالته، فرفصت الصبيَّة الشابَّة - وهذا ما كانته بياترِس في ذلك اليوم - إلى جنبه فتلامس مرفقاهما لوهلة قصيرة، ثم نظرت إلى عينيه وابتسمت بصورة وشت عن ثقتها فيه.

قال أكسِل:

- إن كانت رؤيتها تجلب الفأل السيِّئ، فأي خير في مناداتي من الطريق وإحضاري إلى هنا كي أسلِّط ناظريَّ عليها؟
- أوه، إنها لا تجلب الفأل السيِّئ **عليك أنت** أيُّها السيِّد! بل تجرُّه فقط على الفتيات غير المتزوِّجات. هناك نبتة مختلفة تمامًا تجرُّ الفأل السيِّئ على الرجال من أمثالك.
- يستحسن بك أن تصفي لي هذه النبتة الأخرى كي أهاب النظر إليها كما ترهبين أنت من النظر إلى هذه.
- ربما تستمتع بالتهكُّم عليَّ أيُّها السيِّد. لكنك قد تتدحرج يومًا من فوق تلَّة صغيرة فتجد تلك العشبة بمحاذاة أنفك. سترى حينذاك إن كان هذا الأمر مدعاة للسخرية أم لا.

بات بمقدوره الآن أن يشعر بملمس الخلنج عندما أزاحه بيديه، بالريح التي داعبت الأغصان في الأعلى، وبوجود تلك الصبيَّة بقربه. أيمكن أن يكون هذا هو أوَّل حديث جرى بينهما؟ قطعًا كانا يعرفان بعضهما بالنظر على الأقل؛ قطعًا من المحال حتى لشخص مثل بياترِس الثقة إلى ذلك الحدِّ بغريب لا يعرفه على الإطلاق.

عادت الآن أصوات تقطيع الحطب، بعد برهة توقُّف، إلى العلوِّ ثانية، وخطر لأكسِل بأن المحارب قد يقضي ليلته في الخارج. بدا وِسْتِن هادئًا وحسن

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

التفكير والتدبير، حتى أثناء القتال، لكن من الجائز أن يكون ما مرَّ به من توتُّر خلال اليوم والليلة الماضية قد تراكم وضغط على أعصابه، فاحتاج إلى تفريغه بهذه الطريقة. لكنَّ تصرُّفه رغم ذلك كان غريبًا. فقد حذَّره الأب جوناس تحديدًا من مواصلة تقطيع الحطب، وها هو، رغم ذلك، يستأنف التقطيع ثانية وبعد مدَّة على هبوط الظلام. سابقًا، وخلال الفترة الأولى من وصولهم، بدا الأمر بمثابة مجاملة بسيطة من جانب المحارب. وإبَّان ذلك الوقت، حسبما اكتشف أكسِل فيما بعد، كانت لوِسْتِن أسبابه الخاصَّة من وراء تقطيع الحطب. أوضح المحارب ذلك بقوله:

- موقع مخزن الحطب ممتاز. تمكَّنت أنا والغلام من مراقبة حركة القادمين والذاهبين جيِّدًا أثناء تقطيع الحطب. والأحسن من ذلك، ذهابنا لتوزيع الحطب على الأماكن التي تحتاج إليه، تجوَّلنا بحرِّية وتفحَّصنا ما يحيط بنا، حتى وإن بقيت قلَّة من الأبواب مسدودة في وجوهنا.

كان الاثنان يتحدَّثان حينذاك فوق جدار الدير المطلِّ على الغابة المحيطة. وذلك بعد مدَّة قصيرة من دخول الرهبان إلى اجتماعهم وهبوط السكون على الفناء الداخلي. وقبل دقائق على ذلك، وبعد استغراق بياترِس في النوم داخل الغرفة، خرج أكسِل متجوِّلًا تحت شمس آخر العصر، ثم تسلَّق الدرجات الحجرية التي أكل عليها الدهر وشرب إلى حيث كان وِسْتِن يرنو ببصره نحو الأشجار المورقة بكثافة في الأسفل. وعندها سأله أكسِل:

- لكن لماذا ترهق نفسك بكل هذا، سيِّد وِسْتِن؟ أيعقل أن تشكَّ بهؤلاء الرهبان الطيِّبين؟

ردَّ المحارب رافعًا يده لحماية عينيه من وهج الشمس:

- عندما كنَّا نتسلَّق ذلك الطريق قبل وصولنا إلى هنا، لم أكن راغبًا في شيء سوى الجلوس في زاوية والاستغراق في أحلامي. لكن بعد أن أصبحنا هنا الآن، أجد أنني لا أستطيع التخلُّص من الإحساس بوجود خطر داهم علينا جميعًا في هذا المكان.

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

- لا بدَّ من أن الإرهاق يجعلك نزَّاعًا للشكِّ، سيِّد وِسْتِن. فما الذي يمكن أن يثير قلقك هنا؟

- لا شيء ممَّا يمكنني في هذه اللحظة أن أشير إليه بثقة ويقين. لكن فكِّر في هذا الأمر. عندما عدت سابقًا إلى الإسطبل كي أطمئنَّ على فرسي، سمعت أصواتًا آتية من مربط في الخلف. أعني، أيُّها السيِّد، أن ذلك المربط الآخر مفصول بحائط، لكنني استطعت سماع صوت حصان آخر، مع أنه لم يكن هناك أي حصان لدى وصولنا وذهابي لربط فرسي. ثم عندما مشيت إلى الجانب الآخر، وجدت أن باب الإسطبل هناك مغلق ويتدلَّى منه قفل كبير ولا يمكن فتحه إلَّا بمفتاح.

- ربما يكون هناك العديد من التفسيرات البريئة، سيِّد وِسْتِن. لعلَّ ذلك الحصان كان في المرعى ثم جلب بعد ذلك إلى الإسطبل.

- أثرتُ هذه النقطة تحديدًا مع أحد الرهبان، وعلمت منه أنهم لا يحتفظون هنا بأي جياد رغبة في عدم زيادة أعبائهم من دون داعٍ. يبدو لي أن زائرًا آخر قد أتى بعد وصولنا، وهو حريص على بقاء وجوده هنا سرًّا.

- الآن وقد أتيت على ذكر ذلك، سيِّد وِسْتِن، أذكر أن الأب بريان أخبرنا بقدوم زائر مهمٍّ لمقابلة رئيس الدير، وأن اجتماعهم المهمَّ تمَّ تأجيله بسبب وصوله. لا ندري ما الذي يجري هنا، لكن مهما كانت الاحتمالات، فإن أيًّا منها لا علاقة له بنا.

أومأ وِسْتِن وهو يفكِّر بعمق:

- قد تكون على حقٍّ، سيِّد أكسِل. قليل من النوم سيخفِّف ظنوني. رغم ذلك، أرسلت الغلام كي يتجوَّل أكثر في هذا المكان، إذ سيعتبر الآخرون ذلك من قبيل الفضول الطبيعي ويتقبَّلونه من غلام أكثر ممَّا يتقبَّلونه من رجل بالغ مثلي. قبل مدَّة قصيرة عاد وأخبرني بسماع أنين من داخل تلك المهاجع هناك - استدار وِسْتِن وأشار بإصبعه - كما

لو أنه يصدر من رجل يعاني ألمًا عظيمًا. ولمَّا تسلَّل إلى الداخل بعد سماعه هذا الصوت، رأى السيِّد إدْوِنْ آثار دماء قديمة وأخرى حديثة خارج حجرة مغلقة.

- أمر مثير حقًّا للفضول. من جهة ثانية، ليس من أحجية في إصابة راهب ما بحادث مؤسف، ربما إثر تعثُّره من فوق هذه الدرجات نفسها.

- أقرُّ أيُّها السيِّد بأنه ليس لدي من سبب قوي يدعوني إلى افتراض الأسوأ هنا. لعلَّها غريزة المحارب التي تجعلني أتمنَّى أن يكون سيفي في حزامي، وألَّا يكون هناك ما يحملني على التظاهر بأني فلاح عادي فقط. أو لعلَّ مصدر خوفي هو ما تهمس به إليَّ تلك الجدران عن أيَّام خلت.

- ما الذي تعنيه أيُّها السيِّد؟

- أعني أن هذا المكان حتمًا لم يكن ديرًا قبل مدَّة قريبة، بل كان حصنًا مبنيًّا فوق تلٍّ، ومصمَّمًا بإحكام لمحاربة العدوِّ. هل تذكر الطريق الشاقَّ الذي صعدناه؟ كيف كان يتلوَّى إلى الأمام والخلف كما لو صُمِّم بهدف سحب آخر نفس من أنفاسنا؟ انظر الآن هناك في الأسفل، أيُّها السيِّد، ولاحظ السور والأبراج الحصينة التي تشرف على ذلك الطريق نفسه. من فوق تلك الأبراج أمطر المدافعون ذات يوم ضيوفهم بالسهام والصخور والماء المغلي. لا بدَّ من أن الوصول إلى البوَّابة فقط يُعَدُّ عملًا بطوليًّا يتطلَّب مهارة وشجاعة فائقة.

- إنني أراه، قطعًا لم يكن تسلُّق ذلك الطريق بالأمر الهيِّن.

- فضلًا عن ذلك، سيِّد أكسِل، أراهن على أن هذا الحصن كان ذات يوم بيد الساكسون، إذ رأيت في أنحائه علامات عديدة تدلُّ على أبناء جلدتي ممَّا قد يكون خافيًا عليك. انظر هناك - أشار وِسْتِن في الأسفل إلى فناء مرصوف بالحجارة تحوطه الأسوار - أعتقد أنه كانت هناك بالضبط بوَّابة ثانية، أشد مناعة بكثير من الأولى، ولكنها

محجوبة عن أعين الغزاة المتسلِّقين الطريق الصاعد إلى أعلى. كان هؤلاء لا يرون سوى الأولى فقط ويستنفدون قوَّتهم في اقتحامها، لكن تلك البوَّابة لم تكن في ذلك الوقت إلَّا ما كنَّا نطلق عليه نحن الساكسون بوَّابة عبور الماء، بعد تلك الحواجز التي تتحكَّم بمجرى نهر. عبر التحكُّم ببوَّابة عبور الماء هذه يفتح المجال، وبشكل متعمَّد، لدخول عدد محسوب من جنود الأعداء. ثم تغلق البوَّابة في وجه من يحاولون اللحاق بهم. الآن، هؤلاء المعزولون بين البوَّابتين، هناك في ذلك الحيِّز بالضبط، سيجدون أنفسهم في مواجهة من يفوقهم عددًا، ومن جديد، تحت هجوم ينصبُّ من فوق رؤوسهم من الأعلى. وهكذا يُذبحون عن بكرة أبيهم قبل إفساح المجال لدخول مجموعة أخرى. هل رأيت الآن آلية عمل البوَّابتين أيُّها السيِّد. قد يكون هذا المكان اليوم محلَّ عبادة وسلام، لكن لا يتطلَّب الأمر بحثًا عميقًا للعثور على آثار الدماء والرعب.

- أحسنت قراءة المكان، سيِّد وِسْتِن، وقد أصابتني القشعريرة ممَّا أطلعتني عليه.

- أراهن أيضًا على أنه كانت هنا عائلات ساكسونية، هربت في طول البلد وعرضه ثم لجأت إلى هذا الحصن. نساء وأطفال وجرحى وكبار في السنِّ ومرضى. انظر هناك، إلى ذلك الفناء حيث تجمَّع الرهبان سابقًا. قطعًا كان الجميع عدا الأضعف من بينهم قد وقف هناك، كي يشهدوا بشكل أفضل زعيق وصراخ الغزاة وقد أصبحوا بين البوَّابتين كالفئران في المصيدة.

- هذا ما لا أستطيع تصديقه أيُّها السيِّد. لا بدَّ من أنهم اختبؤوا في الأسفل وصلُّوا لأجل النجاة.

- الأشد جبنًا من بينهم فقط. لكن معظمهم سيكون قد وقف هناك في ذلك الفناء، أو حتى صعد إلى هنا حيث نقف الآن، غير مكترثين لخطر

الإصابة بسهم أو رمح لأجل الاستمتاع بمراقبة الأهوال والعذاب الجاري في الأسفل.

هزَّ أكسِل رأسه قائلًا:

- صنف من تتحدَّث عنهم من الناس لم يكونوا قطعًا ممَّن يتلذَّذ بمشاهد سفك الدماء، حتى وإن كانت للأعداء.

- على العكس أيُّها السيِّد. إنني أتحدَّث عن أناس بلغوا نهاية طريق حافل بالوحشية والفجيعة، بعدما شهدوا بأمِّ أعينهم نهب بيوتهم وتقطيع أوصال أطفالهم وأقربائهم. وصلوا هنا، إلى ملاذ آمن، بعد طول عذاب وألم، وقد طاردهم الموت في كل مكان. والآن يأتي جيش من الغزاة بأعداد ضخمة، وقد يصمد الحصن أيَّاما عديدة، وربما حتى لأسبوع أو اثنين. لكنهم يعلمون بأن نهاية المطاف هي الذبح والسلخ. يعلمون بأن من يحملونهم من رضَّع فوق الصدور سيصبحون بعد مدَّة قصيرة دمى نازفة تُركل فوق تلك الحجارة المرصوفة. إنهم يعلمون ذلك لأنهم شهدوه من قبل، في الأماكن التي هربوا منها. شاهدوا العدوَّ يحرق ويدمِّر، وجنوده يتناوبون على اغتصاب صغيراتهن حتى وهنَّ يلفظن أنفاسهنَّ الأخيرة نزفًا. يعلمون بأن كل هذا سيحدث ثانية، ولهذا عليهم الاعتزاز بالأيَّام الأولى من الحصار، عند تسديد العدو أوَّلًا ثمن ما سيفعله لاحقًا. بكلمات أخرى، سيِّد أكسِل، إنه ثأرٌ يتلذَّذ به مسبقًا هؤلاء العاجزون عن تنفيذه في الوقت المناسب. لهذا قلت، أيُّها السيِّد، إن أبناء عمومتي الساكسون وقفوا هنا للهتاف والتصفيق، وكلما كانت الميتة أبشع، كانوا أشد حبورًا.

- لن أصدِّق هذا أيُّها السيِّد. كيف يمكن أن تبلغ الكراهية درجات كهذه إزاء أفعال لمَّا ترتكب بعد؟ الناس الأخيار الذين لاذوا إلى هذا المكان كانوا سيبقون متعلِّقين بالأمل حتى النهاية، وقطعًا سيراقبون كلَّ ما وقع من ألم وعذاب ومعاناة، إن كانت لصديق أو عدو، بعين الشفقة والرعب.

- أنت أكبر مني بكثير في العمر، سيِّد أكسِل، لكن فيما خصَّ مسائل الدم، ربما أكون أنا العجوز وأنت الشابَّ. رأيت كراهية سوداوية مثل لجَّة من دون قرار في وجوه عجائز وأطفال ما زال عودهم غضًّا طريًّا، وفي بعض الأيَّام شعرت بمثل هذه الكراهية أنا نفسي.
- أرفض تصديق هذا، أيُّها السيِّد، فضلًا عن ذلك، إننا نتكلَّم عن ماضٍ بربريٍّ لنأمل بأن يكون قد انقضى وللأبد. وحمدًا للربِّ، ليس هناك ما يستدعي وضع سجالنا هذا موضع الاختبار.

تطلَّع المحارب على نحو غريب في أكسِل. بدا وكأنه على أهبَّة قول شيء ما، لكنه غيَّر رأيه. ثم استدار ومسح المباني الحجرية من خلفه بنظره قائلًا:

- وأنا أتجوَّل سابقًا في تلك الأنحاء، وذراعاي مثقلتان بما أحمله من حطب، رصدت في كل منحنى آثارًا من الماضي تثير الدهشة. في الحقيقة، أيُّها السيِّد، حتى بعد اختراق البوَّابة الثانية، فإن هذا الحصن يضمُّ بين جنباته العديد من المصائد الأخرى للأعداء، بعضها ماكر بشكل شيطاني. ليس لدى الرهبان أي فكرة عمَّا يمرُّون به هنا كل يوم. لكن لنطوِ صفحة الحديث عن هذا الموضوع. سيِّد أكسِل، ونحن نتقاسم هذه اللحظة الهادئة، أرجو أن تسامحني على ما سبَّبته لك من إزعاج سابق. أعني ما طلبته من ذاك الفارس الكريم بخصوصك.
- لا تفكِّر في هذا الأمر أيُّها السيِّد. لم تقع أي إساءة، حتى وإن كنت قد أدهشتني، وزوجتي أيضًا. لقد حسبتني شخصًا آخر، وهذا خطأ بسيط.
- أشكرك على تفهُّمك. ظننتك شخصًا لا أستطيع نسيان وجهه أبدًا، مع أنني كنت صبيًّا صغيرًا عندما رأيته آخر مرَّة.
- في البلد الغربي إذًا.
- هذا صحيح، أيُّها السيِّد، قبل أن أؤخذ من بلدي. لم يكن الرجل الذي أتحدَّث عنه محاربًا، لكنه مع ذلك يحمل سيفًا ويتنقَّل على صهوة جواد أصيل. كان يأتي كثيرًا إلى قريتنا، وبالنسبة لنا نحن الصِبية ممَّن

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

لم يعرفوا في حياتهم سوى المزارعين والملَّاحين، كان بمثابة أعجوبة.

- أستطيع تخيُّل ذلك.
- أذكر كيف كنَّا نتبعه في أرجاء القرية، ونظلُّ دائمًا على مسافة قصيرة منه. كان يتحرَّك أحيانًا على عجل، متحدِّثًا إلى كبار القرية أو مناديًا في الناس للتجمُّع في ساحة القرية. لكنه في أيَّام أخرى يتجوَّل وهو في سعة من وقته، متحدِّثًا إلى هذا وذاك، مثل من يمضي سحابة نهاره. معرفته بلساننا ضئيلة، لكن بحكم قرب قريتنا من النهر، ومجيء الزوارق إليها وذهابها، لم يكن يعدم الجلساء قطُّ، فهناك الكثيرون ممَّن يجيدون الحديث بلسانه. عندما كان يستدير أحيانًا نحونا ويرمينا بابتسامة، كنا نفرُّ ونختبئ لحداثة سنِّنا.
- وهل أتقنت تعلُّم لساننا في هذه القرية؟
- كلا، حدث هذا لاحقًا. بعدما أُخِذْتُ.
- أُخِذْتَ أيُّها السيِّد وِسْتِن؟
- أُخِذْتُ من تلك القرية على يد الجنود، ودُرِّبت وأنا في عمر غضٍّ لأصبح المحارب الذي أنا عليه اليوم. البريتون هم من أخذوني، ولهذا تعلَّمت سريعًا الكلام والقتال بطريقتهم. حصل هذا منذ وقت بعيد وباتت الأمور تتَّخذ أشكالًا غريبة في الذهن. عندما وقع بصري عليك في تلك القرية للمرَّة الأولى، وربما تحت تأثير ضوء الصباح المخاتل، شعرت بأني ذلك الصبي من جديد، أتلصَّص بخجل على ذلك الرجل العظيم بردائه المرفرف، وهو يتنقَّل في أرجاء قريتنا مثل أسد بين خنازير وأبقار. ربما حملني على ذلك رؤية الزاوية التي تفترُّ بها شفتاك عند الابتسام، أو شيئًا ما في طريقة إلقائك التحيَّة على غريب، ورأسك محنيٌّ قليلًا. لكني أرى الآن بأني كنت مخطئًا، إذ لا يمكن أن تكون أنت ذاك الرجل. دعنا ننهِ الحديث في هذا الأمر. كيف حال زوجتك الكريمة أيُّها السيِّد؟ آمل ألَّا تكون مرهقة جدًّا؟

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

- التقطت أنفاسها بشكل جيِّد، أشكرك على السؤال، ومع ذلك طلبت منها الآن نيل المزيد من الراحة. على أي حال، نحن مجبرون على الانتظار إلى حين انتهاء الرهبان من اجتماعهم ومنح رئيس الدير الإذن بزيارة الحكيم جوناس.
- إنها سيِّدة تتحلَّى بالصلابة أيُّها السيِّد. أكبرت فيها وصولها إلى هنا من دون أي شكوى. آه، ها هو الغلام يعود ثانية.
- انظر كيف يسير معاندًا جرحه، سيِّد وِسْتِن. يجب أن نأخذه أيضًا لرؤية الأب جوناس.

لم يبدُ على وِسْتِن ما يشي بسماع ذلك. ترك الجدار وهبط الدرجات المعدودة للقاء إدْوِن، ثم تبادل الاثنان حديثًا سريعًا لبضع دقائق بصوت منخفض، ورأساهما متلاصقان. حركات الصبيِّ مفعمة بالحيويَّة والنشاط، بينما المحارب ينصت بعبوس، مومئًا من حين لآخر. وعند هبوط أكسِل الدرجات لمحاذاتهما، قال وِسْتِن بصوت منخفض:

- نقل لي السيِّد إدْوِنْ اكتشافًا مثيرًا للفضول قد نحسن صنعًا بمعاينته بأنفسنا. هيَّا نتبعه، لكن دعنا نظهر وكأننا نتمشَّى، كي لا يكون ذلك الراهب العجوز قد تُرك هناك لغرض التجسُّس علينا.

بالفعل، كان ثمَّة راهب منزوٍ يكنس الفناء الداخلي، ولمَّا اقتربوا منه، لاحظ أكسِل أنه كان يتمتم بصمت غارقًا في عالمه الخاص. وبالكاد ألقى نظرة عابرة نحوهم خلال سيرهما خلف إدْوِنْ الذي قادهما عبر الفناء الداخلي إلى ممرٍّ ضيِّق بين مبنيين. عبروا من هناك إلى أرض غير مستوية يغطِّيها عشب خفيف، وفوقها صفٌّ من الأشجار الذاوية، لا يتجاوز طولها هامة الإنسان إلَّا بقليل، محيطة بدرب ممتدٍّ بعيدًا عن الدير. أثناء سيرهما خلف إدْوِنْ تحت شمس الأصيل، قال وِسْتِن بتأثُّر:

- إنني مأخوذ للغاية بهذا الغلام. سيِّد أكسِل، لعلَّنا نعدل عن خطَّتنا القاضية بتركه في قرية ابنك. يناسبني جدًّا أن أبقيه إلى جانبي مدَّة أطول.

- يزعجني سماع ذلك أيُّها السيِّد.
- لماذا؟ إنه لا يتوق أبدًا إلى قضاء حياته في إطعام الخنازير وحرث الحقول المتجمِّدة.
- في المقابل، ماذا سيجري له إن بقي إلى جانبك؟
- بعد إنجاز مهمَّتي، سآخذه معي إلى الفَنْلاند.
- وماذا تريده أن يفعل هناك أيُّها السيِّد؟ أن يقاتل النورديين حتى آخر يوم في حياته؟
- أنت تقابل ذلك بالعبوس أيُّها السيِّد، مع أن الفتى يتمتَّع بمزاج غير عادي. إن من شأنه أن يصبح محاربًا بارعًا. لكن لنصمت الآن، وهيَّا لنرَ ما جلبنا هنا لأجله.

انتهى بهم المسير إلى ثلاثة أكواخ خشبية منتصبة آيلة إلى السقوط، كأن كل واحد منها يتعكَّز على جاره. بدت فوق الأرض الرطبة آثار عجلات توقَّف عندها إذْوِنْ وأشار إليها، ثم قادهما إلى الكوخ الأبعد.

لم يكن هناك باب، ومعظم السقف مفتوح على السماء. أثناء دخولهم، طارت طيور عدَّة مُحدثة جلبة صاخبة، ثم رأى أكسِل، في الحيِّز المعتم الذي تركته الطيور، عربة رديئة الصنع - ربما من صنع الرهبان أنفسهم - عجلاتها غائصة في الوحل. ما أسر الانتباه هو ذاك الصندوق الحديدي الضخم المحمَّل فوق العربة، وباقترابه أكثر، لاحظ أكسِل أن في داخله عمودًا خشبيًّا غليظًا يمتدُّ على ارتفاع الصندوق، ويثبته بإحكام في الألواح السفليَّة. فوق العمود نفسه أصفاد وأغلال وسلاسل من حديد، وعلى ارتفاع الرأس، ما بدا قناعًا حديديًّا صدئًا، لكن من دون فتحتين للعينين، وبفتحة صغيرة للفم فقط. كانت العربة، وكل المنطقة المحيطة بها، مغطَّاة بالريش وذَرق الطيور. فتح إذْوِنْ باب القفص ثم حرَّكه إلى الأمام والخلف فأصدرت مفاصله صريرًا حادًّا. وراح يتكلَّم من جديد بنبرة عكست نشوة اكتشافه، فيما قابل وِسْتِن ذلك بتفحُّص الكوخ بنظرات مدقِّقة مومئًا لإذْوِنْ بين الفينة والأخرى. ثم قال أكسِل:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- مثير للفضول أن يحتاج هؤلاء الرهبان إلى آلة كهذه. لا شكَّ في أنهم يستعينون بها خلال أداء طقوس ما لتزكية النفس وتأديبها.

بدأ المحارب بالدوران حول العربة، متحرِّكًا بحذر تجنُّبًا لبُرك الماء الراكدة، ثم قال:

- رأيت شيئًا مثل هذا من قبل. لعلَّكما تظنَّان أن الغرض من هذا القفص هو ترك من يحبس فيه تحت رحمة عناصر الطبيعة من برد وحرٍّ ومطر وريح. لكن انظرا، كيف وُزِّعت هذه القضبان على مسافة كافية تسمح بمرور كتفي منها إلى الداخل. وهنا، انظرا، كيف يلتصق الريش بما على الحديد من دماء جافَّة. لهذا فإن من يُربط هنا يقدَّم أضحية لطيور الجبل. مصفَّدًا بتلك الأغلال، لا قدرة له على دفع مناقيرها الجائعة. وهذا القناع الحديدي، مع أن شكله قد يبدو مرعبًا، إلَّا أنه أداة للرحمة، فهو يصون العيون على الأقل من أن تكون جزءًا من الوليمة.

قال أكسِل:

- قد يكون هناك غرض أقل بشاعة لهذه الآلة.

لكنَّ إدْوِنْ عاد للحديث ثانية، فاستدار وِسْتِن ونظر خارج الكوخ، ثم قال بعد قليل:

- يقول الفتى إنه اقتفى أثر تلك العجلات إلى بقعة مجاورة فوق حافَّة الجرف. كما يقول إن الأرض هناك تغيَّرت معالمها لشدَّة ما وطئتها عجلات العربة، كاشفة عن البقعة المحدَّدة التي كثيرًا ما استقرَّت فوقها العربة. بكلمات أخرى، كل الدلائل تدعم ما ذهبت إليه، وبمقدوري أيضًا ملاحظة أن هذه العربة قد جُرَّت حديثًا إلى الخارج.

- لا أدري ما الغرض منها، سيِّد وِسْتِن، ولكن، أعترف بأنني بدأت أشعر بما تشعر به من قلق. هذه الآلة تثير القشعريرة في بدني وتجعلني أودُّ العودة لأكون بقرب زوجتي.

- من الأفضل لنا فعل ذلك أيُّها السيِّد. هيا دعونا لا نُطِل المكوث هنا.

لكن، ما إن خرجوا من الكوخ حتى عمد إدْوِن، الذي كان يقودهم ثانية، إلى التوقُّف فجأة. تجاوزه أكسِل ممعنًا النظر إلى ظلام المساء، فتمكَّن من رؤية هيئة ملتحفة برداء قابعة بين العشب الطويل على مسافة قصيرة منهم.

قال المحارب لأكسِل:

- أعتقد أنه ذاك الراهب الذي كان يكنس الفناء قبل قليل.

- هل يرانا؟

- أظنُّه يرانا ويعلم بأننا نراه. رغم ذلك فإنه يقف هناك مثل الشجرة من دون حراك. دعونا نذهب إليه.

كان الراهب واقفًا في بقعة إلى جانب الممرِّ الذي سيسلكونه، والعشب يصل إلى ركبتيه. وحين اقترابهم، ظلَّ الرجل ساكنًا مثل صنم، رغم أن الريح كانت تجذب رداءه وشعره الأشيب الطويل. كان هزيلًا، ضامرًا يكاد يتلاشى، وعيناه الجاحظتان تحدِّقان إليهم من دون تعبير.

قال وِسْتِن وقد توقَّف:

- أنت تراقبنا، أيُّها السيِّد، وتعرف ما اكتشفناه توًّا. لذا، لعلَّك تخبرنا بغرض استخدامكم أنتم الرهبان لتلك الآلة.

لم ينطق الراهب بشيء وأشار نحو الدير.

قال أكسِل:

- لعلَّه صائم عن الكلام، أو أنه أخرس مثلما كنتَ سابقًا، سيِّد وِسْتِن.

خرج الراهب من بين العشب متَّجهًا نحو الممشى. تفحَّصت عيناه الغريبتان كل واحد منهم على حدة، ثم أشار ثانية نحو الدير وشرع في المشي. تبعوه وساروا خلفه على مسافة قصيرة، فيما راح الراهب بين الفينة والأخرى يرمي من فوق كتفه بنظرة خاطفة صوبهم.

أصبحت مباني الدير الآن أشكالًا مظلمة رابضة في عتمة المساء. وعند اقترابهم، توقَّف الراهب ووضع سبَّابته فوق شفتيه، ثم تابع المشي بوتيرة أكثر

حذرًا. بدا حريصًا على بقائهم بعيدًا عن الأنظار، فتجنَّب المرور من الفناء الداخلي وسط الدير. سار بهم في ممرَّات ضيِّقة خلف المباني حيث أصبحت الأرض إمَّا ممتلئة بالحفر أو منحدرة بحدَّة. وعندما بلغوا نقطة ما، أثناء سيرهم برؤوس محنيَّة على طول حائط، تعالت من النوافذ فوقهم أصوات اجتماع الرهبان. علا صوت صارخًا من فوق اللغط، ثم تلاه آخر - لعلَّه لرئيس الدير - مطالبًا بالتزام الهدوء والنظام. لكن لم يكن هناك من وقت للتلكؤ، وسرعان ما تجمَّعوا أسفل قنطرة مطلَّة على الفناء الداخلي الرئيس. أشار الراهب الآن بإشارات متعجِّلة لاستئناف السير بما أمكن من سرعة وصمت.

وفقًا للظروف المحيطة بهم، تبيَّن لهم أنهم لم يكونوا مرغمين على قطع الفناء، حيث المشاعل متَّقدة، بل كان عليهم الالتصاق بجدار والالتفاف حول إحدى زوايا الفناء الغارقة في ظلال أحد الأروقة. وعندما توقَّف الراهب ثانية من دون سابق إنذار، همس أكسِل له:

- أيُّها السيِّد الكريم، بما أن في نيَّتك أن تأخذنا إلى مكان ما، سأطلب منك أن تدعني أذهب لإحضار زوجتي، إذ لا أشعر بالارتياح إزاء تركها وحيدة.

هزَّ الراهب رأسه، وقد استدار من فوره ورمى أكسِل بنظرة حادَّة، ثم أشار إلى نقطة تحت غبش العتمة. حينذاك فقط أبصر أكسِل بياترِس واقفة عند عتبة باب في أسفل الرواق. شعر بالاطمئنان ولوَّح لها بيده، ولما تحرَّك الفريق صوبها، علت من اجتماع الرهبان موجة من أصوات غاضبة.

مدَّ أكسِل يديه ليمسك يديها الممدودتين له وسألها:

- كيف حالك يا أميرة؟

- بينما كنت أنعم بقسط من الراحة، ظهر هذا الراهب الصامت أمامي. تجلَّى لي كطيف، لكنه حريص على أخذنا إلى مكان ما، ومن الأفضل أن نتبعه.

كرَّر الراهب إشارته الداعية إلى الصمت، وبينما أومأ لهم علامة على الاقتراب منه، مضى متجاوزًا بياترِس، وقطع العتبة حيث كانت تنتظر.

أصبحت الممرَّات أشبه بالأنفاق الموجودة في جُحرهم بالقرية، والقناديل التي تومض بالضوء داخل الكُوَّات الصغيرة بالكاد تبدِّد الظلام. أبقى أكسِل - وبياترِس ممسكة بذراعه - على إحدى يديه مبسوطة من أمامه. بعد برهة قصيرة وجدوا أنفسهم في الهواء الطلق من جديد، قاطعين فناء موحلًا وسط حصص الأرض المحروثة، ثم عبروا مبنى حجريًّا ثانيًا منخفضًا. كان الممرُّ هنا واسعًا ومضاء بلهب أضخم، وبدا على الراهب الارتياح أخيرًا. ملتقطًا أنفاسه، طالعهم من جديد، ثم أشار لهم بالانتظار، واختفى تحت قوس. بعد برهة قصيرة، ظهر الراهب ثانية مشيرًا لهم بالدخول. وأثناء ذلك، علا صوت واهن من الداخل قائلًا:

- تفضَّلوا أيُّها الضيوف. إنها حجرة متواضعة لا تليق بكم، لكن أهلًا وسهلًا.

***

بينما لبث منتظرًا أن يداهمه النوم، استعاد أكسِل من جديد كيف كان أربعتهم محشورين، إلى جانب الراهب الصامت، في الحجرة الضيِّقة. كانت هناك شمعة مضاءة إلى جانب السرير، وشعر ببياترِس حين جفلت من مرأى من كان يتمدَّد فيه. ثم سحبت نفسًا وتقدَّمت إلى الأمام في الحجرة. كان هناك حيِّز بالكاد يتَّسع لهم، لكنهم نظَّموا أنفسهم سريعًا من حول السرير، المحارب والغلام في الزاوية الأبعد، ظهْر أكسِل ملتصق بالحائط الحجريِّ البارد، وظهْر بياترِس ملتصق بصدره، كما لو كانت تلتمس الاطمئنان، لكنها ملاصقة تقريبًا لسرير المريض. كانت هناك رائحة واهية من القيء والبول. في تلك الأثناء، انشغل الراهب الصامت بالرجل المستلقي في السرير، وعكف على مساعدته للاعتدال جلوسًا.

كان مضيفهم طاعنًا في السنّ وذا شعر ثلجيّ. جثّته ضخمة، ويبدو أنه كان حتى عهد قريب يتمتّع بالقوة والحيوية، لكن نهوضه وجلوسه في السرير بات الآن مصدر عذاب عظيم. سقطت بطّانية خشنة من فوقه عندما رفع نفسه، فكشفت عن قميص نومه المرقّط بالدماء. لكن ما حمل بياترِس على الانكماش إلى الخلف هو عنق ووجه الرجل، اللذان كانت الشمعة بقرب سريره تضيئهما بشكل صارخ. ورم هائل منتفخ أسفل ذقنه، بنفسجي داكن منقلب إلى صفرة، يرغم الرأس على الارتفاع بزاوية طفيفة. ورأس الورم متشقّق ويغطّيه صديد ودم قديم. أمّا الوجه نفسه، فثمّة أخدود يمتدّ من تحت عظم الخدّ تمامًا وحتى الحنك، كاشفًا عن جزء من فم الرجل ولثته. لا بدّ من أن كلفة الابتسام باهظة، لكن، لحظة استوى الراهب جالسًا، كان ذلك هو ما فعله بالضبط. قال:

- مرحبًا وأهلًا وسهلًا بكم. أنا جوناس وأعرف أنكم قطعتم مسافة طويلة لأجل رؤيتي. أيُّها الضيوف الأعزّاء، لا تنظروا إليّ بعين الشفقة. فهذه الجراح أصبحت قديمة الآن، وهي بالكاد تؤلمني كما في السابق.

ردّت بياترِس:

- رأينا بأنفسنا الآن، أيُّها الأب جوناس، لماذا يتردّد رئيس ديركم الكريم كثيرًا في السماح للغرباء بالوفود عليكم وإرهاقكم. كنّا سننتظر الإذن منه، لكن هذا الراهب الطيّب قادنا إليك.
- نِنيان هو أكثر صديق يحظى بثقتي الخالصة، ومع أنه أقسم على الصيام عن الكلام، إلّا أننا نتفاهم فيما بيننا بشكل عظيم. لقد عكف على مراقبة كل واحد منكم منذ وصولكم وجلب لي تقارير وافية. أظنُّ أن الوقت قد حان للقائكم، حتى وإن كان رئيس الدير لا يعلم بذلك.

سألته بياترِس:

- لكن كيف أُصبت بجراح كهذه، أيُّها الأب؟ وأنت رجل معروف بالطيبة والحكمة.

- دعينا من هذا، أيَّتها السيِّدة، إذ لن تسمح لي صحَّتي المتردِّية بالحديث طويلًا. أعرف أن اثنين منكم، أنتِ وهذا الغلام الشجاع، تلتمسان النصح مني. دعوني ألقِ نظرة على الغلام أوَّلًا، أعتقد أنه مصاب بجرح. اقترب من الضوء أيُّها الفتى العزيز.

رغم ما في صوت الراهب من رقَّة إلَّا أنه لم يخلُ أيضًا من نبرة طبيعية آمِرة، ولهذا بدأ إدْوِنْ بالتقدُّم نحوه. لكنَّ وِسْتِن تحرَّك على الفور قابضًا على ذراعه. ربما كان لهب الشمعة وما يخلِّفه من انعكاسات وإيحاءات، أو خيال المحارب المتراقص فوق الحائط من خلفه، لكن لوهلة بدا لأكسِل أن عينَي وِسْتِن كانتا تحدِّقان إلى الراهب الجريح بحدَّة غريبة، بل وبكره أيضًا. سحب المحاربُ الغلامَ إلى الحائط، ثم تقدَّم بنفسه خطوة كما لو كان يحميه من هجوم ما.

سأله الأب جوناس:

- ما بك أيُّها الراعي؟ هل تخشى من انتقال سموم جراحي إلى شقيقك؟ إذا لا حاجة ليدي بلمسه. دعه يقترب مني وسأفحص جرحه بعينيَّ فقط.

ردَّ وِسْتِن:

- جرح الغلام نظيف. من يطلب مساعدتك الآن هو هذه المرأة الطيِّبة فقط.

قالت بياترِس:

- سيِّد وِسْتِن، كيف يمكنك قول أمر كهذا؟ لا بدَّ من أنك تعرف حقَّ المعرفة كيف يتحوَّل الجرح النظيف في لحظة إلى آخر ملتهب. يجب أن يلتمس الغلام النصيحة من هذا الراهب الحكيم.

لم يظهر على وِسْتِن أنه سمع ما قالته بياترِس، وواصل تحديقه إلى الراهب. تأمَّل الأب جوناس المحارب، بدوره، كما لو كان شيئًا مدهشًا للغاية. ثم قال بعد هنيهة:

- تقف بجرأة مذهلة لا تتناسب مع راعٍ متواضع.
- لا بدَّ من اكتساب ذلك بحكم المهنة. فالراعي يقف لساعات طويلة مراقبًا قطعان الذئاب في الليل.
- هذا صحيح قطعًا. لكنني أتصوَّر، أيضًا، أنه لا بدَّ للراعي، لحظة سماعه صوتًا في الظلام، من أن يحكم بسرعة إن كان ينذر بخطر أو يبشِّر باقتراب صديق. في لحظة كهذه، تصبح القدرة على اتخاذ قرارات كتلك بشكل صائب وسريع مسألة حياة أو موت.
- الراعي الأحمق فقط هو من يظنُّ لحظة سماع انقصاف غصن جافٍّ أو لمِح هيئة في الظلام أن رفيقًا جاء ليحلَّ في مكانه. إننا أصحاب حرفة تعلَّمنا الحذر، وزيادة على ذلك أيُّها السيِّد، رأيت بأمٍّ عيني للتوِّ تلك الآلة الموجودة في كوخكم.
- آه. حسبت أنكم ستتعثَّرون بها إن عاجلًا أم آجلًا. كيف تنظر إلى هذا الاكتشاف أيُّها الراعي؟
- إنه يغضبني.

أجابه الأب جوناس بصوت متحشرج للغاية، كما لو أنه أصيب هو الآخر فجأة بالغضب:

- يغضبك؟ لماذا يغضبك؟
- قل لي إن كنت مخطئًا، أيُّها السيِّد، لكنني أخمِّن بأن ثمَّة عادة متَّبعة هنا تقضي بتناوب الرهبان على الدخول في ذلك القفص وكشف أجسادهم للجوارح، آملين من وراء ذلك التكفير عمَّا ارتُكب في هذا البلد من جرائم مرَّت عليها فترة طويلة من دون قصاص. حتى هذه الجراح القبيحة الماثلة أمامي الآن، أعتقد أن الإصابة بها تمَّت بتلك الطريقة، وكما أعرف فإن شعورًا من الورع يخفِّف من وطأة معاناتكم. لكن دعني أقل إنني لا أشعر بأي شفقة تجاه جراحك البليغة هذه. كيف يمكنكم، أيُّها السيِّد، إسدال الستار على بشائع ارتكبت، ثم تظنُّون أن

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

في وسعكم التكفير عنها بآلة كتلك؟ هل يمكن رشوة إلهك المسيحي بهذه البساطة من خلال تعذيب النفس ورفع بعض الصلوات؟ ألا يكترث كثيرًا بالعدالة المهدورة؟

- إلهنا هو ربُّ الرحمة، أيُّها الراعي، وقد يصعب على وثنيٍّ مثلك فهم طبيعته. ليس من الحُمق السعي وراء طلب المغفرة من إله كهذا، ومهما عظم الجرم. إذ لا حدود لرحمة ربِّنا.

- ما نفع ربٍّ لا حدود لرحمته، أيُّها السيِّد؟ إنك تتهكَّم عليَّ لأنني وثنيٌّ، لكن آلهة أسلافي وأجدادي أعلنت عن شرائعها بوضوح، وهي تُنزل عقابها الشديد بنا عندما ننتهك شرائعها وقوانينها. إلهك المسيحي ربُّ الرحمة يمنح البشر رخصة تتيح لهم السعي وراء أطماعهم وشهوتهم في امتلاك الأرض وسفك الدماء، بينما هم يعلمون بأن كفَّارة بسيطة تكفل لهم نيل البَرَكة والمغفرة في نهاية المطاف.

- هذا صحيح، أيُّها الراعي، هناك قوم في هذا الدير ما زالوا يؤمنون بأمور كهذه. لكن دعني أؤكِّد لك، بأنني ونِنيان تحرَّرنا منذ أمد بعيد من مثل هذه الأوهام، ونحن لسنا وحيدين هنا في الإقدام على ذلك. نعرف بأنه لا يجوز استغلال وانتهاك رحمة الربِّ، لكنَّ العديد من إخواننا الرهبان، وبينهم رئيس الدير، لا يقبلون بعد بهذا الموقف. ما زالوا يؤمنون بأن القفص، وصلواتنا المتواصلة ستكون كافية. لكنَّ تلك الغربان السوداء ما هي إلَّا علامة على غضب الربِّ. لم تأتِ إلى هنا من قبل. حتى الشتاء الماضي، كانت الريح هي ما يحمل الأقوى من بيننا على البكاء، أمَّا الطيور فكانت مثل الأطفال المشاكسين، لا تسبِّب مناقيرها إلَّا معاناة محدودة. وكان يكفي حينذاك أن تهزَّ السلاسل أو تُطلق صرخة كي تبقيها على مسافة منك. لكنَّ فصيلة جديدة باتت تأتي الآن وتجد طريقها إلينا، أضخم وأكثر جرأة، وفي عيونها حنق وسخط. تمزِّق لحمنا بغضب صامت، مهما قاومنا أو صرخنا فيها.

فقدنا ثلاثة من الأصدقاء الأعزاء في الأشهر الماضية، وبات العديد منّا يحمل جراحًا بليغة. تلك قطعًا علامات وإشارات.

بدأ ينتاب تصرُّفات وِسْتِن قدر من الرقَّة، لكنَّه ظلَّ واقفًا بثبات أمام الغلام. ثم قال متسائلًا:

- هل تقول بأن لديَّ أصدقاء هنا في هذا الدير؟

- في هذه الحجرة، أجل أيُّها الراعي. أما في الأرجاء الأخرى من الدير، فما زلنا منقسمين على أنفسنا. وهم حتى في هذه اللحظة يتجادلون بشراسة حيال كيفية مواصلة المسير. سيصُر رئيس الدير على الاستمرار كما كنا دائمًا من قبل. فيما سيقول آخرون، ممَّن يشاطروننا الرأي، إن الوقت قد حان لنتوقَّف، وإنه ليس هناك من مغفرة تنتظرنا في نهاية هذا الطريق، وإن علينا كشف ما ظلَّ مستورًا ومواجهة الماضي. لكن أخشى أن تلك الأصوات ما زالت قليلة، ولن تحسم المسألة في هذا اليوم. أيُّها الراعي، ألا توليني ثقتك الآن كي أنظر في جرح هذا الغلام؟

ظل وِسْتِن جامدًا من دون حراك للحظة. ثم تنحَّى جانبًا، مشيرًا لإِدْوِنْ بالتقدُّم. هبَّ الراهب الصامت لمساعدة الأب جوناس كي يعتدل في جلوسه - دبَّ النشاط فجأة في الراهبَين - ثم قبض على محمل الشمعة، وجذب إِدْوِنْ ليقترب أكثر، ثم رفع قميص الغلام على عجل كي ينظر الأب جوناس في الجرح. ظلَّ الراهبان ينظران معًا، لمدَّة بدت طويلة، إلى جرح الغلام - ونِنيان يحرِّك الشمعة من جهة إلى أخرى - كما لو كان بركة ماء في داخلها عالم مصغَّر. بالغ الصغر. وفي نهاية المطاف تبادل الراهبان ما بدا لأكسِل نظرات انتصار، لكن في تلك اللحظة هوى الأب جوناس فوق وسادته مرتجفًا، وقد علت قسماته ملامح تشبه التسليم أو الحزن. أثناء إعادة نِنيان الشمعة إلى مكانها على عجل، تسلَّل إِدْوِنْ إلى الظلِّ ووقف إلى جانب وِسَتِن.

قالت بياترِس:

- أيُّها الأب جوناس، رأيت الآن جرح الصبي، فأخبرنا إن كان نظيفًا وسيشفى بتركه على حاله.

كانت عينا الأب جوناس مغلقتين، وتنفُّسه ما زال ثقيلًا، لكنه قال بهدوء بالغ:

- أعتقد أنه سيشفى إن اعتنى به جيِّدًا. أيُّها الأب نِنيان، من فضلك أن تحضر له مرهمًا كي يأخذه معه قبل ترك هذا المكان.

مضت بياترِس قائلة:

- أيُّها الأب، لم أستوعب تمامًا ما دار بينك وبين السيِّد وِسْتِن من حديث، لكنه أثار اهتمامي للغاية.

فتح الأب جوناس عينيه ونظر إليها وهو ما زال يحاول التقاط أنفاسه، ثم قال:

- هل هذا صحيح أيتها السيِّدة؟

ردَّت بياترِس:

- الليلة الماضية في قرية أسفل الجبل، تحدَّثت مع امرأة حكيمة لها علم بالتطبيب والعلاج. قالت الكثير بشأن علَّتي، لكني عندما سألتها عن هذا الضباب، وهو نفسه الذي يحملنا على نسيان ما جرى قبل ساعة تمامًا، وننسى صباحًا مرَّ علينا منذ سنوات عديدة، أقرَّت بأنه لا فكرة لديها عن سببه أو عمَّن يكون وراءه. لكنها مع ذلك قالت لو كان هناك من شخص يتحلَّى بما يكفي من حكمة لمعرفة ذلك، فلن يكون إلَّا أنت، الأب جوناس، في الأعلى هنا في هذا الدير. لهذا صعدنا أنا وزوجي إلى هنا، مع أنه الطريق الأصعب إلى قرية ابننا حيث ينتظرنا بفارغ الصبر. كنت آمل أن تخبرنا بشيء عن هذا الضباب وكيف نتمكَّن أنا وأكسِل من تحرير أنفسنا منه. ربما أكون عجوزًا حمقاء، لكن خطر لي الآن، بعد كل ذلك الحديث عن الرعاة، أنك كنت أنت والسيِّد وِسْتِن تتكلَّمان عن هذا الضباب نفسه، وأنكما قلقان كثيرًا على

ما فقدناه من ماضينا. لذلك دعني أسألك، والسيِّد وِسْتِن أيضًا. هل تعلمان أنتما الاثنان ما يسبِّب انتشار هذا الضباب؟

تبادل الأب جوناس ووِسْتِن نظرات فيما بينهما. ثم قال وِسْتِن بهدوء:

- إنها التنِّينة كويرِغ، سيِّدة بياترِس، تلك التي تتجوَّل في هذه القمم. هي التي تسبِّب الضباب الذي تتحدَّثين عنه. لكن الرهبان هنا يحمونها، وهم يفعلون ذلك منذ سنوات بعيدة. أراهنكم الآن، لو أنهم عرفوا حقيقة هويَّتي، لكانوا أرسلوا رجالًا للإجهاز عليَّ.

تساءلت بياترِس:

- أيُّها الأب جوناس، هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل هذا الضباب من فعل هذه التنِّينة؟

استدار الراهب، الذي بدا شارد الذهن للحظة، نحو بياترِس وقال:

- الراعي يقول الحقيقة أيَّتها السيِّدة. إنها أنفاس كويرِغ التي تملأ هذا البلد وتسرق منَّا ذكرياتنا.

- أكسِل، هل تسمع ذلك؟ التنِّينة هي سبب الضباب! إن تمكَّن السيِّد وِسْتِن، أو أي شخص آخر، وحتى ذلك الفارس العجوز الذي قابلناه في الطريق، من قتل هذا الكائن، فإن ذكرياتنا ستعود إلينا! أكسِل، لمَ أنت صامت هكذا؟

بالفعل، كان أكسِل غارقًا في التفكير، ومع أنه سمع كلمات زوجته، ولاحظ سعادتها وحماستها، كان كل ما استطاع بذله هو مدُّ يده ببساطة نحوها. وقبل أن يتمكَّن من العثور على أي كلمات مناسبة، قال الأب جوناس لوِسْتِن:

- أيُّها الراعي، إن كنت تعرف بما يُحدق بك من خطر، فلمَ تتلكَّأ في الرحيل من هنا؟ لمَ لا تأخذ هذا الغلام وتمضي في طريقك؟

- الغلام بحاجة إلى قسط من الراحة، وكذلك أنا.

- لكنك لا تأخذ قسطًا من الراحة، أيُّها الراعي، بل تعكف على تقطيع الحطب وتتجوَّل هنا وهناك مثل ذئب جائع.

- عندما وصلنا كان مخزونكم من الحطب قليل. والليالي باردة في هذه الجبال.
- هناك أمر آخر يشكل عليَّ فهمه، أيُّها الراعي. لِمَ يحاول اللورد برونُس اصطيادك والقبض عليك؟ طوال أيَّام عديدة الآن، وجنوده يفتِّشون البلد بحثًا عنك. حتى في السنة الماضية، عندما جاء رجل آخر من الشرق لذبح كويرِغ، اعتقد برونُس بأن ذلك الرجل قد يكون أنت وأرسل رجاله للبحث عنه. صعدوا إلى هنا للسؤال عنك. أيُّها الراعي، من تكون بالنسبة لبرونُس؟
- عرفنا بعضنا عندما كنَّا فتيانًا، أحدث عمرًا حتى من هذا الغلام.
- أتيت إلى هذا البلد، أيُّها الراعي، في مهمَّة، لِمَ تعرِّضها للخطر لأجل تصفية حسابات قديمة؟ دعني أقل لك، خذ هذا الغلام وانطلق من هنا، حتى قبل خروج الرهبان من اجتماعهم.
- إن جاملني اللورد برونُس بالمجيء إلى هنا سعيًا وراء الإمساك بي في هذه الليلة، سألتزم بالبقاء ومواجهته.

قالت بياترِس:

- سيِّد وِسْتِن، لا علم لي بما بينك وبين اللورد برونُس. لكن إن كانت مهمَّتك ذبح التنِّينة العظيمة كويرِغ، فأتوسَّل إليك، ألَّا تنشغل عن هذا الأمر. ستجد وقتًا لتصفية الحسابات فيما بعد.
- السيِّدة على حقٍّ، أيُّها الراعي. وأحسب أنني أنا الآخر أعرف الغرض من وراء تقطيع كل ذلك الحطب. اصغِ إلى ما نقوله أيُّها السيِّد. هذا الغلام يمنحك فرصة فريدة قد لا تتوفَّر ثانية. خذه وامض في طريقك.

نظر وِسْتِن إلى الأب جوناس وهو يفكِّر بعمق، ثم أومأ بأدب، وقال:

- إنني سعيد بلقائك أيُّها الأب. كما أعتذر إن كنت قد خاطبتك سابقًا بفظاظة. لكن دعنا نستأذن منك الآن أنا وهذا الغلام. فما زالت السيِّدة بياترِس بحاجة إلى استشارتك، وهي امرأة شجاعة طيِّبة. أرجوك أن

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

تُبقي على بعض قوَّتك من أجل الاهتمام بأمرها. والآن، أشكرك على مساعدتنا وأقول لك الوداع.

متمدِّدًا في الظلام، وهو ما زال يأمل في أن يداهمه النوم، حاول أكسِل أن يتذكَّر لماذا بقي طوال الوقت الذي قضاه في حجرة الأب جوناس صامتًا على نحو غريب. هناك سبب ما، وحتى عندما استدارت بياترِس نحوه وتساءلت متعجِّبة، وهي تشعر بالانتصار لاكتشافها مصدر الضباب، لم يتمكَّن إلَّا من مدِّ يده نحوها، وظلَّ عاجزًا عن الكلام. استعاد أكسل كيف أطبقت عليه حينذاك عاصفة متلاطمة من الأحاسيس والمشاعر العجيبة، وكان في وسطها مثل نائم يعاني من سكرات حلم، مع أن كل كلمة قيلت من حوله كانت ما تزال تصل أذنيه بوضوح تامٍّ. أحسَّ كما لو كان واقفًا في قارب وسط نهر خلال الشتاء، مستطلعًا الأفق عبر ضباب كثيف، عارفًا بأنه سينقشع قليلًا في أي لحظة متيحًا له اختطاف لمحة لوجه البرِّ. كان عالقًا في لجَّة رعب ما، لكنه في الوقت نفسه يشعر بالفضول - أو بشيء أكثر جسامة وقتامة - ويقول لنفسه بعناد: «كائنًا ما يكون، دعيني أرَه، دعيني أرَه».

هل نطق تلك الكلمات بصوت عالٍ؟ ربما يكون قد فعل ذلك، تمامًا في تلك اللحظة التي استدارت فيها بياترِس نحوه وهي دهِشة بسعادة، وقالت: «أكسِل، هل تسمع ذلك؟ التنِّينة هي سبب الضباب!».

لم يكن بمقدوره أن يتذكَّر بوضوح ما حصل بعد أن غادر وِسْتِن والصبي حجرة الأب جوناس. لا بدَّ من أن الراهب الصامت نِنيان غادر معهما، ربما لإعطاء المرهم للغلام، أو ببساطة كي يقودهما في طريق الرجوع بعيدًا عن أعين الرقباء. على أي حال، تُرك هو وبياترِس وحيدَين بصحبة الأب جوناس، وقام الأخير، رغم إعيائه وجراحه، بفحص زوجته على نحو دقيق. لم يطلب الراهب منها خلع أي قطعة من ثيابها - واعترى أكسِل الارتياح لذلك - ومع أن استعادته لما جرى خلال ذلك يعتريها الغبش أيضًا، لكنْ حضرته صورة جوناس ضاغطًا أذنه إلى جنب بياترِس، مغلقًا عينيه للتركيز، كما لو أن ثمَّة

رسالة خفيضة قد تُلتقط من أحشاء زوجته. تذكَّر أكسِل أيضًا أن الراهب، بعينين مطرفتين، طرح سلسلة من الأسئلة على بياترِس. هل تشعر بالمرض بعد شرب الماء؟ هل تشعر بألم في العنق؟ كانت هناك أسئلة أخرى لم يعد بإمكان أكسِل أن يتذكَّرها الآن، لكن بياترِس ردَّت بالنفي على السؤال تلو الآخر، وكلما فعلت ذلك، زادت سعادة أكسِل أكثر فأكثر. مرَّة واحد فقط، عندما سألها جوناس إن كانت قد لاحظت دمًا في بولها، وردت هي بنعم، وأن هذا يحدث أحيانًا، شعر أكسِل بالضيق. لكن الراهب أومأ برأسه، كما لو كان ذلك أمرًا طبيعيًّا متوقَّعًا، ومضى في طرح السؤال التالي. كيف انتهى إذًا هذا الفحص؟ تذكَّر أن الأب جوناس ابتسم قائلًا: «إذا بمقدورك الذهاب إلى ابنك من دون أن تخشي شيئًا». وقال أكسِل نفسه: «أرأيتِ يا أميرة، كنت أعرف دائمًا أنه أمر ليس بذي بال». ثم استلقى الراهب بحذر وبطء في سريره من جديد، ملتقطًا أنفاسه. في غياب نِنيان، سارع أكسِل إلى ملء كوب الراهب بالماء، ولما وضعه على فم الرجل المريض، أبصر نقاطًا من الدم وقد انزلقت من شفته السفلى وتفشَّت في الماء. ثم رفع الأب جوناس بصره ونظر في بياترِس قائلًا:

- أيَّتها السيِّدة، تبدو عليك السعادة لمعرفة الحقيقة بشأن هذا الشيء الذي تسمِّينه الضباب.
- سعيدة بالفعل، أيُّها الأب، فبعد أن كانت كل الدروب مسدودة في وجه تقدُّمنا إلى الأمام أصبح لدينا الآن طريق مفتوح.
- يجب أن تتوخَّي الحذر، فهذا سرٌّ يحرسه البعض بغيرة شديدة، مع ذلك ربما كان من الأفضل ألَّا يبقى سرًّا بعد الآن.
- لا يعنيني أمر بقائه سرًّا أم لا، أيُّها الأب، لكني سعيدة لأنني أنا وأكسِل على علم به ونستطيع فعل شيء حياله.
- رغم ذلك، هل أنت متأكِّدة، أيَّتها السيِّدة الكريمة، من رغبتك في التحرُّر من هذا الضباب؟ أليس من الأفضل أن تبقى بعض الأشياء محجوبة عن عقولنا؟

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- قد يكون ذلك صحيحًا بالنسبة للبعض، أيُّها الأب، لكنه ليس كذلك بالنسبة لنا. نرغب أنا وأكسِل من جديد في استعادة ما عشناه معًا من لحظات سعيدة. انتزاعها منَّا يشبه مجيء لصٍّ في عتمة الليل وسرقة أعزِّ ما نملك.
- لكنَّ الضباب يحجب كل الذكريات، حلوها ومرَّها أيضًا. صحيح أيَّتها السيِّدة؟
- لا مانع لدينا في استعادة المرِّ منها أيضًا، حتى وإن حملتنا على البكاء أو الانتفاض من الغضب. أليست هي الحياة التي عشناها واقتسمناها معًا؟
- ليس لديك إذًا أي خوف من الذكريات المريرة أيَّتها السيِّدة؟
- الخوف من ماذا أيُّها الأب؟ ما نحسُّه أنا وأكسِل داخل قلبينا نحو أحدنا الآخر يخبرنا بأن الطريق الذي نسلكه هنا لا ينطوي على أي مخاطر بالنسبة لنا، حتى وإن كان الضباب يخفيه عنَّا الآن. حياتنا مثل الحكايات ذات النهاية السعيدة، التي يعرف من ينصت لها مسبقًا، حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، بأن عليه ألَّا يخاف من أهوالها ومنزلقاتها. سنتذكَّر أنا وأكسِل تفاصيل حياتنا معًا، مهما كان شكلها، لأنها عزيزة علينا.

لا بدَّ من أن طيرًا طار عبر السقف من فوقه. فقد جفل أكسِل من الصوت، ثم أدرك بأنه للحظة أو اثنتين كان نائمًا بالفعل. أدرك أيضًا أنه لم يعد هناك مزيد من ضجَّة تقطيع الحطب، وأن الفناء في الأسفل خيَّم عليه الصمت. هل رجع المحارب إلى غرفتهم؟ لم يسمع أكسِل شيئًا، ولم تكن هناك من علامات، خلف الهيئة المظلمة للطاولة، تدلُّ على وجود شخص آخر ينام جنب إدوِن. ما الذي قاله الأب جوناس بعد فحص بياترِس وخلص إليه من أسئلته؟ أجل، قالت إنها لاحظت وجود دم في بولها، لكنه ابتسم وسأل عن شيء آخر. أرأيت يا أميرة، قال أكسِل، كنت أعرف دائمًا أنه أمر بسيط. ابتسم الأب جوناس رغم

جراحه وإعيائه، وقال «بإمكانك الذهاب إلى ابنك من دون أن تخشي شيئًا».
لكن هذه الأسئلة لم تكن أبدًا هي الأسئلة التي تخافها بياترِس. بياترِس، كما يعرف، تخاف أسئلة الملّاح، فالإجابة عنها أصعب، ولهذا تملّكتها السعادة بمعرفة سبب الضباب. «أكسِل، هل تسمع ذلك؟» كانت منتصرة. «أكسِل، هل تسمع ذلك؟» قالت وهي في حالة من النشوة.

الفصل السابع

ثمَّة يد هزَّت أكسل، لكنه حين نهض وجلس، صار صاحبها في الجانب الآخر من الغرفة، منحنيًا فوق إدْوِنْ هامسًا: «بسرعة أيُّها الغلام، بسرعة! لا تصدر صوتًا!» أما بياترِس الممدَّدة بجواره فكانت مستيقظة. نهض أكسِل متخبِّطًا، ومقشعرًّا من برودة الهواء، ثم انحنى جاذبًا يدي زوجته الممدودتين.

ما زال الوقت ليلًا، لكنَّ هناك صراخًا وصياحًا. لا بدَّ من أن المشاعل أُوقدت في الفناء الخارجي، إذ كانت هناك بقع مضيئة على الحائط المواجه للشبَّاك. جرَّ الراهب الذي أيقظهم الغلام، وهو ما زال نصف غافٍ، نحو طرفهم من الغرفة. التقط أكسِل مشية الأب بريان العرجاء قبل أن يظهر وجهه من وسط الظلام. قال الأب بريان وصوته ما زال هامسًا:

- سأحاول إنقاذكم، أيُّها الأصدقاء، لكن عليكم الإسراع بتنفيذ ما أقوله. هناك جنود وصلوا، عشرون، بل ثلاثون، وهم يريدون القبض عليكم. استطاعوا محاصرة الأخ الساكسوني الأكبر، لكنه صعب المراس وهو يبقيهم منشغلين به، مانحًا إيَّاكم فرصة الهرب. لا تتحرَّك أيُّها الغلام، الزم جانبي!

تحرَّك إدْوِنْ صوب النافذة، لكنَّ الأب بريان مدَّ يديه وقبض عليه من ذراعيه، ثم استأنف الحديث:

- أريد أن أحملكم إلى برِّ الأمان، لكن يجب أن نتمكَّن أوَّلًا من ترك هذه الغرفة من دون أن يرانا أحد. الجنود منتشرون في الفناء، لكنَّ

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

عيونهم مسلَّطة على البرج، حيث ما زال الساكسوني صامدًا. بعون الربِّ ومساعدته، لن يرونا ونحن نهبط الدرج، وبعدئذ نكون قد اجتزنا الخطر الأكبر. لكن لا تصدروا أي صوت من شأنه تحويل أنظارهم إلينا، وحاذروا من التعثُّر على الدرج. سأهبط أوَّلًا، ثم ألوِّح لكم بالنزول في اللحظة المناسبة. لا، أيَّتها السيِّدة، يجب أن تتركي صرَّة متاعك هنا. ألا يكفي أن تنجوا بحياتكم الآن! عليكم النجاة بحياتكم الآن!

قرفصوا قرب الباب وتابعوا وقع خطوات الأب بريان التي هبطت الدرج ببطء قاتل. وفي النهاية، استرق أكسِل النظر بحذر عبر شقِّ الباب، فرأى مشاعل تتحرَّك صوب الجانب الأقصى من الفناء؛ لكن قبل أن يميِّز ما كان يجري بوضوح، جذب الأب بريان انتباهه، واقفًا في الأسفل ويداه تلوِّحان بإشارات محمومة. معظم الدرج، الذي يقطع الحائط قطريًّا، قابع في العتمة عدا رقعة واحدة منه، فوق الدرجات الأخيرة، كانت مغمورة بأشعَّة البدر. قال أكسِل:

- اتبعيني وظلِّي مباشرة خلفي، يا أميرة. لا تسرِّحي النظر في أنحاء الفناء، بل أبقي عينيك حيث تهبط كل قدم من قدميك، وإلَّا سيكون السقوط مريعًا ولن يهبَّ إلى نجدتنا سوى الأعداء. أخبري الفتى بما قلته، ودعينا ننجز هذا بسرعة.

رغم ما أصدره من تعليمات، لم يستطع أكسِل منع نفسه من اختطاف نظرة عبر الفناء أثناء نزوله. في الجانب الأقصى، كان الجنود متجمهرين حول برج حجريٍّ إسطواني الشكل ومطلٍّ على المبنى الذي اجتمع فيه الرهبان سابقًا. كانوا يلوِّحون بمشاعل عظيمة متَّقدة، وبدت الفوضى وقد عمَّت صفوفهم. وعندما بلغ أكسِل منتصف الدرج، انفصل جنديَّان عن البقيَّة وأقبلا راكضين عبر الفناء، كان متأكِّدًا من أنهما سيبصرانهم. لكنَّ الرجلين اختفيا في أحد الممرَّات، وعلى الإثر تنفَّس أكسِل الصعداء، وهو يقود كلًّا من بياترِس وإدْوِنْ تحت ستار عتمة أحد الأروقة، حيث كان الأب بريان في انتظارهم.

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

مشوا خلف الراهب عبر ممرَّات ضيِّقة، ربما كان بعضها تلك التي مرُّوا منها سابقًا برفقة الأب نِنيان. ساروا معظم الوقت تحت ظلام دامس، متتبِّعين الوقع المنتظم لاحتكاك قدم دليلهم العرجاء بالأرض. ثم وصلوا حجرة وقع جزء من سقفها وانسكبت أشعة القمر في داخلها، كاشفة عن أكوام من الصناديق الخشبية والأثاث المحطَّم. شمَّ أكسِل رائحة عفونة ومياه آسنة. وحينذاك قال الأب بريان مقلعًا عن الهمس:

- تنفَّسوا الصعداء أيُّها الأصدقاء.

ثم مضى إلى زاوية، وبدأ بإزاحة الصناديق جانبًا، قائلًا:

- أصبحتم الآن على مقربة من برِّ النجاة.

ردَّ أكسِل:

- أيُّها الأب، شكرًا لك على إنقاذنا، لكن أرجوك أن تخبرنا بما حصل.

واصل الأب بريان إبعاد الصناديق من الزاوية، وأجاب من دون رفع عينيه:

- لغز محيِّر بالنسبة لنا أيُّها السيِّد. جاؤوا هذه الليلة من دون دعوة، وتدفَّقوا عبر البوَّابات ودخلوا منزلنا كما لو كان مُلكًا لهم. طالبوا بتسليم الشابَّين الساكسونيين اللذين وصلا مؤخَّرًا إلى هنا، ومع أنهم لم يذكروا شيئًا بشأنك أنت وزوجتك، إلَّا أنني لا أثق في معاملتهم لكما برأفة. هذا الغلام هنا، لديهم رغبة واضحة في قتله، كما يحاولون فعله بحقِّ أخيه في هذه اللحظة. يجب أن تنقذوا أنفسكم ثم سيتاح لكم وقت التفكير في هؤلاء الجنود وتصرُّفاتهم.

ردَّت بياترِس:

- السيِّد وِسْتِن كان غريبًا بالنسبة لنا حتى صباح هذا اليوم، لكننا مع ذلك لا نشعر أن من السهل علينا الهرب فيما يواجه مصيرًا مرعبًا يتهدَّد حياته.

- قد يكون الجنود في أعقابنا، أيَّتها السيِّدة، فنحن لم نترك خلفنا أي أبواب موصدة. وإن كان ذلك الشابُّ يشتري بشجاعة ما يلزم من

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

وقت لهروبكم، حتى ولو بدفع حياته ثمنًا لذلك، فمن واجبكم أن تفرُّوا شاكرين. تحت هذا الباب الأرضي نفق حُفر منذ أزمان قديمة، سيأخذكم من تحت الأرض ويفضي بكم إلى غابة، ومن ثمَّ ستصبحون بعيدين عمَّن يطاردونكم. ساعدني الآن على فتحه، أيُّها السيِّد، فهو ثقيل للغاية ولا أستطيع رفعه بمفردي.

حتى وهما يسحبان يدًا بيد، بذلا مجهودًا كبيرًا في رفع الباب حتى انفتح بزاوية قائمة، كاشفًا عن مربَّع عميق من الظلام. وعندها قال الراهب:

- لينزل الغلام أوَّلًا، فقد مرَّت سنوات طويلة منذ أن استخدم أحد منَّا هذا النفق، ومن يدري ربما تكون الدرجات قد انزلقت. إنه رشيق الخطى ويتحمَّل السقوط أكثر منكما.

لكنَّ إدْوِنْ قال شيئا لبياترِس، وبعد انتهائه استدارت قائلة:

- سيذهب السيِّد إدْوِنْ لنجدة السيِّد وِسْتِن.

- قولي له يا أميرة إن هروبنا عبر هذا النفق فيه مساعدة لوِسْتِن. قولي للغلام ما تشائين، لكن أقنعيه بالعودة سريعًا.

أثناء حديث بياترِس معه، طرأ على الغلام تحوُّل عجيب. ظلَّ محملقًا في الحفرة، والتقط أكسِل في عينيه تحت أشعَّة القمر في تلك اللحظة شيئًا غريبًا، كان كما لو أنه وقع فجأة تحت تأثير تعويذة سحرية. ومع أن بياترِس كانت في وسط حديثها معه ولم تنته بعد، إلَّا أنَّ إدْوِنْ مشى نحو الباب المفتوح من دون أن يلتفت إليهم، ثم هبط وابتلعه الظلام. ولما خفت صدى خطاه، أمسك أكسِل بيد بياترِس قائلًا:

- هيَّا لننزل نحن أيضًا يا أميرة. ظلِّي بالقرب مني.

كانت الدرجات المفضية إلى باطن الأرض واطئة - ليست سوى حجارة مستوية غائصة في الأرض - لكنها متينة بشكل كافٍ. تمكَّنوا من رؤية قسط من الطريق الممتدِّ من أمامهم تحت الضوء المنبعث من الباب المفتوح في الأعلى، لكن، لحظة أن استدار أكسِل ليكلِّم الأب بريان، انصفق الباب على نحو مزلزل.

توقَّف ثلاثتهم وظلُّوا متجمِّدين لبرهة من الوقت. لم يكن الهواء عَطِنًا بالدرجة التي تخيَّلها أكسِل؛ ظنَّ في الواقع أن بإمكانه الإحساس بنسيم خفيف. وفي بقعة ما أمامهما، شرع إدْوِنْ في الكلام، فردَّت عليه بياترِس همسًا، ثم قالت لزوجها بصوت منخفض:

- يتساءل الصبيُّ عن سبب إغلاق الأب بريان الباب علينا بتلك الطريقة. أخبرته أنه ربما فعل حرصًا على إخفاء النفق عن الجنود الذين داهموه في تلك اللحظة. رغم ما قلته، يا أكسِل، أشعر أنا أيضًا بأن في الأمر ما يُريب. أليس هو، قطعًا، من يضع الآن تلك الأشياء فوق الباب؟ إن وجدنا طريق الخروج من هنا مسدودة بالصخور أو بالماء، إذ ذكر الأب نفسه أن هذا الطريق لم يستخدم منذ سنوات، فكيف سنرجع حينذاك ونفتح هذا الباب، وهو في الأصل ثقيل للغاية، والآن ازداد ثقلًا بوضع كل تلك الأشياء عليه؟

- الأمر غريب حقًّا. لكن لا شكَّ في أن هناك جنودًا في الدير، ألم نرهم بأنفسنا؟ لا أرى أي خيار لنا سوى السير والدعاء بأن يوصلنا هذا النفق بأمان إلى الغابة. اطلبي من الغلام مواصلة السير، لكن ليتقدَّم ببطء وليبقِ يده دائمًا فوق هذا الحائط الطحلبي، إذ أخشى أن هذا الدهليز سيشتدُّ ظلامًا.

لكن، مع تقدُّمهم اكتشفوا بأن ثمَّة ضوءًا خافتًا في الأسفل، ولهذا تمكَّنوا أحيانًا من تمييز هيئات بعضهم. كانت هناك برك ماء باغتت أقدامهم، ولأكثر من مرَّة خلال هذه المرحلة من السير، ظنَّ أكسِل بأنه سمع صوتًا منبعثًا من الأمام، لكن، لمَّا لم يصدر أي ردِّ فعل من إدْوِنْ ولا من بياترِس أرجع الأمر إلى مخيِّلته المُجهدة. إثر ذلك توقَّف إدْوِنْ فجأة، حتى أوشك أكسِل على الاصطدام به. شعر بيد بياترِس التي كانت خلفه تعتصر كتفه، ووقفوا وسط العتمة لمدَّة من دون حراك. ثم اقتربت بياترِس منه أكثر، فشعر بأنفاسها الدافئة فوق عنقه، وقالت بصوت هامس للغاية:

- أتسمع هذا يا أكسِل؟
- أسمع ماذا يا أميرة؟

لمسه إذْوِنْ بيده محذِّرًا، ثم خيَّم عليهم الصمت من جديد. في نهاية المطاف همست بياترِس في إذنه:

- هناك أحد هنا غيرنا يا أكسِل.
- لعله خفَّاش، يا أميرة، أو جرذان.
- لا يا أكسِل. أسمعه الآن. إنه صوت أنفاس رجل.

أنصتَ أكسِل ثانية. وعندها بلغهم ضجيج حادٌّ، صوت قدح حجر بحجر ثلاث مرَّات، أربع مرَّات، من نقطة إلى الأمام منهم بالضبط. ثم صدر وميض متقطِّع من هناك، أعقبه لهب صغير اشتدَّ لحظة، فكشف عن هيئة رجل جالس، ثم غرق كل شيء في العتمة من جديد.

علا صوت قائلًا:

- لا تخافوا أيُّها الأصدقاء. أنا غَاوِن، فارس الملك آرثر. وحال اشتعال هذه العُطبَة سنرى بعضنا بشكل أفضل.

علا مزيد من صوت قدح حجري صوَّان، وفي النهاية اشتعلت شمعة وبدأت في الاتِّقاد على نحو متواصل.

كان السير غَاوِن جالسًا فوق حَدَبة داكنة من الأرض. وكما كان باديًا بجلاء لم تكن البقعة الأمثل للجلوس، فقد جلس بزاوية عجيبة، وكأنه دمية عملاقة على وشك التدحرج. عكست الشمعة في يده على وجهه والجزء العلوي من جذعه أخيلة متذبذبة، وكان يتنفَّس بإجهاد. وكما كان سابقًا، مرتديًا قميصه القطني ودرعه الصفيحي؛ سيفه، لم يكن في غمده، بل مغروسًا في الأرض بقربه. حدَّق إليهم بغلٍّ، محرِّكًا شمعته من وجه لآخر، ثم قال أخيرًا:

- جميعكم هنا إذًا، أشعر بالارتياح.

ردَّ أكسِل:

- فاجأتنا، سير غَاوِن، ما الذي تعنيه بالاختباء هنا؟

- نزلت إلى هنا قبل مدَّة وكنت أسير من أمامكم، أيُّها الأصدقاء. لكن تحت ثقل سيفي ودرعي، وهامتي العالية التي اضطرتني إلى الترنُّح والسير برأس محنيٍّ، لم أستطع المشي بسرعة، وها أنتم لحقتم بي واكتشفتم وجودي.
- لم تُجب عن سؤالي، أيُّها السير. لماذا تسير أمامنا؟
- كي أحميكم أيُّها السيِّد! الحقيقة المؤلمة هي أن الرهبان خدعوني. هناك وحش مقيم هنا وغرضهم من وراء إنزالكم إلى هذا النفق هو الهلاك على يديه. لحسن الحظِّ، لا يفكِّر كل الرهبان بطريقة واحدة. أنزلني نِنيان، الراهب الصامت، إلى هنا من دون أن يراني أحد كي أقودكم إلى برِّ النجاة.
- أخبارك هذه تدهشنا للغاية، سير غَاوِن. لكن حدِّثنا أوَّلًا عن هذا الوحش الذي تتكلَّم عنه. ما طبيعته وهل نحن عرضة لخطره في هذه اللحظة؟ هل يهدِّدنا الآن ونحن واقفون هنا؟
- أجل، أعتقد ذلك أيُّها السيِّد. ما كان الرهبان ليرسلوكم إلى هنا لو لم يكن في نيَّتهم أن تقابلوا هذا الوحش. إنها طريقتهم المعهودة. كونهم رجال المسيح، فإنهم لا يستطيعون استخدام السيف أو حتى السمَّ. ولهذا يُنزلون إلى هنا من يريدون به الهلاك، وبعد يوم أو اثنين ينسون تمامًا أنهم فعلوا أمرًا كهذا. أوه، نعم، هذه طريقتهم المعهودة، خاصَّة رئيس الدير. حتى أنه بحلول يوم الأحد يكون قد أقنع نفسه بأنه أنقذكم من هؤلاء الجنود. أمَّا صنيع من يربض في هذا النفق، إن خطر في باله، فيتبرَّأ منه، أو حتى يطلق عليه مشيئة الربِّ. حسنًا، لنرَ مشيئة الربِّ في هذه الليلة وقد أصبح أحد فرسان آرثر يسير الآن من أمامكم!

سألته بياترِس:

- هل تقول، سيرغَاوِن، إن الرهبان يريدون بنا الهلاك؟

- من المؤكَّد أنهم يريدون هلاك هذا الغلام، أيَّتها السيِّدة. حاولت إقناعهم بأنه لا داعي لذلك، حتى أني أقسمت لهم يمينًا مغلَّظًا على أخذه وإبعاده من هذا البلد، لكن كلَّا، لم ينصتوا إلى ما قلته! رفضوا المجازفة بترك هذا الغلام طليقًا، حتى بعد القبض على السيِّد وِسْتِن أو قتله، إذ من يستطيع الزعم بأن رجلًا آخر لن يأتي ذات يوم للعثور على هذا الغلام. قلت لهم: سآخذه إلى مكان بعيد. لكنهم يتخوَّفون ممَّا قد يحصل ويريدونه ميِّتًا. أما أنت وزوجك الطيِّب فقد لا يشتهون لكما الموت، لكنكما ستكونان شاهدين على أفعالهم. لو كنت أعلم مسبقًا بأن هذا ما كان سيحدث، أكنت أتيت إلى هذا الدير؟ من يدري؟ آنذاك، بدا لي أن من واجبي فعل ذلك، ألم يكن كذلك؟ لكن خططهم إزاء الفتى، وزوجين مسيحيَّين بريئين، ما كنت لأسمح بتنفيذها! لحسن الحظِّ أن جميع الرهبان لا يفكِّرون بطريقة واحدة، وأن نِنيان، الراهب الصامت، قادني إلى هنا في الخفاء. كان في نيَّتي أن أسبقكم بمسافة طويلة، لكن درعي الصفيحيَّ وطولي الفارع - كم مرَّة لعنت هذا الطول على مرِّ السنين! ما المحاسن التي يَنعم بها رجل عظيم الطول؟ مقابل وصولي إلى كل إجاصة متدلِّية من غصن عالٍ كان هناك ذلك السهم الذي يتمكَّن منِّي لكنه يمرُّ مرور الكرام من فوق رأس رجل أقصر!

قال أكسِل:

- سير غاوين، أي صنف من الوحوش هذا الذي تقول إنه مقيم هنا؟
- لم أره قطُّ، أيُّها السيِّد، أعرف فقط أن هؤلاء الرهبان يُنزلون إلى هنا من يريدون لهم الهلاك على يديه.
- أهو من شاكلة من يمكن قتله بسيف عادي يحمله بشر فانٍ؟
- ما هذا الذي تقوله أيُّها السيِّد؟ إنني بشر فانٍ، لا أنكر ذلك، لكنني فارس نال تدريبًا فذًّا لسنوات طويلة ومنذ اليفاعة على يد العظيم آرثر،

وهو من علَّمني مواجهة كل صنوف الرزايا بإقدام وإباء، حتى لو بلغ الخوف النخاع. فنحن، وإن كنَّا بشرًا، لماذا لا نتلألأ ببهاء في عينيِّ الربِّ مدَّة سيرنا على وجه هذه البسيطة! إنني مثل جميع من وقف في صفِّ آرثر، أيُّها السيِّد، واجهت أمير الأبالسة بَعْلَزَبُوب، ووحوشًا ممسوخة، وكذلك أشدَّ نوازع البشر الظلامية، ودائمًا ما صُنت المثال الأعلى لملكي العظيم حتى في أتون أشرس المواجهات والمعارك. ما الذي تُلمح إليه أيُّها السيِّد؟ كيف تجرؤ؟ هل كنتَ هناك؟ أنا كنتُ هناك، أيُّها السيِّد، وشاهدت كل ذلك بعينيَّ هاتين اللتين أنظر بهما إليك الآن! ولكن وإن يكن، وإن يكن، أيُّها الأصدقاء، هذا حديث ليوم آخر. اعذروني، لدينا أمور لا بدَّ من التصدِّي لها، بالطبع لدينا أمور أخرى. ما الذي سألتني عنه أيُّها السيِّد؟ آه، أجل، ذلك الوحش، أجل، فهمت أنه وحش مؤذٍ ولكنه ليس عفريتًا أو روحًا شرِّيرة، ولذا يمكن الاجهاز عليه بهذا السيف.

قالت بياترِس:

- لكن، سير غَاوِن، هل تقترح فعلًا مواصلة السير في هذا النفق ونحن نعلم ما بتنا نعلمه الآن؟
- وأي خيار آخر لدينا أيَّتها السيِّدة؟ إن لم أكن مخطئًا، فباب الرجوع إلى الدير مقفل في وجوهنا، ولكن هذا الباب نفسه قد يُفتح في أي لحظة ليتدفَّق منه سيل من الجنود إلى هذا النفق. ليس من حلٍّ أمامنا سوى السير قُدُمًا، وليس ما يعترض طريقنا سوى هذا الوحش بمفرده. ولعلَّنا سرعان ما نجد أنفسنا في الغابة بعيدًا عمَّن يطاردونكم، فقد طمأنني نِنيان بأنَّ هذا النفق ليس وهميًّا وأنه بحالة جيِّدة. لهذا دعونا نمضِ في طريقنا قبل احتراق هذه الشمعة، فهي الوحيدة التي أحملها معي.

سألت بياترِس، من دون أن تحاول منع السير غَاوِن من سماعها:

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

- هل نضع ثقتنا به يا أكسِل؟ ذهني في حالة من الدوار والاشمئزاز من التصديق بأنَّ أبانا بريان قد غدر بنا. لكنَّ ما يقوله هذا الفارس يبدو صحيحًا.
- دعينا نتبعه يا أميرة. سير غَاوِن، نشكرك على ما تكبَّدته من مشقَّة. أرجوك أن تقودنا الآن إلى برِّ النجاة، ولنأمل أن يكون هذا الوحش قد غلبه النعاس أو ذهب للصيد تحت جنح الظلام.
- أخشى ألَّا نكون محظوظين إلى هذه الدرجة. ولكن هيًا أيُّها الأصدقاء، لنتقدَّم بشجاعة.

نهض الفارس العجوز على قدميه ببطء، ثم مدَّ يده بالشمعة قائلًا:

- سيِّد أكسِل، لعلَّك تتكرَّم علينا بحمل هذا اللهب، فلا بدَّ لي من استخدام كلتا يديَّ كي أبقي على سيفي في حالة من التأهُّب.

مضوا في قطع طريقهم عبر النفق، سير غَاوِن في الطليعة، أكسِل يتبعه حاملًا اللهب، بياترِس ممسكة بذراعه من الخلف، وإدْوِنْ بات الآن في المؤخِّرة. توجَّب عليهم السير في طابور واحد، إذ ظلَّ الممرُّ ضيِّقًا، وأخذ السقف المؤلَّف من الطحالب والجذور الضخمة بالانخفاض تدريجيًّا إلى أن اضطرَّت حتى بياترِس إلى الانحناء. بذل أكسِل كل ما استطاعه لحمل الشمعة ورفعها إلى أعلى، لكن نسيم الهواء اشتدَّ الآن في النفق، فاضطرَّ إلى إنزالها مرارًا وستر لهبها بكفِّه. ومع أن السير غَاوِن لم يتبرَّم من ذلك، إلَّا أنه ظلَّ يتقدَّم على الهيئة نفسها، وسيفه مرفوع حتى كتفيه. ثم أطلقت بياترِس صيحة عجب وتشبَّثت بذراع أكسِل.

- ما الأمر يا أميرة؟
- أوه أكسِل، قفْ! لمست بقدميَّ شيئًا ما، لكنَّ شمعتك تحرَّكت بسرعة.
- وماذا في ذلك يا أميرة؟ يجب أن نواصل السير.
- أكسِل، أحسبه طفلًا! قدمي لمسته ورأيته قبل مرورك بالشمعة. أوه، أعتقد أنه رضيع ميِّت منذ أمد بعيد!
- هيًا يا أميرة، لا تضايقي نفسك. أين رأيته؟

قال سير غَاوِن في الظلمة:

- هيَّا، هيَّا أيُّها الأصدقاء. هناك الكثير مما يُحبَّذ عدم رؤيته في هذا المكان.

بدا على بياترِس أنها لم تسمع ما قاله الفارس، فمضت بالقول:

- هناك يا أكسِل. اجلب الشمعة في هذا الاتجاه. هنا في الأسفل، أنزل الشمعة هنا، رغم جزعي من رؤية وجه هذا المسكين ثانية!

رغم ما أبداه من نصيحة، عاد سير غَاوِن إلى الوراء، كما أصبح إدْوِنْ أيضًا إلى جانب بياترِس الآن. قرفص أكسِل وحرَّك شمعته هنا وهناك، فأضاءت أرضًا رطبة، وجذور أشجار وحجارة. ثم أضاء اللهب خفَّاشًا كبيرًا ممدَّدًا على ظهره كما لو كان راقدًا بسلام، جناحاه مشرَّعان إلى جنبيه. كان من الممكن أن يكون الكائن نائمًا بالفعل لولا ما بدا على مقدِّمة جذعه. وحين قرَّب أكسِل الشمعة، حدَّقوا جميعًا إلى الحفرة الدائرية الممتدَّة من أسفل ضلوع الخفَّاش مباشرة وحتى بطنه، والتي أجهزت على جزء من قفصه الصدري من الجهتين. كان الجرح البليغ نظيفًا على نحو عجيب، كما لو أن أحدهم قضم تفَّاحة نضرة.

سأل أكسِل:

- ما الذي يمكن أن يتسبَّب في إصابة كهذه؟

لا بدَّ من أنه حرَّك الشمعة بسرعة، ففي تلك اللحظة تلوَّى اللهب وانطفأ.

قال سير غَاوِن:

- لا تقلقوا أيُّها الأصدقاء، سأعثر على عُطبة جافَّة من جديد.

قالت بياترِس بنبرة متهدِّجة:

- ألم أقل لك يا أكسِل؟ عرفت أنه طفل لحظة لمسته بقدمي.
- ما الذي تقولينه يا أميرة؟ إنه ليس بطفلٍ. ما الذي تقولينه؟
- ما الذي حدث لهذا الطفل المسكين؟ وماذا عن أبويه؟
- إنه خفَّاش، يا أميرة، مثل التي تهجع في الأماكن المظلمة.
- أوه يا أكسِل، إنه طفل وأنا متأكِّدة من ذلك!

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

- آسف على انطفاء الشمعة، يا أميرة، وإلَّا لجعلتك تنظرين إليه ثانية. إنه خفَّاش فقط، ومع ذلك وددت أنا نفسي لو تمكَّنت من النظر ثانية إلى ما كان يتمَّدد فوقه. سير غَاوِن، هل لاحظت ما يرقد فوقه هذا الكائن؟
- لا أدري عمَّا تتحدَّث أيُّها السيِّد.
- بدا لي أن الكائن يرقد فوق طبقة عظيمة من العظام، وأظن أنني رأيت جمجمة أو اثنتين لا يمكن أن تكونا لغير بشر.
- ما الذي تُلمِحُ إليه أيُّها السيِّد؟

ثم علا صوت سير غَاوِن إلى حدٍّ جانَب الحيطة والحذر قائلًا:

- أي جماجم؟ لم أرَ أي جماجم أيُّها السيِّد! خفَّاش فقط وقع أسير حظِّه العاثر!

أجهشت بياترِس الآن في بكاء صامت، فاعتدل أكسِل واحتضنها قائلًا برقَّة:

- لم يكن طفلًا يا أميرة، لا تتضايقي.
- يا لها من ميتة شنيعة، وحيدًا، مات وحيدًا. أين كان والداه يا أكسِل؟
- ما الذي تُلمِحُ إليه أيُّها السيِّد؟ جماجم؟ لم أرَ أي جماجم! وماذا لو كانت هنا بعض العظام القديمة؟ وماذا لو كانت، هل هذا أمر فوق التصوُّر؟ ألسنا تحت الأرض؟ لكني لم أرَ أي طبقة عظيمة من العظام، لا أدري ما الذي تُلمِحُ إليه، سيِّد أكسِل. هل كنت هناك أيُّها السيِّد؟ هل حاربت إلى جانب العظيم آرثر؟ أنا فخور بالقول إنني فعلت، أيُّها السيِّد، وكما كان قائدًا مغوارًا كان رحيمًا أيضًا. أجل، بالفعل، كنت أنا من ذهب إلى رئيس الدير للتحذير من هويَّة السيِّد وِسْتِن ونواياه، ولكن هل كان لديَّ من خيار آخر؟ هل كان بإمكاني أن أعرف أن قلوب الأولياء الصالحين يمكن أن تكون بهذه السوداوية؟ ليس من مبرِّر لتلميحاتك أيُّها السيِّد! إنها إهانة لكل من وقف إلى جانب العظيم آرثر! ليس من طبقات عظيمة من العظام هنا! ألست أنا هنا الآن كي أنقذكم؟

- سير غَاوِن، صوتك يهدر مثل الرعد، ومن يدري أين يكون هؤلاء الجنود في هذه اللحظة.
- ما الذي كان بوسعي أن أفعله، أيُها السيِّد، حين عرفت ما عرفت؟ أجل، جئت على صهوة حصاني وكلَّمت رئيس الدير، لكن كيف كان بإمكاني أن أعرف سوداوية قلب هذا الرجل؟ وأصلح الرجال، المسكين جوناس، نُقِر كبده وباتت أيَّامه معدودة، أما رئيس الدير فبالكاد أصابته تلك الطيور ولو بخدش وهو يستمرُّ في العيش من دون أذى...

صمت سير غَاوِن فجأة بعد أن قاطعه ضجيج ارتفع من أسفل النفق. كان من الصعب تحديد كم كان بعيدًا أو قريبًا، لكن كان الصوت، ومن دون أي مجال للخطأ، صرخة وحش؛ أشبه ما تكون بعواء ذئب، وإن كان فيها أيضًا شيء من زمجرة عميقة لدبٌ. لم تدُم الصرخة طويلًا، لكنها دفعت أكسِل إلى جذب بياترِس إلى صدره واحتضانها بقوَّة، كما حملت سير غَاوِن على اختطاف سيفه من الأرض. ثم، ظلُّوا واقفين بصمت، لدقائق عديدة، منصتين لسماع الصوت من جديد. لكن لم يصلهم أي شيء، وفجأة، شرع سير غَاوِن في الضحك، بهدوء وإعياء. وفيما واصل ضحكه، همست بياترِس في أذن أكسِل:
- دعنا نترك هذا المكان يا زوجي. لا أودُّ التفكير أكثر في هذا القبر المنعزل.

توقَّف سير غَاوِن عن الضحك قائلًا:
- لعلَّنا سمعنا صوت الوحش، لكن ليس أمامنا من خيار سوى أن نتقدَّم. لذا أيُها الأصدقاء، دعونا ننهِ شجارنا. سنوقد شمعتنا ثانية بعد مدَّة، لكن دعونا نَسِرْ الآن قليلًا من دونها كي لا نعجِّل من مجيء الوحش إلينا. انظروا، هناك ضوء خافت للغاية، ولكنه كافٍ للسير على هديه. هيَّا أيُها الأصدقاء، كفانا شجارًا. سيفي جاهز. دعونا نواصل المسير.

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

أصبح النفق أشدَّ وعورة، وباتت حركتهم أكثر توجُّسًا، فزعًا ممَّا يخبّئه كل منعطف. لكنهم لم يواجهوا أي شيء، ولم يسمعوا أي صراخ جديد. ثم انحدر النفق بحدَّة لمسافة طويلة قبل أن يصلوا إلى حجرة كبيرة.

توقَّفوا جميعًا لالتقاط أنفاسهم ولتأمُّل ما يحيط بهم. فبعد السير الطويل وهاماتهم تلامس بطن الأرض، أصابهم الارتياح لأن السقف لم يكن عاليًا فحسب، ولكنه مؤلَّف أيضًا من مواد أكثر صلابة. ما إن أشعل سير غَاوِن الشمعة من جديد، حتى أدرك أكسِل أنهم كانوا في مكان يشبه الضريح، محاط بحيطان تحمل آثار جداريات وحروفًا رومانية. من أمامهم عمودان ضخمان شكَّلا مدخلًا إلى حجرة ثانية ذات حجم مشابه، وهذا المدخل مغمور ببركة من أشعَّة القمر. لم يكن مصدرها واضحًا: ربما خلف القوس العالي الذي يتوسَّط العمودين كوَّة متعامدة في تلك اللحظة، بمحض الصدفة، مع القمر. أضاء نور القمر معظم الطحالب والفطريَّات المنتشرة فوق العمودين، وكذلك مقطعًا من الحجرة التالية، التي بدت أرضيَّتها مغطَّاة بالأنقاض، ولكن سرعان ما أدرك أكسِل بأنها طبقة سميكة من العظام. وحينذاك فقط أدرك أن ما كان تحت قدميه هو الكثير من الهياكل العظمية المحطَّمة، وأن هذه الأرضية العجيبة تمتدُّ على محيط الحجرتين معًا. حينذاك قال عاليًا:

- لا بدَّ من أن يكون هذا المكان مدفنًا قديمًا. ومع ذلك عدد المدفونين هنا مهول للغاية.

تمتم سير غَاوِن متبرِّمًا:

- مدفن قديم. حسنًا، مدفن قديم.

كان قد طاف على مهل في أرجاء الحجرة، سيفه بيد، والشمعة في الأخرى. توجَّه الآن نحو القوس، لكنه توقَّف قبيل بلوغ الحجرة الثانية، كما لو أنه تهيَّب فجأة من أشعَّة القمر المتوهِّجة. غرز سيفه في الأرض، وراقب أكسِل انحناء هامته فوق سلاحه، محرِّكًا الشمعة إلى أعلى وأسفل بإجهاد قبل قوله:

- لا حاجة إلى الشجار، سيِّد أكسِل. إنها جماجم بشرية، لن أنكر ذلك. هنا ذراع، وهناك ساق، لكنها الآن عظام بالية. مدفن قديم. وليكن.

أجرؤ على القول، أيُّها السيِّد، إن بلادنا بأسرها على هذا النحو. واد جميل أخضر. خميلة ساحرة في الربيع. أُحفرْ ترابها، وستجد الأموات على عمق بسيط تحت الأقحوان والحوذان. وأنا لا أتكلَّم فقط، أيُّها السيِّد، عمَّن دفنوا بشكل مسيحيٍّ لائق. ترقد تحت ترابنا شواهد مذبحة قديمة. أصبحت أنا وهُورِس مثقلَين ومنهكَين منها. مثقلين ونحن لم نعد صغيرين.

قال أكسِل:

- سير غَاوِن، ليس بين أيدينا سوى سيف واحد. أناشدك ألَّا يصيبك الحزن والأسى، وألَّا تنسى أن الوحش قريب منَّا.
- لم أنسَ الوحش أيُّها السيِّد. إنني أتفحَّص هذه البوَّابة فقط. انظر هناك، هل ترى هذا؟

كان سير غَاوِن قد رفع الشمعة إلى أعلى كاشفًا على عرض الحافَّة السفلية للقوس ما بدا سطرًا من رؤوس حراب موجَّهة نحو الأرضية.

قال أكسِل:

- بوَّابة قضبان حديدية مُصلَّبة..
- تمامًا أيُّها السيِّد. هذه البوَّابة ليست قديمة جدًّا. أراهن على أنها أصغر عمرًا مني ومنك. هناك من رفعها إلى الأعلى لأجلنا، بقصد أن نمرَّ من تحتها. انظر هناك، تلك هي الحبال التي تشدُّها إلى أعلى. وهناك البكرات. ثمَّة من ينزل إلى هنا كثيرًا ليتحكَّم في رفع البوَّابة وإنزالها، ربما لإطعام الوحش.

تقدَّم سير غَاوِن قليلًا نحو أحد العمودين، فقرقعت العظام من تحت قدميه، ثم قال:

- إن قطعتُ هذا الحبل، فستهبط البوَّابة من دون شكٍّ، وستعترض طريقنا. لكن إن كان الوحش خلفها، فستحمينا منه. هل ما أسمعه هو صوت الغلام الساكسوني أم صوت جنِّي تسلَّل خفية إلى هنا؟

كان إدْوِنْ بالفعل، واقفًا في الظل، وقد شرع في الغناء؛ بشكل خافت في البداية حمل أكسِل على الظنّ بأن الغلام يحاول وببساطة التخفيف من حدَّة اضطرابه، لكنَّ صوته أخذ يعلو تدريجيًّا بشكل ملفت. بدت أغنيته أغنية مهد بطيئة الإيقاع، وكان يردِّدها ووجهه إلى الحائط، وجسده يميل برقَّة إلى الأمام والخلف.

قال سير غَاوِن:

- الغلام يتصرَّف كما لو أنه تحت تأثير تعويذة سحرية. دعنا منه، يجب أن نقرِّر الآن، سيِّد أكسِل. هل نتخطَّى البوَّابة وندلف إلى الحجرة الثانية؟ أم نقطع هذا الحبل ونحمي أنفسنا لبعض الوقت ممَّا يتربَّص بنا هناك؟

- أرى أن نقطع الحبل أيُّها السيِّد. نستطيع، حتمًا، سحب البوَّابة إلى أعلى ساعة نشاء. لكن دعنا نستكشف أوَّلًا ما يواجهنا هنا والبوَّابة تصدُّه عنَّا.

- رأيٌ حكيم أيُّها السيِّد. سأفعل حسبما أشرت.

مناولًا أكسِل الشمعة، تقدَّم سير غَاوِن خطوة، ثم رفع سيفه وضرب باتجاه العمود. علا صوت اصطكاك حديد بحجارة، واهتزَّ الجزء الأسفل من البوَّابة، لكنها بقيت معلَّقة. تنهَّد سير غَاوِن بشيء من الحرج. ثم موضع نفسه من جديد، وهوى بسيفه ثانية، مسدِّدًا ضربة أخرى.

علا هذه المرَّة صوت صرير عالٍ، وهبطت البوَّابة بسرعة إلى أسفل مثيرة غيمة من الغبار تحت أشعَّة القمر. كان وقع الاصطدام مهولًا - توقَّف إدْوِنْ فجأة عن الغناء - وحدَّق أكسِل الآن عبر القضبان المصلَّبة التي هبطت أمامهم لرؤية من سيستدعيه الضجيج. لكن لم يحدث أي شيء ينذر بمجيء الوحش، وبعد لحظة تنفَّس كل واحد منهم الصعداء.

رغم أنهم أصبحوا الآن عمليًّا في مصيدة، لكنَّ إنزال البوَّابة ولَّد شعورًا بالارتياح، وشرع أربعتهم في التجوُّل في أرجاء المدفن. توجَّه سير غَاوِن، بعد أن وضع سيفه في غمده، إلى القضبان وتحسَّسها بحذر شديد ثم قال:

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

- حديد صلب، سيؤدِّي الغرض.

تقدَّمت بياترِس، التي ظلَّت صامتة لبعض الوقت، وضغطت رأسها فوق صدر أكسِل. وعندما طوَّقها بذراعه، أدرك أن وجنتها مبلَّلة بالدموع، فقال:

- هوِّني عليكِ يا أميرة. استجمعي قوَّتك. لن يمرَّ علينا هنا وقت طويل قبل أن نخرج إلى هواء الليل العليل.

- كل تلك الجماجم يا أكسِل، عددها كبير جدًّا! أيمكن أن يكون ذلك الوحش حقًّا قد قتل كل هذا العدد المريع؟

تحدَّثت بياترِس بصوت منخفض، لكنَّ سير غَاوِن استدار نحوهما قائلًا:

- ما الذي تلمِّحين إليه، سيِّدة بياترِس؟ أتقصدين أن أكون **أنا** من ارتكب هذه المذبحة؟

قال ذلك بصوت متعب، خالٍ من نبرة الغضب التي وسمت حديثه سابقًا عندما كانوا في النفق، لكن كانت هناك مع ذلك حدَّة غريبة في صوته. ثم استأنف:

- تقولين «عدد مريع من الجماجم». لكن ألسنا تحت الأرض؟ ما الذي تلمِّحين إليه؟ هل يستطيع فارس واحد من فرسان آرثر قتل كل هذا العدد الكبير؟

استدار نحو البوَّابة ومرَّر إصبعًا على طول أحد القضبان، ثم تابع كلامه:

- ذات مرَّة، قبل سنوات، أثناء حلم من الأحلام، رأيت نفسي وأنا أقاتل العدوَّ. كان ذلك خلال نومي ومنذ زمن بعيد. العدوُّ بالمئات، ربما لا يقلُّ عن عدد هؤلاء. قاتلت وقاتلت. حلم أحمق، مع ذلك ما زلت أذكره جيِّدًا.

تنهَّد ثم نظر إلى بياترِس قائلًا:

- لا أعرف كيف أردُّ عليك، أيَّتها السيِّدة. تصرَّفت وفق ما ظننت أنه يرضي الربَّ. أنَّى لي حينذاك أن أفطن إلى ما أصاب قلوب هؤلاء الرهبان الأشقياء من اسوداد؟ وصلت أنا وهُورِس إلى هذا الدير بينما

كانت الشمس في عرض السماء، بعد مدَّة بسيطة من وصولكم، إذ تصوَّرت حينذاك أنه لا بدَّ لي من الحديث على عجل مع رئيس الدير. ثم اكتشفت ما خطَّطه ضدَّكم، فتظاهرت بالإذعان والتواطؤ. ثم ودَّعته ومضيت، فصدَّقوا جميعًا أنني رحلت، لكني تركت هُورِس في الغابة ورجعت إلى هنا متخفِّيًا تحت جنح الظلام. حمدًا للربِّ، لا يفكِّر كل الرهبان بصورة واحدة. كنت أعرف بأن جوناس الطيِّب لن يمتنع عن لقائي. وبعد أن عرفت منه ما ينوي رئيس الدير فعله، حملت نِنيان على إنزالي إلى هذا المكان من دون أن يراني أحد كي أنتظركم. اللعنة، عاد الغلام إلى الغناء من جديد!

فعلًا، كان إذْوِنْ يغنِّي من جديد، لا بصوت عالٍ كما في السابق، ولكن على نحو غريب. كان قد انحنى إلى الأمام، وقبضتاه على صدغيه، وراح يتحرَّك في الظلِّ ببطء مثل شخص يرقص مؤدِّيًا دور حيوان.

قال أكسِل:

- لا بدَّ أن ما مرَّ به من أحداث أخيرة أرهق أعصابه. ما أبداه من جلَد وقدرة على التحمُّل مدهش حقًّا، سنحوطه بالرعاية حال خروجنا من هنا. لكن، سير غَاوِن، أخبرنا الآن، لماذا يريد الرهبان قتل غلام بريء كهذا؟
- لم يكترث رئيس الدير بما سقته من حجج، أيُّها السيِّد، كل ما أراده هو القضاء على الغلام. لهذا تركت هُورِس في الغابة ورجعت إلى...
- أرجوك، سير غَاوِن، أن تفصح. هل لهذا الأمر علاقة بالجرح الذي أصابه الغول به؟ لكن هؤلاء الرجال أهل علم وتعلُّم مسيحي.
- إصابة الغلام ليست بعضَّة غول. بل هي عضَّة تنِّين. رأيتها بوضوح عندما رفع ذلك الجندي قميصه يوم أمس. من يدري كيف التقى بتنِّين، لكنها عضَّة تنِّين على أي حال، وستستعر الرغبة في دمه الآن سعيًا للقاء تنِّين. في المقابل، فإن أي تنِّينة يمكنها التقاط رائحته ستأتي بحثًا

عنه. هذا هو سبب افتتان السيِّد وسِتِن بتلميذه، أيُّها السيِّد. إنه يعتقد بأن السيِّد إدْوِنْ سيقوده إلى كويرغ. ولهذا السبب نفسه، يريد كلٌّ من الرهبان وهؤلاء الجنود قتله. انظر، إن تصرُّفات الغلام تزداد غرابة!

سألت بياترِس الفارس فجأة:

- ما كل هذه الجماجم، أيُّها السير؟ لماذا هي كثيرة بهذا الشكل؟ أيمكن أن تكون كلها لأطفال؟ بعضها صغير بحجم قبضة اليد.

- لا تتعبي نفسك يا أميرة. ما هذا المكان سوى مدفن.

- ما الذي تلمِّحين إليه أيَّتها السيِّدة؟ جماجم لأطفال؟ قاتلت رجالًا وأمير الأبالسة بَعْلَزَبوب وتنانين. لكن قاتل أطفال؟ كيف تجرؤين أيَّتها السيِّدة؟

فجأة تجاوزهم إدوِن، وهو ما زال يغنِّي، مندفعًا نحو البوَّابة الحديدية ثم ضغط جسده فوق قضبانها.

قال غَاوِن، قابضًا على كتفيه:

- ارجع أيُّها الفتى. هناك خطر، وكفَّ عن هذا الغناء!

تشبَّث إدْوِنْ بالقضبان بكلتا يديه، وتعارك لبرهة هو والفارس العجوز. ثم فكَّا اشتباكهما وتقهقرا إلى الخلف بعيدًا عن البوَّابة. أطلقت بياترِس، قرب صدر أكسِل، شهقة صغيرة، لكن مجال بصر أكسِل كان في تلك اللحظة محجوبًا من قبل إدْوِنْ وسير غَاوِن. وعندما تقدَّم الوحش وأصبح تحت بركة أشعَّة القمر، رآه أكسِل على نحو أوضح.

قالت بياترِس:

- فليحمنا الربُّ. إنه كائن أفلت من السهل الكبير نفسه، وها هو الجوُّ يصبح أبرد من ذي قبل.

- لا تقلقي يا أميرة. لا يمكنه اختراق هذه القضبان.

بدأ سير غَاوِن، وقد استلَّ سيفه على الفور، في الضحك بصوت منخفض ثم قال:

- ليس مخيفًا بالدرجة التي تخيَّلتها.

ثم واصل ضحكه.

ردَّ أكسِل:

- إنه مخيف لدرجة كافية أيُّها السيِّد. يستطيع التهامنا جميعًا الواحد تلو الآخر.

لعلَّهم كانوا يحدِّقون إلى حيوان ضخم مسلوخ: نسيجه الخارجيُّ قاتم، مثل كِرش الغنم، وممطوط بشدَّة فوق الأوتار والمفاصل. غارقًا كما كان الآن تحت أشعَّة القمر، بدا جسم الوحش بحجم وشكل الثور تقريبًا، أمَّا رأسه فكان بوضوح مثل الذئب، لكنَّ تموُّجاته داكنة أكثر - لكن حتى هنا كان الاسوداد يورث الانطباع بأنه ناجم عن التعرُّض للَّهب أكثر مما هو لحم أو فرو داكن على نحو طبيعي. كان عظيم الفكَّين، وعيناه عيون زواحف.

تابع سير غَاوِن الضحك، ثم قال:

- أثناء هبوطي ذلك النفق الظلامي هيَّأني خيالي الجامح لما هو أفظع. أيُّها السيِّد، كنت في أراضي «دَمَم» السبخة ذات مرَّة، وواجهت ذئابًا لها رؤوس مشعوذات شنيعة القبح! وفي جبل «كَلِتش»، غيلانًا لكل منها رأسان ينفثانك بالدم حتى وهي تهدر بصيحات المعركة! ما هو أمامنا ليس أكثر من كلب غاضب.

- مع ذلك فإنه يعترض طريقنا إلى الحرِّية، سير غَاوِن.

- هو فعلًا كذلك. ولهذا، إمَّا أن نقف هنا ونحدِّق إليه لساعة يتمكَّن خلالها الجنود من قطع النفق واللحاق بنا، وإمَّا أن نرفع هذه البوَّابة ونقاتله.

- أرى أنه خصم أعتى من كلب شرس، سير غَاوِن. أسألك ألَّا تنظر إلى الأمر باستهانة.

- إنني رجل عجوز، أيُّها السيِّد، وقد مرَّت سنوات عديدة منذ آخر مرَّة استللت فيها سيفي بغضب. لكنني أظلُّ فارسًا تلقَّى تدريبًا جيِّدًا، وإن كان ذلك الوحش من الوحوش الأرضية، فسأنال منه.

قالت بياترِس:

- انظر، يا أكسِل، كيف يتتبَّع السيِّد إدْوِنْ بعينيه.

كان إدوِن، الذي خيَّم عليه الهدوء بشكل غريب، يختبر الوحش بالمشي يسارًا ثم يمينًا، محدِّقا طوال الوقت إلى الوحش الذي لم يرفع عينيه عنه قطُّ.

قال سير غَاوِن وهو مستغرق في تفكير عميق:

- الكلب يشتهي الغلام بحُرقة. ربما تكون هناك بيوض تنين داخل هذا الوحش.

ردَّ أكسِل:

- أيا كانت طبيعته فإنه ينتظر خطوتنا المقبلة بصبر غريب.

قال سير غَاوِن:

- إذًا دعوني أقترح عليكم الآتي، أيُّها الأصدقاء، أمقت استخدام هذا الغلام الساكسوني كنعجة صغيرة لاصطياد ذئب. لكنه يبدو شجاعًا، كما أنه في حالة مماثلة من الخطر بوجوده هنا من دون سلاح. ليحمل الشمعة وليذهب ويقف هناك في نهاية الحجرة. ثم إن استطعت، سيِّد أكسِل، أن ترفع هذه البوَّابة ثانية بطريقة ما، ربما حتى بمساعدة زوجتك الكريمة، فسيتمكَّن الوحش من العبور إلى هنا. أعتقد أنه سيندفع مباشرة صوب الغلام. وبناء على معرفتنا لوجهة هجومه، فإنني سأقف هنا وأمزِّقه بسيفي لدى مروره. هل توافق على هذه الخطَّة أيُّها السيِّد؟

- إنها محاولة مستميتة. لكنني أتخوَّف أنا أيضًا من اكتشاف الجنود قريبًا لهذا النفق. لهذا دعنا نجرِّب هذه الخطة، أيُّها السيِّد، حتى إن كنت أنا وزوجتي سنتعلَّق معًا بالحبل، إلَّا أنَّنا سنبذل ما في وسعنا لرفع هذه البوَّابة. أوضحي الخطَّة، يا أميرة، للسيِّد إدْوِنْ ولنرَ إن كان سيقبل بها.

لكن بدا أن إدْوِنْ التقط استراتيجية غَاوِن من دون توجيه كلمة له. متناولًا الشمعة من الفارس، سار الغلام عشر خطوات فوق العظام بحذر حتى وصل إلى نهاية الحجرة ووقف في الظلِّ. عندما رجع إلى مكانه ثانية، كانت الشمعة

أسفل وجهه بالكاد تهتزُّ، وكشفت عن عينين متأجِّجتين ومثبَّتتين على الكائن المتربِّص خلف القضبان.

قال أكسِل:

- هيَّا بسرعة إذًا، يا أميرة، اصعدي فوق ظهري وحاولي الوصول إلى نهاية الحبل. انظري، إنه يتدلَّى من هناك.

أوشكا في البداية على السقوط أرضًا. ثم استعانا بالعمود كدعامة، وبعد مدَّة من الجسِّ واللمس، سمعها تقول:

- أمسكته يا أكسِل. أطلقني الآن، قطعًا سيهبط معي إلى أسفل. التقطني كي لا أهبط دفعة واحدة.

هتف أكسِل بصوت منخفض:

- سير غَاوِن، هل أنت مستعدٌّ؟

- أنا جاهز.

- إن تجاوزك الوحش، فستحلّ قطعًا نهاية هذا الغلام الشجاع.

- أدرك ذلك، أيُّها السيِّد، لن يتجاوزني.

- أطلقني ببطء يا أكسِل. وإن بقيت معلَّقة في الهواء وأنا ممسكة بالحبل، فمدَّ يديك واجذبني إلى أسفل.

أطلق أكسِل بياترِس فبقيت معلَّقة في الهواء للحظة، لم يكن وزنها كافيًا لرفع البوَّابة. ثم تمكَّن أكسِل من القبض على جزء آخر من الحبل فوق يديها، وجذبا الحبل معًا. لم يحصل شيء في البداية، ثم استجاب أمر ما، وارتفعت البوَّابة بصرير عالٍ. استمرَّ أكسِل في الجذب، ولما كان غير قادر على رؤية نتيجة ما يفعله، هتف قائلًا:

- هل ارتفعت عاليًا أيُّها السيِّد؟

سرت ثانية من الصمت قبل أن يعلو صوت سير غَاوِن مجدَّدًا:

- الكلب يحدِّق ناحيتنا وليس من شيء الآن بيننا وبينه.

فتل أكسِل نفسه ونظر من حول العمود في الوقت المناسب لرؤية الوحش وهو يقفز إلى الأمام. بدا وجه الفارس العجوز، تحت أشعَّة القمر، مذعورًا عندما سدَّد ضربته، لكنها كانت في اللحظة المتأخِّرة، إذ تجاوزه الكائن منطلقًا كالسهم صوب إدْوِن.

اتَّسعت حدقتا الفتى، لكنَّ الشمعة لم تسقط من يده. عوض ذلك، تنحَّى جانبًا، كما لو كان بداعٍ من التهذيب والأدب، مفسحًا الطريق للوحش. ولدهشة أكسِل، قام الوحش تمامًا بذلك، راكضًا نحو عتمة النفق الذي خرجوا منه قبل مدَّة قصيرة.

صرخ أكسِل:

- سأظلُّ ممسكًا بالحبل، اعبروا المدخل إلى الحجرة الثانية وأنقذوا أنفسكم!

لكن لا بياترِس التي كانت إلى جنبه، ولا سير غَاوِن، الذي أنزل سيفه، بدا عليهما أنهما سمعا ما قاله. حتى إدْوِنْ بدا عليه فقدان الاهتمام بالكائن المرعب الذي تجاوزه مسرعًا والذي سيعود حتمًا في أي لحظة. اقترب الصبيُّ، والشمعة من أمامه، إلى حيث كان الفارس العجوز واقفًا، وراحا يحدِّقان معًا إلى الأرض.

قال سير غَاوِن من دون أن يرفع بصره إلى أعلى:

- دع البوَّابة تهبط، سيِّد أكسِل، سنرفعها ثانية بعد قليل.

كان الفارس العجوز والفتى، كما أدرك أكسِل، يطالعان باهتمام بالغ شيئًا يتحرَّك فوق الأرض أمام أعينهم. ترك البوَّابة لتهبط، ولدى قيامه بذلك، قالت بياترِس:

- شيء مرعب، يا أكسِل، لا حاجة لي برؤيته. لكن اذهب وانظر إن أردت وأخبرني بما ستراه.
- ألم يركض الوحش إلى النفق، يا أميرة؟
- بعضه فعل ذلك، وسمعت صدى خطواته يتلاشى. اذهب الآن، يا أكسِل، وانظر إلى بعضه الآخر الذي يرتمي عند قدمي الفارس.

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

عندما أقبل أكسِل عليهما، جفل كل من السير غَاوِن وإدْوِنْ وكأنهما أفاقا من غيبوبة. ثم تنحَّيا جانبًا فرأى أكسِل رأس الوحش تحت أشعَّة القمر.

قال سير غَاوِن بتشوُّش:

- أودُّ لو أضربه بسيفي ثانية، لكنني أخاف أن يكون في ذلك تجاوزًا وانتهاكًا يجرُّ علينا وابلًا من الشرِّ. رغم ذلك، كم أتمنَّى أن يتوقَّف عن الحركة.

وفعلًا، كان من الصعب التصديق بأن الرأس المقطوع لم يكن شيئًا حيًّا. كان مطروحًا إلى جنب، والعين البادية للعيان تومض مثل كائن بحري. أمَّا الفكَّان فكانا يتحرَّكان بطاقة غريبة ووفق إيقاع موزون، وعلى نحوٍ بدا فيه اللسان، الهابط وسط الأسنان، وكأن الحياة ما زالت تدبُّ فيه.

قال أكسِل:

- نحن مدينون لك بهذا الفضل، سير غَاوِن.
- إنه كلب فقط، أيُّها السيِّد، وما كنت لأتردَّد في منازلة ما هو أفظع منه وبكل سرور. هذا الغلام الساكسوني يتحلَّى بشجاعة نادرة، وإنني سعيد بإسداء هذه الخدمة له. لكن يجب أن نسرع الآن، وبحذر أيضًا، فمن يدري ما الذي يجري من فوق رؤوسنا في الأعلى، أو حتى إن كان هناك وحش آخر يتربَّص بنا من وراء تلك الحُجرة.

عثروا الآن على شقٍّ وراء أحد العمودين، وبتثبيت طرف الحبل داخله، سرعان ما رفعوا البوَّابة من دون عناء. تاركين رأس الوحش في البقعة التي سقط فيها، انطلقوا من تحت البوَّابة الحديدية، والسير غَاوِن من جديد في المقدِّمة، بسيف مرفوع، وإدْوِنْ في المؤخِّرة.

بدت الحجرة الثانية من المدفن وكرًا للوحش: وسط العظام البالية القديمة كانت هناك أيضًا جِيَف حديثة لغنم وغزلان، وأشكال داكنة ذات روائح مقزِّزة لم يتمكَّنوا من التعرُّف عليها. ثم عادوا إلى السير ثانية برؤوس وأكتاف محنيَّة وأنفاس مقطوعة في دهليز متعرِّج. لم يواجهوا وحوشًا أخرى، وفي نهاية

المطاف سمعوا تغريد العصافير. ظهرت بقعة ضوء من بعيد، وبعدها خرجوا إلى الغابة، حيث الخيوط الأولى من الفجر.

وهو في حالة من الدوار، وجد أكسِل نفسه أمام كتلة من الجذور البارزة بين شجرتين ضخمتين، وكان ممسكًا بيد بياترِس، فساعدها على الجلوس فوقها. كانت بياترِس في البداية مقطوعة الأنفاس فلم تتمكَّن من الحديث، لكن بعد برهة نظرت إلى الأعلى وقالت:

- هناك متَّسع إلى جواري يا زوجي. إن بتنا في أمان الآن، فدعنا نجلس ونراقب اختفاء النجوم. أشعر بالارتياح بعد خروجنا سالمين من ذلك النفق اللعين.

ثم قالت:

- أين السيِّد إدْوِنْ يا أكسِل؟ إنني لا أراه.

مستطلعًا ما حوله وسط غبش الفجر، التقط أكسِل هيئة سير غَاوِن في الجوار، كانت صورته مطبوعة فوق صفحة الفجر، رأسه محنيٌّ، ويده مستندة إلى جذع شجرة كي يوازن نفسه أثناء التقاط أنفاسه. ولكن لا أثر للفتى.

قال أكسِل:

- كان وراءنا، حتى أني سمعت ما أطلقه من آهة تعجُّب لدى خروجنا إلى الهواء الطلق.

قال سير غَاوِن من دون أن يستدير، ونفَسه ما زال مقطوعًا:

- رأيته راجعًا بسرعة. لأنه ليس كبيرًا في العمر مثلنا، لا يحتاج إلى الاستناد إلى شجر البلُّوط كي يلهث ويشهق. أعتقد أنه أسرع في الرجوع إلى الدير لإنقاذ السيِّد وِسْتِن.

- ألم تفكِّر حتى في تعطيله أيُّها السيِّد؟ إنه قطعًا يسرع نحو خطر داهم، فالسيِّد وِسْتِن بحلول هذا الوقت إما أنه قُتل أو أُلقي القبض عليه.

- وما الذي كنت تريدني أن أفعله، أيُّها السيِّد؟ قمت بكل ما أمكن. خبَّأت نفسي في ذلك المكان الخانق. أجهزت على ذلك الوحش

رغم فتكه بالعديد من الرجال الشجعان ممَّن رأينا بقاياهم. ثم بعد هذا كله، يهرول الفتى بالعودة إلى الدير! هل كان عليَّ أن أطارده بهذين الدرع والسيف الثقيلين؟ استنفدت كل طاقتي أيُّها السيِّد. استنفدت طاقتي. ما هو واجبي الآن؟ يجب أن أتوقَّف وأفكِّر. ما الذي كان آرثر سيكلِّفني به؟

سألت بياترِس:

- سير غَاوِن، صحيح أنك كنت أوَّل من جاء لإعلام رئيس الدير بهويَّة السيِّد وِسْتِن الحقيقية كمحارب ساكسوني من الشرق؟

- لماذا تريدين فتح هذا الموضوع ثانية أيَّتها السيِّدة؟ ألم أقدكم إلى برِّ النجاة؟ دسنا بأقدامنا كثيرًا من الجماجم قبل الخروج إلى هذا الفجر العذب! الكثير الكثير. لم يكن ضروريًّا النظر إلى أسفل، بل كان بمقدورنا الاكتفاء بسماع طقطقة العظام مع كل خطوة أقدمنا عليها. كم من الموتى أيُّها السيِّد؟ مئة؟ ألفًا؟ هل أحصيت عددها، سيِّد أكسِل؟ أم أنك لم تكن هناك أيُّها السيِّد؟

بدا صورة مرسومة إلى جانب شجرة، وكانت كلماته أحيانًا صعبة الفهم حين بدأت الطيور بإطلاق باكورة تغريدها.

قال أكسِل:

- أيًّا كان ما جرى هذه الليلة فنحن ندين لك بكثير من الشكر، سير غَاوِن. لا شكَّ في أن شجاعتك ومهارتك لم يصبهما الوهن. مع ذلك يراودني أنا الآخر سؤال أودُّ طرحه عليك.

- ارِحني من قول أي شيء، كفى. كيف يمكنني ملاحقة شابٍّ رشيق الخطى فوق هذه المنحدرات ذات الأشجار الكثيفة؟ طاقتي استُنفدت، أيُّها السيِّد، وربما حتى قدرتي على التنفُّس.

- سير غَاوِن، ألم نكن رفيقين ذات مرَّة في الماضي البعيد؟

- حسبك أيُّها السيِّد. قمت الليلة بواجبي. أليس هذا بكافٍ؟ يجب أن أعثر الآن على هُورِسي المسكين، ربطته إلى غصن شجرة كي لا يسرح بعيدًا، لكن ماذا لو صادفه ذئب أو دبٌّ؟

قال أكسِل:

- الضباب يغلِّف ماضي أيَّامي بكثافة. لكني بدأت أحسُّ مؤخَّرًا بأن ثمَّة ما يذكِّرني بمهمَّة ما، مهمَّة جسيمة، عُهد إليَّ بها ذات مرَّة. هل كانت قانونًا، قانونًا عظيمًا يقضي بجلب كل البشر إلى حظيرة الربِّ؟ وجودك، وحديثك عن آرثر، يثيران أفكارًا بهتت داخلي منذ زمن طويل، سير غَاوِن.
- هُورِسي المسكين، أيُّها السيِّد، يمقت الغابة في الليل. نعيق بومة أو صرخة ثعلب كفيلان بإثارة الذعر في نفسه، حتى وإن كان يواجه وابل سهام من دون أن تطرف له عين. سأذهب إليه الآن، ودعوني أحثُّكما، أيُّها الطيِّبان، على عدم المكوث هنا طويلًا للراحة. انسيا أمر الغلام الساكسوني، الاثنين معًا. فكِّرا الآن في ابنكما العزيز الذي ينتظركما في قريته. من الأفضل لكما أن تنطلقا بسرعة، أقول، الآن وأنتما من دون بطَّانيات أو زاد. النهر قريب وتيَّاره السريع متَّجه شرقًا. كلمة طيِّبة إلى ملَّاح قد تضمن لكما السفر ركوبًا إلى أسفل النهر. لكن انطلقا من هنا من دون تلكُّؤ، فمن يدري متى سيخرج الجنود إلى هذه البقعة؟ يرعاكما الربُّ أيُّها الصديقان.

علا صوت خرفشة وبضع خطوات، ثم ابتلعت الأشجار الداكنة هامة سير غَاوِن. بعد برهة، قالت بياترِس:

- لم نقم بتوديعه يا أكسِل، وأشعر بالتقصير. لكنَّ تركه لنا بتلك الطريقة غريب ومفاجئ.
- شعرت أنا أيضًا بذلك يا أميرة. لكن، لعلَّه أسدى لنا نصيحة حكيمة. يجب أن نُسرع إلى ابننا ولا ننشغل أبدًا بمن تعرَّفنا عليهم مؤخَّرًا من

رفاق. أشعر بالقلق على السيِّد إدْوِنْ المسكين، لكنه إن عجَّل بالعودة إلى الدير، فما الذي يمكننا أن نصنعه لأجله؟

- دعنا نرتَخْ قليلًا يا أكسِل. سننطلق قريبًا، وسنُحسن صنعًا بالسعي وراء قارب يختصر علينا مدَّة رحلتنا. لا بدَّ من أن ابننا يتساءل عن سبب عدم وصولنا حتى الآن.

الفصل الثامن

كان الراهب اليافع نحيلًا سقيم الهيئة من الـبِكْتْز[1] ويُحسن الحديث بلسان إدوِن. وما من شكٍّ في سعادته بمرافقة شخص يقاربه عمرًا، إذ ظلّ يتحدَّث باستمتاع طوال الجزء الأوَّل من رحلتهما عبر ضباب الفجر. لكن منذ دخلا الغابة، والصمت يخيِّم على الراهب اليافع، حتى ظنَّ إدْوِنْ أنه ربما أساء لدليله عن غير قصد. لكن الراهب كان حريصًا على الأرجح على عدم جذب انتباه كل ما يربض متربِّصًا في تلك الغابة؛ وسط تغريد الطيور تردَّدت هسهسة وهمهمة. وعندما تساءل إدْوِنْ ثانية، كسرًا للصمت وليس للاطمئنان: «جراح أخي إذًا غير قاتلة؟» كادت إجابة الراهب أن تكون جافَّة: «الأب جوناس يقول إنها ليست كذلك. وليس من أحد أكثر علمًا منه».

لا يمكن أن يكون وِستِن إذًا مصابًا إلى حدٍّ بليغ. ولا بدَّ من أنه تدبَّر أمر قطع هذه الطريق عبر هبوط التلِّ قبل مدَّة قريبة، بينما كان الظلام مخيِّمًا. هل اضطرَّ إلى الاستناد على ذراع دليله؟ أم لعلَّه تمكَّن من الانطلاق فوق فرسه وأحد الرهبان يقودها من لجامها بإحكام؟

«خُذ هذا الفتى إلى كوخ صانع البراميل في الأسفل. وانتبه ألَّا يراك أحد وأنت تغادر الدير». هكذا كانت، بحسب الراهب اليافع، تعليمات الأب جوناس

---

(1) قبائل قديمة كانت تستوطن شمال وشرق اسكتلندا ما بين أواخر العصر الحديدي ومطلع العصور الوسطى وكانت مختلفة لغة وثقافة عن سكان إنجلترا في ذلك الوقت.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

له. إذًا سيجتمع إدْوِنْ بالمحارب قريبًا، ولكن أي استقبال سيكون في انتظاره؟ إذ أنه خذل وِسْتِن عند أوَّل مواجهة. فبعد انطلاق إشارة المعركة، عوض أن يهرول إلى جنبه، هرب إدْوِنْ إلى النفق الطويل. لكنَّ أمَّه لم تكن هناك، وحين تبدَّت أخيرًا نهاية النفق من بعيد، مثل قمر وسط الظلام، شعر عندها فقط بانقشاع غيوم حلم كثيفة عنه، ثم أدرك ما حصل برعب.

لكنه على الأقل، بذل قصارى جهده لحظة خروجه إلى هواء الفجر البارد. قطع طريق العودة إلى الدير بأكملها ركضًا، متمهِّلًا فقط عند المنحدرات الحادَّة. شعر أحيانًا، وهو مندفع عبر الغابة، بأنه ضلَّ طريقه، لكنَّ الأشجار تضاءلت بعد ذلك وظهر الدير مطبوعًا فوق صفحة السماء الفاتحة. وهكذا تسلَّق الطريق الصاعد وصولًا إلى البوَّابة الكبيرة، وأنفاسه متقطِّعة ورجلاه تئنَّان من التعب.

لم يكن الباب الصغير بقرب البوَّابة الرئيسة مقفلًا، فاستجمع رباطة جأشه وعبَر الدير خلسة. أثناء عبور الجزء الأخير من الطريق لاحظ الدخان المتصاعد، لكنه الآن يدغدغ صدره، جاعلًا من عدم السعال عاليًا أمرًا عسيرًا. حينذاك أدرك تمامًا أن الوقت تأخَّر كثيرًا على تحريك عربة التبن، فأحسَّ بخواء عظيم يُطبق عليه. لكنه نحَّى ذلك الشعور لوقت آخر، واندفع نحو الفناء.

لم يصادف رهبانًا أو جنودًا لبعض الوقت. لكن، أثناء تسلُّله بمحاذاة حائط مرتفع، خافضًا رأسه كي لا يلمحه أحد من شبَّاك بعيد، رأى أحصنة الجنود في الأسفل محشورة في ساحة صغيرة داخل البوَّابة الرئيسة. مطوَّقة من كل الجهات بجدران عالية، كانت الأحصنة، وهي ما زالت مسرجة، تدور على نحو عصبي، رغم صغر المساحة المتاحة لذلك من دون صدام. وعندما أقبل على مخدع الرهبان، لم يندفع لقطع الفناء الرئيس، كما كان لغلام آخر في سنِّه أن يفعل على الأرجح، بل كان حاضر الذهن إلى حدٍّ تذكُّر خريطة المكان ومواصلة السير عبر طريق التفافي، مستعينًا بما تذكَّره من طرقات خلفية. وحتى بعد بلوغ غايته، اختبأ خلف عمود حجري وراح يسترق النظر بحذر في الأرجاء.

كان الفناء الرئيس في حالة مزرية للغاية. أبصر ثلاث هيئات ملتحفة بالعباءات تكنسه بإعياء، ثم وصل رابع بسطل ورشق الماء فوق أرضيَّته المرصوفة بالحجارة، مسبِّبًا هروب العديد من الغربان المتربِّصة. قشٌّ ورمل منثور في مواضع عدَّة، وحين انجذبت عيناه إلى أشكال عديدة مغطَّاة بأكياس من الخيش، ظنَّها جثثًا ممدَّدة. لاح فوق هذا المشهد البرج الحجري القديم - حيث قاتل وِسْتِن بصمود كما عرف - لكنه أيضًا تغيَّر: كان متفحِّمًا ومسودًّا في العديد من الأماكن، خاصة حول مدخله المقوَّس وشبابيكه الضيِّقة. بدا البرج بأكمله لعيني إدْوِنْ وقد تقلَّص في الحجم. وحين مدَّ عنقه من وراء العمود كي يتأكَّد إن كان ما يحيط بالأشكال المغطَّاة برك من الدم أم الماء، قبضت يدان نحيلتان على كتفه من الخلف.

ثنى جذعه إلى الوراء فوجد الأب نِنيان، الراهب الصامت، محدِّقًا إليه. لم يصرخ إدْوِن، بل قال، بصوت منخفض، مشيرًا إلى الجثث: «السيِّد وِسْتِن، شقيقي الساكسوني. هل هو ممدَّد هناك؟».

بدا الراهب الصامت مستوعبًا، فهزَّ رأسه على نحو قاطع. لكنه حتى لما رفع إصبعًا إلى شفتيه على النحو المعهود، كان يحدِّق إلى وجه إدْوِنْ محذِّرًا. ثم جذب نِنْيان إدْوِن، وهو يختلس نظرات خاطفة من حوله، بعيدًا عن الفناء.

كان إدْوِنّ قد سأل وِسْتِن يوم أمس:

- هل نحن متأكِّدان من أن الجنود سيأتون حقًّا أيُّها المحارب؟ من سيخبرهم بأننا هنا؟ فهؤلاء الرهبان يعتقدون قطعًا بأننا رعاة سذَّج.
- من يدري أيُّها الفتى. ربما سنُتْرك بسلام. لكن هناك شخص أتخيَّل أنه قد يفشي سرَّ وجودنا هنا، وربما كان حضرة برونُس يصدر الأوامر في هذه اللحظة. تفحَّص جيِّدًا، أيُّها الرفيق الشابُّ. فالبريتون لهم طريقتهم في تقسيم حزم التبن الكبيرة من الداخل بألواح خشبية. لا نريد أي شيء داخل الحزم سوى التبن الخالص.

كان هو ووِسْتِن حينذاك في الحظيرة خلف البرج القديم. وإذ انتهيا من قطع

الحطب، استحوذت على المحارب رغبة جامحة في ملء العربة المتداعية بالتبن المخزَّن في نهاية الحظيرة. وأثناء أداء هذه المهمَّة، كان مطلوبًا من إدْوِنْ أن يرفع بين الفينة والأخرى حزم التبن المحمَّل في العربة ويشكَّها بمهماز خشبي. وكان المحارب، وهو يقف على الأرض مراقبًا بعناية، يطلب منه أحيانًا أن يشكَّ قسمًا معيَّنًا ثانية، أو يأمره بدفع رجله في نقطة محدَّدة إلى أبعد حدٍّ ممكن. ثم قال وِسْتِن على سبيل الإيضاح:

- رجال الدين هؤلاء صنف من الناس يغلب عليهم الشرود. لعلَّهم تركوا مجرفة أو مذراة داخل التبن. لو كان الحال كذلك، سنسدي لهم معروفًا بالعثور عليها، فأدوات الزراعة شحيحة في هذا المكان الجبلي المنعزل.

مع أن المحارب لم يكن حتى تلك اللحظة قد ألمح بشيء إلى الغرض من التبن، إلَّا أن إدْوِنْ عرف مباشرة بعلاقته الحتميَّة بالمواجهة المقبلة، ولهذا السبب، أثناء تكديس الحزم في العربة، طرح سؤاله حيال الجنود قائلًا:

- من سيغدر بنا أيُّها المحارب؟ الرهبان لا يشكُّون فينا. وهم في غاية الانشغال بخلافاتهم الدينية، وبالكاد يلقون نظرة عابرة صوبنا.
- ربما أيُّها الفتى. لكن تفحَّص تلك النقطة. هنا بالضبط.
- أيمكن أيُّها المحارب أن يكون من سيغدر بنا هما العجوزان؟ إنهما بالتأكيد في غاية السذاجة والصدق.
- قد يكونان من البريتون، غير أني لا أخاف غدرهما. لكنك ستكون مخطئًا إن حسبتهم سذَّجًا أيُّها الغلام. السيِّد أكسِل، كما أعتقد أنا على الأقل، رجل عميق للغاية.
- أيُّها المحارب، لِمَ نرتحل معهما؟ إنهما يعيقان تقدُّمنا عند كل منعطف.
- إنهما يعيقاننا، إلى حدٍّ ما، وسنتركهما عمَّا قريب. لكنني عند انطلاقنا صباح هذا اليوم، شعرت برغبة ملحَّة في صحبة السيِّد أكسِل. وقد أرغب في المزيد منها بعد. كما قلت، إنه شخص عميق. وقد يكون بيننا أنا وهو حديث ضروري عن بعض الأمور. لكن دعنا في الوقت

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

الراهن نركّز على ما يواجهنا هنا. يجب أن نملأ هذه العربة بشكل محكم. نحتاج إلى تبن خالص. لا خشب ولا حديد هنا. أرأيت كيف أعتمد عليك أيُّها الفتى.

لكنَّ إدْوِنْ خذله. كيف طاوعته نفسه على الاستغراق في النوم كل تلك المدَّة الطويلة؟ كان من الخطأ أن يرقد في الأصل. كان ينبغي أن يظلَّ جالسًا وببساطة في الزاوية، وأن يترك سنة من النوم تداهمه من حين لآخر كما رأى وِسْتِن يفعل، كي يكون متأهّبًا لحظة انطلاق أي ضجيج للقفز على قدميه. عوض ذلك، ما إن تناول، مثل الرضيع، كوب حليب من المرأة العجوز، حتى استغرق في نوم عميق في زاويته من الحجرة.

هل نادته أمُّه الحقيقية في أحلامه؟ لعلَّ ذلك كان سبب بقائه نائمًا تلك المدَّة الطويلة. ولماذا، حين هزَّه وأيقظه الراهب الأعرج، عوض أن يهرول إلى جانب المحارب، هرع وراء الآخرين وهبط في ذلك النفق الطويل الغريب، تمامًا مثل من لا يزال في أعماق أحلامه.

لقد كان صوت أمّه نفسه من دون شكٍّ، ذاك الذي ناداه في الحظيرة قائلًا: «ابحث عن القوّة لأجلي يا إدوِن. اعثر على القوّة وتعال لنجدتي. تعال لنجدتي. تعال لنجدتي». فيه نبرة ملحَّة لم يكن قد سمعها صباح الأمس. وكان هناك المزيد منه: لدى وقوفه بباب النفق المفتوح، محملقًا في الدرجات التي تهبط وسط الظلمة، شعر بشيء يدفعه بعنف حتى أنه أصيب بالدوار، وكاد يتقيَّأ.

كان الراهب اليافع ينحّي السياج بعصا برقوق، منتظرًا مرور إدْوِنْ من أمامه. تحدَّث أخيرًا الآن، وإن بصوت مكتوم:

- طريق مختصرة. سنرى سقف كوخ صانع البراميل عن قريب.

وعند خروجهما من الغابة إلى حيث كانت الأرض تتوارى خلف غلالة من ضباب آخذ في الانحسار، ظلَّت أذنا إدْوِنْ تلتقطان حركة وهسيسًا في الأجمة المجاورة من السرخس. فانصرف ذهنه إلى عصر ذلك اليوم المشمس نهاية الصيف الماضي، عندما تكلَّم مع الفتاة.

لم يبصر في البداية بركة الماء في ذلك اليوم، لأنها صغيرة ومخفيَّة تمامًا وسط أعواد البوص البرِّي. طارت حينذاك من أمامه غيمة حشرات برَّاقة ملوَّنة، أمر يجذب انتباهه في العادة، لكنه في تلك اللحظة انشغل عنها تمامًا بما صدر من صوت عند حافَّة الماء. حيوان في مصيدة؟ ارتفع ثانية من هناك، فوق تغريد العصافير وهمهمة الريح. كان يصدر بوقع مميَّز: دفقة حفيف حادَّة، جرَّاء احتكاك شيء ما، ثم يعقبها صمت. ثم سرعان ما يتلوها مزيد من الحفيف. مقتربًا بحذر، تناهى إلى سمعه صوت أنفاس مجهَدة. ثم وقعت عيناه على الفتاة.

كانت ممدَّدة على ظهرها فوق العشب الخشن، وجذعها ملتوٍ إلى جنب. أكبر منه ببضع سنوات - في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة - وعيناها مثبتتان عليه من دون خوف. لم يفطن إلَّا بعد برهة إلى أن سبب تمدُّدها الغريب فوق العشب هو أن يديها موثقتان خلف ظهرها. رسم العشب المسوَّى بالأرض من حولها مسار انزلاقها أثناء محاولتها تحرير نفسها. وتبدَّل لون ثوبها - ربما بللًا - على طول جانب واحد منه. أمَّا رجلاها، فلهما بشرة داكنة غير مألوفة، وتعلوهما خدوش حديثة من الأشواك البنفسجية.

لاح له أنها مسخ أو جنِّية، لكن حين تكلَّمت لم يتردَّد في صوتها صدى لذلك:

- ماذا تريد؟ لمَ جئت إلى هنا؟

مستجمعًا شتات نفسه، ردَّ إذْوِنْ قائلًا:

- أستطيع مساعدتك إن أحببت.

- فكُّ هذه العقد ليس صعبًا. لكنهم أحكموا شدَّ وثاقي هذه المرَّة أكثر ممَّا يفعلون عادة.

الآن فقط لاحظ بأن وجهها ورقبتها غارقين في العرق. فيداها، حتى أثناء كلامها معه، كانتا تكابدان، من تحت ظهرها، مشقَّة التخلُّص من قيدها من دون توقُّف. سألها:

- هل تشعرين بألم؟

- لا ألم. لكن خنفساء حطَّت فوق ركبتي قبل قليل. تشبَّثت بقوَّة ثم لسعتني. والآن ستتورَّم رجلي. أرى أنك ما زلت طفلًا بعد ولن تتمكَّن من مساعدتي. لا يهمُّ، سأتكفَّل بأمر نفسي.

ظلَّت مسلِّطة نظرها عليه، حتى أثناء انقباض وجهها وتلوِّيها ورفعها لجذعها قليلًا فوق الأرض. تابع ما تفعله بذهول، متوقِّعًا ظهور يديها من تحت ظهرها في أي لحظة. لكنها ارتخت بعد أن مُنِيَتْ بالهزيمة وظلَّت ممدَّدة فوق الشعب، وهي تتنفَّس بصعوبة وترمقه بغضب.

- أستطيع المساعدة، فأنا ماهر في حلِّ العُقد.
- أنت طفل لا أكثر.
- لست كذلك، أوشك على بلوغ الثانية عشرة من العمر.
- سيعودون قريبًا، وإن عرفوا بأنك فككت وثاقي، سيضربونك.
- أهم كبار من البالغين؟
- يحسبون أنفسهم كذلك، رغم أنهم مجرد صِبية. لكنهم أكبر منك، كما أنهم ثلاثة. لن يروق لهم فعل شيء أكثر من ضربك. سيقحمون رأسك في ذلك الماء الموحل حتى يُغمى عليك. رأيتهم يفعلون ذلك من قبل.
- أهم من القرية؟
- «القرية؟»، نظرت إليه بازدراء وأكملت، «قريتك أنت؟ نحن نمرُّ بقرية تلو أخرى كل يوم. فلمَ نعبأ بقريتك؟ قد يرجعون قريبًا، وحينئذ ستكون في ورطة».
- لست خائفًا. أستطيع تحريرك إن شئتِ.

تلوَّت ثانية وقالت:

- أنا أحرِّر نفسي دائمًا.
- لمَ شدُّوا وثاقك؟

- «لمَ؟ أعتقد لأجل الفرجة. كي يتفرَّجوا عليَّ وأنا أحاول تخليص نفسي. لكنهم ذهبوا الآن، لسرقة الطعام». ثم أردفت، «حسبت القرويين أمثالك يعملون طوال النهار. كيف تركتك أمُّك تسرح وتمرح هكذا؟».
- «سُمِحَ لي بذلك لأنني أنجزت ثلاث زوايا كاملة بمفردي اليوم». ثم أضاف، «أمِّي الحقيقية لم تعد في القرية».
- أين ذهبت؟
- لا أدري. أُخِذتْ. أعيش الآن مع عمَّتي.
- عندما كنت طفلة مثلك، عشت في قرية. أما الآن فأرتحل من مكان لآخر.
- ترتحلين برفقة من؟
- أوه... معهم. نمرُّ من هذا الطريق كثيرًا. أذكر أنهم شدُّوا وثاقي وتركوني هنا مرَّة من قبل، في هذه البقعة نفسها، خلال الربيع الماضي.

قال فجأة:

- سأطلق سراحك، وإن عادوا، فلن أهابهم.

لكن بقي هناك شيء يمنعه من فعل ذلك. إذ توقَّع أن ترفع عينيها بعيدًا عنه، أو أن تندَّ عن جسمها إشارة تنبئ على الأقل بتوقُّع اقترابه منها. لكنها تابعت التحديق إليه، بينما واصلت يداها جهادهما تحت ظهرها المقوَّس. ولم يدرك بأنها كانت تحبس أنفاسها لبرهة من الوقت إلَّا بعدما أطلقت تنهيدة طويلة. ثم قالت:

- أستطيع فكَّها في العادة. ولو لم تكن موجودًا هنا، لكنت الآن قد انتهيت من ذلك.
- هل يشدُّون وثاقك لمنعك من الهرب؟
- «الهرب؟ وأين سأهرب؟ إنني أرتحل معهم». ثم قالت، «لمَ أتيت إليَّ؟ لم لا تذهب لمساعدة أمِّك عوضًا عني؟».

أصابته الدهشة بحقٍّ ثم قال:

- أمِّي؟ وما الذي يجعل أمِّي بحاجة إلى مساعدتي؟
- قلت بأنها أُخِذْت، أليس كذلك؟
- أجل، لكن حدث ذلك منذ زمن بعيد. إنها سعيدة الآن.
- كيف يمكن أن تكون سعيدة؟ ألا تعتقد أنها تريد أن يأتي أحد لمساعدتها؟
- إنها ترتحل فقط. وما كانت لتريد مني أن...
- لم تكن تريدك أن تأتي من قبل لأنك كنت طفلًا. لكنك الآن على أعتاب الرجولة.

صمتت، مقوّسة ظهرها عند القيام بمحاولة أخرى. بعدئذ ارتخت وارتمت ثانية. ثم واصلت القول:

- إن عادوا أحيانًا قبل تمكُّني من تحرير نفسي، فإنهم لا يفكُّون وثاقي. يتفرَّجون من دون أن ينبسوا ولو بكلمة واحدة إلى أن أتدبَّر الأمر بنفسي وأحرِّر يديَّ. وحتى يحدث ذلك، يجلسون هناك ويتفرَّجون ويتفرَّجون، وقرون شياطينهم تستطيل بين أفخاذهم. ما كنت لأتضايق كثيرًا لو كانوا يتكلَّمون ويتفرَّجون. لكنهم يحدِّقون ويحدِّقون ولا يتفوَّهون بشيء. عندما رأيتك، ظننتك ستصنع الأمر نفسه. ظننتك ستجلس وستحدِّق من دون أن تنبس.
- أتسمحين لي بفكِّ وثاقك؟ لست خائفًا منهم، كما أنني ماهر في حلِّ العقد.
- إنك طفل لا أكثر.

فجأة ظهرت الدموع. حدث ذلك سريعًا، ولأن وجهها لم تعتره نُذُر أي انفعال عاطفي، ظنَّ إذْوِنْ في البدء أنه يراقب عرقًا متصبِّبًا. ثم أدرك أنها كانت دموعًا، ولأن وجهها مائل إلى جنب، تدحرجت الدموع على نحو غريب، قطعت قصبة أنفها وهبطت فوق الوجنة المقابلة. وأثناء ذلك كله لم تزحزح بصرها عنه. أربكته الدموع، وشلَّته عن الحركة.

قالت: «هيًا إذن».

ثم قلبت نفسها للمرَّة الأولى فوق جنبها، تاركة بصرها يسقط بعيدًا عنه صوب الخوص النابت في الماء.

تقدَّم إذْوِنْ مهرولًا، مثل لصٍّ يغتنم فرصة سانحة، ثم قرفص فوق العشب وشرع في جذب العُقد. كان الحبل المجدول رفيعًا خشنًا، ويحزُّ رسغيها بغلظة؛ الكفَّان، في المقابل، منبسطان وأحدهما في حضن الآخر، صغيران بضَّان. استعصت العقد في البدء، لكنه أرغم نفسه على الهدوء متفحِّصًا بدقَّة مسار التفاف الحبل. ولمَّا حاول ثانية، تداعت العقد بين يديه. تابع الآن عمله بثقة أكبر، مختلسًا بين الحين والآخر نظرات خاطفة إلى الكفَّين الناعمتين، تنتظران مثل زوج من الكائنات الوديعة.

بعد سحبه الحبل بعيدًا، استدارت وجلست في مواجهته على مسافة قريبة أشعرته فجأة بعدم الارتياح. لم تكن رائحتها، كما لاحظ، مثل براز بائت كحال معظم الناس: كان عبقها مثل نار أُوقِدت من حطب رطب. قالت بهدوء:

- إن أتوا، سيسحلونك فوق البوص ثم يدفعونك قسرًا في الماء حتى توشك على الغرق. من الأفضل أن تذهب. عُد إلى قريتك.

مدَّت يدها وكأنها تختبرها، كما لو أنها لم تكن متأكِّدة حتى في تلك اللحظة من أنها أصبحت تحت سيطرتها، ثم دفعته في صدره قائلة:

- هيًا، اذهب على الفور.

مكتبة

- لست خائفًا منهم.

- حسنًا، أنت لست خائفًا. ولكنهم مع ذلك سيُنزلون بك كل تلك الأفاعيل. قمت بمساعدتي، لكن عليك أن تذهب الآن. هيًا، اذهب على عجل.

عندما عاد قبيل الغروب، كان العشب حيث كانت ممدَّدة ما زال مسوًى بالأرض، لكن من دون أي أثر آخر لها. رغم ذلك، أشعرته تلك البقعة بسكينة غريبة، فجلس لبعض الوقت فوق العشب، مراقبًا تمايل الخوص مع الريح.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

لم يخبر أحدًا عن تلك الفتاة قطُّ، لا عمَّته التي كانت ستخلص على الفور إلى أنها عفريتة من نسل الشيطان، ولا أيَّ أحد من الفتية الآخرين. لكن في الأسابيع اللاحقة، كثيرًا ما عاودته صورتها المنطبعة بحدَّة في ذهنه من دون دعوة؛ أحيانًا ليلًا، في أحلامه؛ وغالبًا نهارًا، أثناء حرثه الأرض أو مساعدته في إصلاح سطح، وحينذاك يستطيل قرن الشيطان بين فخذيه. كان القرن يرتخي في النهاية، مورثًا إيَّاه شعورًا بالخزي، ثم تعاوده كلماتها: «لمَ جئت إليَّ؟ لمَ لا تذهب وتساعد أمَّك عوضًا عني؟».

لكن كيف يمكنه الذهاب إلى أمِّه؟ الفتاة نفسها قالت إنه «طفل لا أكثر». لكنه من جهة ثانية، وكما أشارت، سيصبح رجلًا عمَّا قريب. كلَّما استعاد تلك الكلمات، يتجدَّد شعوره بالخزي، لأنه ظلَّ عاجزًا عن تبيُّن طريق الخلاص.

لكنَّ ذلك تغيَّر في اللحظة التي فتح فيها وِسْتِن باب الحظيرة على مصراعيه، شاقًّا للنور الساطع طريق العبور، ومعلنًا بأنه هو، إذْوِن، من اصطفاه للمهمَّة. وها هما الآن، إذْوِنْ والمحارب، يرتحلان في أرجاء البلد، وقطعًا لن يمرَّ وقت طويل قبل عثورهما عليها. وعندها سترتجف أوصال أولئك الرجال الذين يرتحلون معها.

لكن هل كان صوتها حقًّا هو ما حمله بعيدًا عن المواجهة؟ ألم يكن محض رعب من الجنود؟ انسابت هذه التساؤلات في ذهنه وهو يتبع الراهب اليافع في درب غير مطروق محاذٍ لجدول ماء منحدر. أهو متأكِّد من أنه وببساطة لم يُصَبْ بالذعر لدى إيقاظه ورؤيته الجنود من النافذة وهم يتراكضون حول البرج القديم؟ لكنه الآن، وقد دقَّق في كل شيء بعمق، كان واثقًا من أنه لم يُصب حينذاك بالخوف. أمَّا سابقًا، أثناء النهار، عندما أخذه المحارب إلى البرج نفسه وتحدَّثا داخله، فلم يشعر إذْوِنْ إلَّا التلهُّف على الوقوف إلى جانب وِسْتِن في مواجهة العدوِّ المرتقب.

انشغل وِسْتِن بالبرج القديم من لحظة وصولهم إلى الدير. وكان إذْوِنْ قادرًا على تذكُّره وهو لا يكفُّ عن تسديد نظرات خاطفة صوب البرج طوال تقطيعهما

الخشب في كوخ الحطب. وخلال جرِّهما عربة الحطب في الأفنية المختلفة لتوزيعه على من يحتاجه، حوَّلا طريقهما مرَّتين لأجل المرور به فقط. لهذا لم يكن مفاجئًا، لحظة أن اختفى الرهبان في اجتماعهم وأصبح الفناء خاليًا، أن يركن المحارب فأسه إلى كومة الحطب ويقول:

- هيّا أيُّها الرفيق الشابُّ، دعنا نتوقَّف للحظة كي نتفحَّص عن كثب هذا الصديق الفارع المعمَّر الذي يحدِّق إلينا من فوق. يبدو لي أنه لا يكفُّ عن مراقبتنا أينما ذهبنا، ويشعر بالعتب لأننا لم نزره حتى الآن.

وبينما كانا يعبران القوس الواطئ إلى جوف البرج البارد المعتم، قال له المحارب:

- انتبه. قد تظن بأنك أصبحت في الداخل، لكن انظر إلى قدميك.

مختطفًا نظرة إلى أسفل، أبصر إدْوِنْ خندقًا مائيًّا من أمامه يتبع الحائط الدائري على محيطه ليصنع حلقة مقفلة. كان أعرض من قدرة رجل على الوثب من فوقه، والجسر البسيط المؤلَّف من لوحي خشب هو السبيل الوحيد للوصول إلى الأرضية الممهَّدة من شدَّة الوطء. وعندما خطا فوق لوحي الخشب، محدِّقًا إلى الظلام تحت قدميه، سمع المحارب قائلًا من خلفه:

- لاحظ أيُّها الرفيق الشابُّ بأنه ليس من ماء هناك. وحتى لو سقطت في قعر الخندق، فلا أعتقد أنك ستجده أعمق من طول قامتك. أمر يدعو للفضول، ألا تعتقد ذلك؟ لماذا يوجد خندق مائي في الداخل؟ ولماذا يُشقُّ أصلًا خندق مائي داخل برج صغير كهذا؟ ما الفائدة المرجوَّة منه؟

اجتاز وِسْتِن نفسه لوحي الخشب ثم راح يختبر الأرضية المركزية بكعبه قائلًا:

- ربما شيَّد الأسلاف هذا البرج لأجل ذبح الحيوانات. ولعلَّ هذه كانت بالنسبة لهم منصَّة للذبح. أي حيوانات كانوا لا يرغبون في الاحتفاظ بها، يدفعونها ببساطة من فوق الحافَّة إلى الخندق المائي. ما رأيك أيُّها الغلام؟

ردَّ إدوِن:

- هذا جائز أيُّها المحارب، وإن كان اقتياد حيوان فوق لوحَي خشب ضيِّقين مثل هذين أمرًا صعبًا.

ردَّ وِسْتِن:

- ربما كان هنا في الماضي جسر أمتن وأقوى ويتحمَّل مرور بقرة أو ثور. وحال اقتياد الوحش من فوقه، وشعوره بمصيره، أو إثر إخفاق الضربة الأولى في إسقاطه على ركبتيه، فإن هذا التصميم يكفل عدم نجاحه في الفرار بسهولة. تخيَّل الحيوان هائجًا، يحاول الهجوم، لكنه أينما استدار يجد الخندق له بالمرصاد. أما الجسر الوحيد فصغير، ويصعب على الحيوان الهائج الاهتداء إليه في غمرة سُعاره. ليست بفكرة سخيفة أبدًا، أن يتخيَّل المرء أن يكون هذا المكان في الماضي مكانًا للذبح على هذا النحو. قل لي أيُّها الغلام، ماذا ترى عندما تنظر إلى الأعلى؟

قال إدْوِنْ وهو ينظر إلى دائرة السماء من فوقه:

- إنه مفتوح من الأعلى أيُّها المحارب، مثل المدخنة.
- قلت شيئًا مثيرًا للاهتمام، دعنا نسمعه ثانية.
- مثل المدخنة أيُّها المحارب.
- وماذا تستنتج من ذلك؟
- لو استخدم الأسلاف، أيُّها المحارب، هذا المكان لأجل ذبائحهم، لأمكنهم إيقاد النار حيث نقف الآن بالضبط. ولعلَّهم كانوا يقطِّعون الحيوان المذبوح، ويشوون لحمه، فيتصاعد الدخان إلى أعلى ويخرج إلى السماء.
- كل ما قلته محتمل أيُّها الغلام. أتساءل إن كان لدى هؤلاء الرهبان المسيحيين أدنى فكرة عما كان يجري هنا في الماضي؟ هؤلاء السادة، كما أتخيَّل، يلتجئون إلى هذا البرج طلبًا للهدوء والخلوة. انظر إلى

سماكة هذا الحائط الدائري. بالكاد ينفد منه أي صوت، مع أن الغربان كانت تزعق عندما عبرنا. وكذلك طريقة انسياب الضوء من الأعلى. لا بدَّ من أنه يذكِّرهم بجلال إلههم. ما رأيك بهذا أيُّها الغلام؟

- ربما يأتي هؤلاء السادة إلى هنا لأجل الصلاة، هذا ممكن للغاية أيُّها المحارب. لكن هذه الأرضية موحلة تمامًا وليس من اليسير الركوع فوقها.
- لعلَّهم يصلون وقوفًا، ومن دون أن يخطر ببالهم كيف كان هذا مكانًا للذبح والحرق في الماضي. ما الذي تراه أيضًا بالنظر إلى أعلى أيُّها الفتى؟
- لا شيء أيُّها السيِّد.
- لا شيء؟
- الدرج فقط أيُّها المحارب.
- آه، الدرج. حدِّثني عن الدرج.
- يرتفع في البداية فوق الخندق المائي، ثم يدور ويدور، ملتفًّا مع الحائط الدائري، حتى يبلغ السماء في القمَّة.
- هذا وصف جيِّد. والآن أنصت جيِّدًا.

اقترب وِسْتِن وخفض صوته قائلًا:

- هذا المكان، لا هذا البرج القديم فقط، ولكن هذا المكان برمَّته، كل ما يطلق عليه الناس اليوم كلمة دير، أراهن على أنه كان في الماضي حصنًا جبليًّا بناه أجدادنا الساكسون زمن الحرب. ولهذا فإنه يضمُّ بين جنباته العديد من الفخاخ الماكرة للترحيب بالغزاة البريتون.

ابتعد المحارب وذرع محيط الأرضية ببطء، محدِّقًا إلى الأسفل داخل الخندق. ثم رفع بصره وقال:

- تخيَّل هذا المكان حصنًا أيُّها الفتى. انهار الحصار بعد عدَّة أيَّام، وتدفَّق العدو بالعشرات. القتال مستعر في كل فناء، وفوق كل جدار. والآن تخيَّل

الآتي. اثنان من أبناء عمومتنا الساكسون، هناك في الخارج داخل الفناء، يتصدُّون لعدد ضخم من البريتون. يقاتلان ببسالة، لكن العدوَّ أعظم عددًا ولا مفرَّ لبطلينا من التقهقر إلى الوراء. دعنا نفترض بأنهما انسحبا إلى هنا، داخل هذا البرج. يقفزان فوق الجسر الصغير ويستديران لمواجهة الخصم تمامًا في هذه النقطة. يزداد البريتون ثقة بالنفس. نجحوا في حشر ابني عمومتنا في الزاوية. يهجمون بسيوفهم وفؤوسهم، مهرولين فوق الجسر صوب بطلينا. يطيح ابنا العمّ بالطليعة منهم، لكن لا بدَّ لهما سريعًا من التقهقر ثانية. انظر هناك أيُّها الغلام. يتقهقران صعودًا فوق ذلك الدرج الملتوي على طول الحائط. على أن أفواج البريتون تواصل عبور الخندق إلى أن يمتلئ هذا الحيِّز حيث نقف. لكن ليس من الممكن بعد أن تتحوَّل غلبة البريتون العددية إلى ميزة قتالية. لأن ابنَي عمِّنا الباسلين يقاتلان جنبًا إلى جنب من فوق الدرج، ولا يتمكَّن الغزاة من المواجهة سوى اثنين مقابل اثنين. بطلانا ماهران، ومع أنهما يتقهقران إلى أعلى فأعلى، إلَّا أن الغزاة عاجزون عن الإحاطة بهما وغلبتهما بالكثرة. وكلما سقط اثنان من البريتون، يحلُّ مكانهما اثنان آخران، ليسقطا بدورهما. لكن الإعياء سيصيب ابني عمِّنا لا محالة. يتقهقران إلى أعلى فأعلى، والغزاة في إثرهما درجة تلو أخرى. لكن ما هذا؟ ما هذا يا إدْوِن؟ هل يفقد أبناء جلدتنا رباطة الجأش في النهاية؟ يستديران ويركضان فوق الحلقات الأخيرة من الدرج، ولا يضربان من خلفهما بسيفهما إلَّا بين الحين والآخر. هذه هي النهاية لا محالة. البريتون هم المنتصرون. يسيل لعاب من يراقبون منهم هنا في الأسفل مثل جياع أمام وليمة فاخرة. لكن أنعم النظر أيُّها الغلام. ماذا ترى؟ ما الذي تراه لدى اقتراب ابنَي عمِّنا الساكسون من تلك الهالة السماوية في الأعلى؟

جاذبًا إدْوِنْ من كتفيه، عدّل وِسْتِن من موضعه، ثم قال مشيرًا إلى فتحة البرج في الأعلى:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- تكلَّم أيُّها الغلام. ما الذي تراه؟
- ابنا عمِّنا نصبا فخًّا يا سيِّدي. فهما لا يتقهقران إلى الأعلى إلَّا لأجل جذب البريتون إلى الداخل كما ينساق النمل إلى جرَّة من العسل.
- أحسنت قولًا أيُّها الشاب! وكيف نُصِبَ هذا الفخُّ؟

فكَّر إذْونِ للحظة ثم قال:

- قبل وصول الدرج نقطته الأعلى بالضبط، أيُّها المحارب، أستطيع أن أرى ما يبدو كوَّة في الجدار. أم هل هو باب؟
- أحسنت. وما الذي يختبئ هناك وفق تصوُّرك؟
- هل يمكن أن تكون دزِّينة من محاربينا الأشدَّاء؟ ثم يدًا بيد يقاتل ابنا عمِّنا معًا هابطين الدرج حتى يصلا إلى صفوف البريتون المتجمِّعين هنا فيشقَّانها ويبدِّدان شملها.
- فكِّر ثانية أيُّها الغلام.
- دبٌّ شرس إذًا أيُّها المحارب. أو أسد.
- متى قابلت أسدًا في هذه الأرجاء أيُّها الغلام؟
- نار أيُّها المحارب. هناك نار خلف تلك الكوَّة.
- أحسنت قولًا أيُّها الغلام. لا يمكننا معرفة ما حدث قبل زمن طويل على وجه اليقين. لكني أراهن، رغم ذلك، على أن هذا ما كان في الانتظار هناك في الأعلى. في تلك الكوَّة الصغيرة، التي تكاد العين لا تبصرها من هنا في الأسفل، مشعل، أو ربما اثنان أو ثلاثة، موقدة خلف ذلك الحائط. قصَّ عليَّ بقيَّة ما جرى أيُّها الغلام.
- قذف أبناء عمومتنا المشاعل إلى الأسفل.
- صوب ماذا، رؤوس الأعداء؟
- كلَّا أيُّها المحارب. بل صوب الخندق المائي.
- الخندق المائي؟ وهو ممتلئ بالماء؟

- كلَّا أيُّها المحارب. الخندق المائي ممتلئ بالحطب. تمامًا مثل الحطب الذي تصبَّبنا عرقًا لأجل تقطيعه.

- تمامًا أيُّها الغلام. وسنقطِّع المزيد منه قبل ارتفاع القمر في كبد السماء. وسنعثر لأنفسنا على الكثير من التبن الجافّ أيضًا. قلت مدخنة أيُّها الغلام. أصبت. ما نقف بداخله الآن هو مدخنة. بناها أسلافنا لعين هذا الغرض. وهل من غرض آخر لبناء برج في هذا الموقع هنا، حيث لا يحظى رجل يُطِلّ من قمَّته بإطلالة مستكشفة أفضل من تلك التي يوفِّرها الجدار الخارجي؟ لكن تخيَّل، أيُّها الفتى، مشعلًا يُلقى في داخل هذا الذي يُسمَّى خندقًا مائيًّا. ثم آخر. عندما درنا حول هذا المكان في السابق، رأيت في جداره الخارجي، قرب الأرض، فتحات ضيِّقة بين حجارته. وهذا يعني أن هبوب ريح قويَّة من الشرق، مثلما هو الحال في هذه الليلة، سينفخ النار فتتصاعد ألسنة اللهب بجنون. وحينذاك أين المفرُّ للبريتون من هذا الجحيم؟ حائط متين من حولهم، وجسر وحيد ضيِّق إلى الحرِّية، والخندق نفسه يضطرم نارًا. لكن دعنا نترك هذا المكان أيُّها الغلام. فقد لا يعجب هذا البرج العتيق أن نفكَّ العديد من أسراره.

استدار وِسْتِن نحو لوحي الخشب، لكن إدْوِنْ كان ما يزال محدِّقًا في قمَّة البرج ثم قال:

- ولكن أيُّها المحارب، أيجب أن يقضي ابنا عمِّنا البطلان نحبهما حرقًا مع الأعداء؟

- حتى لو حصل ذلك، ألن تكون صفقة رابحة؟ لكن ربما ثمَّة مخرج لذلك. لعل ابنَي عمنا، حتى أثناء تصاعد الحرارة الحارقة، أسرعا إلى حافة البرج وقفزا من قمَّته. هل من الممكن أن يفعلا ذلك أيُّها الغلام؟ وهما من دون أجنحة؟

قال إدْوِن:

- ليس لديهما أجنحة، لكن لعل رفاقهما جلبوا عربة وتركوها خلف البرج. عربة مرصوصة بالتبن من قاعها إلى قمَّتها.
- هذا ممكن أيُّها الغلام. من يدري بما حصل هنا في الزمن الغابر؟ والآن دعنا من تخيُّلاتنا ولنقطِّع المزيد من الحطب. فما زال هؤلاء الرهبان الطيِّبون عرضة للعديد من ليالي البرد القارص قبل حلول الصيف.

أثناء معركة، لا يتاح الوقت لتبادل المعلومات بإسهاب. نظرة خاطفة، إشارة بيد، صراخ بكلمة أعلى من الصخب: كان هذا كل ما يحتاجه المحاربون الحقيقيُّون للتواصل فيما بينهم. وانطلاقًا من ذلك كشف وِسْتِن أفكاره وأوضحها ذلك العصر في البرج، بيد أن إدْوِنْ خذله خذلانًا تامًّا.

لكن هل أسرف المحارب كثيرًا في توقُّعاته؟ فحتى ستيفا العجوز لم يتكلَّم إلَّا عن مواهب إدْوِنْ الواعدة، عمَّا يمكن أن يصبحه بعد تعليمه طرائق المحاربين. كان على وِسْتِن أوَّلًا أن يُكمل تدريبه، إذ كيف يمكن لإدْوِنْ أن يتصرَّف بحسب هذا الفهم؟ والآن، أصيب المحارب بجراح، فيما يبدو، لكن قطعًا لا يمكن أن يكون هذا جرَّاء غلطة ارتكبها إدْوِنْ بمفرده.

كان الراهب اليافع قد بلغ حافَّة جدول الماء فتوقَّف لخلع نعليه قائلًا:

- هذا هو الموضع الذي ننطلق منه لقطع الجدول عبر الخوض في الماء. الجسر بعيد في الأسفل والأرض مكشوفة هناك إلى حدٍّ كبير. قد يلمحنا أحدهم من رأس التلَّة المجاورة.

ثم أشار إلى نعل إدْوِنْ وأكمل قوله:

- يبدو أنه مشغول بحذق ومهارة. هل صنعته بنفسك؟
- صنعه لي السيِّد بُولْدوِن. إنه أمهر إسكافي في القرية، رغم ما يصيبه من نوبات كلَّما اكتمل القمر.
- اخلعهما. سيتلفهما الماء لا محالة. هل ترى حجارة الوطء الملساء تلك؟ أخْنِ هامتك أكثر، وحاول تسليط بصرك إلى ما دون سطح

الماء. هناك، هل تراها؟ هذا هو المسار الذي سنسلكه. أبقها تحت ناظريك وستتجنَّب البلل.

من جديد، بدا في نبرة الراهب اليافع شيء من الخشونة. أيمكن أن يكون قد توفَّر له الوقت منذ انطلاقهما لربط الأمور في ذهنه واكتشاف دور إدْوِنْ فيما حصل؟ في بداية رحلتهما، لم تتَّسم تصرُّفات الراهب اليافع بالدفء فقط، بل كان بالكاد قادرًا على التوقُّف عن الحديث.

تقابلا في الممرِّ البارد أمام حجرة الأب جوناس، حيث انتظر إدْوِنْ فيما انخرطت أصوات عديدة، منخفضة ولكن متحمِّسة، في الجدل من الداخل. وكان جزعه قد تفاقم ممَّا قد يُقال له بعد لحظات، لكنه شعر بالارتياح، عندما، عوض استدعائه إلى الداخل، أبصر الراهب اليافع لدى خروجه، وابتسامة مرحة فوق محيَّاه. قال له بلسان الساكسون وبنبرة منتشية:

- وقع الخيار عليَّ لأكون دليلك. يقول الأب جوناس علينا الذهاب فورًا والتسلُّل خفية. كن شجاعًا، يا ابن العمِّ الشابّ، فعمَّا قريب ستكون إلى جانب أخيك.

كانت للراهب اليافع طريقة غريبة في المشي، قابضًا على نفسه بشدَّة مثل من يكاد يموت بردًا، وذراعاه مختفيتان داخل ردائه الفضفاض، ولهذا تساءل إدْوِنْ في البداية، خلال تتبُّعه عبر الطريق الجبلي الهابط، إن كان وُلد من دون أطراف. لكن ما أن صار الدير خلفهما على مسافة آمنة، حتى تباطأت خطوات الراهب اليافع وحاذاه في السير، وأخرج ذراعًا نحيفة طويلة وضعها بعطف فوق كتفَي إدْوِنْ. ثم قال:

- كان من الحمق أن تعود إلى الدير بعدما تمكَّنت من الإفلات والهرب. انتاب الغضب الأب جوناس عند سماعه الخبر. لكن ها أنت ذا من جديد، في مكان بعيد آمن، وبقدرٍ من الحظِّ لن يعلم أحد برجوعك. لكن أي شأن عجيب هذا! هل شقيقك شرس الطبع دومًا إلى هذا الحدِّ؟ أم أن أحد الجنود ألحق به إهانة بالغة لدى مروره به؟

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

لعلَّك حين تصل إلى جانب سريره، يا ابن العمِّ الشابَّ، تسأله كيف بدأ كل ذلك، فليس من أحد بيننا يفهم شيئًا ممَّا جرى. إن كان هو من أهان الجنود، فلا بدَّ من أنه ارتكب فعلًا مهولًا بحقِّهم، فقد توحَّدوا على قلب رجل واحد ونسوا أي غرض جاء بهم لمقابلة رئيس الدير، وبعدما تحوَّلوا إلى ثلَّة جامحة، انقضُّوا لانتزاع ثمن جرأته. استيقظت أنا نفسي على أصوات الصراخ، رغم أن حجرتي بعيدة عن الفناء. ركضت بفزع إلى هناك، فاكتشفت عجزي عن فعل شيء وانضممت إلى صف رفاقي الرهبان، وقفنا متفرِّجين برعب على كل ما جرى. كان أخوك، حسبما أخبروني على وجه السرعة، قد فرَّ إلى البرج العتيق هربًا من نقمة الجنود، ومع أنهم اندفعوا خلفه بنيَّة تمزيقه إربًا، إلَّا أنه فيما يبدو شرع في قتالهم بكل ما أوتي من قوَّة. وعلى ما يبدو كان خصمًا مدهشًا، رغم أن عددهم ثلاثون أو أكثر وهو راعٍ ساكسوني واحد فقط. راقبنا ونحن نتوقَّع في كل لحظة رؤية قطع جسده الصريع تُحمل إلى الخارج، عوض ذلك كان الجندي تلو الآخر يركض بفزع من البرج، أو يخرج مترنِّحًا تحت وطأة ما يحمله من رفاق مصابين. كدنا أن نكذِّب أعيننا! وصلَّينا لأجل انتهاء القتال سريعًا، لأنه أيًّما كانت الإساءة الأصلية، فإنها قطعًا لا تستحقُّ مثل هذا العنف. لكنه مع ذلك تواصل، وبعد قليل، يا ابن العمِّ الشابَّ، وقع الحادث المروِّع. من يستطيع الزعم بأنه لم يكن من فعل الربِّ نفسه، غاضبًا جرَّاء ما يدور من شجار دموي داخل حرمه المقدَّس، فصوَّب إصبعًا وصعقهم بالنار؟ لكن على الأرجح، كان من فعل أحد الجنود الراكضين إلى الأمام والخلف وهم يحملون المشاعل، لا بدَّ من أن أحدهم تعثَّر وتسبَّب في غلطته الشنيعة تلك. ويا للهول! أصبح البرج فجأة كتلة ملتهبة! من كان يتصوَّر أن برجًا عتيقًا رطبًا يمكن أن يكون فيه ما يضرم النيران إلى ذلك الحدِّ؟ لكنه رغم ذلك اشتعل

ورجال اللورد برونُس وأخوك محاصرون بداخله. كانوا سيحسنون صنعًا لو أنهم تناسوا شجارهم على الفور وركضوا مسرعين إلى الخارج، لكن أعتقد أنهم فضَّلوا مقارعة ألسنة اللهب على ذلك، ولم يفطنوا إلى إحاطة النار بهم من كل جانب إلَّا بعد فوات الأوان. حادث بشع بكل معنى الكلمة، والثلة التي أفلتت من قبضة النيران لم تخرج إلَّا لتتلوَّى ببشاعة وتموت فوق أرضيَّة الفناء. لكن معجزة المعجزات، يا ابن العمِّ الشابَّ، هي هروب أخيك كما اتَّضح لاحقًا! وجده الأب نِنيان هائمًا على وجهه في أفنية الدير تحت جنح الظلام، دائخًا مصابًا، لكنه على قيد الحياة، فيما كنا نراقب البرج المشتعل ونصلِّي لأجل المحاصرين بداخله. أخوك حيٌّ يرزق، لكن الأب جوناس، الذي عالج جراحه بنفسه، أوصى القلَّة التي تعرف هذا الخبر بالإبقاء عليه سرًّا مقدَّسًا، حتى عن رئيس الدير نفسه. فهو يخشى إن توسَّع نطاق معرفة الخبر، فسيرسل اللورد برونُس مزيدًا من الجنود طلبًا للثأر، ولن يكترث بمعرفة أن الغالبية قُتلوا بسبب حادث لا بيد شقيقك. من الأحسن ألَّا تهمس بكلمة لأي كان، ريثما تصبحان على الأقل بعيدين عن هذا البلد. غضب الأب جوناس من مغامرتك بحياتك وعودتك إلى الدير، وإن كان راضيًا عن لمِّ شملك بأخيك بسهولة أكبر. قال: «يجب أن يرحلا معًا بعيدًا عن هذا البلد». الأب جوناس أحسن الرجال، وهو ما زال أكثرنا حكمة، حتى بعد كل ما فعلته الطيور به. أجرؤ على القول إن أخاك مدين له وللأب نِنيان بحياته.

لكن كان هذا ما جرى سابقًا. أما الآن فإن الراهب اليافع أصبح متقوقعًا على نفسه، وعادت ذراعاه من جديد لتقبعا بإحكام تحت ردائه. أثناء لحاق إدْوِنْ به عبر جدول الماء، باذلًا قصارى الجهد في تمييز حجارة الوطء تحت الماء الجاري بسرعة، هبطت عليه فكرة وجوب إطلاع المحارب على حقيقة الأمر؛

يخبره عن أمِّه وكيف نادته. إن أوضح ما جرى منذ البداية، بصدق وصراحة، فمن الممكن أن يتفهَّم وِسْتِن ويمنحه فرصة ثانية.

حاملًا فردة نعل في كل يد، قفز إدْوِنْ برشاقة صوب حجر الوطء التالي، لكن من دون أن تفرِّج تلك الفكرة شيئًا من كربه.

الجزء الثالث

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

حلمُ يقظة غَاوِن الأوَّلُ

هؤلاء الأرامل الشرِّيرات. لأي غرض ساقهنَّ الربُّ أمامي فوق هذا الدرب الجبلي؟ أيودُّ اختبار تواضعي ومدى إنكاري لذاتي؟ ألا يكفي أن يشهد إنقاذي للزوجين الرقيقين، والفتى المصاب أيضًا، وذبح الكلب الشيطاني، ونومي لساعة بالكاد فوق الأوراق المبلَّلة بالندى قبل النهوض ومعرفة أن مهمَّاتي لا زالت أبعد ما تكون عن الإنجاز، وأن عليَّ أنا وهُورِس الانطلاق ثانية، لا لنأوي إلى قرية في الأسفل، بل لنتسلَّق ثانية دربًا شاهقًا تحت سماء مكفهرَّة؟ رغم ذلك، ساق هؤلاء الأرامل إلى هناك ووضعهنَّ في طريقي، ما من شكٍّ في ذلك، وأنا أحسنت صنعًا بالتزام الكياسة والأدب. حتى بعد مهاترتهنَّ لي وانحدارهنَّ إلى حدِّ كيل شتائم سخيفة وقذفهنَّ مؤخِّرة هُورِس بقطعٍ من الطين - وكأن من الممكن إصابة هُورِس بالهلع وحمله على عدْو غير لائق! - لم أمنحهنَّ أكثر من نظرة خاطفة بطرف العين، متكلِّمًا في أذن هُورِس عوضًا عنهنَّ، مذكِّرًا إيَّاه بأن علينا تحمُّل جميع هذه الاختبارات جيِّدًا، لأن الأعظم من بينها ما زال في انتظارنا فوق تلك القمم البعيدة حيث تتجمَّع الآن غيوم العاصفة. فضلًا عن ذلك، هؤلاء النسوة الذابلات في أسمالهنَّ الخفَّاقة كنَّ في الماضي صبايا بريئات، وكان لبعضهنَّ جمال وأدب جمٌّ، أو على الأقل نضارة غالبًا ما تجد لها وقعًا في قلوب الرجال. ألم تكن هي كذلك، تلك التي أذكرها أحيانًا حين تنبسط من أمامي أرض شاسعة لا نهاية لها، وأنا أسير وحيدًا من دون أنيس أو رفيق، كحالي عندما أمضي فوق جوادي في يوم خريفي موحش؟ لم تكن

جميلة، لكنها بالنسبة لي جذَّابة إلى حدٍّ كافٍ. لمحتها مرَّة واحدة فقط، يوم كنت شابًّا، فهل بادرتُ حينذاك حتى إلى الحديث معها؟ مع ذلك فإنها أحيانًا تعاود الشخوص أمام عين عقلي، كما أعتقد بأنها زارتني في المنام، فكثيرًا ما أستيقظ بشعور غامض من الرضى والاكتفاء وأحلامي تضمحلُّ وتنقشع من سماء نفسي.

أحسست بأثر الغبطة من شعور كهذا بالضبط عندما أيقظني هُورِس هذا الصباح، ضاربًا بقدميه أرضية الغابة الليِّنة حيث كنت راقدًا بعد إجهاد الليلة الماضية. إنه يعرف حقَّ المعرفة بأني لم أعد أمتلك حيويَّتي السابقة، وأنني بعد ليلة كتلك ليس سهلًا أن أنام لساعة قصيرة فقط قبل أن أنطلق من جديد. لكنه وقد رأى ارتفاع الشمس عاليًا فوق سطح الغابة الظليل، ما كان ليتركني أواصل النوم. خبط الأرض برجليه حتى نهضت، ودرعي الصفيحي يضجُّ بالشكوى. اللعنة على هذا الدرع ملء الأرض والسماء. هل أنقذني حقًّا من الكثير؟ جرح بسيط أو اثنان في أحسن الأحوال. السيف، لا الدرع، هو ما يستأهل الشكر مني على دوام هذه الصحَّة. نهضت وراقبت الأوراق من حولي. لماذا تساقط الكثير منها والصيف لم يبلغ الهرم بعد؟ هل تعتلُّ هذه الأشجار، حتى وهي تؤوينا في كنفها؟ تسلَّلت عبر تيجان الأشجار الباسقة حزمة من أشعَّة الشمس وسقطت فوق خطام هُورِس، فراقبته وهو يهزُّ أنفه من جنب لآخر، كما لو كان ذلك الشعاع ذبابة أُرسلت لتعذيبه. لم يقضِ هو الآخر ليلة هانئة، منصتًا إلى ما يحيط به من همهمة الغابة وهمسها، ومتسائلًا عمَّا سيواجه فارسه من أخطار. مع أني كنت مستاءً منه على إيقاظي سريعًا، إلَّا أنني عندما تقدَّمت نحوه، لم أفعل شيئًا سوى مدِّ ذراعي وإحاطة عنقه برفق، وإراحة رأسي للحظة فوق عُرفه. لديه سيِّد قاسٍ، أعلم ذلك. أحضُّه على مواصلة السير عندما أكون عارفًا بأن التعب استولى عليه، ألعنه عندما لا يكون قد اقترف ذنبًا. وكل هذا الزرد والحديد عبء عليه بمقدار ما هو عبء عليَّ. كم من المسافات سنقطعها معًا بعد؟ طبطبت عليه برفق قائلًا: سنعثر على قرية مضيافة قريبًا، وستتناول فطورًا أطيب ممَّا تناولته الآن.

قلت ذلك معتقدًا بأن مشكلة السيِّد وِسْتِن قد حُلَّت. لكن لم نكد نقطع شيئًا من الطريق، ولم نخرج من الغابة بعد، حين صادفنا الراهب الرثَّ، الذي قطع نعله أثناء هرولته إلى معسكر اللورد برونُس، وما الذي يخبرنا به غير أن السيِّد وِسْتِن هرب من الدير، تاركًا من طاردوه ليلًا صرعى خلفه، والكثيرون منهم مجرد عظام متفحِّمة. يا له من محارب! عجيب كيف يغمرني الحبور من سماع أخبار كهذه، مع أنها تعيد إلى كاهلنا مهمَّة ثقيلة ظننتها انزاحت عنه. وهكذا نحَّينا أنا وهُورِس جانبًا أمر التفكير في التبن واللحم المشوي والصحبة الأنيسة، وبتنا نمضي الآن صعودًا إلى الأعلى مرَّة ثانية. لكن لحسن الحظِّ، أننا نرتحل، على الأقل، بعيدًا عن ذلك الدير الملعون. أجل، أنا مرتاح في قرارة نفسي لعدم هلاك السيِّد وِسْتِن على يد هؤلاء الرهبان وبرونُس الذميم. لكن يا له من محارب! ما يسفكه من دماء كل يوم من شأنه حمل نهر عظيم مثل «سَفِرن» على الفيضان! أصيب بجراح، حسب ظنِّ الراهب الرثِّ، لكن من بمقدوره الاعتماد على أن شخصًا مثل السيِّد وِسْتِن سيرقد ويموت بكل بساطة؟ كم كنت أحمق عندما تركت الغلام إدْوِنْ يفرُّ بتلك الطريقة، من سيراهن الآن ألَّا يعثر أحدهما على الآخر؟ أحمق للغاية، لكنني مع ذلك كنت منهكًا، كما لم أتصوَّر أبدًا أن بمقدور السيِّد وِسْتِن الإفلات والهرب. يا له من محارب! لو كان رجلًا من زماننا، وإن يكن ساكسونيًّا، لحاز على إعجاب آرثر، ولهاب حتى صفوتنا من منازلته كخصم. لكن بالأمس، حين راقبته وهو ينازل جندي برونُس، ربما أكون قد رصدت نقطة ضعف صغيرة في جانبه الأيسر. أم هي حيلة ذكية منه في تلك اللحظة؟ إن راقبته ثانية أثناء القتال، فسأعرف على وجه اليقين. إنه محارب ماهر على أي حال، أما الشكُّ في قدراته القتالية فأمر يتطلَّب فارسًا بقامة فرسان آرثر، لكني ظننت ذلك، أثناء مراقبتي القتال. قلت في نفسي، انظر هناك، ثمَّة تأخُر آني في الجانب الأيسر. ضعف قد يستغلُّه تمامًا خصم محنَّك. رغم ذلك مَن منَّا ما كان ليحترمه؟

لكن هؤلاء الأرامل الشرِّيرات، ما الذي جاء بهنَّ إلى طريقنا؟ أليس يومنا مزدحمًا بما يكفي؟ ألم نستوفِ بعد دفع ضريبة الصبر؟ سنتوقَّف عند القمَّة

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

التالية، كرَّرت القول لهُورِس أثناء تسلُّقنا المرتفع. سنتوقَّف ونرتاح رغم تراكم السحب السوداء واحتمال مواجهتنا لعاصفة على الأغلب. وإن لم نجد هناك أشجارًا فسأجلس مع ذلك فوق شجيرات الـخلنج الضامرة وسنرتاح على أي حال. لكن عندما استوت الطريق أخيرًا، ما الذي نراه غير طيور عظيمة رابضة فوق الصخور، وهي تهبُّ كأنها طير واحد، لا لتحلِّق في السماء المكفهرَّة، بل لتندفع نحونا. ثم أدركت أنها لم تكن طيورًا، بل عجائز في أردية خفَّاقة، يتجمهرن فوق الطريق من أمامنا.

لماذا اختيار بقعة جرداء كهذه للتجمُّع؟ ليس من رُجْمَة أو بئر جافَّة تدلَّان عليها. ولا شجرة هزيلة أو شجيرة تقي عابر سبيل من حرٍّ أو مطر. فقط هذه الصخور الجيرية التي نهضن عنها، وهي غائصة في الأرض على جانبَي الطريق. دعنا لنتأكَّد، قلت لهُورِس، دعنا لنتأكَّد من أن عينيَّ الهرمتين لم تخذلاني، وأن هؤلاء ليسوا قطَّاع طرق يسعون للإغارة علينا. لكن لم تكن هناك حاجة لسحب السيف من غمده - نصله ما زال مثيرًا للغثيان ممَّا علق به من دبق ذلك الكلب الشيطاني، مع أني غرزته عميقًا في جوف التراب قبل أن أنام - لأنهنَّ كنَّ عجائز بكل تأكيد، مع ذلك لو كان معنا درع أو اثنان لكنَّا استخدمناهما في مواجهتهنَّ. سيِّدات، دعنا نتذكرهنَّ كسيِّدات، يا هُورِس، الآن وقد تجاوزناهنَّ أخيرًا. ألا يستدعين منَّا الشفقة والرثاء؟ لن ندعوهنَّ بالساحرات الشمطاوات، حتى وإن أغرانا سلوكهنَّ على فعل ذلك. دعنا نتذكَّر أنهنَّ فيما مضى، تحلَّت بعضهنَّ باللَّياقة والجمال.

صرخت إحداهن قائلة: «ها هو ذا، الفارس الدجَّال!» فأطلقت الأخريات ذخيرة حناجرهنَّ في مواجهتي فور اقترابي من موضعهنَّ، وكان يمكننا أنا وهُورِس أن نخترق صفوفهنَّ هرولة ونمضي في حال سبيلنا، لكني لست ممَّن يفرُّون عند مواجهة الخصم. ولهذا حملت هُورِس على التوقُّف بينهنَّ في الوسط تمامًا، لكني أبقيت بصري مشدودًا نحو القمَّة المقبلة كما لو كنت أتفحَّص السحب المتراكمة. وعندما رفرفت أسمالهنَّ الرثَّة من حولي، وصرت أشعر بحدَّة انفجار صيحاتهنَّ، حينذاك فقط حرَّكت ناظريَّ ورمقتهنَّ من فوق

صهوة جوادي. هل كنَّ خمس عشرة؟ عشرين؟ امتدَّت الأيدي للمس هُورِس من جنبيه، فهمستُ له بما يطمئنه ويبقيه هادئًا. ثم اعتدلت وقلت:

- أيَّتها السيِّدات، إن كان لا بدَّ لنا من الحديث، فيجب أن تتوقَّفن عن إصدار هذه الضجَّة!

وهو ما قابلنه بالسكوت، لكنَّ نظراتهنَّ ظلَّت غاضبة، عندها قلت:

- ماذا تردن مني أيَّتها السيِّدات؟ ولِمَ التهجُّم عليَّ بهذه الطريقة المباغتة؟

وهو ما قابلته إحداهنَّ بنداء عال:

- نحن نعرف بأنك ذلك الفارس الأحمق الرعديد الذي تخلَّى عن إتمام المهمَّة الموكلة إليه.

وأخرى:

- لو نفَّذت ما طلبه الربُّ منك منذ أجل بعيد، أكنَّا سنهيم في هذا البلد على وجوهنا بويل وثبور هكذا؟

ثم وأخرى بعد:

- إنه يرتعد فرقًا من واجبه! انظرن إلى ذلك في وجهه. إنه يرتعد فرقًا من واجبه!

سيطرتُ على غضبي وطالبتهنَّ بتبرير تصرُّفاتهنَّ. وهو ما قابلته الأكثر تهذيبًا بينهنَّ بالتقدُّم نحوي ومخاطبتي:

- عذرًا أيُّها الفارس. منذ أيَّام طويلة ونحن نهيم على وجوهنا تحت هذه السماء المتقلِّبة، وحين نراك، أنت بشحمك ولحمك، تتقدَّم فوق جوادك نحونا وبجرأة، فليس في وسعنا إلَّا أن نُسمعك ما في جعبتنا من لوم وتقريع.

أجبتها:

- أيَّتها السيِّدة، ربما أبدو كمن أثقلت السنين كاهله، لكني أظلُّ فارسًا من فرسان آرثر العظيم. وإن أخبرتني بالمتاعب التي تواجهنها، فسأكون سعيدًا بمساعدتكنَّ قدر ما أستطيع.

ولحيرتي، ضجَّت كل النسوة - حتى المهذَّبة - بموجة ساخرة من الضحك، ثم ارتفع صوت قائلًا:

- لو أدَّيت واجبك منذ أمد بعيد وذبحت التنِّينة، ما كنَّا لنهيم على وجوهنا ونحن بهذا البؤس.

صدمني هذا فصرخت:

- وماذا تعرفنَ عن أمر كهذا؟ ما الذي تعرفنه عن كويرِغ؟

لكني تفطَّنت في اللحظة المناسبة إلى ضرورة ضبط الأعصاب. ولهذا تكلَّمت بهدوء:

- أوضحن أيَّتها السيِّدات، ما الذي يحملكنَّ على السير هكذا في الطرقات؟

وهو ما يقابله من الخلف صوت حنجرة أحرقها اليأس:

- إن كنت تسألني أيُّها الفارس لماذا أهيم على وجهي، فسأجيبك عن طيب خاطر. عندما طرح الملَّاح أسئلته عليَّ، وقد أصبح زوجي الحبيب داخل القارب مادًّا ذراعيه لمساعدتي على العبور، وجدت أن أغلى ذكرياتي قد سُرقت مني. لم أكن أعرف حينذاك ولكني بتُّ أعرف الآن، أنفاس كويرِغ هي اللصُّ الذي سرقني، الكائنة ذاتها التي تعيَّن عليك ذبحها منذ أمد طويل.

سألتها آمرًا بعد أن صرت عاجزًا عن مداراة هلعي، إذ كيف يمكن أن تعرف مثل هؤلاء المتشرِّدات بسرٍّ دفين مخبوء بحرص في الصدور!

- كيف يمكنك أن تعرفي هذا أيَّتها السيِّدة؟

سؤال حمل المهذَّبة على الابتسام بشكل مريب ثم على القول:

- نحن أرامل أيُّها الفارس. لا يمكن أن يخفى علينا الآن سوى أقلِّ القليل.

حينذاك فقط أشعر بارتعاد هُورِس، وأسمع نفسي وهي تسأل:

- ما حقيقتكنَّ أيَّتها السيِّدات؟ هل أنتنَّ من الأحياء أم من الأموات؟

وهو ما يحمل النسوة للمرَّة الثانية على الانفجار ضحكًا، ويحمل ما فيه من استهزاء هُورِس على التقهقر بفزع خطوة إلى الوراء. أطبطب عليه برفق بينما أقول:

- ما المضحك أيَّتها السيِّدات؟ أهو سؤال أحمق إلى هذه الدرجة؟

فيردُّ الصوت المتحشرج من الخلف:

- أرأيتنَّ كم هو رعديد! إنه يخافنا الآن مثلما يخاف التنِّينة!

- ما هذا الهراء أيَّتها السيِّدة؟

أصرخ بعنف أكبر، بينما يتقهقر هُورِس خطوة أخرى رغمًا عني، فأضطرُّ إلى جذبه بشدَّة كي أحمله على الثبات في مكانه، وأتابع:

- لا أخاف أي تنِّين، ورغم شراسة كويرِغ، إلَّا أني واجهت في زماني شرورًا أعظم بكثير. وإن كنت بطيئًا في قتلها، فذلك فقط لأنها تخفي نفسها بدهاء عظيم خلف تلك الصخور الشاهقة. أنت توبِّخينني أيَّتها السيِّدة، ولكن ما الذي نسمعه عن كويرِغ الآن؟ كانت فيما مضى تُغير على قرية أو أكثر في الشهر من دون أن تكترث لشيء، لكن الصبيَة أصبحوا رجالًا منذ آخر مرَّة سمعنا فيها شيئًا كهذا. إنها تعرف بأني أقترب وأطبق عليها، ولهذا لا تجرؤ على الظهور من خلف تلك التلال.

حتى أثناء حديثي، فتحت امرأة رداءها الرثَّ وخبطت عنق هُورِس بكتلة من الطين. هذا غير مقبول، قلت لهُورِس، علينا أن نذهب. ما الذي يمكن أن تعرفه هؤلاء عن مهمَّتنا؟ لكزته كي ينطلق لكنه ظلَّ متجمِّدًا على نحو غريب، فاضطررت إلى نخزه بمهمازَي حذائي لحمله على التقدُّم. ولحسن الحظِّ انفرجت صفوف الغرابيب السود من أمامنا، وعدت إلى تأمُّل القمم البعيدة من جديد. غاص قلبي في صدري حين فكَّرت في تلك المرتفعات المقفرة. لعلَّ رفقة حتى هؤلاء المشعوذات الآثمات أفضل، كما ظننت، من مصاحبة تلك الريح الكئيبة. لكن، وكما لو كنَّ يردن تخليصي من فكرة مغلوطة كهذه، أطلقت

النسوة حناجرهنَّ بالهتاف من خلفي، وشعرت بمزيد من الطين يُقذفُ علينا. لكن ما الذي يهتفن به؟ هل يجرؤن على الصياح بكلمة «جبان»؟ وددتُ أن أستدير وأصبَّ عليهنَّ جام غضبي، لكني تداركت نفسي في اللحظة الأخيرة. جبان، جبان. ما الذي يعرفنه؟ هل كنَّ هناك؟ هل كنَّ هناك في ذلك اليوم الذي خرجنا فيه منذ أمد بعيد لمواجهة كويرِغ؟ هل كنَّ سينعتنني حينذاك بالجبان، أو أي أحد منَّا نحن الخمسة؟ وحتى بعد تلك المهمَّة الجسيمة - التي لم يعد منها سوى ثلاثة فقط - ألم أسارع حينذاك، أيَّتها السيِّدات، ومن دون نيل قسط من الراحة، بالعودة إلى حافَّة الوادي وفاءً بوعدي للصبيَّة؟

إدرا، أخبرتني لاحقًا بأنه كان اسمها. لم تكن ذات حسن وجمال، وملابسها أبسط ثياب للحداد، لكن مثل تلك الأخرى التي أحلم بها أحيانًا، كانت ذات نضارة اجتذبت قلبي. رأيتها على قارعة الطريق حاملة مجرفتها بين ذراعيها. مؤخَّرًا فقط أصبحت امرأة، كانت صغيرة ضئيلة، ومنظر براءة كهذه، هائمة من دون حامٍ على مرمى حجر ممَّا تركتُه خلفي من بشاعات، جعل متابعة السير أمرًا مستحيلًا بالنسبة لي، حتى ولو كنت متوجِّهًا لأداء مهمَّة كتلك مثلما فعلت لاحقًا.

- «استديري وارجعي أيَّتها الصبيَّة»، صحت من فوق حصاني الفحل، كان هذا قبل أيَّام هُورِس، وعندما كنت أنا نفسي شابًّا، ثم أكملت قائلًا، «أي حماقة عظيمة حملتك على المضي في هذا الطريق؟ ألا تعرفين بأن هناك معركة مستعرة أسفل هذا الوادي؟».

من دون أن تخشى النظر إلى عينيَّ تقول:

- أعرف ذلك جيدًا أيُّها السيِّد. قطعت مسافة طويلة لأجل الوصول إلى هنا، وسأهبط الوادي قريبًا وأنضمُّ إلى المعركة.
- هل ركبك عفريت أيَّتها الصبيَّة؟ جئت توًّا من قعر الوادي حيث يقذف عتاة المقاتلين ما في جوفهم من هول المعركة. لن أسمح لك بالاقتراب ولا حتى سماع صدى القتال من بعيد. ولمَ تحملين هذه المجرفة التي تناهزك في الطول؟

- هناك لورد ساكسوني أعرفه موجود الآن في الوادي، وإنني أدعو من أعماق قلبي بألَّا يكون قد قُتل وأن يحميه الربُّ جيِّدًا. لأنني لا أريد له القتل إلَّا على يديَّ هاتين، بعد كل ما فعله بوالدتي وشقيقاتي الغاليات، وأنا أحمل هذه المجرفة لهذا الغرض. إنها تفلق وجه الأرض في صباح شتويٍّ قاسٍ، لهذا ستبلي بلاء حسنًا في سحق عظام هذا الساكسوني.

كنت ملزمًا حينذاك بالترجُّل واحتجازها من ذراعها حتى وهي تحاول الإفلات من قبضتي. إن كانت ما تزال اليوم على قيد الحياة - إدرا، أخبرتني لاحقًا بأنه كان اسمها - فستكون الآن في مثل عمركنَّ أيَّتها السيِّدات. بل لعلها كانت بينكنَّ، من يدري؟ لم تكن ذات حسن وجمال، لكن مثل تلك الأخرى، هزَّتني براءتها. «دعني أذهب أيُّها السيِّد!» تصرخ، فأردُّ: «لن تذهبي إلى ذلك الوادي. المشهد من الطرف فقط كفيل بحملك على الإغماء». فتصرخ: «لست برعديدة أيُّها السيِّد. دعني أذهب!». وهكذا وقفنا على قارعة الطريق مثل طفلين متعاركين، ولم أتمكَّن من تهدئة رَوعها إلَّا بالقول:

- أيَّتها الصبيَّة، أرى أن ما من شيء سيثنيك عن عزمكِ. لكن فكِّري كم هي ضئيلة فرص عثورك على ثأرك المشتهى بمفردك. أمَّا بمساعدة مني فإن فرصك ستتضاعف كثيرًا. لهذا اصبري واقعدي بعيدًا عن هذه الشمس لبعض الوقت. انظري هناك، اجلسي تحت شجرة البيلسان تلك، وانتظري عودتي. إنني في طريقي إلى أربعة من الرفاق لننطلق في مهمَّة. ومع أنها محفوفة بمخاطر جسيمة، إلَّا أنها لن تعيقني طويلًا. إن هلكتُ ستبصرينني أمرُّ ثانية من هذا الطريق مربوطًا فوق سرج هذا الحصان نفسه، وستعرفين حينذاك بأنه لم يعد بمقدوري الوفاء بوعدي. خلاف ذلك، أقسم بأني سأعود وسنذهب معًا لتحقيق حلمك بالثأر. اصبري، أيَّتها الصبيَّة، وإن كانت قضيَّتك عادلة، وأنا أحسبها كذلك، فسيتولَّى الربُّ عدم مقتل هذا اللورد قبل وصولنا إليه.

هل كانت تلك كلمات جبان، أيَّتها السيِّدات، وقد نطقتها في ذلك اليوم نفسه، بل أثناء انطلاقي لمواجهة كويرِغ؟ وما إن انتهينا من مهمَّتنا، ورأيت بأني نجوت - مع أن اثنين منَّا نحن الخمسة لم يقيَّض لهما ذلك - حتى سارعت بالعودة، متعبًا كما كنت، إلى حافَّة الوادي وشجرة البيلسان حيث الصبيَّة ما تزال في انتظاري، ومجرفتها بين ذراعيها. هبَّت على قدميها، واعتصر منظرها فؤادي من جديد. لكني حين حاولت ثنيها عن عزمها مجدَّدًا، خوفًا من لحظة دخولها ذلك الوادي، قالت غاضبة:

- هل أنت مخاتل يا سيِّدي؟ ألن تفي بما قطعته لي من وعد؟

وهكذا وضعتها فوق السرج - أمسكَت بالعنان وضمَّت المجرفة إلى صدرها - وقدتُ أنا سيرًا على القدمين الحصانَ والصبيَّة، هابطًا المنحدرات إلى الوادي. هل جفلت عندما بلغ صخب القتال مسامعنا؟ أو حين رأينا فلول الساكسون الهاربة، ومطارديهم من خلفهم؟ هل خارت عزيمتها والجرحى من المحاربين يترنَّحون من أمامنا، وجراحهم النازفة تخطُّ الأرض بالدماء؟ ترقرقت عيناها بالدموع ورأيت ارتجاف مجرفتها، لكنها لم تستدر وتنكص على عقبيها. إذ كانت لعينيها مهمَّة منوطة بهما، حرث ذلك الحقل الدموي يمينًا ويسارًا، بعيدًا وقريبًا. ثم امتطيت الحصان أنا أيضًا، وحملتها من أمامي كما لو كانت حملًا وديعًا، وانطلقنا معًا صوب قلب المعركة. هل بدوت حينذاك رعديدًا، وأنا أطوِّح سيفي يمينًا وشمالًا، وأحميها بترسي، وأوجِّه الحصان هنا وهناك إلى أن طرحتنا المعركة معًا في الوحل؟ لكنها سرعان ما هبَّت على قدميها، وبعد أن استردَّت مجرفتها، بدأت في شقِّ طريقها وسط أكوام من الأوصال المقطَّعة والمهروسة. أغرقت آذاننا صرخات عجيبة، لكنَّها بدت صمَّاء، كانت مثل صبيَّة مسيحية طيِّبة ترفض سماع صيحات المجون ممَّن تمرُّ بهم من رجال أفظاظ. كنت حينئذ شابًّا رشيق الخطى، فركضت من حولها بسيفي، مطيحًا بكلٍّ من همَّ بإلحاق الأذى بها، وأنا أحميها بترسي من السهام التي تهطل من دون هوادة. ثم أَبصرَت من تتعقَّبه أخيرًا، لكننا كنَّا كمن يطفو وسط أمواج متلاطمة، ورغم أن

الجزيرة قد تبدو لهم قريبة، إلَّا أن الأمواج تبقيها بعيدة المنال. هكذا كان الحال بالنسبة لنا في ذلك اليوم. قاتلتُ وهاجمتُ بشراسة وصنتها من الأذى، لكني شعرت كما لو أنَّ دهرًا انقضى إلى أن أصبحنا في مواجهته، وحتى عند ذلك كان هناك ثلاثة رجال مكلَّفين بحمايته. ناولتُ الصبيَّة ترسي قائلًا:

- احتمي به جيِّدًا، فغنيمتك على وشك أن تصبح بين يديك.

ورغم أني واجهت ثلاثة، ورأيت أنهم كانوا محاربين ماهرين، إلَّا أني هزمتهم الواحد تلو الآخر. ثم أصبحتُ في مواجهة اللورد الساكسوني الذي تكنُّ له كراهية عظيمة. كانت فوق ركبتيه طبقة سميكة ممَّا خاض فيه من دماء متجلِّطة، لكني رأيت أن هذا لم يكن بمحارب، فضربته إلى أن تمدَّد وهو يتنفَّس فوق الأرض، رجلاه لم تعودا نافعتين له، وبصره شاخص بحقده صوب السماء. وعندها رمت الترس جانبًا، ثم جاءت ووقفت فوقه، وتلك النظرة في عينيها جمَّدت الدماء في عروقي أكثر من كل ما يحيط بي من فظائع في ذلك الحقل المريع. هوت بمجرفتها، لا بعزم شديد، بل بضربة صغيرة، ثم أخرى، كما لو أنها تنقِّب في التراب عن حبَّات من البطاطس، حتى يفيض بي الكيل فأصرخ:

- أجهزي عليه أيَّتها الصبيَّة، وإلَّا سأفعل ذلك بنفسي!

وهو ما تردُّ عليه قائلة:

- اتركني الآن يا سيِّدي. أشكرك على مساعدتك، لكن انقضى الأمر الآن.

فأصرخ قائلًا:

- انقضى نصفه فقط أيَّتها الصبيَّة. لن ينقضي تمامًا إلَّا بعد إخراجك سالمة من هذا الوادي.

لكنها تصاب بالصمم وتمضي في متابعة عملها البغيض. كنت لأواصل الشجار أكثر، لكن كانت تلك هي اللحظة التي ظهر فيها من وسط الجموع. أعني السيِّد أكسِل، كما بتُّ أعرفه الآن. رجل أحدث سنًّا في ذلك اليوم من دون شكٍّ، لكن رديفًا حكيمًا حتى آنذاك، ولما رأيته كأنما تبدَّد صخب الوغى وخيَّم السكون من حولنا. أقول له:

- لماذا تقف مكشوفًا إلى هذا الحدِّ أيُّها السيِّد؟ وسيفك ما زال في غمده؟ تناول ترسًا من الأرض واحتمِ به على الأقل.

لكنَّ الشرود لا يبرح عينيه، وكأنه واقف وسط مرج من الأقحوان في صباح عطري. ثم يقول:

- لو شاء الربُّ توجيه سهم في هذا الاتجاه، فلن أداري نفسي منه. سير غَاوِن، سعيد برؤيتك سالمًا. هل وصلت لاحقًا، أم كنت هنا منذ البداية؟

يردُّ هكذا كما لو أننا تصادفنا في مهرجان صيفي، فأضطرُّ إلى الصراخ ثانية:

- احتمِ بترس أيُّها السيِّد! ما زال العدوُّ متواجدًا بكثافة في الحقل.

وعندما يواصل مسح المشهد ببصره، أقول وقد تذكَّرت ما طرحه عليَّ من سؤال:

- كنت هنا عند بدء المعركة، لكنَّ آرثر اختارني واحدًا من بين خمسة للذهاب في مهمَّة بالغة الأهمية. لم أعد منها إلَّا الآن.

أَفلحتُ أخيرًا في جذب اهتمامه، فردَّ:

- مهمَّة بالغة الأهمِّية؟ وهل سارت على أكمل وجه؟

- فقدنا، وللأسف، اثنين من رفاقنا، لكننا أنجزناها بما يُرضي السيِّد مِرْلِن.

- السيِّد مِرْلِن. لعلَّه رجل حكيم محنَّك، لكنَّ هذا العجوز يبعث القشعريرة في جسدي.

ثم يقلِّب بصره ثانية فيما يحيط به ويقول:

- آسف على سماع مصابك بفقدان صديقيك. سيُفتَقدُ الكثيرون قبل انتهاء هذا اليوم.

- لكنَّ النصر حليفنا لا محالة. هؤلاء الساكسون الملاعين. لماذا يواصلون القتال على هذه الشاكلة ولم يبقَ غير الموت ليشكرهم على ذلك؟

- أعتقد أنهم يفعلون ذلك بدافع الغضب والكره المحض لنا. إذ لا بدَّ من أن الخبر بلغهم الآن بما حلَّ بأبريائهم الذين تركوهم من ورائهم في قراهم. وصلت أنا نفسي توًّا من هناك، فلمَ لا تكون الأخبار هي الأخرى قد وصلت إلى صفوف الساكسون؟

- أي أخبار تعني أيُّها السيِّد أكسِل؟

- أخبار نسائهم وأطفالهم وعجائزهم، ممَّن تُركوا من دون حماية بعد اتفاقنا على عدم مسِّهم بسوء، والآن ذُبحوا جميعًا بأيدينا، حتى الرضَّع في المهد. لو فُعل هذا بنا، أكانت نيران كراهيتنا ستخمد؟ أما كنَّا سنقاتل نحن أيضًا حتى النفس الأخير كما يفعلون الآن، كل طعنة جديدة بمثابة بلسم للجراح؟

- لمَ تسهب في الحديث عن هذا الأمر، سيِّد أكسِل؟ انتصارنا اليوم بات مضمونًا وسيكون فارقًا.

- لمَ أسهب في الحديث؟ أيُّها السيِّد، تلك القرى هي نفسها التي قمت أنا بعقد أواصر الصداقة معها باسم آرثر. وفي تلك القرية التي كان أهلها ينادونني فيها بفارس السلام، وقفت اليوم متفرِّجًا وقد أغار عليها من غير ذرَّة رحمة أكثر من عشرة من رجالنا، ولم يكن هناك من يتصدَّى لهم سوى صبية لم تصل هاماتهم بعد إلى أكتافنا.

- يحزنني سماع هذه الأخبار. لكني أناشدك ثانية، أيُّها السيِّد، التقط ترسًا على الأقل واحتمِ به.

- مررت عليها قرية تلو الأخرى فوجدتها جميعًا على ذلك النحو، ورجالنا نحن يتفاخرون بما فعلوه.

- لا تلُم نفسك، أيُّها السيِّد، ولا خالي كذلك. ما أبرمته من قانون عظيم في السابق كان حقًّا بمثابة الأعجوبة طوال مدَّة صموده. كيف حقن دماء كثير من الأبرياء، بريتون وساكسون، على مرِّ السنين؟ أمَّا عدم صموده للأبد فهذا ليس من صنيعك أبدًا وأنت لست ملامًا على ذلك.

- رغم ذلك، لقد آمنوا باتِّفاقنا وتمسَّكوا به حتى هذا اليوم. أنا من تمكَّن من كسب ثقتهم حين لم يكن هناك في البداية سوى الخوف والكراهية. ما فعلناه اليوم يجعل مني كذَّابًا سفَّاحًا، وإنني لا أجد في انتصار آرثر أي غبطة أو سرور.
- ما الذي تقصده بكلام منفلت كهذا، أيُّها السيِّد؟ إن كنت تفكِّر في الخيانة، فدعنا نتواجه وجهًا لوجه من دون تأخير!
- خالك في مأمنٍ مني أيُّها السيِّد. لكن كيف تفرح، سير غَاوِن، بنصر أُحرِز بثمن كهذا؟
- سيِّد أكسِل، ما جرى اليوم في تلك القرى الساكسونية ما كان خالي ليأمر به إلَّا بقلب مغموم، مدركًا بأنه ليس من سبيل آخر حتى يسود السلام ويعمَّ. فكِّر وتدبَّر، أيُّها السيِّد. هؤلاء الصبية الساكسون الذين تنتحب عليهم سرعان ما سيصبحون محاربين متحرِّقين للأخذ بثأر من سقط من آبائهم في هذا اليوم. أمَّا الصبايا الصغيرات فسرعان ما سيحمِلن بالمزيد في أرحامهن، ولن تنكسر حلقة القتل هذه أبدًا. انظر كم تسري شهوة الانتقام عميقًا في النفوس! انظر الآن، إلى تلك الصبيَّة اليافعة، رافقتها بنفسي إلى هنا، راقبها وهي لم تكتفِ بعد من عملها الدموي! لكن هناك فرصة عظيمة تتأتَّى من وراء ما أُحرز من نصر عظيم في هذا اليوم. فرصة تحطيم حلقة الشرِّ هذه مرَّة وللأبد، ومن واجب ملك عظيم التصرُّف بجرأة لاقتناصها. فليكن هذا يومًا فارقًا، سيِّد أكسِل، تنطلق فيه بلادنا نحو العيش بسلام لأجيال قادمة.
- أعجز عن فهمك، أيُّها السير. رغم أننا ذبحنا اليوم بحرًا من الساكسون، محاربين أو رضَّعًا، إلَّا أن هناك أعدادًا أكبر منهم في طول البلاد وعرضها. إنهم يأتون من الشرق، ترسو سفنهم فوق شواطئنا، ويبنون قرى جديدة كل يوم. حلقة الكراهية هذه، أيُّها السيِّد، لم تُكسر، بل إنها، عوض ذلك، أصبحت مسبوكة من حديد بما اقترف في هذا

اليوم. سأذهب الآن إلى خالك وأنقل له ما رأيته. وسأرى في وجهه إن كان يؤمن بأن الربَّ حقًّا راضٍ عن اقتراف آثام كهذه.

قتلة أطفال. أهذا ما كُنَّاه في ذلك اليوم؟ وماذا عن تلك التي رافقتُها إلى المعركة، كيف أصبحت؟ هل كانت بينكنَ، أيَّتها السيِّدات؟ لمَ تتجمَّعن في طريقي هكذا بينما أنا منطلق لأداء واجبي؟ اتركن عجوزًا ليمرَّ بسلام. قتلة أطفال. لكنني لم أكن هناك، وحتى لو كنت، فأي خير كنت لأرجوه من مجادلة ملك عظيم، فضلًا عن أنه خالي أيضًا؟ لم أكن أكثر من فارس شابٍّ في ذلك الوقت، وفوق هذا، ألا تبرهن كل سنة تمرُّ على صحَّة ما فعله؟ ألم تكبرن جميعًا وتصبحن عجائز في زمن السلم؟ لذا دعوني أمضِ في طريقي من دون طعن ظهري بالسباب. قانون الأبرياء، قانون عظيم فعلًا، قانون لجلب بني البشر مسافة أقرب إلى الربِّ - هذا ما قاله دائمًا آرثر نفسه، أم أن السيِّد أكسِل هو من وصفه بهذا؟ كنَّا ندعوه وقتها أكسِلَم أو أكسِلاس، لكنه أصبح الآن أكسِل، ولديه زوجة رقيقة. لمَ توبِّخنني أيَّتها السيِّدات؟ هل اقترفت ذنبًا سبَّب لكنَّ ما تُكابدنه من حزن وألم؟ سيحين أجلي بعد أوان غير بعيد، وحينذاك لن أدير ظهري لأهيم في هذا البلد كما تفعلن. سأسلِّم على الملَّاح وأنا راضٍ، وسأعبر قاربه الهزَّاز، والماء يغمره من كلِّ جانب، ولعلَّني أغفو لبرهة، وصوت مجذافه يدغدغ أذنيَّ. وسأصحو نصف صحوة، وأرى الشمس وقد غاصت فوق الماء، والشاطئ ابتعد أكثر، وأهدهد نفسي لتعود إلى أحلامها حتى يوقظني صوت الملَّاح ثانية برفق. وإذا طرح أسئلة، كما يقول البعض إنه سيفعل، سأجيب بصدق، فما الذي بقي لدي كي أخفيه؟ لم أتَّخذ زوجة، مع أني تُقت في بعض الأحيان إلى واحدة. لكني كنت فارسًا صالحًا أدَّى واجبه على أكمل وجه حتى النهاية. لأقل هذا، وسيرى بأني لا أكذب. لن يزعجني وجوده. تغيب الشمس برقَّة، ويهبط خياله فوقي كلَّما تحرَّك في مركبه من جنب لآخر. لكن هذا سينتظر. اليوم، يجب أن نتسلَّق أنا وهُورِس الطريق تحت هذه السماء المكفهرة، أعلى المنحدر المقفر وصوب القمَّة التالية، إذ أن عملنا لم ينتهِ بعدُ وكويرِغ في انتظارنا.

الفصل العاشر

لم يكن في نيَّته أبدًا أن يخدع المحارب. لكنَّ الأمر جرى كما لو أنَّ الخداع نفسه قد تسلَّل خفية عبر الحقول وجاء ليحيط بهما.

بدا كوخ صانع الإسطبلات وكأنه مبنيٌّ داخل خندق عميق، سقفه المنسوج من القشِّ واطئ للغاية، حتى أحسَّ إدْوِن، خافضًا رأسه للعبور من تحته، بأنه ينزل في حفرة. لذا كان متهيِّئًا لمواجهة الظلام، أمَّا الحرُّ الخانق - ودخان الحطب الكثيف - فباغته، ولهذا أعلن عن وصوله بنوبة من السعال.

- يسرُّني أن أراك سالمًا، أيُّها الرفيق الشابُّ.

انبعث صوت وِسْتِن من قلب الظلمة خلف نار خمد لهيبها واشتدَّ دخانها، ثم تبيَّن إدْوِنْ هيئة المحارب فوق فراش من القشِّ، فقال:

- هل تعاني من جراح بليغة، أيُّها المحارب؟

خلال نهوض وِسْتِن للجلوس، منتقلًا ببطء من ظلمة العتمة إلى ضوء النار الخافت، رأى إدْوِنْ أن وجهه وعنقه وكتفيه تتصبَّب عرقًا. لكنَّ اليدين اللتين امتدَّتا صوب النار كانتا مرتجفتين كما لو من شدَّة البرد.

- جراح تافهة. لكنها جلبت هذه الحمَّى. كانت أسوأ في السابق، ولا أذكر الكثير عن المجيء إلى هنا. قال الرهبان الطيِّبون إنهم ربطوني فوق ظهر الفرس، وأظنُّ أني كنت أهذي طوال الوقت مثلما فعلت عندما أدَّيت دور المعتوه ذي الحنك المرتخي في الغابة. وماذا عنك أيُّها الرفيق؟ أرجو ألَّا تكون قد أُصبت بأي جراح فوق ما أصابك من

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

قبل.

- أنا سليم تمامًا، أيُّها المحارب، لكني أقف ذليلًا بين يديك. لست سوى رفيق بائس لك، أنام وأتركك تقاتل. أمطِرني باللعنات واطردني من حضرتك، فهذا ما أستحقُّه بجدارة.
- ليس بهذه السرعة، سيِّد إدوِن. إن كنت قد خذلتني ليلة أمس، فسأطلعك قريبًا على طريقة تسدُّ بها ما لي من دين في عنقك.

أزاح المحارب قدميه معًا بحذر وأنزلهما فوق الأرضية الترابية، ثم انحنى وقذف بحطبة في النار. حينذاك رأى إدْوِنْ كيف كانت ذراع وِسْتِن اليسرى مضمَّدة ومشدودة بإحكام إلى عنقه، وما غطَّى جانب وجهه من تورُّم سدَّ جزئيًّا إحدى عينيه.

ثم استأنف وِسْتِن الحديث:

- أجل، عندما أطللتُ في البداية من فوق ذلك البرج المحترق ولم أرَ العربة التي جهَّزناها بعناية، جاء في بالي أن ألعنك. سقوط من علوٍّ مرتفع فوق أرضية حجرية والدخان الحارق آخذ في تطويقي من كل جانب. منصتًا إلى صراخات الألم من أعدائي في الأسفل، تساءلت، هل أخالطهم حتى ونحن نتحوَّل معًا إلى رماد؟ أم من الأحسن أن أتحطَّم بمفردي تحت السماء المظلمة؟ لكن قبل أن اهتدي إلى جواب، وصلت العربة أخيرًا. كانت فرسي نفسها تجرُّها، وراهب يقودها من عنانها. لم أتساءل إن كان الراهب خصمًا أم صديقًا، بل قفزت على الفور من فوَّهة تلك المدخنة. وكان واضحًا أن ما بذلناه من جهد سابق اتَّسم بالإتقان، أيُّها الرفيق، إذ لمَّا غطست في التبن كما لو كان ماء، لم ينغرز في جسدي أي شيء. أفقت ممدَّدًا فوق طاولة، ورهبان طيِّبون موالون للأب جوناس يعكفون على رعايتي من كل جانب، وكأنني كنت وجبة عشائهم. لا بدَّ من أن الحمَّى قد تمكَّنت مني، إنْ بسبب هذه الجراح أو الحرارة الحارقة، فهم يقولون إنهم اضطرُّوا إلى

تكميمي حتى جلبوني إلى هنا بعيدًا عن الأذى. لكن إن حبتنا الآلهة بالرعاية، فستزول هذه الحمَّى سريعًا وسننطلق لإتمام مهمَّتنا.

- أيُّها المحارب، ما زلت أقف هنا بعاري. فحتى بعد أن استيقظت ورأيت الجنود حول البرج، تركتُ أحد الجنِّ يتلبَّسني، وفررت من الدير خلف ذينك العجوزَين. كنت سأتوسَّل إليك الآن أن تلعنني أو حتى أن تضربني، لكني سمعتك تقول إن ثمَّة طريقة قد أكفِّر بها عمَّا اقترفته ليلة أمس من عمل مشين. دلَّني عليها، أيُّها المحارب، وسأنفِّذ ما تطلبه بلا تلكُّؤ.

أثناء نطقه بذلك، كان صوت أمِّه ينادي عليه، متردِّدًا في جنبات الكوخ الصغير، حتى أنَّ إدْوِنْ لم يكن متأكِّدًا من أنه نطق كلماته تلك بصوت عالٍ. لكن، لا بدَّ من أنه فعل، إذ سمع وِسْتِن وقد ردَّ قائلًا:

- هل تحسب أني اخترتك لشجاعتك فقط، أيُّها الرفيق الشابُّ؟ أنت حقًّا تمتلك روحًا قتالية مثيرة للإعجاب، وإن قُيِّضت لنا النجاة من هذه المهمَّة، فسأتولَّى تعليمك المهارات التي تجعل منك محاربًا حقيقيًّا. أمَّا الآن فأنت معدن خام محض، لم يُصقل بعد. اخترتك دون سواك، سيِّد إدْوِنْ، لأني رأيت فيك موهبة الصيَّاد التي توازي روح المحارب لديك. وحيازة هاتين الموهبتين معًا أمر نادر بالفعل.

- كيف يكون هذا صحيحًا، أيُّها المحارب؟ وأنا لا أعرف أي شيء عن الصيد ومهاراته.

- جرو ذئب، يرضع لبن أمِّه، قادر على التقاط رائحة الطريدة في البرِّية. إنها هبة الطبيعة. حين تزول هذه الحمَّى، سنقطع مسافات أطول فوق تلك التلال، وأراهن أنك ستجد السماء نفسها تُسِرُّ لك بأي درب نسلك إلى أن نجد أنفسنا أمام وكر التنِّينة نفسه.

- أيُّها المحارب، أخشى أنك تضع إيمانك في غير الموضع الصحيح. لم يتفاخر أحد من أقربائي بمهارات كهذه قطُّ، كما لمْ يظنَّ أحد من

قبل بأني أمتلك مثلها. حتى ستيفا، الذي أبصر أنني أمتلك روح مقاتل، لم يُشر إلى مهارات كهذه أبدًا.

- إذًا دع أمر الإيمان بها لي وحدي، أيُّها الرفيق الشابُّ. لن أقول أبدًا إنك أقدمت على التفاخر بشيء كهذا. حال أن تزول عني هذه الحمَّى، سننطلق صوب تلك التلال الشرقية، حيث تُجمع كل الأقاويل على أن وِكر كويرغِ هناك، وسأتبع خطاك عند مفرق كل طريق.

حينئذ بدأ الخداع. لم يخطِّط له قطُّ، ولم يرحِّب به عند تسلُّله، مثل جنِّي صغير برز من زاويته المظلمة، واقتحم جلستهما. لم تكفَّ أمُّه عن مناداته: «التمس القوَّة لأجلي، يا إدْوِن. ستبلغ مبلغ الرجال قريبًا. التمس القوة وتعال لإنقاذي». كانت رغبة إرضائها توازي لهفته على عتق نفسه في عينيِّ المحارب، وهذا ما حمله على القول:

- أمر مثير حقًّا للفضول، أيُّها المحارب. بحديثك الآن عن هذا، بدأت أحسُّ فعلًا بجذب التنِّينة. لكني أجد له مذاقًا في الريح لا رائحة. يجب أن نذهب من دون تأخير، فمن يدري حتى متى سأحسُّ به.

حتى أثناء قوله ذلك، كانت اللقطات تتوالى على عجل محتلَّة فضاء ذهنه: كيف سيدخل إلى مخيَّمهم، يباغتهم وهم يجلسون صامتين في شبه حلقة، يتفرَّجون على أمِّه وهي تحاول تحرير نفسها. لا بدَّ من أنهم أصبحوا الآن رجالًا؛ بلحى وكروش على الأغلب، لم يعودوا أولئك الفتية الرشيقين الذين جاؤوا ذات يوم بنزق إلى قريته. رجال غلاظ ضخام الجثَّة، وما أن يمدُّوا أيديهم لالتقاط فؤوسهم، حتى يبصروا المحارب قادمًا من خلف إدْوِن، وحينذاك سيطلُّ الخوف من عيونهم.

لكن من أين له الجرأة على خداع المحارب - معلِّمه والرجل الذي حاز على كامل إعجابه من بين الرجال قاطبة؟ في تلك اللحظة، كان وِسْتِن يومئ برضى قائلًا: «عرفت ذلك من لحظة رؤيتي لك، سيِّد إدْوِنْ. حتى عندما حرَّرتك من العفاريت المردة عند النهر». حسنًا، سيقتحم مخيَّمهم. سيحرِّر أمَّه. سيُقتل

الرجال الغلاظ، أو سيُتركون للفرار إلى ضباب الجبل. ثم ماذا؟ ثم لن يكون هناك من مفرٍّ أمام إدْوِنْ سوى تفسير سبب خداعه للمحارب في وقت كان يفترض فيه أنهما في عجلة لتنفيذ تلك المهمَّة المستعجلة.

كي يصرف انتباهه عن التفكير في خواطر كهذه - إذ شعر بأن التراجع عمَّا شرع فيه بات متأخِّرًا جدًّا الآن - قال:

- أيُّها المحارب، عندي تساؤل حيال أمر متعلِّق بك. رغم أنك قد تظنُّ أن فيه جرأة وتطاولًا.

كانت هيئة وِسْتِن تنحسر شيئًا فشيئًا في قلب الظلام، متمدِّدًا من جديد فوق فراشه. ولم يعد إدْوِنْ قادرًا الآن على رؤية أي شيء منه سوى ركبته التي تتحرَّك ببطء من جانب إلى آخر.

- أسمعني إياه، أيُّها الرفيق الشابُّ.

- أتساءل، أيُّها المحارب، إن كان بينك وبين اللورد برونُس خلافٌ حملك على المكوث وقتال جنوده، بينما كان بمقدورنا الفرار من الدير والاقتراب مسيرة نصف يوم من كويرِغ؟ لا بدَّ من أن ما دفعك على تنحية كل شيء جانبًا، حتى مهمَّتك نفسها، سبب عظيم.

كان ما أعقب ذلك من صمت طويلًا جدًّا، حتى ظنَّ إدْوِنْ أن المحارب فقد وعيه جرَّاء الهواء الخانق. لكن هناك الركبة التي ما زالت تتحرَّك ببطء، وعندما صدر صوته أخيرًا من قلب الظلام، كان ما فيه من رعشة طفيفة للحمَّى قد تبخَّر.

- ليس من عذر لي، أيُّها الرفيق. لا يسعني سوى الإقرار بحماقتي، خاصة بعدما حذَّرني الأب الطيِّب من مغبَّة الغفلة عن واجبي! انظر إلى مبلغ ضعف تصميم معلِّمك. لكنني محارب قبل أي شيء، والفرار من معركة أعرف بأنني أستطيع كسبها ليس أمرًا هيِّنًا عليَّ. أنت محقٌّ، بل كان بإمكاننا أن نكون الآن أمام وكر التنِّينة، نناديي عليها فتخرج وترحِّب بنا. لكنني أعلم، أو لعلِّي أملتُ فقط، أن برونُس سيأتي شخصيًّا، ولهذا كان الأمر بالنسبة لي أعظم من قدرتي على عدم البقاء والترحيب به.

- إذًا أنا محقٌّ، أيُّها المحارب، هناك خلاف بينك وبين اللورد برونُس.
- ليس من خلاف يستحقُّ الذكر. تعارفنا ونحن يافعان، بمثل عمرك الآن. كان ذلك في بلد إلى الغرب من هنا، داخل قلعة شديدة الحراسة حيث دُرِّبنا نحن الفتية، حوالي عشرين شخصًا، من الصباح إلى المساء لنصبح محاربين في صفوف البريتون. نشأت على الشعور بمودَّة عظيمة تجاه رفاقي في تلك الأيَّام، إذ كانوا أقرانًا رائعين وعشنا مثل الإخوة. كلُّنا عدا برونُس، لأنه، بصفته ابن اللورد، كان يترفَّع عن مخالطتنا. لكنه كان يتدرَّب معنا في العادة، ورغم مهاراته السخيفة، كان يتوجَّب علينا، كلَّما بارزه أحدنا بسيف خشبيٍّ، أو صارعه في الحلبة الرملية، أن نمكِّنه من الفوز. وكانت أيّ مواجهة لا تنتهي بانتصار عظيم لابن اللورد تؤدِّي إلى معاقبتنا جميعًا. هل تتصوَّر ذلك، أيُّها الرفيق الشابُّ؟ أن نكون يافعين نفاخر بأنفسنا، كما كنَّا حينئذ، وأن يتسلَّط علينا خصم وضيع يبدو وكأنه يهزمنا يومًا بعد الآخر؟ الأسوأ من ذلك، أن برونُس كان يتلذَّذ بكيل الإهانات لخصومه، حتى ونحن نتصنَّع الهزيمة. كان يسعده أن يطأ أعناقنا بحذائه، أو أن يرفسنا عند تمدُّدنا فوق الأرض لأجله. تخيَّل ما كنَّا نشعر به جرَّاء هذا، أيُّها الرفيق!
- أتخيَّل تمامًا أيُّها المحارب.
- لكن لديَّ اليوم ما يدعوني إلى الامتنان للُورد برونُس، لأنه أنقذني من مصير مثير للشفقة. أخبرتك، سيِّد إدوِن، كيف كنت قد بدأت أحبُّ رفاقي في تلك القلعة كما لو كانوا إخوتي، مع أنهم كانوا من البريتون وأنا من الساكسون.
- لكن هل هذا مخزٍ للغاية، أيُّها المحارب، إن نشأت بينهم وواجهت معهم واجبات قاسية؟
- مخزٍ بالطبع، أيُّها الصبي. أشعر بالخزي حتى الآن كلَّما تذكَّرت ما كنت أُكِنُّه لهم من محبَّة. لكنَّ برونُس هو من دلَّني على ما وقعت

به من زلل. ربما لأن مهاراتي كانت فارقة حتى آنذاك، كان يجد لذَّة خاصة في اختياري لمبارزته، ويدَّخر إهاناته الأفظع لتكون من نصيبي. كما أنه سرعان ما اكتشف أني ساكسوني، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك، حتى ألَّب عليَّ رفاقي بهذه الحجَّة. فانقلب عليَّ حتى من كانوا أعزَّ الأصدقاء، وانضمُّوا إلى الآخرين، في البصق في طعامي، أو إخفاء ثيابي، حتى ونحن نهرول على عجل إلى ساحة التدريب في صباح شتويٍّ قارص، خوفًا من غضب المعلِّمين. كان درسًا عظيمًا تعلَّمته على يد برونُس حينئذ، وعندما أدركت ما أصبت نفسي به من خزي بسبب محبَّة البريتون، عقدت العزم على ترك تلك القلعة، حتى وإن لم يكن لي من أهل أو أصدقاء خلف تلك الأسوار.

توقَّف وِسْتِن عن الكلام لبرهة، بينما علا صوت أنفاسه الثقيلة من وراء النار. فقال إدوِن:

- هل أخذت بثأرك إذًا من اللورد برونُس، أيُّها المحارب، قبل ترك ذلك المكان؟

- احكم نيابة عني إن كنت قد فعلت أم لا، أيُّها الرفيق، فأنا لم أحسم الإجابة عن هذا السؤال بعد. جرت العادة في تلك القلعة بالسماح لنا نحن المتدرِّبين، بعد قضاء سحابة النهار في التدريب، بنيل ساعة بعد العشاء للترفيه عن أنفسنا. كنَّا نشعل نارًا في الفناء ونتحلَّق حولها للسمر والتهريج كما يفعل الفتيان. وكان برونُس، بالطبع، يترفَّع عن الانضمام إلينا، إذ كان يمتاز عنَّا بمهجع خاص به، لكن في ذلك المساء، ولسبب ما، رأيته يمشي ويمرُّ من قربنا. تركت البقيَّة حينذاك، من دون أن أثير شكوك رفاقي في شيء. تلك القلعة، مثلها مثل غيرها، لها العديد من الدهاليز السرِّية، وكنت أعرف كل واحد منها جيِّدًا، وهكذا وصلت في مدَّة وجيزة إلى زاوية غير مُراقبة حيث كانت أبراج الرماية تلقي ظلالًا سوداء فوق الأرض. أتى برونُس متمشِّيًا في

طريقي، وحيدًا، وعندما برزت من تحت العتمة توقَّف ونظر نحوي برعب. إذ أدرك على الفور بأن ذلك اللقاء لم يكن مصادفة، وزيادة على ذلك، كان مجرَّدًا من سلطانه المعهود. كان مذهلًا، سيِّد إدوِن، أن ترى ذلك اللورد المتبجِّح وقد تحوَّل بسرعة خاطفة إلى رضيع على وشك التبوُّل من شدَّة الخوف. أغرتني نفسي بشدَّة للقول: «حضرة السيِّد المحترم، أرى أن سيفك فوق خاصرتك. وكونك تعرف مقدار براعتك في استخدامه أكثر مني، فليس ما يخيفك من سحبه في وجهي». لكني لم أقل شيئًا، فلو أصبته بأذى في تلك الزاوية المظلمة، ما الذي كان يمكن أن يحلَّ بأحلامي في الحياة خلف تلك الأسوار؟ لم أقل شيئًا، لكني بقيت واقفًا أمامه بصمت، تاركًا اللحظة تطول بيننا، إذ كنت أودُّها أن تكون واحدة لا تُنسى أبد الدهر. ومع أنه تقهقر بجبن إلى الوراء وهو على أهبَّة الصراخ طلبًا للنجدة، إلَّا أن بقايا من كبرياء فيما يبدو قالت له إنَّ إقدامه على ذلك سيدمغه بإهانة أبدية، وهكذا لم يكلِّم أحدنا الآخر. ثم تركته بعد مدَّة، ولهذا كما ترى، سيِّد إدوِن، لم يحدث شيء بيننا ومع ذلك حدث كل شيء. عرفت حينذاك بأن من الخير لي أن أرحل في تلك الليلة، وبما أن تلك لم تكن أوقات حرب، لم تكن المراقبة صارمة. تسلَّلت بخفية وتجاوزت الحرس، من دون وداع أحد، وسرعان ما أصبحت غلامًا يسير تحت ضوء القمر، رفاقي الأعزَّاء تركتهم خلفي، وأهلي ذُبحوا منذ عهد طويل، وليس لدي سوى شجاعتي وما تعلَّمته مؤخَّرًا من مهارات لمواصلة الرحلة.

- أيُّها المحارب، هل يتعقَّبك برونُس حتى اليوم مخافة انتقامك منه على تلك الأيَّام؟
- من يدري بما توسوس به العفاريت الشريرة في أذن ذلك الأحمق؟ إنه اليوم لورد عظيم، في هذا البلد والذي يليه، لكنه مع ذلك يعيش

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

في خوف من أي مسافر ساكسوني من الشرق يمرُّ من أراضيه. هل غذّى خوفه من تلك الليلة مرارًا إلى أن تحوَّل في جوفه الآن إلى دودة عملاقة؟ أم أن أنفاس التنِّينة حملته على نسيان سبب خوفه مني في الماضي، لكن رعبًا مجهول المعالم استوطن في نفسه وكبر مع الزمن أكثر فأكثر؟ في السنة الماضية فقط قُتل محارب ساكسوني من الـفَنْلاند، كنت أعرفه جيِّدًا، أثناء سفره سلميًّا عبر هذا البلد. لكني مع ذلك أظلُّ مدينًا للورد برونُس بما تعلَّمته من درس، فمن دونه ربما كنت سأظلُّ حتى الآن أعتبر البريتون بمثابة إخوتي المحاربين. ما الذي يقلقك، أيُّها الرفيق الشاب؟ إنك تتململ من قدم لأخرى، وكأنَّ الحُمَّى التي أعاني منها استحوذت عليك أنت الآخر.

أخفق إذًا في إخفاء تململه، لكن أكان ممكنًا لوِسْتِن أن يخطر في باله أنه قام بخداعه؟ أكان ممكنًا أن يكون المحارب أيضًا قادرًا على سماع صوت أمِّه؟ إنها لم تكفَّ عن مناداته طوال حديث المحارب قائلة: «ألن تلتمس القوَّة لأجلي يا إدوِن؟ أستظلُّ صغيرًا إلى الأبد؟ ألن تأتي إليَّ يا إدوِن؟ ألم تعدني في ذلك اليوم بأنك ستفعل؟».

- أستميحك عذرًا، أيُّها المحارب. غريزة الصيَّاد تحملني على عدم الصبر، إذ أخشى أن أفقد أثر الرائحة، وشمس الفجر في الخارج بدأت بالبزوغ.
- سننطلق حال أتمكَّن من امتطاء صهوة فرسي. لكن دعني أسترح لمدَّة أطول، أيُّها الرفيق، وإلَّا كيف نواجه خصمًا كتلك التنِّينة وأنا لا أقوى على رفع سيفي من شدَّة الحمَّى؟

الفصل الحادي عشر

كان يتوق إلى بقعة مشمسة تبثُّ الدفء في أوصال بياترِس. لكن بينما ظلَّت الضفَّة المقابلة تستحمُّ بضوء الفجر معظم الوقت، بقي جانبهم من النهر في الظلِّ والبرد. شعر أكسِل بميلها عليه أثناء سيرهما، أمَّا ارتجافها فاشتدَّ على نحو منذر بالسوء. كان يوشك على اقتراح استراحة أخرى حين لاح أخيرًا سطح الكوخ المتواري خلف الصفصاف، ناتئًا نحو الماء.

استغرقا بعض الوقت في التفاوض مع المنحدر الموحل للهبوط إلى الكوخ العائم، ولمَّا عبرا من تحت قوسه المنخفض، بدا أن غبش العتمة والاقتراب من الماء المتموِّج لم يحملا بياترِس إلَّا على الارتجاف أكثر. سارا إلى الداخل، فوق ألواح خشبية رطبة، وأبصرا في الأفق المنبسط فوق السطح عشبًا طويلًا، وبوصًا، وجزءًا منداحًا من النهر في المدى. ثم نهضت وقوفًا هيئة رجل من الظلال المعتمة إلى يسارهما قائلة:

- من عساكما تكونان، أيُّها الصديقان؟

ردَّ أكسِل:

- ليكن الربُّ معك، أيُّها السيِّد. سامحنا إن كنَّا قد أيقظناك من نومك، نحن مسافران مرهقان نودُّ ركوب النهر لنصل إلى قرية ابننا.

رجل عريض المنكبين ملتحٍ وفي أواسط العمر، متدثِّر بطبقات من الفرو، عبر إلى الضوء وتفحَّصهما. وأخيرًا سأل بنبرة لا تخلو من الطيبة:

- هل السيِّدة مريضة؟

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- إنها متعبة فقط، أيُّها السيِّد، لكنها غير قادرة على قطع بقية الطريق مشيًا. كم نودُّ لو كان بوسعك الاستغناء عن مركب أو زورق صغير ينقلنا إلى هناك. نحن نعوِّل على كرمك وطيبتك، فقد سلبتنا مصيبة ألمَّت بنا مؤخَّرًا ما نحمله من متاع، وفيه كل ما نملك من نقود. أرى، أيُّها السيِّد، أن لديك الآن مركبًا واحدًا فقط في الماء. أعدك على الأقل بأن ما فيه من حمولة تستأمننا عليها لن يُمسَّ بسوء إن سمحت لنا باستخدامه.

رنا صاحب المركب نحو مركبه المتأرجح برفق تحت السطح، ثم عاد ببصره إلى أكسِل قائلًا:

- لن ينطلق هذا المركب أسفل النهر، أيُّها الصديق، إلَّا بعد مدَّة، فأنا أنتظر عودة رفيقي بالشعير لتحميله. لكني أرى أنكما مرهقان بعد متاعب ألمَّت بكما مؤخَّرًا، لهذا سأقترح عليكما الآتي. انظرا هناك، أيُّها الصديقان. انظرا إلى تلك السلال.
- سلال، أيُّها السيِّد؟
- قد تبدو مهلهلة، لكنها تطفو بشكل جيِّد وهي متينة وقادرة على تحمُّل ثقلكما، لكن على كل منكما الذهاب منفصلًا في واحدة منها. نحن متعوِّدون على ملئها بأكياس الحبوب، بل حتى بخنزير مذبوح في بعض الأحيان، ولدى ربطها بمؤخِّرة مركب فإنها تشقُّ عباب نهر عاتٍ من دون عرضة للهلاك. واليوم، كما تريان، المياه هادئة، لذا ستبحران فيها من دون قلق.
- هذا لطف منك أيُّها السيِّد. لكن هل لديك سلَّة كبيرة تسعنا نحن الاثنين معًا؟
- يجب أن يذهب كل منكما في سلَّة على انفراد، أيُّها الصديقان، وإلَّا فإنكما ستكونان عرضة للغرق. لكني على استعداد لربط سلَّتين معًا وبهذا تتمكَّنان من الذهاب كما لو كنتما في سلَّة واحدة. عندما تبصران

كوخًا عائمًا على هذه الضفَّة نفسها أسفل النهر، ستكون رحلتكما قد انتهت، وسأطلب منكما ترك السلَّتين هناك بعد ربطهما بإحكام.

همست بياترِس:

- أكسِل، دعنا لا نفترق. لنكمل الطريق مشيًا على الأقدام، حتى وإن كان ذلك أبطأ.
- لا طاقة لنا الآن على السير مشيًا يا أميرة. كلانا بحاجة للدفء والطعام، وهذا النهر سيحملنا على جناح السرعة إلى أحضان ابننا.
- أرجوك يا أكسِل. لا أريد أن نفترق.
- لكن هذا الرجل الطيِّب يقول إنه سيربط سلَّتينا معًا، وسنكون كأنَّنا نسير يدًا بيد.

ثم قال مستديرًا نحو صاحب المركب:

- شكرًا جزيلًا أيُّها السيِّد. سنعمل باقتراحك. لكن أرجوك أن تشدَّ السلَّتين معًا بإحكام، حتَّى لا يتمكَّن أي تيَّار سريع من تفريقنا.
- الخطر ليس في سرعة النهر، أيُّها الصديق، بل في بطئه. إذ من السهل أن تعلق في أسر الأعشاب المائية قرب الضفَّة وألَّا تتمكَّن من الانطلاق ثانية. لكني سأُقرضك عصا غليظة لدفع السلَّة بها، وبهذا تكون مطمئنًّا.

لدى ذهاب صاحب المركب إلى حافَّة رصيفه وانهماكه بربط الحبال، همست بياترِس:

- أكسِل، أرجوك، لا تدعنا نفترق.
- لن نفترق يا أميرة. انظري كيف يربط السلَّتين بإحكام كي نبقى معًا.
- قد يفرِّقنا التيَّار، يا أكسِل، لا تكترث لما يقوله هذا الرجل.
- سنكون بخير يا أميرة، وسنصل قرية ابننا سريعًا.

ثم نادى صاحب المركب عليهما، فسارا بحذر فوق الحصى الصغيرة إلى حيث كان واقفًا وهو يثبِّت بعصا طويلة سلَّتين فوق سطح الماء. قال:

- إنهما مبطَّنتان بجلد غير مدبوغ، ولهذا لن تشعرا كثيرًا ببرودة النهر.

رغم ما عاناه من ألمٍ وضعية القرفصاء، إلَّا أن أكسِل أبقى كلتا يديه فوق بياترِس إلى أن هبطت بأمان داخل السلَّة الأولى.

- لا تحاولي النهوض يا أميرة، وإلَّا ستعرِّضين السلَّة للخطر.
- ألن تركب معي يا أكسِل؟
- سأركب إلى جانبك بالضبط. انظري، هذا الرجل الطيِّب ربطنا بإحكام جنبًا إلى جنب.
- لا تتركني هنا وحيدة يا أكسِل.

لكن حتى أثناء نطقها بذلك، بدت مطمئنَّة وتمدَّدت في السلَّة مثل طفل على أهبَّة النوم.

قال أكسِل:

- أيُّها السيِّد الطيِّب، انظر كيف ترتجف زوجتي من البرد. هل لديك ما تعيره لنا كي أغطِّيها به؟

كان صاحب المركب أيضًا ينظر إلى بياترِس، التي كوَّمت نفسها مثل جنين في بطن أمِّه وأطبقت جفنيها. خلع فجأة قطعة ممَّا كان يتدثَّر به من قطع الفرو، ثم انحنى وغطَّاها بها. لم يبدُ أنها لاحظت ما فعله - ظلَّت عيناها مقفلتين - ولهذا كان أكسِل هو من شكره.

- أهلًا بك أيُّها الصديق. اترك كل شيء في الكوخ العائم في الأسفل.

دفعهما الرجل بعصاه الطويلة نحو التيَّار قائلًا:

- اجلس في قعر السلَّة وأبقِ العصا في متناول اليد لإبعاد الأعشاب النهرية.

كان البرد قارصًا في النهر. وألواح الجليد المكسورة تنزلق هنا وهناك، لكنَّ السلَّتين مرَّتا بسهولة من بينها، وكانتا ترتطمان أحيانًا برفق فيما بينهما. شكل السلَّتين مثل القوارب تقريبًا، بمقدِّمة ومؤخِّرة، لكن كان لهما ميل نحو الدوران، ولهذا كان أكسِل يجد بصره أحيانًا شاخصًا إلى الوراء صوب أعلى النهر، حيث الكوخ العائم ما زال واضحًا للعيان فوق الضفَّة.

كانت أشعَّة الفجر منصبَّة فوق العشب المتماوج بقربهما، وكما أكَّد صاحب المركب، جرى النهر بتؤدة. رغم ذلك، لم يستطع أكسِل التوقُّف عن اختطاف النظرات إلى سلَّة بياترِس، التي بدت مملوءة تمامًا بفرو الحيوان، ولم يكن ما يدلُّ على وجود بياترِس سوى خصلة مكشوفة من شعرها. وفي نقطة ما هتف قائلًا:

- سنكون هناك في مثل لمح البصر يا أميرة.

وعندما لم يأتِه ردٌّ، مدَّ ذراعه لجذب سلَّتها قائلًا:

- هل أنت نائمة يا أميرة؟
- أكسِل، هل ما زلت هناك؟
- طبعًا أنا هنا.
- أكسِل. ظننت أنك ربما تركتني ثانية.
- لمَ أتركك يا أميرة؟ ربط الرجل سلَّتينا معًا بعناية فائقة.
- لست أدري إن كان حلمًا أم ذكرى. لكني رأيت نفسي توًّا، واقفة في حجرتنا منتصف الليل. كان ذلك منذ أمد بعيد، وأنا أتدثَّر بذلك الرداء الذي صنعتَه ذات مرَّة من جلد ابن عرس وقدَّمته لي هديَّة رقيقة. وأنا واقفة هكذا، وفي حجرتنا السابقة أيضًا، لا التي نعيش فيها الآن، لأنَّ أغصان الزَّان تقطع الحائط من يساره إلى يمينه، وأراقب يرقة تزحف فوقها ببطء، وأتساءل ما الذي حمل يرقة على عدم النوم في وقت متأخِّر كهذا.
- دعك من اليرقات، ما الذي كنت تفعلينه أنت بالسهر والتحدِّيق عند منتصف الليل؟
- أعتقد أني كنت واقفة هكذا لأنك ذهبت وهجرتني، يا أكسِل. ربما هذا الفرو الذي دثَّرني به الرجل ذكَّرني بذلك، إذ كنت أتدثَّر بذاك أثناء وقوفي هناك، ذاك الذي صنعته لي من فرو ابن عرس، وخسرناه لاحقًا في تلك النار. كنت أراقب اليرقة متسائلة لماذا لم تنمْ، وإن كان كائن كهذا يميِّز أصلًا الليل من النهار. لكني أعتقد أن سبب عدم نومي هو ذهابك بعيدًا يا أكسِل.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- أضغاث أحلام يا أميرة، وربما أيضًا حمًى أصابتك في الطريق. لكننا سنكون قرب نار دافئة بعد مدَّة قصيرة.
- هل ما زلت هنا يا أكسِل؟
- طبعا أنا هنا، والكوخ العائم غاب عن البصر منذ مدَّة الآن.
- تركتني في تلك الليلة يا أكسِل. وكذلك ابننا الغالي أيضًا. تركني قبل يوم أو يومين، قائلًا إنه لا يودُّ أن يكون موجودًا في البيت حين عودتك. لهذا صرت وحيدة تمامًا، في حجرتنا السابقة، في قلب الليل. لكن كان لدينا في تلك الأيَّام شمعة، وكنت قادرة على رؤية تلك اليرقة.
- هذا حلم غريب، يا أميرة، وما من شكٍّ في أنه جرَّاء الحمَّى وهذا البرد. كم أودُّ أن تفقد الشمس شيئًا من صبرها لتشرق دفعة واحدة.
- أنت محقٌّ يا أكسِل. البرد قارص هنا، حتى من تحت هذا الفرو.
- كنت سأدفِّئك بين ذراعيَّ لولا أن هذا النهر لا يسمح لنا بذلك.
- أكسِل. أيمكن أن يكون ابننا قد تركنا غاضبًا ذات يوم، فقمنا بسدِّ الباب في وجهه، قائلين له بألَّا يعود أبدًا؟
- يا أميرة، أرى أمامنا شيئًا فوق الماء. لعلَّه زورق عالق بين الأعشاب النهرية.
- إنك تطفو مبتعدًا أكثر يا أكسِل. صوتك بالكاد يصلني.
- أنا هنا بجانبك يا أميرة.

كان جالسًا في قعر سلَّته، ورجلاه ممدودتان من أمامه، لكنه تحوَّل بحذر الآن إلى وضعيَّة القرفصاء، قابضًا بيديه على الحافَّة من الجنبين. ثم قال:

- أراه الآن بشكل أفضل. زورق صغير عالق بين الأعشاب حيث تلوي الضفَّة عنقها. إنه يعترض طريقنا وعلينا الانتباه لئلَّا نعلق بالطريقة نفسها.
- أكسِل، لا تذهب بعيدًا عني.

- أنا هنا إلى جانبك يا أميرة. لكني سأحمل هذه العصا الغليظة لأبعد سلَّتينا عن البوص.

كانت السلَّتان تتحركَّان ببطء أكبر الآن. تنساقان نحو الماء الضحل الذي يتحوَّل إلى طمي عند التواء الضفَّة. طاعنًا بعصاه الغليظة جوف الماء، اكتشف أكسِل أن بوسعه لمس قاع النهر بسهولة، لكنه عندما حاول الدفع للتوجُّه ثانية نحو التيَّار، قبض قاع النهر على العصا ولم يفلتها. كان في وسعه أن يرى أيضًا، تحت ضوء الفجر المنسكب فوق حقول العشب الطويل، التفاف الأعشاب حول السلَّتين بكثافة وإحكام، كما لو لأجل تثبيتهما أكثر في تلك البقعة الراكدة. كان الزورق أمامهما تقريبًا، وأثناء جنوحهما بخمول صوبه، ثبَّت أكسِل عصاه الغليظة في مؤخِّرة المركب وأوقف السلَّتين.

- هل وصلنا إلى الكوخ العائم الآخر يا زوجي؟
- ليس بعد.

اختطف أكسِل نظرة نحو ذلك الجزء من النهر الجاري نحو الأسفل ثم قال:

- آسف يا أميرة. نحن عالقان وسط الأعشاب النهرية. لكن أمامنا هنا زورق، وإن كان بحالة جيِّدة، سنستخدمه في إكمال الرحلة.

دافعًا بالعصا ثانية في جوف الماء، وجَّه أكسِل السلَّتين ببطء إلى موضع محاذٍ للزورق.

من زاوية نظرهما الواطئة، بدا الزورق كبيرًا، واستطاع أكسِل رصد تفاصيل خشبه التالف، والمخشوشن، والجزء الأسفل من حافَّته العلويَّة، حيث تدلَّت قطع الجليد الصغيرة مثل شموع ذائبة. مثبِّتًا عصاه في الماء، نهض الآن وقوفًا في سلَّته بحذر واسترق النظر داخل الزورق.

كانت مؤخِّرته غارقة في وهج برتقالي فلم يتبيَّن أكسِل إلَّا بعد لحظة أن كومة الأسمال المكدَّسة هناك لم تكن سوى عجوز. السخام المدعوك فوق وجهها وثيابها الغريبة - رداء من عشرات الرُّقع البالية الداكنة - خدعته لوهلة. فوق ذلك، كانت تجلس في وضعية عجيبة، رأسها مائل بشدَّة إلى جنبها، ويكاد

أن يلمس أرضية الزورق. أرَّق شيء ما حيال ثياب تلك العجوز ذاكرته بشدَّة، لكنها فتحت عينيها الآن وحملقت فيه. ثم قالت بصوت خفيض، من دون أن تعدِّل جلستها:

- ساعدني أيُّها الغريب.
- هل أنت مريضة أيَّتها السيِّدة؟
- ذراعي ما عادت تطاوعني، وإلَّا لكنت الآن عاكفة على التجذيف. ساعدني أيُّها الغريب.

بلغه صوت بياترِس من خلفه قائلًا:

- مع من تتكلَّم يا أكسِل؟ انتبه لئلا يكون عفريتًا.
- عجوز مسكينة تقاربنا في العمر أو تزيد، مصابة ومرتمية في زورقها.
- لا تنسني يا أكسِل.
- أنساكِ؟ وكيف يمكن لي أن أنساك في أيِّ وقت يا أميرة؟
- هذا الضباب يحملنا على نسيان الكثير. لمَ لا يحملنا على نسيان بعضنا؟
- أمر كهذا لا يمكن حصوله أبدًا يا أميرة. عليَّ الآن أن أساعد هذه المرأة المسكينة، ولعلنا بقسط من الحظِّ نتمكَّن نحن الثلاثة من استخدام زورقها لبلوغ أسفل النهر.
- أيُّها الغريب، أسمع ما تقول. استخدم زورقي على الرحب والسعة. لكن ساعدني الآن فأنا مرتمية من الوجع.
- أكسِل، لا تتركني هنا. لا تنسني.
- سأخطو فقط إلى هذا الزورق الملاصق لنا يا أميرة. يتوجب عليَّ مساعدة هذه الغريبة المسكينة.

كان البرد قد يبَّس أطرافه، وكاد أن يفقد توازنه لدى صعوده المركب الأوسع. لكنه سيطر على حركته، ثم استطلع ما حوله.

بدا الزورق بسيطًا متينًا، من دون علامات واضحة على تسرُّب المياه. هناك حمولة مكدَّسة قرب المقدِّمة، لكنَّ أكسِل لم يول ذلك كبير انتباه، لأن المرأة لم تكن تنطق بشيء جديد. ما زالت شمس الصباح منصبَّة فوقها، لكنه لاحظ كيف كان بصرها مشدودًا بحدَّة إلى قدميه - بقدر بالغ، حتى أنه لم يتمالك نفسه في النظر إليهما هو الآخر. ولما لم يلاحظ ما يستأهل النظر، واصل سيره نحوها، ماشيًا بحذر فوق عوارض بطن الزورق الخشبية.

- أيُّها الغريب. أرى أنك لست شابًّا، لكن ما زال لديك قوَّة. أرِهم وجهًا شرسًا. وجهًا شرسًا لحملهم على الفرار.

- هيًا، أيَّتها السيِّدة، هل بمقدورك الاعتدال جلوسًا؟

نطق بذلك لحيرته من وضعيَّتها الغريبة - كان شعرها الأشيب غير مربوط ويلامس سطح الزورق الرطب. ثم تابع القول:

- هيًا، سأساعدك. حاولي رفع نفسك إلى أعلى.

ما إن مال إلى الأمام ولمسها، حتى سقط سكِّين صدئ من قبضتها فوق الأرضية. وفي تلك اللحظة، فرَّ كائن صغير بسرعة من تحت أسمالها واختفى في بقعة معتمة.

- هل تزعجكِ الجرذان أيَّتها السيِّدة؟

- إنهم هناك أيُّها الغريب. أقول لك: أرِهم وجهًا شرسًا.

فطِن الآن إلى أن بصرها لم يكن مشدودًا إلى قدميه، بل إلى ما ورائهما، إلى شيء في مقدِّمة الزورق. استدار، لكنَّ أشعة الشمس أبهرت بصره فلم يتبيَّن بوضوح ما كان يتحرَّك هناك.

- هل هي جرذان أيَّتها السيِّدة؟

- إنهم يخافون منك أيُّها الغريب. خافوا مني أنا أيضًا لبرهة قصيرة، لكنهم استنزفوا قواي قليلًا قليلًا كما يفعلون دومًا. لو لم تأتِ لظلُّوا فوقي حتى الآن.

- انتظري لحظة أيَّتها السيِّدة.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

خطا صوب مقدِّمة الزورق، وكفُّه مرفوعة أمام عينيه اتِّقاء للشمس، ثم قلَّب بصره في الأشياء المكدَّسة في الظلِّ المعتم. تبيَّن شباكًا متداخلة، بطَّانية مبلَّلة مكوَّمة، أداة ذات مقبض طويل، مثل مجرفة، مركونة فوقها. كما كان هناك صندوق خشبي من دون غطاء - من صنف ما يستخدمه الصيَّادون لحفظ غلَّتهم من السمك. لكنه عندما نظر إلى داخله، لم يرَ سمكًا، بل أرانب مسلوخة - عددًا كبيرًا منها، مرصوصة بإحكام جنبًا إلى جنب، حتى بدت أطرافها الصغيرة متشابكة. ثم، وتحت ناظريه، بدأت الكتلة برُمَّتها من أربطة وأوتار وأكواع وكواحل بالحركة. تقهقر أكسِل خطوة إلى الوراء حينما أبصر عينًا تُفتح، ثم أخرى. حمله صوتٌ على الالتفات إلى الوراء، صوب الطرف الآخر من الزورق، الذي ما زال غارقًا في الوهج البرتقاليِّ، فرأى العجوز وقد ارتخت فوق مؤخِّرة القارب وأسرابًا من صغار الجنِّ - أكثر من أن تُعدَّ - تغطِّيها مثل خليَّة نحل. بدت العجوز للوهلة الأولى مستكينة قانعة، كما لو كانت أنفاسها تُخمدُ بمحبَّة، بينما تراكضت الكائنات النحيلة تحت أسمالها وفوق وجهها وكتفيها. والآن تقاطر المزيد والمزيد منها من النهر، متسلِّقة حافَّة الزورق.

انحنى أكسِل لالتقاط الأداة ذات المقبض الطويل من أمامه، لكنه أصبح مغلَّفًا هو الآخر بإحساس من السكينة، فوجد نفسَه يخلِّص الأداة من بين الشباك المتداخلة على مهل، وكأنه لم يكن هناك من داعٍ للعجلة. أدرك أن المزيد والمزيد من تلك الكائنات آخذة في التقافز من الماء - كم بلغ عدد من صعد منها الآن إلى الزورق؟ ثلاثين؟ ستِّين؟ - بدا مجموع أصواتها مثل أصوت أطفال يلعبون في الجوار. كان يتمتَّع بما يكفي من حضور الذهن لرفع الأداة الطويلة إلى أعلى - مجرفة، لا محالة، ألم يكن ذاك نصلًا صدئًا في طرفها المحلِّق نحو السماء، أم كان مخلوقًا آخر قد التصق بها؟ - وأن يهوي بها إلى أسفل ساحقًا الأصابع والركب الصغيرة المتعلِّقة بحافَّة القارب. ثم سدَّد ضربة ثانية، هذه المرَّة إلى صندوق الأرانب المسلوخة الذي يهرول منه المزيد من صغار الجنِّ. لكنه لم يكن قطُّ بالمُبارز الفذِّ، بل كان ماهرًا في الدبلوماسية، وإذا لزم الأمر،

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

بالدهاء والمكيدة، رغم ذلك من كان بوسعه أن يزعم بأنه خان ما أحرزته مهاراته من ثقة الخصوم؟ على العكس، هو من تعرَّض للخيانة، لكنه قادر مع ذلك على استخدام سلاح بطريقة ما. والآن سيضرب به هنا وهناك. ألا يتعين عليه حماية بياترِس من أسراب هذه الكائنات؟ لكن ها هي قد أتت، أفواجًا أفواجًا - أكانت تأتي من ذاك الصندوق، أم من المياه الضحلة؟ بل هل هي متجمِّعة الآن حول بياترِس النائمة في سلَّتها؟ كان لآخر ضربة بالمجرفة بعض الأثر، إذ هوت إلى الماء جملة من الكائنات، ثم قذفت ضربة أخرى باثنين، بل ثلاث مجموعات، في الهواء، والمرأة العجوز غريبة عنه، فأي واجب هذا الذي يدفعه إلى تقديمها على زوجته؟ لكن ها هي هناك، المرأة العجيبة، بالكاد تُرى تحت أرتال تلك الكائنات المتشنِّجة، قطع أكسِل الزورق نحوها، والمجرفة مرفوعة، وراح يكشُّ ما استطاع من تلك الكائنات من دون أذيَّة الغريبة. لكن يا لمقدرتها العجيبة على التشبُّث! بل ها هي الآن تتجرَّأ على الحديث معه - أم أن من كان يتكلَّم هو العجوز نفسها؟

- اتركها أيُّها الغريب. اتركها لنا. اتركها أيُّها الغريب.

رفع أكسِل المجرفة من جديد، فاخترقت الهواء بثقل وكأنه جبل من الماء، لكنها بلغت هدفها، مبدِّدة قسطًا من جموع تلك الكائنات رغم وصول المزيد منها.

قالت العجوز ثانية:

- اتركها لنا أيُّها الغريب.

وفي هذه المرَّة فقط، لمع في رأسه، وبطعنة خوف نجلاء، أن المتحدِّث لم يقصد الغريبة المحتضرة أمامه وإنَّما بياترِس. وبالتفاتة نحو سلَّة زوجته العالقة وسط العشب النهري، رأى المياه المحيطة بها تمور حياة بما فيها من أطراف وأكتاف. أمَّا سلَّته هو فكانت توشك على الانقلاب رأسًا على عقب لكثرة من يحاول تسلُّقها من الكائنات، ولم يمنع ذلك سوى ثقل من دخلها. لكنَّ محاولاتها في العبور إلى سلَّته لم تكن إلَّا لأجل الوصول إلى جارتها فقط.

ولمَّا رأى ما كان يحتشد من كائنات أخرى فوق الفرو الذي يغطِّي بياترِس، أطلق صرخة وقفز في الماء. كان أعمق ممَّا توقَّع، غمر خاصرته، لكنه لم يختطف أنفاسه إلَّا للحظة فقط، ثم أطلق على الفور صرخة محارب مدوِّية، كأنها أهلَّت عليه من ذكرى بعيدة، واندفع مترنِّحًا صوب السلَّة، والمجرفة مرفوعة إلى أعلى. ثمَّة شدٌّ وجذب لثيابه، وللماء عذوبة العسل، لكنَّه لمَّا هوى بالمجرفة فوق سلَّته، ورغم هبوطها المحبط ببطء عبر الهواء، ما إن حطَّت فوق السلَّة، حتى وقع من تلك الكائنات في الماء عدد أكبر ممَّا تصوَّره. بل إن الضربة الثانية خلَّفت دمارًا أكبر - لا بدَّ من أنه سدَّد ضربته هذه المرَّة ونصل المجرفة الحديدي متَّجه إلى الخارج، ألم يكن ذاك لحمًا داميًا رآه يتطاير إلى أعلى نحو ضوء الشمس؟ مع هذا ظلَّت بياترِس وكأنها على مسيرة دهر ممَّا يجري، عائمة بتواطؤ من دون اكتراث بما يسرح ويمرح فوقها من قطعان تلك الكائنات، والآن ها هي تقفز من البرِّ أيضًا، متدفِّقة كالسيل من ضفَّة النهر. لا بل إن جحافلها الآن تغطِّي المجرفة بالكامل، تركها تسقط في الماء، متمنِّيًا فجأة أن يكون إلى جانب بياترِس وحسب.

خاض في الماء، رغم أن الأعشاب النهرية، والخوص المُتَقصِّف، والوحل كلها تجذب قدميه وتعيقه عن الحركة، لكنَّ بياترِس ظلَّت أبعد ممَّا كانت عليه في أي وقت مضى. ثم بلغه صوت الغريبة ثانية، ورغم أنه الآن، خارج الزورق ووسط الماء، ولم يعد قادرًا على رؤيتها بعين رأسه، إلَّا أن أكسِل تمكَّن من رؤيتها بعين عقله بوضوح مفزع، رآها منهارة فوق أرضية زورقها تحت شمس الفجر، وصغار الجنِّ تتدافع بحرِّية من فوقها وهي تنطق بما سمعه من كلمات:

- اتركها أيُّها الغريب. اتركها لنا.

غمغم أكسِل أثناء الدفع بنفسه إلى الأمام قائلًا:

- عليك اللعنة، لن أتخلَّى عنها أبدًا أبدًا.

- أهذا ما يقوله رجل عاقل مثلك أيُّها الغريب؟ مرَّ الآن وقت طويل على معرفتك بأنَّ ما من علاج لإنقاذها. كيف ستحتمله، وما الذي بات في

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

انتظارها الآن؟ أتتوق إلى يوم تراقب فيه حبيبتك الأغلى وهي تتلوى ألمًا تحت ناظريك وليس بمقدورك سوى الهمس ببضع كلمات حنان في أذنها؟ أعطنا إيَّاها وسنخفِّف أوجاعها، كما فعلنا مع سائر الأخريات من قبلها.

- عليكِ اللعنة! لن أعطيها لك!

- أعطها لنا ولن نتركها تعاني الألم. سنغسلها بماء النهر، وستتساقط السنوات عن كاهلها، وستصبح كما تكون في حلم مشتهى. لِمَ تبقيها أيُّها السيِّد؟ ماذا يمكنك أن تقدِّم لها سوى عذاب حيوان عند الذبح؟

- سأتخلَّص منكِ. ابتعدي. ابتعدي عنها.

مدَّ ذراعيه وشبك يديه مثل المضرب، ثم ضرب يمنة ويسرة، شاقًّا طريقه في الماء، إلى أن أصبح أخيرًا أمام بياترِس، التي ما تزال نائمة بعمق في سلَّتها. كانت جحافل صغار الجنِّ تتدافع فوق غطاء الفرو، فراح يجذبها واحدة تلو الأخرى، ويقذفها بعيدًا.

- لمَ لا تعطينا إيَّاها؟ ليس فيما تفعله أي معاملة طيِّبة لها.

دفع السلَّة عبر الماء إلى أن ارتفعت الأرض واستقرَّت السلَّة فوق الطين وسط العشب والبوص. وعندها انحنى وضمَّ زوجته بين ذراعيه ثم أخرجها من السلَّة. لحسن الحظِّ عاد إليها قسط كافٍ من اليقظة للتشبُّث بعنقه، ثم أقدما معًا على خطىً مترنِّحة، عبر الضفَّة أوَّلًا، ثم أبعد، عبر الحقول. فقط حين أصبح ملمس الأرض صلبًا جافًّا من تحتهما أنزلها أكسِل، وجلسا فوق العشب معًا، هو كي يستردَّ أنفاسه، وهي كي تزداد يقظة.

- أكسِل، ما هذا المكان الذي وصلنا إليه؟

- كيف تشعرين الآن يا أميرة؟ علينا الابتعاد عن هذه البقعة. سأحملك على ظهري.

- أكسِل، أنت مبتلٌّ حتى العظم! هل سقطت في النهر؟

- هذه البقعة زاخرة بالشرِّ، يا أميرة، ويجب علينا الرحيل فورًا. سأحملك على ظهري بكلِّ سرور، مثلما تعوَّدت على فعله عندما كنَّا شابَّين طائشين نستمتع بقضاء يوم ربيعي دافئ.
- هل علينا أن نترك النهر؟ السير غَاوِن محقٌّ في قوله إنه سينقلنا أسرع إلى وجهتنا. تبدو هذه الأراضي وكأنها على الارتفاع نفسه الذي كنا عليه في الجبال، كأننا لم نهبط شيئًا.
- ليس لدينا من خيار آخر يا أميرة. يجب أن نبتعد من هنا. هيَّا بنا، سأحملك على ظهري. هيَّا يا أميرة، تعلَّقي بكتفيَّ.

الفصل الثاني عشر

كان قادرًا على سماع صوت المحارب في الأسفل، مناشدًا التسلُّق ببطء أكبر، لكنَّ إدْونْ تجاهله. كان وِسْتِن بطيئًا للغاية، ولم يبدُ عليه عمومًا تقدير ما هم فيه من عجالة. قبل أن يقطعا منتصف المسافة فوق الجرف الشاهق، سأل المحاربُ: «أيمكن أن يكون نسرٌ ذاك الذي مرَّ بنا الآن، أيُّها الرفيق الشابُ؟» ما أهمِّية سؤال كهذا وسط ما هم فيه؟ لقد ضربت الحمَّى المحارب بالضعف، عقلًا وجسدًا.

مسافة قصيرة فقط، ويصير على الأقل فوق حافَّة الجرف واقفًا على أرض صلبة. بمقدوره أن يعدو حينذاك - كم يتوق للعدْو! - لكن إلى أين؟ وجهتهما المحدَّدة، في تلك اللحظة، جنحت عن نطاق تذكُّره. وفوق هذا، ثمَّة أمر مهمٌّ عليه البوح به للمحارب: ظلَّ يخدع وِسْتِن بشأن أمر ما، والآن حان أوان الاعتراف. حين شرعا في التسلُّق، تاركين الفرس المنهكة مربوطة إلى شجيرة قرب الطريق الجبلي، كان قد عقد النيَّة على الاعتراف بكل شيء حال بلوغ القمَّة. لكن الآن وقد شارفا على الوصول إليها، لم يعد في ذهنه شيء سوى شذرات مبهمة.

تشبَّث بالصخور التي تفصله عن القمَّة ثم دفع نفسه فوق حافَّة الجرف. قابله عراء تعصف فيه الريح، يعلو تدريجيًّا نحو القمم الشاحبة في الأفق البعيد. ولم يكن إلى جواره سوى رقع من الخلنج وحشائش الجبل التي لا يصل أي منها إلى كاحل بشر. لكن، وللعجب، بدت في المدى المنظور أيكة صغيرة،

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

أشجارها شديدة الاخضرار منتصبة بثبات في وجه الريح العاتية. هل عمد إله من الآلهة، في نزوة من نزواته، إلى رفع مقطع من غابة كثيفة بإصبعه ثم أنزله في هذه البقعة الجرداء؟

رغم لهاثه جرَّاء التسلُّق، حمل إدْوِنْ نفسه على العدْو. لعلَّ تلك الأشجار هي المكان الذي عليه التواجد فيه، وما أن يصله حتى يتذكَّر كل شيء. علا صراخ وِسْتِن ثانية من موضع خلفه - لا بدَّ من أن المحارب بلغ أخيرًا أعلى الجرف - لكن إدوِن، ومن دون التفات إلى الوراء، أسرع في العدْو بكل طاقته. سيؤجِّل اعترافه إلى حين بلوغ تلك الأشجار. إذ أنه حين يصبح في كنفها، سيكون قادرًا على التذكُّر بوضوح أكبر، كما سيتمكَّن من الحديث إلى وِسْتِن من دون عواء الريح من حولهما.

أقبلت الأرض لملاقاته، منتزعة أنفاسه من صدره. ولمَّا كان هذا قد داهمه على حين غرَّة، أُجبِر على التمدُّد هناك للحظة، دائخًا تمامًا، وحين حاول أن يهبَّ وقوفًا على قدميه ثبَّته في مكانه شيء ليِّن، ولكنه قاهر. أدرك حينئذ أن ركبة وِسْتِن فوق ظهره، وأن يديه تشدَّان بوثاق من خلفه. قال وِسْتِن:

- سألتني من قبل عمَّا يدعونا إلى حمل حبل معنا، وأنت ترى الآن كيف يمكن أن يكون هذا مفيدًا.

بدأ إدْوِن في تذكُّر ما دار بينهما من حديث قبل تسلُّق الجرف. متحرِّقًا لفعل ذلك، انزعج من طريقة المحارب المتأنِّية في إخراج ما في سرج فرسه ووضعه في كيسين لحملهما أثناء الصعود. حينذاك قال إدْوِنْ متبرِّمًا:

- علينا أن نسرع أيُّها المحارب! ما حاجتنا إلى كل تلك الأشياء؟
- احمل هذا أيُّها الرفيق. التنِّينة خصم شرس كفاية من دون أن نساعدها ونترك الوهن يفتك بنا جوعًا وبردًا.
- لكنَّنا سنفقد أثر الرائحة! وما حاجتنا إلى حمل حبل معنا؟
- قد نحتاجه فيما بعد، أيُّها الرفيق الشابُّ، وحينذاك لن نجده وقد نما فوق الأغصان هناك في الأعلى.

والآن، الحبل مربوط حول وسطه ورسغيه كذلك، وهكذا لدى نهوضه أخيرًا على قدميه، لم يكن قادرًا على التقدُّم إلَّا بما سمح به رسنه.

- أيُّها المحارب، ألم تعد صديقي ومعلِّمي؟

- ما زلت كذلك وفوق هذا أنا حاميك أيضًا. ستخفِّف سرعتك الطائشة من هنا فصاعدًا.

اكتشف أنه لم يكترث بأمر الحبل. فالمشية التي أرغمه عليها مثل تلك التي لبغل، وذكَّره ذلك بعهد غير بعيد كان قد قلَّد فيه حيوانًا كهذا بالضبط، طائفًا حول عربة مرارًا وتكرارًا. هل أصبح ذلك البغل الآن، مندفعًا بعناد فوق المنحدر رغم جذب الحبل إلى الوراء؟

شدَّ وشدَّ، مندفعًا إلى الأمام ومتمكِّنًا أحيانًا من الركض بضع خطوات قبل أن يجذبه الحبل بعنف ويوقفه في مكانه. ثمَّة صوت في أذنيه - صوت مألوف - ما بين الغناء والدندنة، يعلو مردِّدًا لحنًا طفوليًّا، لحنًا يعرفه جيِّدًا مذ كان صبيًّا. كان مثيرًا للارتياح والانزعاج بقدر متكافئ، واكتشف أنه إذا دندن مع الصوت أثناء اندفاعه وجذبه للحبل، فإن الصوت يفقد شيئًا من تأثيره المزعج. ولهذا دندن، مهمهمًا في نفسه أوَّل الأمر، ثم مطلقًا العنان لصوته وقد تخفَّف من سطوة الكبت: «من ذا سكب قدح الجعة؟ من ذا قطع ذيل التنِّينة؟ من ذا ترك الحيَّة في السلَّة؟ إنَّه ابن عمك آندي». كان هناك المزيد من المقاطع التي لم يعد يحفظها، لكنه تفاجأ عندما اكتشف بأنه لم يكن عليه فعل شيء سوى الدندنة مع الصوت لتخرج الكلمات صحيحة من فمه.

أصبحت الأشجار قريبة الآن لكنَّ المحارب جذبه بقوَّة من جديد قائلًا:

- ببطء، أيُّها الرفيق الشابُّ. نحن بحاجة إلى ما هو أكثر من الشجاعة لدخول هذه الأيكة العجيبة. انظر هناك. وجود الصنوبر على ارتفاع كهذا ليس بلغز محيِّر، لكن أليست تلك أشجار بلُّوط ودردار بجوارها؟

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- ليس مهمًّا أي صنف من الأشجار ينمو هنا، أيُّها المحارب، أو أي نوع من الطيور يحلِّق في هذه الأجواء! بقي لدينا القليل من الوقت وعلينا أن نسرع!

دخلوا الأيكة فتغيَّرت معالم الأرض من تحت أقدامهم: كانت مكسوَّة بالطحالب المخملية، والقرَّيص بل والسرخس أيضًا. أمَّا أوراق الشجر من فوقهم فكثيفة ملتفَّة إلى حدٍّ تشكيل سقفٍ عالٍ، ولهذا مشيا لبعض الوقت على غير هدى تحت ضوء معتم. رغم ذلك لم تكن هذه غابة، إذ سرعان ما أبصرا فسحة خالية من الشجر بقبَّة مفتوحة على السماء قبالتهما. فكَّر إدْوِن: «لو كان هذا من صنع إله ما، فإن القصد من ورائه إخفاء شيء ليس هنا بل على مسافة من وراء هذه الأشجار». جذب الحبل بغضب قائلًا:

- لمَ التلكُّؤ أيُّها المحارب؟ أيمكن أن تكون خائفًا؟
- انظر إلى هذا المكان أيُّها الرفيق الشابُّ. غريزة الصيَّاد لديك ساعدتنا جيِّدًا. لا بدَّ من أن ما يقابلنا الآن هو وكر التنِّينة.
- أنا الصيَّاد من بيننا نحن الاثنين، أيُّها المحارب، وأنا أقول إن تلك الفسحة الخالية وسط الشجر لا تنِّين فيها. يجب أن نتجاوزها ونقطع ما يليها على عجل، ما زال علينا قطع المزيد!
- جرحك أيُّها الرفيق الشابُّ. دعني أرَ إن كان ما زال نظيفًا.
- لا عليك من جرحي! سيضيع أثر الرائحة! ارمِ الحبل أيُّها المحارب. سأركض من دون توقُّف إن لم تفعل ذلك!

أطلق وِسْتِن الحبل هذه المرَّة، فاندفع إدْوِنْ راكضًا وسط الأشواك والجذور المتشابكة. فقد توازنه عدَّة مرَّات، فيداه الموثقتان لم تكونا طليقتين كي يوازن بهما نفسه. لكنه وصل الفسحة الخالية وسط الشجر من دون إصابة، ووقف عند حافَّتها، ثم تملَّى في المشهد الذي أطلَّ عليه.

كان في وسط الفسحة بركة ماء متجمِّدة بالكامل، لذا قد يقطعها الرجل- إن كان شجاعًا أو أحمق بما يكفي- في عشرين خطوة ونيِّف. لم يكن امتداد

سطح الجليد الأملس منقطعًا إلَّا قرب الطرف الأبعد، حيث اخترقه جذع شجرة ميِّتة أجوف. فوق الضفَّة، وغير بعيد عن الشجرة الهالكة، كان غول ضخم راكعًا ومرفقاه عند حافَّة البركة تمامًا، ورأسه مغموس برمَّته في الماء. ربما كان الكائن منهمكًا في الشرب - أو منقِّبًا عن شيء تحت السطح - عندما داهمه التجمُّد الفجائي للبركة. لعينٍ غير متفحِّصة، ربما بدا الغول جثَّة من دون رأس، قُطِعَ عنقها لدى زحفها لإطفاء العطش.

سلَّطت رقعة السماء في أعلى البركة ضوءًا غريبًا على الغول، فحدَّق إدْوِنْ إليه لبعض الوقت، كمن يتوقَّع أن تدبَّ الحياة فيه، فيرفع وجهًا مسلوخًا مريعًا. ثم، وبارتعاش من هول المباغتة، أدرك بأن ثمَّة كائنًا ثانيًا جاثمًا في الوضعية نفسها فوق أقصى طرف البركة الأيمن. وهناك! - ثالث، غير بعيد من أمامه، فوق الضفَّة الأقرب، نصف مختفٍ وسط شجيرات الخنشار.

لم تكن الغيلان تُثير فيه عادة سوى الاشمئزاز، لكنَّ تلك الكائنات، وما في وضعية أجسادها المحزنة من رعب، أشعرت إدْوِن بشيء من الشفقة. ما الذي أوصلها إلى مصير كهذا؟ بدأ بالتوجُّه نحوها، لكنَّ الحبل كان مشدودًا من جديد، وسمع وِسْتِن من خلفه قائلًا:

- أما زلت تنكر بأن هذا وكر تنِّين أيُّها الرفيق؟
- ليس هنا أيُّها المحارب. ما زال علينا قطع المزيد من الطريق.
- رغم ذلك، كأن هذه البقعة تهمس لي بشيء. حتى إن لم يكن هذا وكرًا لها، أليس مكانًا تقصده للشرب والاستحمام؟
- أقول إنه مكان ملعون، أيُّها المحارب، وليس موقعًا مناسبًا لقتالها. لا ينتظرنا هنا سوى الخسران. انظر إلى تلك الغيلان المسكينة، وهي تكاد تكون في مثل ضخامة ما قتلته من عفاريت مردة في تلك الليلة.
- ما الذي تتحدَّث عنه أيُّها الغلام؟
- ألا تراها؟ انظر هناك! وهناك!

- سيِّد إدوِن، نال منك الإرهاق، كما كنتُ أخشى. لنسترح قليلًا. إن كانت هذه البقعة كئيبة، فهي مع ذلك تريحنا قليلًا من عذاب الريح.
- كيف يمكنك الحديث عن الراحة أيُّها المحارب؟ ألم يكن ذاك هو ما ساق هذه الكائنات المسكينة إلى حتفها، التسكُّع في مكان مسحور كهذا لوقت أطول من اللازم؟ أنصت لتحذيراتها، أيُّها المحارب!
- التحذير الوحيد الذي أنصت إليه يقول إن عليَّ أن أحملك على الراحة قبل أن تودي بقلبك نفسه إلى حدِّ الانفجار.

شعر بنفسه يُجرُّ من الخلف، ثم ارتطم ظهره بجذع شجرة. وبعد ذلك شرع المحارب في الدوران من حوله بتثاقل، لافًّا الحبل حول صدره وكتفيه حتى أصبح بالكاد قادرًا على تحريك ساكن. ولما فرغ من ذلك، وضع المحارب يده فوق كتف إدْوِنْ برفق، وقال:

- أيُّها الرفيق الشابُّ، هذه الشجرة الطيِّبة لا تُضمر تجاهك أي سوء. لِمَ تبدِّد قوَّتك هكذا محاولًا اجتثاثها من جذورها؟ أقترح عليك أن تهدأ وتأخذ قسطًا من الراحة، بينما أتفحَّص أنا هذا المكان عن كثب.

راقب وِسْتِن أثناء شقِّ طريقه بحذر عبر شجيرات القرَيص متَّجهًا نحو البركة. ولمَّا بلغ حافَّة الماء، قضى المحارب عدَّة دقائق في المشي ببطء جيئة وذهابًا، مدقِّقًا النظر في الأرض، ومقرفصًا أحيانًا لفحص ما لفت انتباهه. ثم اعتدل، وبدا مستغرقًا لبرهة طويلة في أسر حلم يقظة، محملقًا في الأشجار على الطرف الأقصى من البركة. بالنسبة لإدوِن، أصبح المحارب الآن خيالًا مطبوعًا فوق صفحة الماء المتجمِّد. لماذا لم يختطف ولو نظرة واحدة نحو الغيلان؟

بحركة فجائية واحدة، أصبح سيف وِسْتِن في يده، وذراعه منتصبة في الهواء من دون حراك. ثم أعاد السلاح إلى غمده وقفل عائدًا وقد أولى ظهره إلى الماء. ولما أقترب من إدْوِنْ قال:

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

- لا يمكن الزعم بأننا أوَّل زوَّار يصلون إلى هنا. ففي الساعة الماضية فقط، مرَّ البعض من هذا المكان، ولا أعني التنِّينة بهذا. سيِّد إدوِن، سعيد برؤيتك وقد هدأت قليلًا.

- أيُّها المحارب، عليَّ الاعتراف لك بشيء، قد يحملك على ذبحي فورًا، حتى وأنا مربوط إلى هذه الشجرة.

- تحدَّث، أيُّها الغلام، ولا تخف مني.

- أيُّها المحارب، أنت من زعم بأنني أمتلك موهبة الصيَّاد، حتى عند حديثك عن هذا أوَّل مرَّة كل ما شعرت به حينذاك هو شيء ما يجذبني بشدَّة، مع ذلك تركتك تصدِّق بأن رائحة كويرِغ في خياشيمي. لكني كنت أخدعك دائمًا.

اقترب وِسْتِن إلى أن أصبح مقابله تمامًا وقال:

- تابع القول أيُّها الرفيق.

- لا أستطيع متابعة القول أيُّها المحارب.

- ينبغي أن تخاف من عواقب ما ينطوي عليه صمتك أكثر ممَّا تخشى غضبي. تكلَّم.

- لا أستطيع أيُّها المحارب. عندما بدأنا في التسلُّق، كنت أعرف تمامًا ما سأقوله لك. أما الآن... لست متأكِّدًا ممَّا أخفيه عنك.

- إنها أنفاس التنِّينة، هذا كل ما هنالك. كانت سطوتها عليك واهية في السابق، أما الآن فإنها تهيمن عليك. علامة أكيدة على اقترابنا منها.

- أخشى أن هذه البركة الملعونة تسحرني، أيُّها المحارب، وربما تسحرك أنت أيضًا، فهي تحملك على الاكتفاء بالتسكُّع هنا من دون إلقاء ولو نظرة خاطفة على تلك الغيلان الغريقة. رغم ذلك أعرف بأن هناك أمرًا ما عليَّ الاعتراف به لكني أتمنَّى لو كنتُ قادرًا على تذكُّره.

- دلَّني على الطريق إلى وكر التنِّينة وسأسامحك على أيِّ كذبات صغيرة كذبتها عليَّ.

- لكن هذا كل ما هو هناك، أيُّها المحارب. ركبنا الفرس إلى أن كاد قلبها يوشك على الانفجار، ثم تسلَّقنا جانب هذا الجبل الشديد الانحدار، لكني مع ذلك لا أقودك إلى التنِّينة على الإطلاق.

اقترب وِستِن كثيرًا حتى شعر إدْوِنْ بأنفاس المحارب ثم قال:

- إلى أين يمكن إذًا، سيِّد إدوِن، أن تكون قد قدتني؟
- أمِّي، أيُّها المحارب، تذكَّرت الآن. عمَّتي ليست بأمِّي. أمِّي الحقيقية أُخِذَت، ومع أني كنت صبيًّا صغيرًا حينذاك، إلَّا أنني كنت أراقب. وعدتها بأنني سوف أردُّها يومًا ما. الآن وأنا أكاد أبلغ مبلغ الرجال، وأنت إلى جانبي، سوف يرتجف حتى هؤلاء الرجال ذعرًا من مواجهتنا. خدعتك، أيُّها المحارب، لكن تفهَّم مشاعري وساعدني الآن وقد اقتربنا منها كثيرًا.
- أمُّك. تقول إنها قريبة منَّا الآن؟
- أجل أيُّها المحارب. لكن ليس هنا. ليس في هذا المكان الملعون.
- ما الذي تتذكَّره عن الرجال الذين أخذوها؟
- كانوا شرسين، أيُّها المحارب، ومعتادين كثيرًا على القتل. لم يجرؤ أيُّ رجل في القرية على الخروج لمواجهتهم في ذلك اليوم.
- من الساكسون أم البريتون؟
- بل من البريتون أيُّها المحارب. ثلاثة رجال، وقال ستيفا إنهم حتمًا كانوا جنودًا منذ عهد ليس ببعيد، فقد ميَّز طرائق الجند في تصرُّفاتهم. لم أكن قد بلغت الخامسة من العمر حينئذ، وإلَّا لقاتلت من أجلها.
- أمِّي نفسها أُخِذَت، أيُّها الرفيق الفتى، ولهذا فإنني أتفهَّم مشاعرك جيِّدًا. كما كنت أنا أيضًا طفلًا وضعيفًا عندما أُخِذَت. كانت تلك أوقات حرب، ولسذاجتي، بعدما رأيت كيف ذبح هؤلاء الرجال وشنقوا الكثيرين، فرحت عندما لاحظت الطريقة التي كانوا يبتسمون بها لها، مصدِّقًا بأنهم يقصدون محاباتها ومعاملتها بلطف. ربما انطلى

الأمر عليك أنت أيضًا بهذه الطريقة، سيِّد إدونِ، عندما كنتَ صغيرًا وغير مدرك بعد لطرائق الرجال.

- أُخِذَت أمِّي في زمن السلم، أيُّها المحارب، ولهذا لم يلحقها أذى عظيم. ومنذ ذلك الحين وهي ترتحل من بلد إلى بلد، وقد لا تكون تلك بالحياة السيِّئة. لكنها مع ذلك تتوق إلى العودة لأجلي، وصحيح أيضًا، أن من يرتحلون معها من الرجال قساة في بعض الأحيان. أيُّها المحارب، تقبَّل هذا الاعتراف، عاقبني لاحقًا، لكن ساعدني الآن على مواجهة آسريها، فهي تنتظرني منذ سنين طويلة.

حدَّق وِسْتِن إليه دهشًا. بدا على أهبَّة النطق بشيء، لكنه هزَّ رأسه وابتعد خطوات عن الشجرة، كأنما اعتراه الخزي. لم يرَ إدْوِنْ المحاربَ قطُّ وقد انتابه أمر من هذا القبيل، فراقبه بدهشة. ثم تكلَّم وِسْتِن في نهاية المطاف، بعد أن استدار لمقابلته:

- سأغفر لك خديعتك هذه من دون تردُّد، سيِّد إدوِن، وفوقها أي كذبات صغيرة ربما أقدمت عليها. كما سأحرِّرك من هذه الشجرة بعد قليل، وسنذهب معًا لمواجهة أي خصم قد تقودنا إليه. لكني أطلب منك في المقابل أن تعدني بشيء.
- أخبرني به أيُّها المحارب.
- إن سقطتُ أنا ونجوت أنت، عدني بهذا. بأنك ستحمل في قلبك كراهية البريتون.
- ماذا تعني أيُّها المحارب؟ أي جماعة من البريتون؟
- كل البريتون أيُّها الرفيق. حتى من يعاملك منهم معاملة حسنة.
- لم أفهم أيُّها المحارب. أيجب أن أكره شخصًا من البريتون يقاسمني خبزه؟ أو ينقذني من عدوٍّ مثلما فعل السير غَاوِن الطيِّب مؤخَّرًا؟
- هناك من البريتون من يثيرون فينا نوازع الاحترام، بل والحبَّ أيضًا، أعرف ذلك حقَّ المعرفة. لكننا الآن في مواجهة أمور عظيمة وأكثر

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

أهمية ممَّا قد يشعر به كلٌّ طرف تجاه الآخر. البريتون تحت لواء آرثر هم من ذبحوا أبناء عمومتنا. البريتون هم من أخذوا أمَّك وأمِّي. من الواجب علينا أن نكره كل رجل، وامرأة، وطفل من نسلهم. لذا عدني بهذا. إن قُتلتُ قبل أن أتمكَّن من نقل مهاراتي إليك، عدني بأن تحرص جيِّدًا على رعاية هذه الكراهية في قلبك. وإن بهت وميضها أو أوشكت نارها على الخمود، احمِها بحرص إلى أن يتَّقد لهيبها ثانية. هل تعدني بذلك، سيِّد إدوِن؟

- حسنًا، أيُّها المحارب، أعدك. لكني أسمع الآن صوت أمِّي مناديًا، كما أننا قطعًا مكثنا في هذا المكان السوداويِّ مدَّة أطول ممَّا يجب.
- لنذهب إليها إذًا. لكن كن متهيِّئًا لاحتمال وصولنا لإنقاذها بعد فوات الأوان.
- ماذا تعني أيُّها المحارب؟ كيف لأمر كهذا أن يحدث أبدًا، وأنا أسمع نداءها حتى في هذه اللحظة؟
- لننطلق على عجل إذًا تلبية لندائها. لكن عليك أن تضع أمرًا في حسبانك، أيُّها الرفيق الشابُّ. عندما تكون ساعة الإنقاذ قد فاتت، فإن ساعة الانتقام تكون قد بدأت. ولهذا دعني أسمعك وأنت تكرِّر وعدك ثانية. عدني بأنك ستكره البريتون إلى يوم تقضي نحبك، إمَّا صريعًا في أرض المعركة أو من وطأة الهرم.
- أعدك بهذا ثانية وبكل سرور أيُّها المحارب. لكن أطلق سراحي من هذه الشجرة، فأنا أحسُّ الآن بالاتجاه الذي يتوجَّب علينا المضيُّ فيه بكل وضوح.

الفصل الثالث عشر

كانت العنزة، كما لاحظ أكسِل، في موطنها المناسب تمامًا وسط هذه التضاريس الجبلية. فهي تقضم العشب والـخلنج الهزيل بسعادة، غير مكترثة بالريح، أو بأن قائمتها اليسرى منحدرة بشدَّة عن مستوى نظيرتها اليمنى. كان للبهيمة شراسة اندفاع إلى الأمام - كما اكتشف أكسِل جيِّدًا أثناء تسلُّق الجبل - ولم يكن من السهل العثور على طريقة مأمونة لربطها بينما أخذ هو وبياترِس قسطًا من الراحة. لكنه أبصر جذر شجرة ميِّتة ناتئًا من المنحدر، فشدَّ زمام العنزة إليه بإحكام.

ها هي العنزة الآن بادية للعيان من الموضع الذي جلسا فيه. كانت الصخرتان الكبيرتان، المتَّكئة الواحدة منهما على الأخرى مثل زوجين عجوزين، واضحتين عن مسافة في الأسفل، لكنَّ أكسِل كان يأمل في العثور على ملجأ من الريح قبل الوصول إليهما بزمن طويل. ولمَّا كان منحدر الجبل الأجرد ضنينًا، لم يكن أمامهما سوى المواظبة على ارتقاء الدرب الصغير. وخلال ذلك، بدا اندفاع العنزة الهوجاء لا يقلُّ شراسة عن عصف الريح. لكنَّهما حين وصلا أخيرًا إلى الصخرتين التوأمتين، شعرا كأنهما ملاذ آمن صنعه الربُّ لأجلهما، وإن كان عواء الريح ما زال يُسمع في الخارج، فإنهما لم يشعرا إلَّا بخفقان واهٍ له في الداخل. رغم ذلك، جلسا متلاصقين ظهرًا إلى ظهر، كما لو كانا يحاكيان الصخرتين من فوقهما.

- ها هو البلد ما زال بأسره في الأسفل يا أكسِل. ألم يقطع النهر بنا أي مسافة تذكر؟

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

- اعترُض طريقنا قبل أن نتمكَّن من ذلك يا أميرة.
- وها نحن الآن نتسلَّق الجبل من جديد.
- تمامًا يا أميرة. أخشى أن تلك الفتاة الصغيرة أخفت عنَّا طبيعة المشقَّة الحقيقية لهذه المهمَّة.
- لا شكَّ في ذلك، يا أكسِل، جعلت الأمر يبدو وكأنه نزهة بسيطة. لكن من يلومها؟ طفلة تحمل على عاتقها همومًا أثقل ممَّا ينبغي لمن هي في مثل سنِّها. أكسِل، انظر هناك. أسفل ذاك الوادي، هل تراهم؟

بيد مرفوعة اتقاء لوهج الضوء، حاول أكسِل تبيُّن ما تشير إليه زوجته، لكنه في نهاية المطاف هزَّ رأسه وقال:

- عيناي ليستا بقوَّة عينيك يا أميرة. أرى أودية أسفل منحدرات الجبال، لكن لا شيء ملفت للنظر.
- هناك يا أكسِل، اقتفِ اتجاه إصبعي. أليس هؤلاء جنودًا يمشون في طابور واحد؟
- أراهم الآن، إلى حدٍّ لا بأس به. لكنهم قطعًا لا يتحرَّكون.
- إنهم يتحرَّكون، يا أكسِل، قد يكونون جنودًا، لكنهم يتحرَّكون على شاكلة مشيتهم المعهودة في طابور طويل.
- لا يبدو لعينيَّ الضعيفتين، يا أميرة، أنهم يتحرَّكون على الإطلاق. وحتى إن كانوا جنودًا، فإن ما يفصلنا عنهم من مسافة شاسعة تقينا شرَّ مضايقتهم. تلك السحب المتراكمة غربًا هي ما يثير قلقي أكثر، فهي أسرع في جلب الأذى من أي جند في الأفق البعيد.
- أنت محقٌّ، يا زوجي، كم سنقطع من مسافة بعد حتى نصل إلى غايتنا. تلك الفتاة الصغيرة لم تكن صادقة، بتأكيدها على أن المسافة نزهة قصيرة. مع ذلك هل نستطيع لومها؟ والداها غائبان وشقيقاها الصغيران في عهدتها. لا بدَّ من أنها كانت يائسة حين استنجدت بنا لتنفيذ مرادها.

- أستطيع رؤيتهم بوضوح أكبر، يا أميرة، الآن والشمس تتلصَّص من خلف السحب. ليسوا جنودًا ولا رجالًا على الإطلاق، بل رفًّا من الطيور.
- أيُّ حُمق هذا، يا أكسِل. لو كانت طيورًا، فكيف كنَّا سنراها أصلًا من هذه المسافة؟
- هي أقرب ممَّا تتخيَّلين، يا أميرة. طيور داكنة تربض في صفٍّ واحد، مثل ما تفعله في الجبال.
- لماذا إذن لا يطير أحدها في الهواء خلال مراقبتنا لها؟
- قد يطير أحدها فيما بعد، يا أميرة. إنني شخصيًّا لا أعتب على تلك الفتاة، أليست في محنة عظيمة؟ كذلك، كيف سيكون حالنا من دون ما قدَّمته لنا من مساعدة، مبلَّلين ومرتجفَين كما كنَّا لحظة لقائنا بها؟ علاوة على هذا، يا أميرة، وحسبما أذكر، لم تكن تلك الفتاة منفردة في حماسها لإرسال هذه العنزة إلى رجم العملاق أعلى الجبل. هل مضت حتى ساعة مذ كنت تشاطرينها الحماس والقلق؟
- وما زال قلقي كما كان يا أكسِل. ألن يكون من الرائع أن تُقتل كويرِغ وينقشع هذا الضباب إلى الأبد؟ لكنني عندما أرى العنزة تقضم الأرض بذلك النهم، يصعب عليَّ تصديق أن كائنًا أبله مثل ذاك يمكنه أن يفتك بتنِّينة عظيمة.

كانت العنزة تأكل بشهيَّة مماثلة في البكور من ذلك الصباح حين صادفا الكوخ الحجري الصغير في طريقهما. كان من السهل المرور بالكوخ من دون الانتباه له، متواريًا في جيبٍ من الظلِّ أسفل منحدر صخري مرتفع، وحتى عندما أشارت بياترِس بإصبعها ولفتت نظره إليه، أخطأ أكسِل في الظنِّ بأنه مدخل مستوطنة لا تختلف عمَّا يعيشان فيه، محفورة عميقًا في جانب الجبل. لم يدرك، إلَّا حين اقتربا فقط، أنه كان بنيانًا منفصلًا، جدرانه وسطحه تتألَّف من قطع صخرية مدبَّبة ورمادية داكنة اللون. يهبط الماء من علٍ في خيط دقيق من

أمام الجرف الصخري، متجمِّعًا في بركة قرب الكوخ ثم ينساب حيث تنحدر الأرض تدريجيًّا وتحتجب عن البصر. غير بعيد عن مدخل الكوخ، ثمَّة حظيرة صغيرة مسيَّجة، متوهِّجة بضوء الفجر، أمَّا ساكنها الوحيد فهو العنزة. وكالعادة، كانت منهمكة في الأكل، لكنها توقَّفت لتحملق في أكسِل وبياترِس بدهشة.

أمَّا الأطفال فظلُّوا، مع ذلك، غير منتبهين لقدومهما. كانت الفتاة الصغيرة وشقيقاها واقفين على حافَّة خندق مائي، ظهورهم إلى زائريهم وهم مستغرقون تمامًا في مراقبة أمر داخل ذلك الخندق. ولما قرفص أحد الولدين الصغيرين لقذف شيء فيه، جذبته الفتاة من ذراعه إلى الوراء. قالت بياترِس:

- ما الذي يمكن أن يشغلهم هكذا يا أكسِل؟ ممَّا تبصره العين أقول إنه عمل من أعمال الرعونة، مع أن أحدثهم في السنِّ ما يزال صغيرًا إلى حدِّ الوقوع في الخندق عن غير قصد.

لمَّا تجاوزا العنزة وظلَّ الأطفال منشغلين عنهما، هتف أكسِل مناديًا بأرقِّ نبرة ممكنة:

- حماكم الربُّ.

استدار ثلاثتهم بفزع، وما بدا على وجوههم من إمارات الذنب أكَّد فكرة بياترِس من أنهم كانوا منشغلين بأمر أرعن، لكنَّ الفتاة - أطول من الولدين برأس - تداركت نفسها بسرعة ثم ابتسمت قائلة:

- أيُّها الشيخان الجليلان! مرحبًا! دعونا الربَّ ليلة البارحة كي يرسلكما، وها قد أتيتما إلينا! يا مرحبًا، يا مرحبًا!

توجَّهت نحوهما بخطى تراشق منها الماء بسيرها فوق عشب الأرض السبخة، وشقيقاها ملتصقان بها من الخلف.

ردَّ أكسِل:

- ربما اختلط عليك الأمر أيَّتها الطفلة. نحن فقط عابرا سبيل ضلَّا طريقهما وأنهكهما البرد والتعب، ملابسنا مبتلَّة من النهر حيث هوجِمنا منذ قليل من قِبل صغار جنٍّ متوحِّشين. أتأذنين بالمناداة على

أمِّك أو أبيك ليسمحا لنا بنيل قسط من الدفء وتجفيف أنفسنا من حول نار؟

- لم يختلط الأمر علينا أيُّها السيِّد! صلَّينا للربِّ يسوع ليلة البارحة وها قد أتيتما الآن! أرجوكما، أيُّها الشيخان، اذهبا إلى بيتنا وادخلاه، ما زالت هناك نيران موقدة.

سألتها بياترِس:

- لكن أين والداكِ أيَّتها الطفلة؟ قد نكون متعبَين، لكننا لن نتطفَّل على أحد، ولهذا سننتظر إلى حين أن تدعونا ربَّة أو ربِّ البيت إلى الدخول.

- لم يبق هنا سوانا نحن الثلاثة، أيَّتها السيِّدة، ولهذا بمقدورك أن تناديني بربَّة البيت! أرجوكما، اذهبا إلى الداخل واحصلا على الدفء. ستجدان طعامًا في الكيس المعلَّق بأحد العوارض الخشبية، وهناك حطب إلى جانب الموقد. ادخلا، ولن نزعجكما لبعض الوقت، إذ علينا تدبُّر احتياجات العنزة.

ردَّ أكسِل:

- نقبل وبامتنان حسن ضيافتك، أيَّتها الطفلة، لكن أخبرينا إن كانت القرية الأقرب إلى هذا المكان بعيدة من هنا.

تبدَّلت سحنة الفتاة، وتبادلت نظرات مع شقيقيها، الواقفين الآن على جنبيها. ثم ابتسمت ثانية وقالت:

- نحن على علوٍّ شاهقٍ هنا في الجبال أيُّها السيِّد. وهذا المكان بعيد عن أي قرية، لهذا نطلب منكما البقاء معنا هنا، والقبول بما نقدِّمه لكما من نار وطعام. لا بدَّ من أنَّكما متعبان جدًّا، كما أنني أرى كيف تحملكما هذه الريح على الارتجاف. لهذا أرجوكما، كفى كلامًا عن الرحيل من هنا. ادخلا وارتاحا، فلطالما انتظرنا مجيئكما!

سألتها بياترِس فجأة:

- ما الذي يستولي على انتباهكم بشدَّة في ذلك الخندق هناك؟

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- آه، لا شيء أيَّتها السيِّدة! لا شيء على الإطلاق! ولكن ها أنتما تقفان وسط هذه الريح بثياب مبتلَّة! ألا تقبلان ضيافتنا، وتستريحان قرب نارنا؟ انظرا كيف يتصاعد دخانها من السطح الآن!

***

«هناك!» دفع أكسِل بوزنه من فوق الصخرة مشيرًا بإصبعه وأكمل: «طائر طار في السماء. ألم أقل لك، يا أميرة، إن تلك طيور رابضة في صفٍّ واحد؟ هل تبصرينه وهو محلِّق في السماء؟».

أقدمت بياترِس الآن، بعد أن كانت قد نهضت على قدميها قبل بضع لحظات، على خطوة خارج ملاذهما الصخري، ورأى أكسِل الريح وقد جذبت ثيابها على الفور. ردَّت قائلة:

- أجل، إنه طائر بالفعل، لكنه لم يعلُ من بين تلك الهيئات الأبعد. ربما سبب ذلك هو أنك ما زلت لا ترى ما أشير إليه يا أكسِل. أعني هناك، على الحافَّة الأبعد، تلك الأشكال الداكنة التي توشك على ملامسة السماء.
- أراها جيِّدًا يا أميرة. لكن ارجعي إلى الداخل واحتمي من الريح.
- سواء كانوا جنودًا أم لا، إلَّا أنهم يتحرَّكون متقدِّمين ببطء. الطائر لم يكن أبدًا واحدًا منهم.
- احتمي من الريح، يا أميرة، واجلسي في الداخل. يجب أن نستجمع قوانا بأحسن ما نستطيع. من يعلم كم سنقطع من مسافة بعد ونحن نجرُّ هذه العنزة؟

عادت بياترِس إلى داخل ملاذهما، محكِمة شدَّ الرداء الذي استعارته من الأطفال حول نفسها. ثم جلست بقربه ثانية وقالت:

- أكسِل، أتصدِّق حقًّا هذا الأمر؟ أن من قد يقتل التنِّينة، لن يكون الفرسان والمحاربون الأشدَّاء، بل زوجان عجوزان متعبان مثلنا، ممنوعان حتى

من حقٍّ استخدام شمعة داخل قريتهما نفسها؟ ومن دون عون أحد سوى هذه العنزة النزقة؟

- من يدري بأن الأمر سيكون كذلك، يا أميرة. ربما لا يتعدّى أن يكون أمنيات صبيَّة صغيرة ولا شيء أزيد من ذلك. مع ذلك، كنَّا ممتنِّين لحسن ضيافتها، ولهذا لا ينبغي لنا أن نشعر بالضير من تنفيذ ما طلبته. ومن يدري، قد تكون محقَّة، وتُقتل كويرِغ بهذه الطريقة.
- أكسِل، قل لي. لو قُتلت كويرِغ حقًّا، وبدأ الضباب بالانقشاع، هل تخشى أبدًا ممَّا سيتكشَّف حينذاك لنا؟
- ألم تجيبي عن هذا السؤال بنفسك يا أميرة؟ إن حياتنا معًا مثل حكاية من الحكايات ذات النهاية السعيدة، مهما كانت المنعطفات التي سلكتها في طريقها نحو الخاتمة.
- قلت ذلك من قبل يا أكسِل. لكن الآن وقد أصبح قتل كويرِغ بأيدينا نحن محتملًا، ثمَّة جزء مني يخشى تلاشي الضباب. أيمكن أن يكون الأمر على هذه الشاكلة بالنسبة لك يا أكسِل؟
- ربما يكون كذلك يا أميرة. ربما كان دائمًا كذلك. لكن أكثر ما أخشاه هو ما تحدَّثتِ عنه سابقًا. أعني عندما كنا نستريح حول النار.
- ما الذي قلته حينذاك يا أكسِل؟
- ألا تتذكَّرين يا أميرة؟
- هل وقع بيننا شجار أحمق ما؟ لا أتذكَّر شيئًا الآن، عدا أنني كنت على حافَّة الجنون من البرد والحاجة إلى الراحة.
- إن كنت لا تتذكَّرينه يا أميرة، فلندعه يبقى طيَّ النسيان.
- لكني شعرت بشيء ما، يا أكسِل، منذ أن تركنا هؤلاء الأطفال. كأنك تحمل نفسك على الابتعاد عني أثناء السير، لا بسبب اندفاع تلك العنزة فقط. أيمكن أن يكون ذلك لأننا تشاجرنا سابقًا، مع أني لا أتذكَّر شيئًا من هذا؟

- لم يكن عندي قصد أو نيّة في إبعاد نفسي عنكِ يا أميرة. سامحيني. إن لم يكن مردُّ ما شعرتِ به هو اندفاع العنزة هنا وهناك، فحينذاك لا بدَّ من أنه كان بسبب تفكيري فيما قيل من حماقات بيننا. ثقي بي، من الأفضل أن ندعه طيَّ النسيان.

***

أجَّج النار من جديد في وسط الغرفة، وغرق كل ما عداها داخل الكوخ الصغير في الأخيلة. عكف أكسِل على تجفيف ثيابه، رافعًا كل قطعة أمام ألسنة اللهب، فيما استسلمت بياترِس للنوم في عشٍّ وثير من البسط بقربه. لكنها اعتدلت، على حين غرَّة، وقلَّبت البصر فيما حولها.

- هل النار حارَّة جدًّا بالنسبة لك يا أميرة؟

ظلَّ الذهول باديًا عليها لبرهة، ثم عادت إلى التمدُّد بإرهاق فوق البسط. لكنَّ عينيها مع ذلك بقيتا مفتوحتين، وكان أكسِل على أهبَّة طرح سؤاله من جديد عندما قالت بهدوء:

- كنت أفكِّر في ليلة انقضت منذ أمد بعيد يا زوجي. عندما فارقتني، وتركتني في فراش خاوٍ، متسائلة في نفسي إن كنت ستعود إليَّ يومًا ما.

- يا أميرة، رغم نجاتنا من الجنِّ في النهر، ولكنني أخشى من أنك ما زلت تحت تأثير تعويذة سحرية تصيبك بأحلام كهذه.

- ليست أحلامًا يا زوجي. هي فقط ذكرى، أو اثنتان، تعاودني. الليلة مظلمة كسائر الليالي، وهناك كنتُ، وحيدة في فراشنا، وأنا طوال الوقت على علم بأنك ذهبت إلى أخرى أكثر صبًا وجمالًا.

- ألن تصدِّقيني يا أميرة؟ هذا من عمل الجنِّ ومفعوله ما زال ساريًا لإيقاع الشقاق بيننا.

- قد تكون محقًّا يا أكسِل. ولو أنها كانت ذكريات حقيقية، فإنها من عهد قديم مضى وانقضى. مع ذلك...

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

خيَّم الصمت عليها، فظنَّ أكسِل أن النعاس غلبها من جديد. لكنها عاودت الحديث قائلة:

- مع ذلك، يا زوجي، إنها ذكرى تحملني على الانقباض منك. عند انتهاء استراحتنا هنا، وانطلاقنا من جديد، دعني أسِرْ على مسافة بسيطة إلى الأمام وأنت إلى الخلف. لنمضِ في طريقنا على هذا النحو، يا زوجي، فأنا لن أرحِّب الآن بسيرك معي جنبًا إلى جنب.

لم يقابل ذلك بردٍّ في البداية. ثم أنزل قطعة الثياب من أمام النار واستدار كي ينظر إليها. كانت عيناها مقفلتين من جديد، لكنه مع ذلك كان متأكِّدًا من أنها لم تكن نائمة. عندما عثر أكسِل على صوته أخيرًا، لم يصدر من جوفه إلَّا همسًا:

- سيكون هذا أعظم أمر محزن بالنسبة لي يا أميرة. أن أمشي منفصلًا عنك، فيما تتيح لنا الطريق السير معًا كما فعلنا على الدوام.

لم تصدر أي إشارة من بياترِس تدلُّ على سماعها ذلك، وخلال لحظات كان تنفُّسها قد أصبح عميقًا منتظمًا. وعندها ارتدى ثيابه الدافئة وتمدَّد فوق بطَّانية قرب زوجته، لكن من دون أن يلامسها. اجتاحه تعب طاغٍ، ورغم ذلك، رأى ثانية جحافل صغار الجنِّ متدافعة في الماء من أمامه، والمجرفة التي طوَّحها في الهواء تحطُّ فوق رؤوسها، ثم تذكَّر الضجيج الذي كان أشبه بأصوات أطفال يلعبون من بعيد، وكيف قاتل، وكأنه محارب يهدر صوته بالغضب. والآن قالت ما قالته. ارتسمت في مخيِّلته صورة، واضحة من دون غبش، له ولبياترِس فوق طريق في جبل، تعلوهما سماوات شاسعة مكفهرَّة، وهي تسير بضع خطوات من أمامه، فانبجس طوفان عظيم من الحزن في داخله. وهكذا مضيا، زوجان عجوزان، برأسين مطأطئين، وبينهما خمس أو ستُّ خطوات من الفراق.

استيقظ فوجد النار قد همدت، وبياترِس واقفة على قدميها، متلصِّصة من أحد الفُرَجِ الضيِّقة في الحجر التي تمثِّل نوافذ مسكنٍ كهذا. عاودته ذكرى ما تبادلاه من حديث سابق، لكنَّ بياترِس استدارت، فوقعت قسماتها تحت مثلَّث من ضوء الشمس، ثم قالت بصوت مبتهج:

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- فكَّرت في إيقاظك من قبل، يا أكسِل، وقد رأيت الصباح يهلُّ في الخارج. لكني فكَّرت حينذاك فيما تعرَّضتَ له من بلل في النهر وحاجتك إلى قسط من النوم لا إغفاءة أو اثنتين.

حين لم يردَّ سألته:

- ماذا هناك يا أكسِل؟ لمَ تنظر إليَّ هكذا؟
- أنظر إليكِ بعين الارتياح والسعادة فقط، يا أميرة.
- أشعر بأنني أحسن حالًا بكثير يا أكسِل. الراحة هي كل ما كنت بحاجة إليه.
- أرى ذلك الآن. لننطلق إذًا من دون تأخير، فكما قلت، انتشر الصباح خلال نومنا.
- كنت أراقب هؤلاء الأطفال يا أكسِل. ما زالوا واقفين حتى الآن قرب ذلك الخندق، كما حين وصلنا. هناك في الأسفل شيء يستحوذ عليهم وهو مشاغبة ما، أراهن على ذلك، فهم يتلفَّتون بين الفينة والأخرى كما لو كانوا يخشون من مجيء أحد الكبار واكتشاف فعلتهم وتوبيخهم عليها. أين يمكن أن يكون أهلهم يا أكسِل؟
- لا شأن لنا بهذا الأمر، فضلًا عن ذلك، يبدو أنهم يتمتَّعون بمأكل وملبس حسَنَين. دعينا نودِّعهم ونمضي في طريقنا.
- أكسِل، هل حدث أن تشاجرنا في وقت سابق؟ أشعر كما لو أن شيئًا وقع بيننا.
- لا شيء يستحقُّ الذكر يا أميرة. رغم أننا قد نخوض فيه ثانية قبل انتهاء هذا النهار، من يدري؟ لكن دعينا ننطلق قبل أن يستولي الجوع والبرد علينا من جديد؟

عندما خرجا تحت صقيع أشعَّة الشمس، رأى أكسِل رقعًا من الجليد فوق العشب، وسماء شاسعة وجبالًا تتلاشى في الأفق البعيد. كانت العنزة تأكل بنهم في الحظيرة الصغيرة، وسطل موحل مقلوب رأسًا على عقب قرب قوائمها.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

ما زال الأطفال الثلاثة جنب الخندق، محدِّقين في قاعه وظهورهم إلى الكوخ، وبدا عليهم التشاجر فيما بينهم. كانت الفتاة أوَّل من أدرك اقتراب أكسِل وبياترِس، وحتى وهي تستدير بسرعة ملفتة، افترَّ ثغرها عن ابتسامة مشرقة. ثم قالت:

- شيخانا العزيزان!

بدأت بالابتعاد على عجل عن الخندق، جاذبة شقيقيها معها وهي تقول:

- آمل أن تكونا قد وجدتما بيتنا مريحًا، على الرغم من تواضعه!

- وجدناه كذلك، أيَّتها الصغيرة، ونحن في غاية الامتنان. نلنا الآن قسطًا جيِّدًا من الراحة ونحن جاهزان للمضيِّ في طريقنا. لكن ما الذي دهى أهلكم لترككم وحيدين هكذا؟

تبادلت الفتاة نظرات مع شقيقيها، اللذين تموضع كل واحد منهما على جنب من جنبيها، ثم قالت، بشيء من التردُّد:

- نحن نتدبَّر أمرنا بأنفسنا أيُّها السيِّد.

ثم أحاطت كل شقيق بذراع. وعندها سألتها بياترِس:

- وما الذي يوجد في أسفل ذلك الخندق ويستحوذ عليكم بشدَّة؟

- عنزتنا أيَّتها السيِّدة. كانت فيما مضى أفضل عنزة لدينا، لكنها ماتت.

سألها أكسِل برقَّة:

- ما الذي ألمَّ بعنزتكم لتموت؟ تبدو تلك الأخرى هناك في صحَّة جيِّدة.

تبادل الأطفال مزيدًا من النظرات، وبدا أن ثمَّة قرارًا قد اتُّخذ فيما بينهم. ثم قالت الفتاة:

- اذهب وانظر بنفسك إن شئت أيُّها السيِّد.

ثم أنزلت ذراعيها عن شقيقيها وتنحَّت جانبًا.

قصَّرت بياترِس عن اللحاق به أثناء انطلاقه نحو الخندق. وقبل بلوغ منتصف المسافة إلى هناك، توقَّف أكسِل وقال هامسًا:

- دعيني أذهب بمفردي أوَّلًا يا أميرة.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- هل تعتقد أني لم أرَ عنزة ميّتة من قبل يا أكسِل؟
- رغم ذلك يا أميرة. انتظري هنا للحظة.

كان عمق الخندق كافيًا لوقوف رجل فيه. وعوض أن تساعده الشمس، التي باتت مسلَّطة على الخندق الآن، في تبيُّن ما كان تحت ناظريه، أحدثت ظلالًا مشوِّشةً. كما صنعت برك الماء والجليد في الأسفل سطوحًا ساطعة خاطفة للبصر. بدت له العنزة الهالكة ذات جثَّة مهولة ممدَّدة مقطَّعة الأوصال. هنا، قائمة خلفية؛ وهناك العنق، والرأس بدا مغلَّفًا بمسحة صفاء وسكينة. أمَّا التعرُّف على بطن الحيوان الناعم المقلوب إلى الأعلى فاستغرق منه مدَّة أطول، إذ كانت يد عملاقة منبثقة من الطين الأسود تضغط عليه. أدرك في تلك اللحظة فقط أن معظم ما ظنَّه في البداية أوصال العنزة الميِّتة إنما هي لكائن آخر متداخلٍ بها. تلك الحدبة هناك ما هي سوى كتف؛ وتلك ركبة متصلِّبة. ثم أبصر حركة فأدرك أن ما في الخندق ما زال حيًّا.

- ماذا ترى يا أكسِل؟
- لا تقتربي يا أميرة. ليس هناك ما يسرُّ النظر. غول مسكين، كما أعتقد، يموت ميتة بطيئة، وربما رمى له هؤلاء الأطفال بسذاجة عنزة، ظنًّا بأنه قد يستعيد قوَّته بأكلها.

أثناء كلامه، دار رأس عظيم أمرد ببطء في الوحل، وتقلَّبت معه عين جاحظة. ثم شفط الوحلُ بنهم الرأس فاختفى.

ارتفع صوت الفتاة من خلفه قائلًا:

- لم نطعم الغول أيُّها السيِّد. نحن نعرف بأن علينا ألَّا نطعم غولًا أبدًا، بل أن نختبئ في الداخل ونوصد الباب بإحكام عند مجيئه. وهكذا فعلنا مع هذا، أيُّها السيِّد، راقبناه من نافذتنا لدى اقتلاعه سياج حظيرتنا واستيلائه على أفضل عنزتينا. وبعد ذلك جلس هنا بالضبط، أيُّها السيِّد، حيث تقف أنت الآن، ثم أرخى رجليه من فوق الحافَّة وكأنه طفل صغير، وراح يلتهم العنزة النيئة بلذَّة، كما تفعل الغيلان. كنَّا نعلم

بأن علينا ألّا نفتح الباب، وبدأت الشمس في الانحدار، والغول ما زال يأكل عنزتنا، لكن كنا قادرين على رؤية أن الوهن بدأ يتسلّل إليه، أيُّها السيِّد. ثم نهض أخيرًا، حاملًا ما تبقّى من العنزة، وعندئذ سقط أرضًا، فوق ركبتيه أوّلًا، ثم فوق جنبه. تدحرج وهوى في الخندق، هو والعنزة، وقد انقضى يومان وهو هناك في الأسفل، ومع ذلك لم يمت بعد.

قال أكسِل:

- هيا لنبتعد من هنا أيَّتها الصغيرة. لا يليق بك ولا بشقيقيك رؤية منظر كهذا. لكن ما الذي جعل هذا الغول المسكين مريضًا إلى هذا الحدِّ؟ هل من الممكن أن تكون عنزتكم مصابة بمرض؟
- لم تكن مريضة، أيُّها السيِّد، بل مسمومة! عكفنا أكثر من أسبوع كامل على علفها حسبما علَّمتنا برُنْونِ بالضبط. ستَّ مرّات كل يوم.
- لمَ فعلتم أمرًا كهذا أيَّتها الصغيرة؟
- لمَ، أيُّها السيِّد؟ كي نجعل العنزة سامَّة لأجل التنِّينة. هذا الغول المسكين ما كان له أن يعرف ذلك ولهذا سمَّم نفسه. لكن هذا ليس خطأنا أيُّها السيِّد، لأنه ما كان ينبغي له أن يُغير علينا كما فعل!

ردَّ أكسِل:

- لحظة، أيَّتها الصغيرة، هل تقولين إنكم أطعمتم العنزة عن قصد كي تمتلئ بالسمِّ؟
- سمٌّ للتنِّينة أيُّها السيِّد، لكن برُنْونِ قالت إنه لن يؤذي أيَّ أحد منَّا. ولهذا كيف كنَّا سنعرف بأن السمَّ قد يؤذي غولًا؟ لا يمكن لومنا، أيُّها السيِّد، لأننا لم نقصد فعل أي عمل شرِّير!
- لن يلومك أحد قطُّ أيَّتها الصغيرة. لكن أخبريني، لم كنت راغبة في تحضير سمٍّ لكويرِغ، فحسبما فهمت هذه هي التنِّينة التي تتحدَّثين عنها؟

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

- أوه، أيُّها السيِّد! صلَّينا صبحًا ومساء ومرَّات ومرَّات أثناء النهار أيضًا. وعندما أتيتما هذا الصباح، عرفنا أن الربَّ أرسلكما. لذا أرجوكما أن تقولا إنكما ستساعداننا، لأنَّنا أطفال مساكين نسيَنا والدانا! هل تأخذان تلك العنزة هناك، وهي الوحيدة التي بقيت لدينا الآن، وتحملانها عبر ذلك الدرب إلى رجم العملاق؟ إنها مسيرة سهلة، أيُّها السيِّد، أقل من نصف يوم ذهابًا وإيابًا. كنت لأفعل ذلك بنفسي لولا أني لا أستطيع ترك هذين الصغيرين وحدهما. أطعمنا هذه العنزة على نحو ما فعلناه بتلك التي التهمها الغول، وهذه التهمت حصَّة ثلاثة أيَّام أكثر من تلك. أتمنَّى أن تقبلا بأخذها إلى رجم العملاق وتركها مربوطة هناك لأجل التنِّينة، أيُّها السيِّد، سيَّما وأن المسافة ليست سوى نزهة قصيرة سهلة. أرجوكما أن تقولا إنكما ستفعلان ذلك، أيُّها الشيخان، فنحن نخشى أن ما من طريقة أخرى سوى هذه يمكن أن تردَّ إلينا أمَّنا وأبانا الغاليين.

قالت بياترِس:

- وأخيرًا أتيتِ على ذكرهما. ما الذي يمكن فعله لردِّ والديكم إليكم؟
- ألم نخبرك بهذا توًّا أيَّتها السيِّدة؟ لو تقبلان فقط بأخذ العنزة إلى رجم العملاق، حيث يُترك الطعام هناك دوريًّا للتنِّينة كما هو معروف. حينذاك من يدري، ستهلك بالطريقة نفسها التي هلك بها ذلك الغول المسكين، الذي كان قويًّا للغاية قبل التهام وجبته! لطالما خفنا في السابق من برُنْوِن لما لها من فنون غريبة، لكنها عندما رأتنا هنا وحيدِين، مَنْسِيِّين من قبل والدينا، أخذتها الشفقة بنا. لذا أرجوكما أن تساعدانا، أيُّها الشيخان الموقَّران، فمن يدري متى سيأتي شخص آخر إلى هنا؟ نحن نخشى الظهور أمام الجنود أو الرجال الغرباء ممَّن يمرُّون من هنا، لكن أنتما من صلَّينا إلى الربِّ يسوع لأجل قدومهما.

سأل أكسِل:

- لكن ما الذي يمكن أن يعرفه أطفال صغار مثلكم عن هذا العالم، لمَ تعتقدون بأن عنزة مسمومة ستردُّ والديكم لكم؟
- هذا ما قالته برُنْونِ لنا، أيُّها السيِّد، ومع أنها عجوز مريعة، إلَّا أنها لا تكذب أبدًا. قالت إن التنِّينة التي تعيش فوقنا هي من حمل والدينا على نسياننا. ورغم أننا كثيرًا ما أغضبنا أمَّنا بمشاكساتنا، تقول برُنْونِ إنها في اليوم الذي ستتذكَّرنا فيه ثانية، ستهرع إلينا وستحتضننا واحدًا تلو الآخر هكذا.

ضمَّت الصغيرة فجأة طفلًا وهميًّا إلى صدرها، ثم أطبقت عينيها، وهدهدت برفق للحظة. ثم فتحت عينيها ثانية واستأنفت الحديث:

- لكن، في الوقت الحاضر، رمت التنِّينة والدينا بتعويذة تحملهما على نسياننا، ولهذا لن يعودا إلى البيت. تقول برُنْونِ إنَّ لعنة التنِّينة لا تقتصر علينا نحن فقط بل تعمُّ الجميع، وكلَّما اقترب أوان هلاكها كان ذلك أفضل. ولهذا كدحنا وثابرنا بعزم، أيُّها السيِّد، على إطعام العنزتين حسبما قالت بالضبط، ستَّ مرَّات يوميًّا. أرجوكما أن تقبلا بفعل ما نطلبه، وإلَّا فلن نرى أمَّنا وأبانا ثانية. كل ما نطلبه هو أن تربطا العنزة عند رجم العملاق، ثم امضيا بعدها في حال سبيلكما.

همَّت بياترِس بالردِّ، لكن أكسِل سارع إلى مقاطعتها قائلًا:

- أعتذر منك أيَّتها الصغيرة. نتمنَّى لو كان بوسعنا أن نساعدك، لكنَّ تسلُّق تلك التلال أمر لم يعد بمقدورنا الآن. نحن كبيران في السنِّ، وكما ترين، أصابنا الأعياء بعد سفر طويل مضنٍ. لا خيار أمامنا سوى الإسراع في طريقنا قبل أن تحلَّ بنا رزيَّة أخرى.
- ولكن، أيُّها السيِّد، الربُّ نفسه هو من أرسلكما إلينا! كما أنها مسافة قصيرة، حتى أن الطريق من هنا ليس منحدرًا بشدَّة.
- أيَّتها الصغيرة، قلوبنا تتفطَّر حزنًا عليكم، وسنلتمس المساعدة لكم من أوَّل قرية نبلغها. لكنَّ الوهن أصابنا ونحن أضعف من القيام بما

تطلبونه، وحتمًا سيمرُّ آخرون من هنا عمَّا قريب، وسيكونون سعداء بإيصال العنزة نيابة عنكم. لا طاقة لعجوزين مثلنا على القيام بذلك، لكنَّنا سنصلِّي لأجل رجوع أهلكم ولأجل أن يحفظكم الربُّ سالمين دومًا.

- لا تذهبوا أيُّها الشيخان! تسمُّم الغول لم يكن خطأنا.

ممسكًا بذراع زوجته، اقتادها أكسِل بعيدًا عن الأطفال. لم يلتفت إلى الوراء حتى تجاوزا حظيرة العنزة، وعندئذ رأى أن الأطفال ما زالوا واقفين هناك، ثلاثتهم جنبًا إلى جنب، وهم يراقبون بصمت، التلال العالية المطلَّة من ورائهم كالأبراج. لوَّح أكسِل بيده مشجِّعًا، لكن ما يشبه الخزي - وربما مثقال ذرَّة من ذكرى ما قديمة، ذكرى رحيل آخر كهذا - حمله على غذِّ خطاه.

لكن قبل ابتعادهما - وحيث بدأت الأرض السبخة بالهبوط والوديان بالانDياح من أمامهما - جذبته بياترِس من ذراعه كي تبطئ من سرعتهما. ثم قالت:

- لم أرغب في رفع صوتي فوق صوتك أمام هؤلاء الأطفال، يا زوجي. لكن أحقًّا لا طاقة لنا على فعل ما طلبوه؟
- إنهم ليسوا في خطر داهم، يا أميرة، ونحن لدينا ما يكفينا من هموم. كيف أصبحت أوجاعك الآن؟
- أوجاعي ليست أسوأ ممَّا كانت عليه. أكسِل، انظر كيف يقف هؤلاء الأطفال وقد تركناهم، يراقبوننا ونحن نتضاءل شيئًا فشيئًا تحت أبصارهم. ألا نستطيع التوقُّف بجانب هذه الصخرة كي نتدارس الأمر على الأقل؟ دعنا لا نتعجَّل ونذهب بطيش.
- لا تلتفتي وتنظري إليهم، يا أميرة، فهذا لن يكون إلَّا بمثابة هزء بآمالهم. لن نمضي إلى الوراء نحو عنزتهم، بل إلى الأسفل نحو ذاك الوادي، وباتجاه نار وما قد يجود به الغرباء علينا من طعام.

كانت بياترِس قد حملته الآن على التوقُّف. ردَّت قائلة:

- لكن فكِّر في جوهر ما يطلبونه يا أكسِل. هل ستعترض طريقنا ثانية فرصة كهذه؟ فكّر في هذا! نأتي مصابَين بالإعياء إلى هذه البقعة القريبة للغاية من وكر كويرِغ، ثم يعرض هؤلاء الأطفال عنزة مسمومة قد يتمكَّن حتى من هم مثلنا، رغم الضعف وكبر السنِّ، من القضاء بواسطتها على التنِّينة! فكِّر في هذا يا أكسِل! إن هلكت كويرِغ، سرعان ما سيبدأ الضباب بالانقشاع. من يستطيع الزعم بأن هؤلاء الأطفال ليسوا على حقٍّ وأن الربَّ نفسه لم يسقنا إلى هذا الطريق؟

ظلَّ أكسِل صامتًا للحظة، مقاوِمًا رغبته الملحَّة في النظر إلى الخلف نحو الكوخ الصخري. ثم قال في نهاية المطاف:

- لا يمكن الجزم بأنَّ تلك العنزة ستصيب كويرِغ بأي أذى على الإطلاق. غول ذو حظٍّ عاثر شيء، والتنِّينة شيء آخر. إنها قادرة على بعثرة جيش بأكمله. هل من الحكمة لعجوزين أحمقين مثلنا أن يتجوَّلا على مسافة قريبة كهذه من وكرها؟

- ليس مطلوبًا منَّا أن نواجهها يا أكسِل، فقط أن نربط العنزة ثم نفرَّ. ربما ستمرُّ أيَّام على مجيء كويرِغ إلى تلك البقعة، وحينذاك سنكون قد وصلنا بسلام إلى قرية ابننا. أكسِل، ألا نريد أن تُردَّ إلينا ذكريات هذه الحياة المديدة التي عشناها معًا؟ أم أننا سنصبح مثل غريبين التقيا ذات ليلة في ملجأ ما؟ هيَّا، يا زوجي، قل إننا سنستدير ونرجع كي ننفِّذ ما يطلبه هؤلاء الأطفال منَّا.

***

وهكذا كان. تسلَّقا أعلى فأعلى، واشتدَّت الريح أكثر فأكثر. في اللحظة الراهنة، وفَّرت الصخرتان التوأمتان ملجأ جيِّدًا، لكن لم يكن في وسعهما البقاء هكذا طويلًا. وتساءل أكسِل من جديد إن كان قد أصيب بالحمق حين استسلم ورضخ للأمر. ثم قال في نهاية المطاف:

- يا أميرة، لنفترض أننا سنفعل هذا حقًّا. ولنفترض أن الربَّ قيَّض لنا النجاح، وأننا استطعنا القضاء على التنِّينة. إن حدث كل هذا فأحبُّ أن تعديني بشيء.

كانت جالسة بقربه في تلك اللحظة، لكن عينيها شاخصتان في الأفق نحو صفِّ الهيئات المتناهية في الصغر. ردَّت قائلة:

- ما الذي تطلبه يا أكسِل؟
- إنه، يا أميرة، هذا وببساطة، في حالة هلاك كويرِغ حقًّا وبدء الضباب بالانقشاع، وفي حالة عودة الذكريات، ومِن بينها أوقات أصبتك فيها بخيبة الأمل، أو حتى أفعال ظلامية ربما ارتكبتها ذات مرَّة وجعلَتك تنظرين إليَّ ولا ترين الرجل الذي تبصرينه الآن، عديني بهذا على الأقل، عديني، يا أميرة، بأنك لن تنسي ما تحسِّين به في قلبك تجاهي في هذه اللحظة. إذ ما جدوى عودة ذكرى ما من الضباب إن كانت فقط ستطرد أخرى وتحلُّ محلَّها؟ هل تعدينني بذلك يا أميرة؟ عديني بأن تحافظي على ما تشعرين به تجاهي في هذه اللحظة دائمًا في قلبك، بصرف النظر عمَّا سترينه لحظة تبدُّد الضباب.
- أعدك بهذا، يا أكسِل، وإنني أفعل ذلك من دون أي غضاضة.
- لا كلمات تصف ما أشعر به من ارتياح لسماع هذا القول منك يا أميرة.
- أنت في مزاج غريب يا أكسِل. لكن من يدري كم علينا أن نتسلَّق بعد حتى نصل إلى رجم العملاق؟ دعنا لا نهدر المزيد من الوقت بالجلوس بين هاتين الصخرتين العظيمتين. كان هؤلاء الأطفال قلقين عندما تركناهم، وسيظلُّون في حالة من الانتظار إلى حين عودتنا.

حلمُ يقظة غَاوِن الثاني

هذه الريح اللعينة، أهي نذير عاصفة ستهبُّ علينا؟ هُورِس لا يهتمُّ بريح أو مطر، وإنما فقط بامتطاء غريبة صهوته الآن وليس سيِّده العجوز. أقول له: «إنها امرأة مصابة بالإعياء، وهي بحاجة إلى الجلوس على السرج أكثر مني بكثير. لهذا احملها بما يليق بك من نبل». لكن لماذا هي هنا أصلًا؟ ألا يرى السيِّد أكسِل كيف تتردَّى حالتها؟ هل فقد عقله عندما أحضرها إلى هذه المرتفعات القاسية؟ لكنها تنطلق بتصميم وعزم لا يقلَّان عنه، وليس من شيء أقوله سيحملهما على الاستدارة والرجوع. لهذا أترنَّح هنا مشيًا على الأقدام، وأنا ممسك بلجام هُورِس، وألهث تحت ردائي الصدئ. أغمغم في أُذن هُورِس: «ألم نقضِ حاجات السيِّدات دومًا بكياسة وأدب؟ أكنَّا سنواصل السير ونترك هذين الزوجين الطيِّبين يجذبان عنزتهما؟».

رأيتهما في البداية هيئتين صغيرتين بعيدًا في الأسفل، فاختُلِط عليَّ الأمر وحسبتهما ذَيْنِكَ الآخرين. قلت حينذاك: «أترى هناك في الأسفل يا هُورِس. ها قد عثرا على بعضهما بالفعل. وها هما قد أتيا بالفعل، وكأن ذلك المحارب لم يُصبه برونُس بأي جراح على الإطلاق».

التفت هُورِس نحوي متفحِّصًا، كمن يسأل: «إذًا، يا غَاوِن، هل ستكون هذه المرَّة الأخيرة التي نتسلَّق فيها هذا المنحدر المقفر معًا؟» لم أعطه جوابًا بل مسحت عنقه برفق، لكنني مع ذلك قلت في نفسي: «ذلك المحارب شابٌّ ومبارز مرعب. رغم هذا فإني قد أمتلك سرَّ التغلُّب عليه، من يدري؟ التقطتُ

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

هفوة ما أثناء مواجهته لجندي برونُس، ما كان لآخر أن يلاحظها، ولكني مع ذلك فعلت. هفوة صغيرة إلى اليسار توفِّر فرصة سانحة لخصم ماكر». لكن ما الذي كان آرثر ليكلِّفني به الآن؟ ما زال ظلُّه يهبط فوق هذه الأرض ويحيط بي من كل جانب. أكان سيطلب مني أن أقرفص مثل وحش متربِّص بطريدة؟ لكن أين يمكن الاختباء فوق هذه المنحدرات الجرداء؟ وهل تخفي الريح بمفردها رجلًا؟ أم أكمن فوق جرف ثم أرميهم بجُلْمُود من الصخر؟ لكن هذا لا يليق أبدًا بفارس من فرسان آرثر. أفضِّل الظهور في العلن، وإلقاء التحيَّة عليه، ثم أجرِّب ثانية قليلًا من الدبلوماسية: «عُد من حيث أتيت، أيُّها السيِّد. إنك لا تعرِّض نفسك ورفيقك البريء للخطر فحسب، بل وسائر أهل هذا البلد الكرام. دع أمر كويرِغ لمن خبِر أساليبها. إنك ترى بأمِّ عينك أني في طريقي الآن لذبحها». لكن مناشدات كهذه جرى تجاهلها من قبل. لمَ سينصت لي الآن وقد اقترب للغاية، ولديه الفتى المعضود مرشدًا ودليلًا إلى بابها؟ هل كنت غبيًّا عندما أنقذت ذلك الفتى؟ لكن رئيس الدير أثار اشمئزازي، كما أنني على يقين من أن الربَّ سيشكرني على ما فعلته.

قلت لهُورِس: «إنهما آتيان لا محالة. لذا أين يجدر بنا أن ننتظرهما؟ أين يجدر بنا أن نواجههما؟».

الأيْكَة. تذكَّرتها آنذاك. عجيب كيف تنمو الأشجار بكثافة واخضرار هناك، فيما تذرو الريح كل ما يحيطها وتحوِّله إلى أرض جرداء. ستزوِّد الأيكة فارسًا وحصانه بالغطاء. لن أباغتهما مثل قاطع طريق، لكن مع ذلك لماذا أكشف عن نفسي قبل ساعة مفيدة على بدء المواجهة؟

وهكذا نخزت هُورِس قليلًا بمهماز حذائي، مع أن ذلك لم يعد يؤثِّر فيه الآن، ثم قطعنا الحافَّة العلوية للأرض، التي تنداح دونما ارتفاع أو انخفاض، وتعصف فيها الريح من كل حدب. كنَّا من الشاكرين حين بلغنا تلك الأشجار، حتى وإن كان وجودها هناك غريبًا ويحمل المرء على التساؤل إن كان مِرْلِن نفسه ضرب المكان بتعويذة ما. أي رجل كانَه المعلِّم مِرْلِن! ظننت ذات مرَّة أنه

ضرب الموت نفسه بتعويذة، لكن حتى مِرْلِن أفضى إلى ما قدَّمه الآن. هل يتَّخذ الآن مسكنًا له في الجنَّة أم في الجحيم؟ ربما يعتقد السيِّد أكسِل أن مِرْلِن من خدم الشيطان، لكنه استخدم قواه في أعمال ترضي الربَّ. كما لا ينبغي أن يُقال إنه لم يكن شجاعًا. انضمَّ مرَّات عديدة إلى صفوفنا غير آبه بالسهام المتساقطة والفؤوس الهوجاء. تلك قد تكون حقًّا أيكة مِرْلن، صنيعة يده لأجل هذا الغرض تمامًا: قد يأتي يومٌ أحتاج فيه إلى مأوى هنا في انتظار من سيأتي لينقض عملنا العظيم في ذلك اليوم المشهود. اثنان من بيننا نحن الخمسة سقطا في مواجهة التنِّينة، ومع ذلك وقف المعلم مِرْلِن إلى جانبنا، مناورًا بجَنان ثابت ضربات ذيل كويرِغ، إذ بأيِّ طريقة أخرى كان يمكن لعمله أن يُنجز؟

الأيكة هادئة وادعة لدى وصولنا أنا وهُورِس. ورغم تغريد طائر أو اثنين فوق الشجر، أو تململ الأغصان بجنون في الأعلى، عمَّ في الأسفل هدوء يوم ربيعي يتاح فيه وأخيرًا لأفكار رجل عجوز بالانسياب من أذن لأخرى من دون التخبُّط في عاصفة هوجاء! لا بدَّ من أن سنوات عديدة انقضت الآن على آخر مرَّة كنت فيها أنا وهُورِس في هذه الغابة الصغيرة. نَمت الأعشاب الضارَّة بجنون هنا، القرَّيص الذي لا يتجاوز عادة راحة كفِّ طفلٍ يقف منتصبًا إلى حدٍّ كافٍ للالتفاف من حول رجلٍ مرَّتين. تركت هُورِس في بقعة حسنة لقضم ما تيسَّر له، وتجوَّلت لبرهة من الوقت تحت أوراق الشجر الملتفَّة. لمَ لا آخذ قسطًا من الراحة هنا، متَّكئًا على هذه البلُّوطة الطيِّبة؟ وعندما يحين أوان مجيئهما، كما سيفعلان حتمًا، نتواجه أنا وإيَّاه كمحاربين.

اندفعت شاقًّا طريقي وسط القرَّيص - ألمثلِ هذا ارتديت هذا الصفيح الصرَّار؟ لحماية ساقيَّ من تلك اللسعات البائسة؟ - ثم وصلت الفسحة الخالية وسط الشجر، وبركة الماء، والسماء الرمادية المتلصِّصة من الأعلى. حول حافَّتها، ثلاث شجرات باسقة، لكن كل واحدة منها متصدِّعة من الخاصرة وساقطة في الماء. لا شكَّ أنها كانت منتصبة بزهوٍّ عندما كنَّا هنا آخر مرَّة. هل صعقها البرق؟ أم أنها حين ضربها الهرم تاقت لرشفة ماء من البركة، القريبة

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

على الدوام، ولكن البعيدة عن المنال؟ ها هي تعبُ قدرما تشاء الآن، وطيور الجبل تعشعش فوق جذوعها المحطَّمة. هل أواجه الساكسوني في بقعة كهذه؟ إن غلبني فقد يتبقَّى فيَّ رمق من الحياة للزحف إلى الماء. لن أسقط فيه، حتى لو سمح الجليد بذلك، فانتفاخ جسدي من تحت هذا الدرع لن يكون أمرًا طيِّبًا، ثم أي فرصة لديَّ في أن يأتي هُورِس، وقد افتقد سيِّده، ماشيًا فوق جذور الأشجار الضخمة على أطراف أصابعه لانتشال جثَّتي؟ لكني مع ذلك رأيت رفاقًا في المعركة يتوقون للماء إثر ترجُّلهم وهم مضرَّجون بالدماء، وراقبت آخرين أيضًا وهم يزحفون إلى حافَّة نهر أو بحيرة، رغم ما في ذلك من مضاعفة لآلامهم. أثمَّة سرٌّ عظيم لا يتكشَّف للرجال إلَّا أثناء الاحتضار؟ رفيقي القديم، السيِّد بِيُل، تاق في ذلك اليوم للماء، لدى تمدُّده فوق صلصال ذلك الجبل الأحمر. ما زال عندي بعض منه هنا في قرعة الماء، قلت له، لكن لا، يلحُّ مطالبًا ببحيرة أو نهر. لكننا بعيدون عن أيِّ شيء من هذا القبيل، أقول. فيصرخ قائلًا:

- اللعنة عليك يا غَاوِن. أمنيتي الأخيرة، ألن تحقِّقها لي، ونحن رفيقا سلاح خضنا معًا العديد من المعارك الشرسة؟

- لكن هذه التنِّينة شطرتك من النصف تقريبًا. إن كان لا بدَّ لي من حملك إلى الماء، فسأكون مضطرًّا إلى المضيِّ تحت هذه الشمس الصيفية، وكل شطر منفصل منك تحت كل ذراع قبل أن نصل إلى أي مكان من هذا القبيل. لكنه يقول لي: «لن يرحِّب قلبي بالموت إلَّا حين تمدِّدني قرب الماء، يا غَاوِن، حيث ينساب صوت الموج في مسمعي لدى انطباق عينيَّ للمرَّة الأخيرة. يطالب بهذا، من دون أن يكترث بنتيجة مهمَّتنا وإن كانت قد أنجزت على أكمل وجه أم لا، أو إن كان قد دفع حياته لقاء ثمن مُجزٍ. فقط حين انحني لرفعه يسأل: «من نجا منَّا؟» أخبره بأن السيِّد مِلاس قد سقط صريعًا، لكنَّ ثلاثة منَّا نجوا، والسيِّد مِرْلِن أيضًا. ومع ذلك، لا يسأل عن انتهاء المهمَّة على أكمل وجه، وإنما يتحدَّث عن البحيرات والأنهار، بل وحتى عن البحر الآن،

وهذا كل ما أستطيع فعله لأجل ذكرى هذا الرفيق القديم، والشجاع كذلك، الذي اختاره آرثر مثلي لتنفيذ تلك المهمَّة الجليلة، حتى والمعركة محتدمة في قاع الوادي. هل ينسى واجبه كفارس؟ أحمله، فيبلغ صراخه السماوات، وعندها فقط يفهم كلفة بضع خطوات بسيطة، وها نحن على هذا الحال، فوق جبل أحمر تحت حرِّ الصيف، وعلى مسيرة ساعة من النهر ركوبًا فوق حصان. وحين أنزله وأمدِّده يتكلَّم الآن عن البحر فقط. عيناه عمياوان الآن، وعندما أنثر وجهه بماء من قرعتي، يشكرني كما لو كان في عين عقله، كما أحسب، واقفًا فوق شاطئ. يسأل: «هل أجهز عليَّ سيف أم فأس؟». فأردُّ: «ما الذي تقوله أيُّها الرفيق؟ بل كان في مواجهتك ذيل التنِّينة، لكنَّ مهمَّتنا أُنجزت بنجاح وأنت ترحل بشرف وكرامة». يقول: «التنِّينة. ما الذي آل إليه حال التنِّينة؟». أجيب: «كل الرماح استقرَّت في جنبها عدا واحدًا، إنها نائمة الآن». لكنه يغفل ثانية عن المهمَّة، ويتكلَّم عن البحر، وعن زورق ركبه وهو صبيٌّ صغير حين أخذه والده بعيدًا عن الشاطئ ذات أمسية جميلة.

حين يحين أجلي، هل سأتوق أنا أيضًا للبحر؟ أظنُّني سأكتفي بالتراب. ولن أوصي ببقعة محدَّدة، لكن لتكن في هذا البلد الذي قضينا أنا وهُورِس سنوات ونحن نذرعه بحبٍّ. ستقهقه هؤلاء الأرامل اللواتي مررت بهنَّ سابقًا لو سمعن قولي هذا، وسيسارعن إلى تذكيري بمن قد أتقاسم معه حصَّتي من بطن الأرض بالقول: «فارس أحمق! أنت من بين الناس قاطبة بحاجة إلى اختيار مثواك الأخير بحرص، وإلَّا فستكتشف لاحقًا أنك تجاور من ذبحتهم!» ألم يتهكَّمن عليَّ بشيء من هذا القبيل حتى وهنَّ يقذفن مؤخِّرة هُورِس بالطين؟ كيف يجرؤن! هل كنَّ هناك؟ أيمكن لهذه المرأة التي تمتطي حصاني الآن التفوُّه بكلام كهذا إن استطاعت سماع ما في رأسي؟ تكلَّمت في ذلك النفق البغيض عن ذبح الصغار، حتى خلال إنقاذي لها من مخطَّطات الرهبان الشريرة. كيف تجرؤ؟

t.me/ktabpdf

مكتبة أحمد

والآن ها هي تجلس على سرجي، وتمتطي صهوة حصاني العزيز المقاتل، الذي خضت على ظهره المعارك، من يدري كم بقي لنا أنا وهُورِس من رحلات بعد؟

ظننًا للحظة أن هذه قد تكون رحلتنا الأخيرة، لكنني كنت مخطئًا حين حسبت هذين الزوجين الطيِّبين ذينك الاثنين، ولهذا ها نحن نرحل لمدَّة أطول بسلام. لكن حتى وأنا أقود هُورِس من لجامه، عليَّ أن أختطف نظرة إلى الوراء، لأنَّهما حتمًا آتيان، حتى لو تقدَّمنا عليهما بمسافة جيِّدة. يسير السيِّد أكسِل بجواري، وعنزته تمنعه من المشي بخطى متَّزنة. هل يفطن إلى سبب التفاتي إلى الوراء من حين لآخر؟ «سير غَاوِن، ألم نكن رفيقين ذات يوم؟» سمعته يطرح هذا السؤال في بواكير هذا الصباح عند خروجنا من النفق، فقلت له أن يعثر على قارب يقلُّه إلى أسفل النهر. لكن ها هو هنا، ما زال في الجبال، وزوجته الطيِّبة معه. سأتفادى النظر إلى عينيه. الهرم يلتحفنا ويخفينا في أعطافه، مثلما تخفي الحشائش والأعشاب الضارَّة تلك الحقول التي قاتلنا وارتكبنا فيها المذابح ذات يوم. ما الذي تسعى إليه أيُّها السيِّد؟ وماذا عن هذه العنزة التي تجلبها معك؟

قلت لهما عندما وصلا الأيكة وصادفاني هناك:

- استديرا وعودا من حيث جئتما أيُّها الصديقان. السفر هنا شاقٌّ ولا يناسب عجوزين مثلكما. وانظر كيف تشدُّ هذه السيِّدة الطيِّبة على خاصرتها. المسافة من هنا إلى رجم العملاق مسيرة ميل أو أكثر، ولا وجود لأي ملجأ خلالها سوى صخور صغيرة لا بدَّ لمن يحتمي خلفها من التكوُّر وإحناء رأسه. عودا من حيث أتيتما ما دامت لديكما القوَّة على ذلك، وسأعمل بنفسي على ترك هذه العنزة عند الرجم وربطها هناك بإحكام.

لكنَّهما نظرا إليَّ بارتياب، وأبى السيِّد أكسِل أن يترك العنزة. ارتجفت الأغصان في الأعلى، وزوجته الجالسة فوق جذور بلُّوطة، تحدِّق إلى البركة وما انحنى من جذوع الشجر المتصدِّع في الماء، فقلت بصوت منخفض:

- هذه رحلة عسيرة وشاقَّة على زوجتك الطيِّبة أيُّها السيِّد. لماذا لم تأخذ بنصيحتي وتسافر عبر النهر لتجنُّب هذه المرتفعات؟

فيردُّ السيِّد أكسِل:

- يجب أن نأخذ هذه العنزة إلى حيث وعدنا بإيصالها. وعدٌ قطعناه لطفلة.

وهل ينظر إليَّ على نحو غريب وهو يقول هذا، أم أني أتخيَّل ذلك؟ أقول:

- سأوصل العنزة أنا وهُورِس. ألا تثق بنا للقيام بمهمَّة كهذه؟ لا أصدِّق أن هذه العنزة ستسبِّب متاعب تُذكر لكويرِغ حتى وإن التهمتها برمَّتها، لكن ذلك قد يبطئها قليلًا ويمنحني فرصة محابية. لذا أعطني العنزة وعد واهبط الجبل قبل أن تخذل أحدكما قدماه فيخرَّ من دون حراك.

وعندما ذهبا بعيدًا عني ووقفا تحت الشجر، تمكَّنت من سماع همهمتهما، لكنني لم أتبيَّن الكلمات. وبعدئذ يأتي السيِّد أكسِل ويقول لي:

- سترتاح زوجتي للحظة أخرى، ثم سنتابع المسير أيُّها السيِّد إلى رجم العملاق.

أدرك حينذاك أن الجدل معهما عقيم، كما أنني أنا أيضًا متلهِّف على استئناف السير، فمن يدري كم أصبح السيِّد وِسْتِن وفتاه المعضوض بعيدَين عنَّا؟

t.me/ktabpdf

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

الجزء الرابع

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

الفصل الخامس عشر

سيحظى بعضكم بأنصاب مهيبة تتيح للأحياء تذكُّر ما ارتُكب من جرائم بحقِّكم. وسيحظى بعضكم بصلبان خشبية مهلهلة أو بأحجار ملطَّخة بطلاء فقط، بينما يجب أن يبقى آخرون منكم مغيَّبين في أقبية التاريخ المظلمة. أنتم على أي حال جزء من طقس جنائزي موغلٍ في القِدم، ولهذا من الجائز دومًا أن يكون رجم العملاق علامة على موقع واحدة من تلك المآسي التي حدثت منذ زمن بعيد وذبح فيها صغار أبرياء في حرب. خلافًا لذلك، ليس من السهل التفكير في أسبابٍ من وراء وجوده. يمكن للمرء أن يفهم لماذا قد يكون أسلافنا في الأراضي المنخفضة في الأسفل رغبوا في تخليد ذكرى انتصار أو ملك. لكن لماذا رفع صخور ثقيلة في عمود يطاول هامة الإنسان في مكان ناء كهذا وعلى علو شاهق؟

أوقع هذا السؤال، كما أنا متأكِّد، أكسِل في حيرة مماثلة لدى ارتقائه منحدر الجبل بإعياء. حينما أتت الفتاة الصغيرة على ذكر رجم العملاق وسمع به للمرَّة الأولى، ارتسمت في مخيِّلته صورة شيء متربِّع فوق قمَّة حدبة ضخمة من الأرض. بيد أن هذا الرجم ظهر من أمامهم منتصبًا فوق المنحدر ببساطة، ومن دون أي معالم من حوله تُوضِحُ سبب وجوده. أمَّا العنزة، مع ذلك، فبدا عليها فورًا استشعار دلالته، مقاومة التقدُّم بهيجان وثورة ما إن بدا الرجم في الأفق منتصبًا مثل إصبع مشؤومة في وجه السماء. «أدركت مصيرها»، علَّق سير غَاوين وهو يقود حصانه نحو الأعلى وفوقه بياترِس.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

لكن العنزة نسيت الآن فزعها السابق وراحت تقضم عشب الجبل بلذَّة.

- أيمكن أن يكون لضباب كويرِغ التأثير اللعين ذاته على الماعز والبشر سواء بسواء؟

بياترِس هي من طرح هذا التساؤل لدى قبضها على حبل العنزة بيديها الاثنتين. ففي تلك اللحظة، ترك أكسِل الحيوان ليطرق بحجر في الأرض الوتد الخشبيَّ الذي كان الحبل مربوطًا به.

- من يدري يا أميرة. لكن إن كان لدى الربِّ أي اهتمام على الاطلاق بأمر الماعز، فسيحمل التنِّينة على المجيء إلى هنا قبل مضيٍّ وقت طويل، وإلَّا سيكون الانتظار موحشًا لهذا الحيوان المسكين.

- إن هلكت العنزة أوَّلًا، يا أكسِل، هل تعتقد أن التنِّينة ستتعشَّى رغم ذلك على لحم نافق غير طازج؟

- ومن له علم بما تحبُّه أو تكرهه تنِّينة ما من أصناف اللحوم؟ لكن هناك من العشب ما يكفي العنزة لمدَّة من الوقت، يا أميرة، حتى وإن كان رديئًا.

- انظر هناك يا أكسِل. حسبت الفارس سيساعدنا، بعد كل ما حلَّ بنا من إعياء. لكنه نسي أخلاقه النبيلة.

كان السير غَاوِن قد أصبح، بالفعل، صموتًا على نحو غريب منذ وصولهم إلى الرجم. «هذا هو المكان الذي تقصدانه،» قالها بشيء من الحرد، ثم ابتعد عنهما متمشِّيًا هنا وهناك. وقف الآن موليًا لهما ظهره وأخذ يحدقُ إلى الغيم.

نادى أكسِل عليه، متوقِّفًا لبرهة عن عمله:

- سير غَاوِن، ألن تساعد في الإمساك بهذه العنزة؟ زوجتي أصابها التعب.

لم يُبدِ الفارس العجوز حِراكًا، ولمَّا همَّ أكسِل، ظنًّا منه بأن الفارس لم يسمعه، على تكرار طلبه، استدار غَاوِن فجأة، وبسبب تلك النظرة المهيبة التي علت محيَّاه، لم يتمالك الزوجان نفسيهما عن الحملقة فيه. قال الفارس العجوز:

- أراهما في الأسفل. ولا شيء سيحملهما الآن على التراجع.

سأله أكسِل:

- من ترى أيُّها السيِّد؟

وعندما ظلَّ الفارس صامتًا تابع القول:

- جنود؟ راقبنا في الأفق قبل التقائنا بك طابورًا طويلًا ما، لكن ظننَّا أنهم يتحرَّكون مبتعدين عنَّا.

- أتحدَّث عن رفيقيكما الآخرين أيُّها السيِّد. من كنتما تسافران بصحبتهما حين صادفتكما بالأمس. خرجا من الأيكة في الأسفل، ومن سيوقفهما الآن؟ لوهلة، تأمَّلتُ خيرًا وظننت أني أرى أرملتين سوداوين تاهتا عن ذاك الموكب الجهنمي. لكنها كانت السماء الغائمة وما تمارسه من فنون خداع البصر، إنهما هما لا محالة.

قال أكسِل:

- إذًا أفلت السيِّد وِسْتِن من الدير في نهاية المطاف.

- بالفعل، فعل أيُّها السيِّد. والآن ها هو آتٍ، وفي حبله ليس من عنزة، بل الفتى الساكسوني نفسه ليدلَّه على الطريق.

انتبه السير غَاوِن أخيرًا لصراع بياترِس مع الحيوان، فهرول من حافَّة الجرف للقبض على الحبل. لكن بياترِس لم تفلته، وبدا الأمر للحظة كما لو كانت هي والفارس يتعاركان على امتلاك زمام السيطرة على العنزة. وبعد شدٍّ وجذب، استويا معتدلين، والفارس العجوز ممسكًا بالحبل خطوة أو اثنتين من أمام بياترِس.

استأنف أكسِل عمله قائلًا:

- وهل رآنا صديقانا بدورهما هنا، سير غَاوِن؟

- أراهن على أن لذلك المحارب عيني صقر، وهو يرانا حتى في هذه اللحظة فوق صفحة السماء، هيئتان مشتبكتان في مباراة لشدِّ الحبل، والعنزة هي خصمنا المقابل!

غالبه الضحك، لكنَّ نبرة من الأسى لم تبرح صوته. ثم قال في نهاية المطاف:

- أجل، أعتقد أنه يرانا إلى حدٍّ معقول.

علَّقت بياترِس:

- إذًا سينضمُّ إلى صفوفنا للإطاحة بالتنِّينة.

رماهما السير غَاوِن بنظرات لم توحِ بالارتياح. ثم قال:

- سيِّد أكسِل، أما زلت مصرًّا على تصديق هذا؟

- تصديق ماذا أيُّها السيِّد الفارس؟

- أننا نتجمع هنا في هذه البقعة المقفرة كرفاق؟

- أوضح ما ترمي إليه أكثر أيُّها السيِّد الفارس.

اقتاد غَاوِن العنزة إلى حيث كان أكسِل راكعًا، غافلًا عن أن بياترِس تتبعها، متشبِّثة بطرفها من الحبل.

- سيِّد أكسِل، ألم يفترق دربنا منذ سنوات خلت؟ دربي ظلَّ مع آرثر، بينما دربك...

بدا أنه انتبه الآن لوجود بياترِس من خلفه، فاستدار وانحنى بأدب قائلًا:

- أيَّتها السيِّدة العزيزة، أتوسَّل إليك أن تتركي هذا الحبل وتستريحي. لن أدعَ هذا الحيوان يهرب. اجلسي هناك إلى جانب الرجم. سيحمي ولو جزءًا من جسمك على الأقل من هذه الريح.

قالت بياترِس:

- شكرًا لك، سير غَاوِن. سأترك هذا الحيوان في عهدتك إذًا، إنه لا يقدَّر بثمن بالنسبة لنا.

بدأت تشقُّ طريقها صوب الرجم، وشيء ما في طريقة قيامها بذلك، انطواء كتفيها في وجه الريح، دفع بشظيَّة من ذكرى إلى التململ في أطراف ذهن أكسِل. أمَّا ما أثارته فيه من إحساس، حتى قبل تمكُّنه من استرجاعها تمامًا، أذهله وصدمه. إذ شابت رغبته العارمة في الذهاب إليها الآن وحمايتها، خيالاتٌ

حادةٌ من الغضب والمرارة. تكلَّمت من قبل عن ليلة طويلة من الوحدة، قضتها ملتاعة بسبب غيابه، لكن أيمكن أن يكون قد قضى هو الآخر ليلة كهذه أيضًا، أو حتى الكثير من الليالي، مكابدًا لوعة مماثلة؟ ثم، حين وقفت بياترِس أمام الرجم وحنت رأسها وكأنها تطلب الغفران، شعر بتصاعد حدَّة الذكرى والغضب، ودفعه خوف ما على الالتفات بعيدًا. وعندها فقط لاحظ تحديق السير غَاوِن أيضًا إلى بياترِس، كانت نظرة حنان تطلُّ من عينيه وهو شارد في لجَّة أفكاره. لكنَّ الفارس سرعان ما تدارك نفسه، وبعد اقترابه من أكسِل، انحنى إلى الأسفل كما لو كان يريد الحؤول دون وصول حديثه إلى مسامع بياترِس، ثم قال:

- من بوسعه القول إن دربك لم يكن الأقرب إلى الربِّ؟ الدرب الذي تركت وراءك فيه كل ذلك الكلام العظيم عن الحرب والسلم. تركت وراءك فيه ذاك الميثاق الراقي لجلب البشر مسافة أقرب من الربِّ. تركت وراءك فيه آرثر مرَّة وللأبد وكرَّست نفسك لـ...

اختطف ثانية نظرة صوب بياترِس، التي ظلَّت واقفة على قدميها، وجبينها يكاد أن يلامس الحجارة المكوَّمة احتماء من الريح. ثم تابع القول:

- لزوجة صالحة أيُّها السيِّد. راقبتُ كيف تمضي إلى جنبك مثل طيف طيِّب. أكان ينبغي لي القيام بالأمر نفسه؟ لكنَّ الربَّ قادنا إلى دربين منفصلين. كان عليَّ واجب لا بدَّ من القيام به. هه! وهل أخافه الآن؟ أبدًا أيُّها السيِّد، أبدًا. لا أتَّهمك بشيء. ذلك الميثاق العظيم الذي لم يرَ النور إلَّا بجهودك جرت استباحته وقُطِّع إربًا! مع أنه صمد جيِّدًا لبعض الوقت. استبيح وقطِّع إربًا! من يلومنا الآن على ذلك؟ هل أخشى فتوَّته وشبابه؟ وهل يمكن للفتوَّة والشباب بمفردهما إحراز النصر على الخصم؟ دعه يأتِ، دعه يأتِ. هل تذكر أيُّها السيِّد! رأيتك في ذلك اليوم، تكلَّمت عن صرخات الأطفال والرضَّع وهي تطنُّ في أذنيك. سمعتها أنا أيضًا، أيُّها السيِّد. لكن ألم تكن مثل ما يعلو من خيمة الجرَّاح أثناء إنقاذه رجلًا رغم ما يجرُّه العلاج من ويل وعذاب؟

مع ذلك، إنني أعترف. ثمَّة أيَّام أتوق فيها إلى طيف طيِّب يتبعني كظلِّي. حتى الآن أستدير وأنا على أمل برؤية واحد منها. أليس كل ما يدبُّ على الأرض أو يطير في السماء يشتهي رفيقًا حنونًا؟ هناك واحدة، أو اثنتان، وددت لو أهبهما سنوات عمري طائعًا. لمَ ينبغي عليَّ أن أخافه الآن؟ قاتلت نورديين لهم أنياب وخشومهم مثل الأيائل، وتلك لم تكن بأقنعة! خذ، أيُّها السيِّد، اربط عنزتك الآن. حتى متى ستظلُّ تضرب هذا الوتد عميقًا في الأرض؟ أستربط به عنزة أم أسدًا؟

مناولًا أكسِل الحبل، ابتعد غَاوِن بخطى واسعة، ولم يتوقَّف حتى وصل إلى حيث كانت حافة الأرض تعانق السماء. ربط أكسِل الحبل، مرتكزًا فوق العشب على ركبته، وشدَّه بإحكام حول الوتد، ثم نظر نحو زوجته من جديد. كانت واقفة عند الرجم على هيئتها السابقة، ومع أن شيئًا في وقفتها هزَّه من جديد، إلَّا أنه شعر بالارتياح حين لم يلمس في نفسه أثرًا لتلك المرارة السابقة. عوض ذلك، انتابته رغبة عارمة في الدفاع عنها، لا من الريح الهوجاء فحسب، بل من شيء آخر مهول وقاتم يتجمَّع حتى في تلك اللحظة من حولهما. نهض وهرع إليها.

- العنزة مربوطة بإحكام يا أميرة. حالما تصبحين جاهزة، دعينا نهبط هذا المنحدر ونذهب في حال سبيلنا. ألم ننجز المهمَّة التي وعدنا هؤلاء الأطفال وأنفسنا بالقيام بها؟
- أوه يا أكسِل، لا أريد العودة إلى تلك الغابة الصغيرة.
- ما الذي تقولينه يا أميرة؟
- أكسِل، أنت لم تذهب قطُّ إلى حافَّة البركة، كنت منهمكًا للغاية في الحديث مع هذا الفارس. لم تنظر أبدًا داخل ذلك الماء المرعب.
- هذه الريح أتعبتك يا أميرة.
- رأيت وجوههم محدِّقة إلى الأعلى كما لو كانوا ممدَّدين في الأسرَّة.
- من يا أميرة؟

- الرُضَّع، وعلى عمق بسيط من تحت سطح الماء. ظننتهم في البداية يبتسمون، وبعضهم يلوِّح بيديه، لكني عندما اقتربت أكثر رأيت أنهم ممدَّدون من دون حراك.
- حلم آخر داهمك بينما كنت تستريحين إلى جذع تلك الشجرة. أذكر أني رأيتك نائمة هناك وسررت حينذاك من ذلك، حتى أثناء حديثي مع الفارس العجوز.
- رأيتهم فعلًا يا أكسِل. وسط الأعشاب البحرية الخضراء. دعنا لا نعُد إلى تلك الغابة، فأنا متأكِّدة من أن شرًا ما يحوِّم في ذلك المكان.

رفع السير غَاوِن، ذراعه في الهواء، محدِّقًا إلى المنظر في الأسفل، ومن دون أن يستدير، هتف الآن عبر الريح قائلًا:

- سيهلَّان علينا قريبًا! إنهما يتسلَّقان المنحدر بهمَّة.
- دعينا نذهب إليه يا أميرة، لكن تدثَّري بالرداء جيِّدًا. كنت أحمق عندما أحضرتك إلى هذا المكان البعيد، لكنَّنا سنعثر قريبًا على مأوى جديد. لنذهب ونرَ ما الذي يثير قلق هذا الفارس الطيِّب.

كانت العنزة لدى مرورهما بها تشدُّ الحبل محاولة الإفلات، لكنَّ الوتد ظلَّ ثابتًا من دون أي علامات على التزحزح. وكان أكسِل متلهِّفًا على رؤية كم اقتربت الهيئتان المتقدِّمتان، لكنَّ الفارس العجوز جاء الآن ماشيًا نحوهما، فتوقَّف ثلاثتهم قرب البهيمة المربوطة في الوتد.

قال أكسِل:

- سير غَاوِن، زوجتي تزداد وهنًا على وهن، ويجب أن نعود لتأمين مأوى وطعام. أتأذن لنا بحملها إلى الأسفل على حصانك كما فعلنا عند جلبها إلى الأعلى؟
- ما الذي تطلبه مني؟ هذا كثير للغاية أيُّها السيِّد! ألم أقل لك حين التقينا في غابة مرلين لا تتقدَّم وتتسلَّق هذا الجبل مسافة أبعد؟ أنتما من أصرَّ على المجيء إلى هنا.

- ربما كنَّا أحمقين أيُّها السير، لكن كان لدينا غرض من وراء المجيء، وإن تحتَّم علينا الذهاب من دونك، فيجب أن تعدنا ألَّا تُطلق هذه العنزة التي كلَّفنا حملها إلى هنا الكثير.

- أُطلق العنزة؟ مالي وَمال عنزتك أيُّها السيِّد؟ سَيَفِدُ علينا المحارب الساكسوني قريبًا، ويا له من رجل! اذهب، انظر بنفسك إن كان لديك شكٌّ في ذلك! مالي وَمال عنزتك؟ سيِّد أكسِل، أراك من أمامي الآن فأتذكَّر تلك الليلة. كانت الريح هوجاء كهذه. وأنت، تلعن آرثر في وجهه فيما وقف بقيَّتنا برؤوس مطأطئة! إذ من الذي كان يريد إشهار سيفه في وجهك؟ كل واحد منَّا يختبئ من عين الملك، خوفًا من نظرة واحدة آمرة بالإطاحة بك، رغم أنك كنت أعزل. لكن كما تعرف، أيُّها السيِّد، كان آرثر ملكًا عظيمًا، وهاك دليل آخر يبرهن على صحَّة ذلك! لعنته بحضور صفوة فرسانه، لكنه مع ذلك ردَّ عليك بلين. هل تذكر ذلك أيُّها السيِّد؟

- لا أتذكَّر أي شيء من هذا القبيل، سير غَاوِن. أنفاس تنِّينتك تحجب كل ذلك عني.

- عيناي مشدودتان إلى الأرض مثل البقيَّة، متوقِّعًا أن يتدحرج رأسك قرب قدمَيَّ اللتين كنت محملقًا فيهما! لكن آرثر مع ذلك ردَّ عليك بلين! ألا تتذكَّر ولو جزءًا يسيرًا من هذا؟ الريح في تلك الليلة هوجاء كهذه، وخيمتنا على وشك الطيران في السماء المظلمة. لكن آرثر قابل اللعنات بكلمات ليِّنة. شكرك على خدمتك. وحثَّنا جميعًا على النظر إليك بشرف. أنا نفسي همست لك بتحيَّة الوداع، أيُّها السيِّد، حين أخذت حنقك وخرجت به إلى العاصفة. لم تسمعني، لأنني ألقيت تحيَّتي همهمة، لكنها كانت مخلصة على أي حال، ولم أكن الوحيد. نحن جميعًا شاطرناك شيئًا من غضبك، أيُّها السيِّد، حتى وإن كنت مخطئًا في الإقدام على لعن آرثر، وفي اليوم نفسه الذي أحرز فيه

انتصاره العظيم! تقول الآن إن ما يحجب هذا عن عقلك هو أنفاس كويرِغ، ولمَ لا يكون بفعل السنين فقط، أو حتى هذه الريح الكفيلة بتحويل أكثر الرهبان حكمة إلى أحمق أبله؟

- لست مهتمًّا بأي من تلك الذكريات، سير غَاوِن. اليوم أسعى وراء أخريات من ليلة عاصفة ثانية تتحدَّث عنها زوجتي.

- تحيَّة وداع مخلصة بذلتها لك، أيُّها السيِّد، ودعني أعترف لك، عندما لعنتَ آرثر كان جزء صغير مني ينطق بلسانك. لأن ذاك الميثاق الذي أُبرم بوساطتك كان عظيمًا، وصمد لسنوات مديدة. ألم يبثَّ الطمأنينة في صدور الرجال، مسيحيِّين ووثنيِّين، فكانت أعينهم تغفو بسهولة أكبر، حتى عشيَّة المعركة؟ نقاتل ونحن نعلم بأن من تركناهم في قرانا من أبرياء في أمان؟ لكن الحروب، أيُّها السيِّد، لم تنته رغم ذلك. فبعدما كنا نتقاتل لأجل الأرض والربِّ، أصبحنا نتقاتل انتقامًا لمن سقط من الرفاق، ممَّن ذُبحوا بدورهم طلبًا للثأر. كيف يمكن إنهاء حروب كتلك؟ يكبر الصغار ويصبحون رجالًا من دون أن يعرفوا سوى أيَّام الحرب. واتِّفاقك العظيم يعاني من انتهاكات...

- كان الميثاق صامدًا على الطرفين بقوَّة حتى ذلك اليوم، سير غَاوِن. أمَّا نقضه فكان عصيانًا للربِّ وزيغًا عن طريقه.

- آه، تذكَّرتَ الآن إذًا!

- ما أذكره هو أن الربَّ نفسه تعرَّض للخيانة، أيُّها السيِّد. ولا أشعر بالأسف إن كان الضباب قد سرق مني تفاصيل ذلك.

- لوقتٍ ما، تمنَّيت أن يسبغ عليَّ الضباب تلك النعمة، سيِّد أكسِل. لكني سرعان ما أدركت ما قضت به يد ملك عظيم بحقٍّ. إذ توقَّفت الحروب أخيرًا، ألم يحدث هذا أيُّها السيِّد؟ ألم يبقَ السلام رفيقنا منذ ذلك اليوم؟

- لا تذكِّرني بالمزيد، سير غَاوِن. فلا أشعر بالشكر لك على ذلك. دعني أرَ عوض هذا تلك الحياة التي عشتها مع زوجتي العزيزة، وها هي إلى جنبي ترتجف من البرد. ألا تقرضنا حصانك أيُّها السير؟ على الأقل حتى نبلغ الأيكة حيث التقينا. سنتركه هناك بأمان في انتظارك.

- أوه يا أكسِل، لن أعود إلى تلك الغابة! لمَ تصرُّ الآن على ترك هذا المكان والعودة إلى هناك؟ هل ما زلت خائفًا، يا زوجي، من تلاشي الضباب، حتى بعد ما قطعته لك من وعد؟

- حصاني أيُّها السيِّد؟ هل تلمِّح إلى أنني لم أعد أحتاج إلى حصاني؟ غلوت في تفكيرك أيُّها السيِّد! إنني لا أهابه، حتى وإن كان الشباب والفتوَّة إلى جانبه!

- لا ألمِّح إلى أي شيء، سير غَاوِن، أطلب فقط مساعدة حصانك الأصيل في حمل زوجتي إلى مأوى في الأسفل...

- حصاني أيُّها السيِّد؟ هل تصرُّ على أن تُغطِّي عينيه أم تتركه ليراقب سقوط سيِّده؟ إنه من خيل الحرب أيُّها السيِّد! ليس بمهر لأجل التبختر بين الزهور! من خيل الحرب، أيُّها السيِّد، وأُعِدَّ جيِّدًا لرؤيتي في حال سقوطي مجندلًا أو منتصرًا حسبما يشاء الربُّ!

- إن كان لا بدَّ من سفر زوجتي فوق ظهري، أيُّها السيِّد الفارس، فليكن. لكني ظننت بأنك قد تستغني عن حصانك مسافة الهبوط إلى الأيكة على الأقل...

- سأظلُّ هنا، يا أكسِل، ولا تكترث لهذه الريح القاسية. إن كان السيِّد وِسْتِن على أهبَّة الوصول، فسنبقى لنشهد من ينجو اليوم، هو أم التنِّينة. أم أنك لا تحبِّذ في نهاية المطاف انقشاع الضباب يا زوجي؟

- شهدت ذلك من قبل مرَّات عديدة أيُّها السيِّد! شابٌّ يافع متحمِّس يسقط صريع سيفِ شائبٍ حكيم. مرَّات عديدة!

- أيُّها السيِّد، دعني أحثُّك ثانية على تذكُّر خصالك الحميدة. هذه الريح تمتصُّ القوَّة من عروق زوجتي.
- ألا يكفيك يا زوجي ما أقسمته لك، لا بالأمس بل وفي هذا الصباح، من أنني لن أنسى ما أكنُّه لك اليومَ في قلبي، مهما تكشَّف لي بعد انقشاع الضباب؟
- ألن تستوعب الحكمة من وراء أفعال ملك عظيم؟ نحن قادرون فقط على أن نراقب ونتعجَّب. أمَّا ملك عظيم، في مقام الربِّ نفسه، فيجب عليه أن يُقدِم على أعمال ترتعد لها فرائص الفانين! أتحسب أنه لم تكن هناك أي واحدة اجتذبت عينيَّ؟ زهرة غضَّة أو اثنتان مرَّتا في طريقي، ولم أتُق إلى ضمِّهما إلى صدري؟ ألن يكون من نصيبي أن أحظى بأي رفيق في السرير سوى هذا الرداء الصفيحي؟ من يزعم بأني جبان، أيُّها السيِّد؟ أو قاتل رضَّع؟ أين كنت في ذلك اليوم؟ هل كنت معنا؟ خوذتي! تركتها في تلك الغابة! لكن ما حاجتي إليها الآن؟ والدرع أيضًا كم أرغب في رميه بعيدًا عني لولا خوفي من ضحككم جميعًا على مرآى الثعلب الهزيل القابع تحته!

انخرط ثلاثتهم لبرهة في الصراخ، وعواء الريح رابعهم، ولكن ضدَّهم جميعًا. ثم انتبه أكسِل لأن كلًّا من غَاوِن وزوجته صمتا وحملقا فيما وراء كتفه. وحين استدار إلى الخلف، رأى المحارب والفتى الساكسوني واقفين على حافَّة الجرف، في البقعة نفسها تقريبًا التي كان السير غَاوِن يحدِّق منها بقلق إلى ما أطلَّ عليه من منظر. كانت السماء قد اشتدَّت قتامة، ولذا شعر أكسِل كما لو أن القادمَين حُمِلا إلى هنا على جناح السحب. الآن بدا كلا الاثنين، في صورتهما المنطبعة فوق صفحة الأفق القريب، واجمين متسمِّرين على نحو غريب: المحارب قابضًا على الرسن بيديه الاثنتين وكأنه سائق عربة رومانية؛ الصبي مائل إلى الأمام بزاوية منفرجة، وذراعاه ممدودتان كمن يريد التوازن. علا صوت جديد عبر الريح، وعندها سمع أكسِل السير غَاوِن يقول:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- آه! الفتى يغنِّي ثانية! ألا تستطيع حمله على التوقُّف أيُّها السيِّد؟

أطلق وِستِن ضحكة، ودبَّت الحركة في الهيئتين الصنميَّتين وتقدَّمتا نحوهم، الصبيُّ مندفع في المقدِّمة.

قال المحارب:

- عذرًا، ولكن هذا كل ما أستطيع فعله لمنعه من القفز بين الصخور حتى يدقَّ عنقه بنفسه.

اقتربت بياترِس من أذن أكسِل وأسرَّت له، بنبرة ارتياح لما فيها من عودة الحميمية إلى صوتها من جديد:

- ما الذي دهى هذا الصبيَّ يا أكسِل؟ كان هكذا تمامًا قبل ظهور ذلك الكلب.

خاطب السير غَاوِن وِستِن ثانية قائلًا:

-هل عليه الغناء بهذا الصوت النشاز؟ أودُّ لو أصفعه على أذنيه، ولكن أخشى أنه لن يشعر حتى بذلك!

ضحك المحارب ثانية، وهو ما زال مقبلًا، ثم ألقى بنظرة مرحِّبة نحو أكسِل وبياترِس وقال:

- أيُّها الصديقان، هذه مفاجأة. تصوَّرت أنكما ستكونان الآن في قرية ابنكما. ما الذي أتى بكما عوض ذلك إلى هذه البقعة المقفرة؟

- الأمر نفسه الذي أتى بك إلى هنا، سيِّد وِستِن. نحن نشتهي القضاء على هذه التنِّينة التي تسرق منَّا أعزَّ ذكرياتنا. أتدري أيُّها السيِّد، جلبنا معنا عنزة مسمومة لتحقيق غايتنا.

طالع وِستِن الحيوان ثم هزَّ رأسه قائلًا:

- لا بدَّ من أن الكائن الذي سنواجهه جبَّار ماكر. أخشى أن عنزتكما قد لا تسبِّب للتنِّينة أكثر من عُسر بسيط في الهضم يحملها على التجشُّؤ مرَّة أو اثنتين.

ردَّت بياترِس:

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- تكبَّدنا مشقَّة عظيمة لجلبها إلى هنا، سيِّد وِسْتِن. رغم ما نلناه من مساعدة على يد هذا الفارس الكريم بعدما صادفناه ثانية في الطريق. لكنَّ رؤيتك هنا، حملتني على السعادة، إذ لم تعد آمالنا معلَّقة على عنزتنا فقط.

حال الآن غناء إدْوِنْ دون سماع أحدهم للآخر بسهولة، كما كان الفتى يحاول الاندفاع إلى الأمام بشراسة أشد من أي وقت مضى، أمَّا محطُّ انتباهه فكان بالتأكيد بقعة تتربَّع فوق قمَّة المنحدر التالي. جذب وِسْتِن الحبل بحدَّة، ثم قال:

- يبدو أن السيِّد إدْوِنْ متلهِّف على الوصول إلى تلك الصخور في الأعلى هناك. سير غَاوِن، ما الذي يقبع فيها؟ أرى حجارة يتكدَّس الواحد منها فوق الآخر، كما لو كانت تخفي هوَّة أو وكرًا.

ردَّ سير غَاوِن:

- لمَ تسألني أيُّها السيِّد؟ سلْ رفيقك الشابَّ فربما يتوقَّف عن الغناء!
- إنني أقتاده برسن أيُّها السيِّد، لكني لم أعد قادرًا على السيطرة عليه فهو مثل عفريت ممسوس.

قال أكسِل:

- سيِّد وِسْتِن، نحن نتقاسم واجب الحفاظ على هذا الفتى من الأذى. يجب أن نراقبه بعناية في هذا المكان المرتفع.
- أحسنت قولًا أيُّها السيِّد. سأربطه، بعد إذنك، بالوتد الذي تربط به عنزتك.

اقتاد المحارب إدْوِنْ إلى حيث كان أكسِل قد طرق وتده في الأرض، ثم شرع وهو مقرفص في ربط حبل الفتى. بدا لأكسِل أنَّ وِسْتِن كان سخيًّا للغاية فيما بذله من اهتمام وعناية غير عادية بتلك المهمَّة، متفحِّصًا مرارًا وتكرارًا كل عقدة صنعها، ومتأكِّدًا كذلك من مدى إحكام ما صنعته يدا أكسِل. وطوال ذلك الوقت، ظلَّ الفتى نفسه في غفلة كبيرة عمَّا يجري. هدأ بعض الشيء، لكن بصره

ظلَّ شاخصًا إلى الصخور في قمَّة المنحدر، كما استمرَّ في التفلُّت من الحبل بإصرار شديد. اكتسب غناؤه، مع أنه أصبح أقل جلجلة بكثير، طابعًا معاندًا ذكَّر أكسِل بنشيد الجنود المتعبين لأجل مواصلة الزحف. من جانبها، كانت العنزة قد ابتعدت قدر ما سمح لها حبلها نفسه بالابتعاد، لكنها ظلَّت مع ذلك تبحلق ببلاهة وانبهار.

أمَّا بالنسبة لسير غَاوِن، فقد كان يراقب كل حركة لوِسْتِن بانتباه شديد، متسلِّلًا إلى عينيه - حسبما لاحظ أكسِل - صنف من الدهاء الخبيث. وحين انغمس المحارب الساكسوني تمامًا في مهمَّته، اقترب الفارس خلسة منه، وبعد أن سحب سيفه من غمده غرسه في التراب، ثم أسند ثقله عليه، متَّكئًا بساعده على مقبضه العريض. بهذه الوقفة، كان غَاوِن الآن يراقب وِسْتِن، وخطر لأكسِل أنه ربما كان يستظهر عن ظهر قلب مواصفات المحارب الجسدية: طوله، مدى ذراعه، قوَّة عضلات ساقيه، ذراعه اليسرى المربوطة إلى عنقه.

بعد إنجاز عمله بصورة أرضته، نهض وِسْتِن واستدار فقابل السير غَاوِن. كان هناك لوهلة قدر من القلق الغريب فيما تبادلاه من نظرات، ثم ابتسم وِسْتِن بحرارة وأشار بإصبعه قائلًا:

- والآن هذه من العادات التي تفرِّق البريتون عن الساكسون. انظر هنا أيُّها السير. سيفك مسحوب من غمده وأنت تستخدمه للاتكاء عليه، كما لو أنه يمتُّ بصلة لكرسيٍّ أو مسند قدمين. بالنسبة لأي محارب ساكسوني، حتى لواحد منهم تعلَّم على يد البريتون كما هو حالي، تبدو هذه العادة غريبة.

- تقدَّم في العمر وابلغ سنواتي واسمع صريرها، أيُّها السيِّد، وحينذاك سترى بنفسك إن كان هذا يبدو غريبًا للغاية أم لا! في هذا الزمن الذي يعمُّه السلم، أتصوَّر أن أي سيف أصيل سيكون سعيدًا جدًّا بإسناد أي عمل إليه، حتى وإن لم يكن أكثر من إراحة عظام صاحبه. ما الغريب في هذا أيُّها السيِّد؟

- انظر، سير غاوِن، كيف ينغرس في الأرض. الآن، بالنسبة لنا معشر الساكسون، فإن حدَّ السيف يثير فينا قلقًا لا يهمد. فنحن نخشى على النصل حتى من الهواء مخافة أن يفقد ولو جزءًا ضئيلًا من حدَّته.
- هل الأمر حقًّا كذلك؟ حدَّة النصل مسألة ذات أهمية، سيِّد وِسْتِن، ولن أختلف معك في ذلك. ولكن أليس هناك من مبالغة في مدى أهمِّيتها؟ المناورة بحركة الأقدام الماهرة، والاستراتيجية المحكمة، ورباطة الجأش. وذلك القدر الضئيل من الجسارة الوحشية التي تجعل المحارب عصيًّا على التوقُّع. ذلك ما يحسم نتيجة مبارزة ما أيُّها السيِّد. وكذلك أيضًا المعرفة بأن إرادة الربِّ تقضي بانتصار المقاتل. لذا دعْ عجوزًا يريح كتفيه. فضلًا عن ذلك، أليست هناك تلك الأوقات التي إن كان السيف فيها متروكًا في غمده فإنه لا يُسحب إلَّا وقد فات الأوان؟ وقفت هكذا كما أنا الآن في العديد من المعارك لالتقاط أنفاسي، مطمئنًّا إلى أن سيفي مسحوب وجاهز، ولن يفرك عينيه ويسألني إن كان الوقت ظهرًا أم فجرًا ساعة الملحمة.
- إذًا لا بدَّ من أننا نحن الساكسون نعامل سيوفنا من دون رحمة. فنحن نأمرها بألَّا تنام بتاتًا، حتى وهي مستقرَّة في عتمة أغمادها. خذ سيفي هذا مثلًا أيُّها السيِّد. إنه يعرف طبعي جيِّدًا. وهو لا يتوقَّع عبَّ قسط من الهواء قبل أن يكون قد مسَّ سريعًا لحمًا أو عظمًا.
- فرق في العادات إذًا أيُّها السيِّد. وهو يذكِّرني بساكسوني عرفته ذات مرَّة، محارب مقتدر، ذهبت وإيَّاه لجمع الحطب ذات ليلة باردة. وبينما أعملت أنا سيفي في تقطيع الحطب من شجرة ميِّتة، كان هو بقربي هناك، لا يستخدم سوى يديه العاريتين وأحيانًا حجرًا أثلَم، سألته قائلًا: «هل نسيت نصل سيفك أيُّها الصديق؟ لمَ تقطع الحطب مثل دبٍّ بمخالب حادَّة؟» لكنه ما كان لينصت لي. ظننته معتوهًا في

ذلك الوقت، لكنك الآن خلَّصتني من جهلي. حتى في هذا العمر، ما زالت هناك دروس يتعلَّمها المرء!

ضحكا معًا لمدَّة وجيزة، ثم قال وِسْتِن:

- ربما كان هناك ما هو أكثر من تلك العادة من طرفي، سير غَاوِن. دُرِّبت دومًا على أنه لا بدَّ لي في لحظات هبوط سيفي في جسد الخصم من التحضير ذهنيًا للضربة اللاحقة. الآن، لو كان حدُّ سيفي غير قاطع، أيُّها السيِّد، وأعيقَ خلال شقِّ طريقه في جسد الخصم وخروجه منه ولو لثانية قصيرة، مصطدمًا بعظم أو متعثِّرًا بغابة الأحشاء المتشابكة، فسيؤخِّرني ذلك بالتأكيد عن تسديد الضربة اللاحقة، وعلى شفير تلك اللحظة قد يتعلَّق النصر أو الهزيمة.

- أنت محقٌّ أيُّها السيِّد. أظنُّ أن التقدُّم في العمر وسنوات السلم الطويلة هذه جعلتني متهاونًا. سأقتدي بك من الآن فصاعدًا، مع ذلك في هذه اللحظة فقط، وركبتاي تئنَّان من فرط التسلُّق، أناشدك أن تسمح لي بهذا المسكَّن البسيط.

- بالطبع أيُّها السير، استرح كما تشاء. هو خاطر داهمني حين رأيتك تستريح على هذا النحو.

توقَّف إدْوِنْ فجأة عن الغناء وشرع في الصراخ. ردَّد الجملة نفسها مرَّة تلو الأخرى، فاستدار أكسِل نحو بياترِس التي كانت بجواره وسألها بصوت منخفض:

- ما الذي يقوله يا أميرة؟

- يقول إنه يوجد مخيَّم قطَّاع طرق في الأعلى هناك، ويناشدنا جميعًا أن نتبعه إليه.

كان وِسْتِن وغَاوِن يحملقان معًا في الفتى بنظرات فيها ما يشبه الوقوع في الحرج. للحظة أخرى، واصل إدْوِنْ الصراخ والتدافع، ثم خيَّم عليه الصمت، وارتمى فوق الأرض، وبدا على أهبَّة البكاء. لم يتكلَّم أحد لوقت بدا طويلًا، فيما كانت الريح تعوي بينهم.

قال أكسِل في نهاية المطاف:

- سير غَاوِن، نحن نتطلَّع إليك الآن أيُّها السيِّد. دعنا نرفع جميع الأقنعة. أنت حامي التنِّينة، أليس كذلك؟
- أجل، هو كذلك أيُّها السيِّد.

نظر غَاوِن فيهم واحدًا تلو الآخر، بمن فيهم إدوِن، بشيء من التحدِّي ثم استأنف القول:

- حاميها، ومؤخَّرًا صديقها الوحيد. داوم الرهبان على إطعامها لسنوات، بترك حيوانات مربوطة في هذه البقعة، كما فعلتم. لكنهم باتوا يتشاجرون الآن فيما بينهم، وكويرِغ تستشعر خيانتهم. لكنها مع ذلك تعرف بأنني ما زلت على إخلاصي لها.

قال وِسْتِن:

- إذًا، سير غَاوِن، ألا ترأف بحالنا وتخبرنا إن كنَّا نقف الآن على مقربة من التنِّينة؟
- إنها قريبة أيُّها السيِّد. أفلحت بذكائك وعملك الدؤوب في الوصول إلى هنا، حتى وإن كنت قد عثرت في طريقك على كنز ثمين يتمثَّل في هذا الفتى كمرشد ودليل.

شرع إدوِن، إذ وقف مجدَّدًا، في الغناء ثانية، وإن بما يشبه الترانيم الهادئة.

قال المحارب:

- قد يبرهن السيِّد إدْوِنْ فيما بعد على أنه كنز أعظم من ذلك بكثير. إذ يخالجني الشعور بأنه تلميذ سيتفوَّق بسرعة على معلِّمه المسكين ليصنع الأمجاد ذات يوم لبني جلدته. ربما حتى مثلما صنع آرثرك لقومه.
- ماذا أيُّها السيِّد؟ هذا الفتى الذي يغنِّي الآن ويتفلَّت من رسنه مثل المجذوب؟

قاطعته بياترِس قائلة:

- سير غَاوِن، قل لعجوز متعبة إن شئت. كيف يمكن لفارس نبيل مثلك، وابن اخت آرثر العظيم، أن يكون بعد انكشاف الأمور حامي هذه التنِّينة؟

- ربما يتحرَّق السيِّد وِسْتِن لتفسير ذلك بنفسه أيَّتها السيِّدة.

- على العكس، لست بأقل حرقة من السيِّدة بياترِس لسماع تفسيرك أنت لذلك. لكن لكل مقام مقالًا. علينا أوَّلًا أن نحسم سؤالًا ملحًّا. هل أُطلقُ السيِّد إدْوِنْ لأرى أين سيتَّجه راكضًا؟ أم تقودنا أنت، سير غَاوِن، إلى وكر كويرِغ؟

حدَّق السير غَاوِن بنظرات جوفاء إلى الفتى الذي يكابد الأمرَّين ثم تنهَّد وقال بكدر:

- دعه في مكانه. سأقودك إلى الوكر بنفسي.

اعتدل وقوفًا على طول هامته الفارعة، ثم سحب السيف من الأرض وأدخله بحذر في غمده.

ردَّ وِسْتِن قائلًا:

- أشكرك سير غَاوِن. لك مني عظيم الامتنان على تجنيب هذا الفتى مغبَّة التعرُّض للخطر. مع أن بمقدوري الآن أن أهتدي إلى الطريق من دون دليل. يتوجَّب علينا التوجُّه إلى تلك الصخور المتربِّعة فوق قمَّة ذلك المرتفع، أليس كذلك؟

تنهَّد السير غَاوِن ثانية، مختطِفًا نظرة نحو أكسِل كما لو كان يلتمس المساعدة، ثم هزَّ رأسه بحزن قائلًا:

- الصواب عينه أيُّها السيِّد. تطوِّق تلك الصخور هوَّة، وهي ليست بصغيرة. هوَّة عميقة بعمق محجر، وستجد كويرِغ نائمة في قاعها. إن كنت تنوي قتالها حقًّا، سيِّد وِسْتِن، فعليك النزول إلى قعر الهوَّة. والآن أنا أسألك، أيُّها السيِّد، أتنوي حقًّا الإقدام على مغامرة هوجاء كهذه؟

- هذا ما قطعت لأجله كل هذه المسافات الشاسعة، أيُّها السيِّد.

قالت بياترِس:

- سيِّد وِسْتِن، اعذر عجوزًا مثلي على التدخُّل في شأن كهذا. قبل قليل، ضحكت من عنزتنا، لكن هذه المعركة التي ستخوضها جسيمة. إن لم يشأ هذا الفارس أن يساعدك، فاسمح لنا على الأقل بحمل عنزتنا إلى ذلك المرتفع ورميها في تلك الهوَّة. إن كان يتحتم عليك منازلة تنِّينة بمفردك، فلتكن واحدة أبطأ السمُّ حركتها.

- شكرًا، أيَّتها السيِّدة، وأقدِّر قلقك هذا كثيرًا. لكني وإن كنت على استعداد لاستغلال نومها، فإن السمَّ سلاح لا أكترث باللجوء إليه. فضلًا عن ذلك، لا صبر لي الآن على الانتظار لنصف يوم آخر أو أكثر للتأكُّد من أن التنِّينة سوف تمرض من عشائها.

قال السير غَاوِن:

- إذًا دعنا نحسم هذا الأمر. هيا أيُّها السيِّد، سأتقدَّمك وأقودك إلى المكان.

ثم تابع كلامه موجِّهًا الحديث إلى أكسِل وبياترِس:

- انتظرا هنا أيُّها الصديقان، واحتميا من الريح بجانب الرجم. لن يطول انتظاركما.

ردَّت بياترِس:

- لكن، سير غَاوِن، بذلت أنا وزوجي أقصى ما في طاقتنا لبلوغ هذا المكان البعيد. نرغب في مرافقتكما وقطع هذا المرتفع الأخير، إن كان هناك من طريقة تتيح لنا فعل ذلك من دون التعرُّض للخطر.

هزَّ سير غَاوِن رأسه بيأس مرَّة أخرى وقال:

- إذًا هيَّا لنذهب جميعًا أيُّها الأصدقاء. أعتقد أن ما من أذى سيطالكما، كما سأكون أكثر اطمئنانًا لوجودكما. هيَّا أيُّها الأصدقاء، لنذهب إلى وكر كويرِغ، واحرصوا على خفض أصواتكم لئلَّا تتململ ثم تفيق من نومها.

***

أثناء ارتقاء الدرب المرتفع، أصبحت الريح أقل ضراوة، رغم أنهما شعرا أكثر من أي وقت مضى بملامسة السماء. سار الفارس والمحارب أمامهما بخطى ثابتة، تمامًا كرفيقين قديمين خرجا معا للتمشِّي واستنشاق شيء من الهواء، وبعد مدَّة وجيزة أصبحا على مسافة من الزوجين الكبيرين في السنِّ.

قال أكسِل أثناء سيرهما:

- هذا غباء أيَّتها الأميرة. لأي شأن نلحق بهذين الرجلين؟ من يدري بما يكمن على الطريق من مخاطر؟ هيَّا، دعينا نعُدْ ونمكث بقرب الفتى.

لكن خطى بياترِس ظلَّت على تصميمها، ثم قالت:

- سنواصل السير. هاك يا أكسِل، خذ يدي وساعدني في الحفاظ على رباطة جأشي. إذ بتُّ أظنُّ الآن بأنني أنا من سيتجرَّع القسط الأكبر من الخوف إزاء تبدُّد الضباب، لا أنت. وقفت بجانب تلك الحجارة قبل قليل فعادت إليَّ ذكريات، ورأيت أنني ارتكبت بحقِّك أفعالًا سوداوية ذات مرَّة يا زوجي. أترى كيف ترتجف هذه اليد في يدك عند التفكير في أنها ذكريات قد تُعاد إلينا! ما الذي ستقوله لي حينذاك؟ هل ستفارقني وتتركني فوق هذا الجبل المقفر؟ هناك بعضٌ مني يودُّ رؤية هذا المحارب المقدام صريعًا حتى وهو يسير الآن من أمامنا، مع ذلك فإنني لن أقبل بالاختباء. كلَّا، لن أختبئ، يا أكسِل، وأنت أيضًا؟ دعنا نرَ الدرب الذي قطعناه معًا بحرِّية ومن دون حجاب، إن كان تحت شمس سوداوية أو أخرى مشرقة. وإن كان على هذا المحارب مواجهة التنِّينة في قعر الهوَّة التي تسكنها، فدعنا نبذل قصارى جهدنا في الإبقاء على روحه المعنوية عالية. ربما صرخة تحذير نطلقها في لحظة مناسبة وتحمله على النهوض من ضربة شرسة هي ما سيصنع الفرق بين النصر والهزيمة.

كان أكسِل قد تركها تسترسل في الحديث، منصتًا بنصف عقله فقط أثناء سيره، لأنه كان قد أصبح واعيًا مرَّة أخرى لشيء في الزاوية البعيدة من ذاكرته:

ليلة عاصفة، ألم مرير، ووحدة تنبثق من أمامه مثل لجَّة من دون قرار. هل من الممكن حقًّا أن يكون هو، لا بياترِس، من كان واقفًا وحيدًا في حجرتهما، عاجزًا عن النوم، وشمعة صغيرة مضاءة من أمامه؟

سأل فجأة:

- ما الذي جرى لابننا يا أميرة؟

شعر بانقباض يدها في يده فمضى قائلًا:

- هل ينتظرنا حقًّا في قريته؟ أم سنفتِّش هذا البلد لسنة من دون أن نعثر عليه؟

- إنه أمر جال في خاطري أنا أيضًا، لكني خفت من البوح به والحديث عنه. اصمت الآن يا أكسِل، وإلَّا سُمِعَ صوتنا.

بالفعل، كان السير غَاوِن ووِسْتِن قد توقَّفا لانتظارهما على قارعة الطريق، وبدا أنهما منخرطان في حديث مرح. ولدى اقترابه منهما، تمكَّن أكسِل من سماع السير غَاوِن قائلًا بقهقهة مكتومة:

- سأعترف يا سيِّد وِسْتِن، ما زلت أعلِّق الآمال على أن تنسيك أنفاس كويرِغ الآن سبب سيرك بجواري حتى في هذه اللحظة. بل أنتظر بحرقة سؤالك لي: إلى أين تقودني! ولكني، ممَّا أراه في عينك وخطاك فأنت لم تنسَ شيئًا!

ابتسم وِسْتِن:

- أعتقد يا سير غَاوِن أنني أتمتَّع بهبة تحصِّنني من التعويذات السحرية العجيبة، وهي ما أتاح لي الظفر بهذه المهمَّة من ملكي. فنحن في الـفنْلاند، لم نعهد قطُّ كائنًا مثل كويرِغ هذه، لكننا عهدنا كائنات أخرى تتمتَّع بقوى مرعبة، وقد لوحظ كم كان تأثيرها عليَّ ضئيلًا، في الوقت الذي كان رفاقي يهيمون على وجوههم وهم في حالة من الخدر. أتصوَّر أن هذا كان السبب الوحيد وراء اختيار ملكي لي، فكل رفاقي في بلدي تقريبًا هم محاربون أفضل من هذا الذي يسير إلى جنبك الآن.

- مستحيل، لا يمكن تصديق هذا، سيِّد وِسْتِن! فما تناقلته الألسن وما رأته العين يشهدان لك بمهارات استثنائية.
- إنك ترفع من شأني وتبالغ أيُّها السير. في الأمس، عندما اضطررت إلى منازلة ذلك الجندي تحت بصرك، كنت على أشد الوعي بنظرة رجل في مثل مهارتك إلى مهاراتي المتواضعة. ربما كانت كافية لهزيمة حارس خائف، لكنها أقل بكثير من أن تحظى بالقبول من لدنك، على ما أخشى.
- يا له من كلام فارغ أيُّها السيِّد! إنك زميل ذو مقدرة رفيعة، ولن أسمح بمزيد من الجدل حول ذلك! أيُّها الأصدقاء - نقل غَاوِن ناظريه ليشمل أكسِل وبياترِس - المسافة لم تعد طويلة الآن. دعونا نتقدَّم بينما هي نائمة.

واصلوا السير بصمت. وفي هذه المرَّة، لم يتخلَّف أكسِل وبياترِس إلى الوراء، إذ هبط فيما يبدو إحساس مهيب على غَاوِن ووِسْتِن، جعلهما يسيران في الطليعة بوقع جنائزي. على أي حال، أصبحت الأرض أقل وعورة ومشقَّة، باستوائها إلى ما يشبه الهضبة. الصخور التي ناقشوا أمرها وهم في الأسفل لاحت الآن أمامهم، وتمكَّن أكسِل، لدى اقترابهم منها، أن يرى كيف كانت مرتَّبة في شبه دائرة تقريبًا حول قمَّة ربوة تقع في جنب طريقهم. كما تمكَّن أيضًا من رؤية كيف يصعد صفٌّ من الحجارة الأصغر فيما يشبه الدرج سطح الربوة، واصلًا إلى حافَّة ما لا يمكن أن يكون سوى هوَّة عميقة. بدا العشب في أرجاء المكان الذي وصلوا إليه الآن مُسْوَدًّا أو محترقًا، مضفيًا على المحيط - الذي كان من دون أشجار أو شجيرات - جوًّا من العفونة. استدار غَاوِن، حاملًا الجميع على التوقُّف عند بداية الدرج البدائي، ليواجه وِسْتِن بشيء من التروِّي:
- ألا تعيد النظر في الأمر للمرَّة الأخيرة، أيُّها السيِّد، وتتخلَّى عن هذه الخطَّة الخطيرة؟ لم لا تعود الآن إلى يتيمك المربوط في وتده؟ ها هو صوته يصلنا عبر الريح حتى في هذه اللحظة.

ألقى المحارب نظرة خاطفة إلى الوراء صوب الطريق الذي قطعوه، ثم نظر ثانية إلى السير غَاوِن وقال:

- أنت أعلم بالجواب أيُّها السير. لا يمكنني الرجوع. أرني هذه التنِّينة.

أومأ الفارس العجوز بتفهُّم، كما لو كان وِسْتِن قد أبدى ملاحظة عابرة لكنها جديرة بالاهتمام، ثم قال:

- حسنًا أيُّها الأصدقاء، أبقوا على أصواتكم منخفضة، إذ لأي غرض نوقظها؟

تقدَّم السير غَاوِن وقاد الجميع من خلفه إلى أعلى الربوة ولما بلغ الصخور أشار إليهم بالتوقُّف والانتظار. نظر مدقِّقًا بحذر إلى الأسفل، وبعد لحظة، استدعاهم ملوِّحًا بيده وهو يقول بصوت منخفض:

- تعالوا إلى هنا، أيُّها الأصدقاء، وسترونها بوضوح.

ساعد أكسِل زوجته على ارتقاء حافَّة ناتئة إلى جنبه، ثم مال من فوق أحد الصخور. كانت الهوَّة أكثر عرضًا وأقل عمقًا ممَّا توقَّع - أشبه ببركة جافَّة منها إلى شيء حفرته يد إنسان. يقبع الجزء الأعظم منها الآن تحت أشعَّة شاحبة من الشمس، وبدت مؤلَّفة من حجارة وحصى رمادية - العشب المُسْوَدُّ ينتهي فجأة عند الحافة - ولذا فالشيء الحيُّ الوحيد البادي للعيان، عدا التنِّينة نفسها، كان شجيرة زعرور برِّية يتيمة تنبثق براعمها المتنافرة من الحجارة قرب مركز الهوَّة.

أمَّا التنِّينة نفسها، فكان الجزم بأنها ما زالت حيَّة أمرًا عسيرًا في البدء. إذ من الممكن جدًّا أن تكون وضعية جسمها - منبطحة على بطنها، ورأسها ملتوٍ إلى جنب، وأطرافها ممدودة - ناجمة عن رمي جثَّتها من علٍ. وفي الواقع، مكث أكسِل مدَّة من الوقت كي يتأكَّد من أنها تنِّينة في الأصل: كانت ضامرة للغاية حتى بدت أكثر شبهًا بحيوان زاحف دودي الشكل، معتاد على الماء لكنه أخطأ بالخروج إلى اليابسة ففتك به الجفاف. جلدها، الذي ينبغي أن يبدو برونزيًّا ممسوحًا بالزيت، كان عوض ذلك أبيض مصفرًّا، مذكِّرًا ببطن فصيلة من السمك. أمَّا ما بقي من فضول جناحيها فطيَّات جلدية مترهِّلة فقط، قد

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

تبدو بلمحة عابرة وكأنها أوراق شجر ميّتة متراكمة على جنبيها. رأسها، بوضعه الملتوي فوق الحصى الرمادية، لم يُتِح لأكسِل أن يرى سوى عين واحدة فقط تعتمر قلنسوة كمقلة السلحفاة، وهي تنفتح وتنغلق بتثاقل وفق إيقاع داخلي ما. هذه الحركة، ومعها ذلك العلوُّ والانخفاض الواهن للغاية على طول ظهرها هي العلامات الوحيدة على أن كويرِغ ما زالت حيَّة.

قالت بياترِس بصوت خفيض:

- أيُعقل أن ما هو أمامنا هو التنِّينة؟ هذا الكائن المسكين لا يعدو أن يكون شريطًا من اللحم؟

علَّق صوت غَاوِن من خلفهما:

- دقِّقي النظر هناك، أيَّتها السيِّدة، طالما ظلَّ نفَس في صدرها يتردَّد، فستقوم بواجبها.

سأل أكسِل:

- أهي مريضة أم لعلَّها سُمِّمت بالفعل؟

- إنها تعاني وببساطة من الهرم، أيُّها السيِّد، كما هو محتوم علينا أجمعين. لكنها ما زالت تتنفَّس، ولهذا فإن صنيعة مِرْلِن مستمرَّة المفعول.

قال أكسِل:

- يحضرني الآن شيء بسيط من هذا الأمر. أتذكَّر صنيعة مِرْلِن هنا وأتذكَّر أيضًا أنها كانت ظلامية.

ردَّ عليه غَاوِن:

- ظلامية أيُّها السيِّد؟ لماذا ظلامية؟ بل كانت الطريقة الوحيدة. حتى قبل أن تحسم تلك المعركة بنصر قاطع، انطلقت مع أربعة من خيرة الرفاق لترويض هذه الكائنة نفسها، وكانت في تلك الأيَّام ذات جبروت وبطش، انطلقنا كي نساعد مِرْلِن على ضرب أنفاسها بتعويذته العظيمة هذه. ربما كان رجلًا احترف فنون العالم الظلامي، لكنه في مسألة التنِّينة لم ينفِّذ إلَّا مشيئة الربِّ، لا آرثر فقط. من دون أنفاس هذه التنِّينة

هل كان السلام سيحلُّ أبدًا؟ انظر كيف نعيش الآن أيُّها السيِّد! خصوم الأمس مثل أبناء العمِّ، قرية بعد قرية. سيِّد وِسْتِن، أصابك الخرس أمام هذا المنظر. إني أسألك ثانية، أن تدع هذه الكائنة المسكينة لتعيش ما بقي لها من أيَّام؟ أنفاسها لم تعد كما كانت، لكنها مع ذلك تثبّت السحر وتبقيه حتى الآن. فَكِّرْ، أيُّها السيِّد، في تلك اللحظة التي ستتوقَّف فيها هذه الأنفاس، فيما قد يُوقَظ في هذا البلد حتى بعد كل هذه السنين! أجل، ذبحنا الكثيرين، أعترف بهذا، غير عابئين بمن كان قويًّا ومن كان ضعيفًا. ربما أشاح الربُّ بوجهه عنَّا، لكنَّنا طهَّرنا بلدنا من الحرب. ارحل عن هذا المكان، أيُّها السيِّد، أتوسَّل إليك. ربما كنَّا نصلِّي لآلهة مختلفة، لكنَّ آلهتك مع ذلك ستبارك هذه التنِّينة لا محالة كما هو شأن إلهي.

استدار وِسْتِن موليًا ظهره للهوَّة ثم نظر إلى عيني الفارس العجوز:

- أي إله هذا، أيُّها السيِّد، الذي يودُّ أن تُنسى الخطايا ولا ينال مرتكبوها ما يستحقُّونه من عقاب؟
- سؤالك في محلِّه، سيِّد وِسْتِن، وأنا أعلم بأن إلهي لا ينظر بعين الرضا إلى أفعالنا في ذلك اليوم. لكنها انقضت منذ أمد بعيد وباتت العظام ترقد تحت بساط أخضر جميل. كما لا علم للصغار بشيء عنها. أتوسَّل إليك أن تترك هذا المكان، وأن تدعَ كويرِغ تؤدِّي مهمَّتها لبرهة أطول. لفصل آخر أو اثنين، هذا ما بقي لها من الحياة على الأغلب. لكن، حتى مثل هذا الوقت ربما يكون كافيًا لشفاء جراح قديمة إلى الأبد. انظر كيف تتشبَّث بأهداب الحياة أيُّها السيِّد! كن رحيمًا ودع هذا المكان. دع هذا البلد ينعم بالنسيان.
- هذا هراء أيُّها السيِّد. كيف يمكن لجراح قديمة أن تُشفى والديدان تتَّخذ منها مرتعًا لجحافلها؟ وكيف لسلام أن يصمد أبد الدهر وقد أقيم بالذبح وحيل مشعوذ ساحر؟ أستطيع أن أرى كم انت صادق في

أمنيتك، أن تتحوَّل بشاعاتكم القديمة إلى رميم تذروه الرياح لتصبح أثرًا بعد عين. لكنها قابعة تحت التراب عظامًا بيضاء تترقَّب رجالًا يكشفون عنها الغطاء. سير غاوِن، جوابي لم يتغيَّر. يجب أن أهبط إلى قاع هذه الهوَّة.

أومأ السير غاوِن على نحو منذر بالخطر وقال:

- أتفهَّم موقفك أيُّها السيِّد.
- إذًا عليَّ أن أسألك بدوري أيُّها السيِّد الفارس أن تدع هذا المكان لي وتعود الآن إلى حصانك الهرِم الأصيل الذي ينتظرك في الأسفل؟
- أنت تعرف بأنني لا أستطيع، سيِّد وِسْتِن.
- تمامًا كما ظننت. حسنًا إذًا.

تجاوز وِسْتِن أكسِل وبياتريس، ثم هبط الدرجات المتفاوتة طولًا وعرضًا. وعندما أصبح عند موطئ قدم الربوة من جديد، سرَّح نظره فيما حوله ثم قال بنبرة جديدة للغاية:

- سير غاوِن، وجه الأرض هنا يبدو مثيرًا للفضول. أيمكن أن تكون التنِّينة، أيَّام عزِّها، قد لفحتها بنيرانها فأصبحت على هذه الشاكلة؟ أم أن البرق كثيرًا ما يعصف هنا فيحرق الأرض قبل نموِّ حشائش جديدة؟

هبط غاوِن أيضًا، الذي كان قد لحق بوِسْتِن، آخر الدرجات، ثم سرح الاثنان هنا وهناك مثل رفيقين يفتِّشان عن البقعة الأمثل لنصب خيمتهما.

وفي أثناء ذلك كان غاوِن يقول:

- هذا أمر حيَّرني دومًا أنا الآخر، سيِّد وِسْتِن. فكويرِغ حتى عندما كانت أصغر سنًّا، كانت تظلُّ في الأعلى، ولا أحسب أنها هي من أهلك هذه الأرض. ربما كانت هكذا دومًا، حتى حين جلبنا التنِّينة هنا وأنزلناها إلى داخل وكرها.

ثم ضرب غاوِن التراب بكعبه متفحِّصًا واستأنف حديثه:

- أرضية جيِّدة، أيُّها السيِّد، رغم ذلك.

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- «فعلًا»، ردَّ وِسْتِن فيما كان يولي ظهره لغَاوِن ويختبر صلابة الأرض بطرف نعله هو الآخر.

علَّق الفارس:

- لكن لعلَّ عرضها صغير بعض الشيء؟ انظر كيف تنتهي تلك الحافَّة وتنقلب فوق الجرف الصخري. لو خرَّ رجل هنا صريعًا فستتلقَّفه الأرض بأمان في حضنها، لا شكَّ، لكن دماءه ستتدفَّق عبر هذا العشب المحترق ليتساقط من فوق الجرف. أنا لا أعنيك، أيُّها السيِّد، لكني لن أتصوَّر اندلاق ما في أحشائي من فوق الجرف وتساقطه مثل ذرق نوارس البحر.

ضحك كلاهما، ثم قال وِسْتِن:

- قلق لا داعي له، أيُّها السير. انظر كيف ترتفع الأرض قليلًا قبل بلوغ حافَّة الجرف هناك. أمَّا بالنسبة للحافَّة المقابلة، فإنها بعيدة جدًّا وهناك الكثير من التربة العطشى قبل الوصول إليها.

- دراسة متمحِّصة. حسنًا إذًا، ليست بقعة سيِّئة!

رفع السير غَاوِن بصره صوب أكسِل وبياترِس، وهما ما يزالان فوق قمَّة الربوة وظهراهما للهوَّة، ثم قال:

- سيِّد أكسِل، دائمًا ما كنتَ صاحب الباع الأطول في الدبلوماسية. أترغب الآن في استخدام فصاحتك ومقدرتك البلاغية الفذَّة لحملنا على ترك هذا المكان كأصدقاء؟

- أعتذر، سير غَاوِن. مددت لنا يد المساعدة كثيرًا ونحن نشكرك على ذلك. لكننا هنا الآن لكي نشهد نهاية كويرِغ، وإن كنت ستدافع عنها، فليس هناك من شيء أستطيع قوله لا أنا ولا زوجتي لدعمك. نحن إلى جانب السيِّد وِسْتِن في هذه المسألة.

- لا عليك أيُّها السيِّد. دعني إذا أطلب منك هذا على الأقل. لا أخشى مواجهة هذا الرجل الذي يقف أمامي. لكن إن كنتُ أنا من سيسقط

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

مجندلًا بدمائه، فهل تأخذان هُورِسي الطيِّب معكما إلى أسفل الجبل؟ سيرحِّب بحمل زوج طيِّب من البريتون فوق ظهره. قد تظنَّان بأنَّه يتذمَّر، لكنكما لن تكونا عبئًا ثقيلًا عليه. خذا هُورِسي العزيز بعيدًا عن هنا وعندما تقضيان حاجتكما منه، ابحثا له عن مرجة خضراء يانعة حيث يتسنَّى له الأكل حتى الشبع والتفكير في الأيَّام الخالية. هل تحقِّقان لي هذا الطلب أيُّها الصديقان؟

- سنفعل ذلك عن طيب خاطر، أيُّها السير، كما أن حصانك سيكون بدوره المنقذ لنا، فرحلة الهبوط من هذه المرتفعات شاقَّة وعسيرة.

- فيما يخصُّ هذه النقطة، أيُّها السيِّد.

كان غَاوِن قد جاء الآن ووقف أسفل الربوة تمامًا ثم أكمل قائلًا:

- أوصيتك مرَّة من قبل باللجوء إلى النهر. وها أنا أكرر ذلك ثانية. دع هُورِس يحملكما إلى أسفل هذه المنحدرات، لكن حين تصل إلى النهر، ابحث عن قارب لحملكما شرقًا. هناك قطع نقدية في السرج لتسديد ثمن العبور.

- نشكرك أيُّها السير. نقدِّر لك سخاءك وكرمك.

قالت بياترِس:

- لكن سير غَاوِن، إن كان حصانك سيحملنا نحن الاثنين، فكيف سينقل جثمانك من هذا الجبل؟ في غمرة طيبتك أهملت التفكير في جثَّتك نفسها. سنشعر بالأسى لو دُفنت في بقعة موحشة للغاية كهذه.

لوهلة قصيرة، أصبحت قسمات الفارس العجوز مهيبة، وغاصَّة بالأسى تقريبًا. وبعدها انشدَّت راسمة ابتسامة على محيَّاه. ثم ردَّ قائلًا:

- الآن، أيَّتها السيِّدة. دعينا من مناقشة خطط الدفن، فما زلت أطمح إلى الظفر في هذه المواجهة! على أي حال، لا يقلُّ هذا الجبل وحشة عن أي بقعة أخرى بالنسبة لي الآن، وسأتخوَّف من المناظر التي لا بدَّ من أن يشاهدها طيفي في بلدنا في الأسفل إن حسمت نتيجة هذه المبارزة

لصالح الطرف المقابل. لهذا لا مزيد من الكلام عن الجثث، أيَّتها السيِّدة! سيد وِسْتِن، ألديك ما تطلبه من هؤلاء الأصدقاء حال جانبك الحظُّ ولم ترجح كفَّتك؟

- أنا مثلك، أيُّها السيِّد، لا أحبِّذ التفكير في الهزيمة. مع ذلك، فإن السادر في البلاهة والجهالة فقط هو من يصدِّق بأنك لست بخصم فذٍّ، وبصرف النظر عن عمرك. لذا سأثقل أنا أيضًا على هذين الزوجين الطيِّبين بطلب. إن لم يعد لي من وجود في هذه الدنيا، فأرجوكما أن تتدبَّرا أمر وصول السيِّد إدْوِنْ إلى قرية طيِّبة، وبلِّغاه بأنني اعتبرته تلميذي الأنجب.

ردَّ أكسِل:

- سنفعل ذلك أيُّها السيِّد. سنسعى وراء تحقيق الأفضل بالنسبة له، رغم أن ما يحمله من جرح يجعل مستقبله مظلمًا.
- نِعمَ القول. فهو حافز لي الآن لبذل مجهود أكبر للنجاة من هذه المواجهة. حسنًا، سير غَاوِن، هل أنت مستعدٌّ؟

قال الفارس العجوز:

- ليس قبل طلب آخر، وهو موجَّه لك، سيِّد وِسْتِن. أُثير هذا الأمر بحرج، لصلته فيما ناقشناه بحبور قبل مدَّة قصيرة. أعني، أيُّها السيِّد، مسألة سحب السيف من غمده. بما أحمله على عاتقي من سنين ثقيلة، صار إقناع هذا السلاح العجوز على التزحزح والخروج من بيته يستغرق وبحمق وقتًا طويلًا. إن تواجهنا أنا وأنت، والسيوف في أغمادها، فإني أتخوَّف ممَّا سيقابلك من مشهد هزلي أبله، لمعرفتي بسرعتك الفائقة في سحب سيفك من غمده. لماذا، أيُّها السيِّد، لأنني سأتخبَّط هنا وهناك وأنا أغمغم بالشتائم مصارعًا هذا الحديد بقبضتي اليمنى ثم اليسرى، فيما تكون أنت قد سحبت نفسًا طويلًا من الهواء، متسائلًا إن كنت ستقطع رأسي أو تغنِّي أنشودة أثناء الانتظار! لكن إن

اتفقنا أن تبدأ المبارزة بعد أن يسحب كل منَّا سيفه وبما يحتاجه من وقت... لماذا يشعرني هذا بحرج عظيم، أيُّها السيِّد!

- لا تنطق بكلمة أخرى، سير غَاوِن. إنني لا أنظر أبدًا بعين التقدير لمحارب يعوِّل على سرعته في سحب سيفه كميزة تمكِّنه من استغلال خصمه. لهذا دعنا نبدأ المواجهة بسيوف مُستلَّةٍ مسبقًا، مثلما اقترحت تمامًا.
- أشكرك، أيُّها السيِّد. وفي المقابل، رغم أنني أرى ذراعك مشدودة إلى عنقك، إلَّا أني أقسم على عدم استغلال ذلك بوجه خاص.
- أقدِّر لك ذلك، أيُّها السير، مع أنها إصابة تافهة.
- حسنًا إذًا أيُّها السيِّد. من بعد إذنك.

سحب الفارس العجوز سيفه - وفعلًا استغرق هذا بعض الوقت - ثم غرس حرفه في الأرض، حسبما كان قد فعل تمامًا في السابق قرب رجم العملاق. لكن، عوض الاتكاء عليه، وقف هناك وراح يرمق سلاحه من الأعلى إلى الأسفل بمزيج من التبرُّم والمحبَّة. وبعدها قبض على السيف بيديه ثم رفعه إلى أعلى - وحينذاك اكتست هيئة غَاوِن بعظمة لا تخطئها العين.

قالت بياترِس:

- سأستدير الآن يا أكسِل. أخبرني متى انتهت المواجهة، ولنأمل ألَّا تكون طويلة أو غير حاسمة.

في البداية صوَّب كلا الرجلين سيفيهما إلى أسفل، كي لا يرهقا ذراعيهما. ومن مكانه المطلِّ، تمكَّن أكسِل من مراقبة وضعيتهما القتالية بوضوح: خمس خطوات واسعة على الأكثر كمسافة فاصلة، جسم وِسْتِن يميل يسارًا بزاوية طفيفة بعيدًا عن خصمه. ظلَّا في هذه الوضعية لبعض الوقت، ثم تحرَّك وِسْتِن إلى يمينه ثلاث خطوات بطيئة، وهكذا في الظاهر، بات كتفه البارز إلى الأمام مكشوفًا ولا يحظى بحماية سيفه. لكنَّ استغلال ذلك، يحتِّم على غَاوِن قطع المسافة الفاصلة بسرعة فائقة، ولم يتفاجأ أكسِل أبدًا عندما تحرَّك الفارس نفسه،

محدجًا المحارب بنظرات اتهامية، إلى اليمين بخطوات محسوبة. وفي الأثناء غيَّر وِسْتِن وضعيَّة كفَّيه فوق مقبض سيفه، ولم يستطع أكسِل الجزم بأن غَاوِن لاحظ هذا التغيير - من المحتمل أن جسم وِسْتِن يعترض مجال رؤية الفارس. لكن الآن غيَّر غَاوِن أيضًا من طريقة حمله لسلاحه، تاركًا ثقل سيفه يتحوَّل من ذراعه اليمنى إلى ذراعه اليسرى. وبعدها تمترس الرجلان في موقعيهما الأخيرين، ولمراقب بريء، ربما بدا الرجلان، بالنسبة لتموضع أحدهما من الآخر، وكأنهما عمليًّا لم يتغيَّرا عن السابق. لكنَّ حدس أكسِل قضى بأن الوضعيتين القتاليتين الجديدتين لهما مغزى مختلف. مرَّ زمن طويل منذ كان يتحتَّم عليه تفحُّص قتال من خلال النظر في تفاصيل كهذه، وظلَّ يراوده شعور بالإحباط من فشله في التقاط نصف ما كان يجري من أمامه. لكنه يعلم على نحو ما بأن المبارزة بلغت نقطة حرجة؛ لا يمكن أن يظلَّ الوضع متجمِّدًا هكذا من دون أن يُرغم أحد المتبارزين على بدء القتال.

رغم ذلك، بُهت أكسِل من الفجاءة التي وسمت لحظة المواجهة بين غَاوِن ووِسْتِن. وقعت كما لو كانا قد استجابا لإشارة انطلاق: تبدَّدت المسافة الفاصلة بينهما، وأصبح الاثنان فجأة أسيري عناق عنيف. حدث ذلك بلمح البصر، فبدا لأكسِل وكأن الرجلين تركا سيفيهما وأصبحا الآن ملتحمين جسديًّا في مسكات تثبيت متبادلة ومعقَّدة. أثناء قيامهما بذلك، دارا قليلًا، مثل راقصين، وعندئذ تمكَّن أكسِل من رؤية أن سيفيهما، ربما لحدَّة ارتطامهما ببعضهما لحظة الهجوم، كأنما انصهرا وتحوَّلا إلى سيف واحد. كان كلا الرجلين الآن، يشعر بالخزي ممَّا آلت إليه الأمور، ويبذلان ما في الوسع للتفريق بين سلاحيهما. لكنَّ هذه لم تكن مهمَّة سهلة، قسمات الفارس العجوز تقبَّضت من الجهد العظيم. أمَّا وجه وِسْتِن، ففي تلك اللحظة، لم يكن ظاهرًا للعيان، لكنَّ أكسِل كان قادرًا على رؤية اهتزاز عنق المحارب وكتفيه أثناء بذله هو الآخر أقصى ما في قوَّته للفكاك من تلك البلوى. لكن جهودهما ذهبت سدى: ففي كل لحظة مرَّت، يبدو على السيفين الالتحام بإحكام أكبر، وقطعًا لم يكن هناك من حلٍّ سوى ترك السلاحين

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

وبدء المبارزة من جديد. لكنَّ أيًّا من الرجلين، مع ذلك، لم يبدُ مستعدًّا لفعل هذا، رغم ما كان ينطوي عليه الجهد المبذول من خطر الإجهاز على قوَّتهما. ثم تزحزح شيء ما وانفصل السيفان. وما إن فعلا ذلك، حتى طارت ذرَّة داكنة - لعلها ما سبَّب التصاق النصلين في المقام الأوَّل - بينهما في الهواء. غَاوِن، وبنظرة منبهرة من الارتياح، ارتدَّ بعيدًا إلى الوراء ثم هوى فوق ركبته. وِسْتِن، بدوره، دفعه الزخم على الدوران، ولمَّا توقَّف كان حرف سيفه الآن مصوَّبًا نحو السحب المتراكمة إلى ما وراء الجرف، وظهره مكشوف بالكامل للفارس.

«حماه الربُّ»، قالت بياترِس وهي بقربه، فأدرك أكسِل أنها كانت تراقب ما يجري طوال الوقت. ولما عاود النظر إلى الأسفل، كان غَاوِن قد أنزل ركبته الثانية إلى الأرض. ثم هوى الفارس ذو الهامة الفارعة ببطء، وحطَّ فوق العشب بهيئة ملتوية. تقلَّب هناك للحظة، مثل ما يصنعه الرجل في نومه ليرتاح أكثر، وعندما استدار وجهه نحو السماء، رغم أن رجليه كانتا مطويَّتين من تحته على نحو عجيب، بدا غَاوِن راضيًا. وعند اقتراب وِسْتِن بخطى واسعة قلقة، بدا أن الفارس العجوز يقول شيئًا، لكنَّ بُعْدَ أكسِل لم يمكِّنه من سماعه. ظلَّ المحارب واقفًا لمدَّة فوق خصمه، وسيفه محمول إلى جنبه بغفلة، وتمكَّن أكسِل من رؤية قطرات داكنة تنقط من حرفه فوق التراب.

التصقت بياترِس به قائلة:

- لقد كان حامي التنِّينة، لكنه ساعدنا رغم ذلك وعاملنا بطيبة. من يدري ماذا كان سيحلُّ بنا لولاه، يا أكسِل، وإني لآسفُ على رؤيته صريعًا.

ضمَّها إليه. وبعد أن أطلقها، هبط قليلًا إلى حيث يمكنه أن يرى بشكل أفضل جثَّة غَاوِن الممدَّدة فوق التراب. كان وِسْتِن محقًّا: جرت الدماء فقط إلى حيث كانت الأرض ترتفع مثل الشفة فوق حافَّة الجرف، تجمَّعت هناك من دون خطر من فيضانها وانهمارها إلى أسفل. بعث هذا المنظر الكآبة في نفسه، ولكنه ولَّد لديه أيضًا إحساسًا بجلاء غضب عظيم - مع أنه بعيد مبهم - من داخل نفسه بعد طول مقام.

هتف أكسِل للمقاتل في الأسفل:

- أحسنت أيُّها السيِّد. لم يعد الآن من شيء يحول بينك وبين التنِّينة.

وِسْتِن، الذي كان طوال هذه المدَّة محملقًا في الفارس الصريع، أقبل ببطء الآن، مثل الدائخ، حتى وصل أسفل الربوة، وعندما رفع بصره بدا وكأنه في حالة من الخدر، ثم قال:

- تعلَّمت منذ زمن طويل ألَّا أخاف الموت أثناء القتال. لكني رغم ذلك شعرت بدبيبه من خلفي أثناء مواجهة هذا الفارس. عجوز، لكنه مع ذلك أوشك على النيل مني.

ثم بدا على المحارب الانتباه إلى أن سيفه ما زال في يده، فهمَّ بغرسه في التراب أسفل الرابية. لكنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة، والنصل يوشك على الانغماس في بطن الأرض، ثم اعتدل وقال:

- لِمَ أنظِّف هذا السيف الآن؟ لِمَ لا أدع دم هذا الفارس يختلط بدم التنِّينة؟

صعد جانب الربوة، ماشيًا بترنُّح مثل السكران. ولما وصل تجاوزهما ومال من فوق صخرة، ثم حدَّق إلى الهوَّة وكتفاه يعلوان ويهبطان مع كل نفَس.

قالت بياترِس برقَّة:

- سيِّد وِسْتِن، نحن نتحرَّق الآن لنراك تذبح كويرِغ. لكن هلَّا دفنت الفارس المسكين بعد ذلك؟ زوجي متعب للغاية ويجب أن يحافظ على قوَّته لإكمال ما بقي من رحلتنا.

ردَّ وِسْتِن وقد استدار نحوها:

- كان من أقرباء آرثر البغيض. لكن رغم ذلك لن أتركه للغربان. اطمئنِّي، أيَّتها السيِّدة، سأتولَّى أمره، وربما أسجِّيه في هذه الهوَّة، جنبًا إلى جنب مع هذه الكائنة التي طالما حماها ودافع عنها.

قالت بياترِس:

- إذًا أسرع، أيُّها السيِّد، وأنهِ المهمَّة. فرغم ما هي فيه من وهن وضعف، لا راحة لنا إلَّا بعد ذبحها.

لكن بدا على وِسْتِن أنه ما عاد يسمعها، إذ كان محملقًا الآن بشرود في أكسِل.

سأله أكسِل في نهاية المطاف:

- هل أنت على ما يرام أيُّها السيِّد؟

ردَّ المحارب:

- سيِّد أكسِل، قد لا نلتقي ثانية. لذا دعني أسألك للمرَّة الأخيرة. أيمكن أن تكون ذلك البريتوني النبيل من أيَّام طفولتي الذي كان يمشي في قريتي مثل أمير حكيم، حاملًا الرجال على الحلم بطرق لحفظ الأبرياء من بطش الحرب؟ إن كنت تتذكَّر أي شيء من هذا، فأرجوك أن تثق بي وتبوح لي بذلك قبل أن نفترق.

- إن كنت يومًا ذلك الرجل، أيُّها السيِّد، فإني أراه اليوم فقط عبر غشاوة أنفاس هذه الكائنة، وهو يبدو حالمًا أحمق، لكنه مع ذلك لم يقصد إلَّا خيرًا، وعانى من رؤية ميثاق عظيم يُنقض عبر ارتكاب مذبحة قاسية. كان هناك آخرون ممَّن كُلِّفوا بنشر الاتفاق عبر قرى الساكسون، لكن إن كان وجهي يحرِّك شيئًا ما في داخلك، فلمَ الافتراض بأنه لآخر؟

- ظننت ذلك عندما التقينا أوَّل مرَّة، أيُّها السيِّد، ولكنني لم أكن متأكِّدًا. أشكرك على صراحتك.

- إذًا كلِّمني بدورك وبصراحة، إذ أنه أمر يتململ في داخلي منذ لقائنا بالأمس، وربما، في الحقيقة، منذ مدَّة أطول. هذا الرجل الذي تتذكَّره، سيِّد وِسْتِن، أهو شخص تسعى إلى الثأر منه؟

أقحمت بياترِس نفسها بين أكسِل والمحارب قائلة:

- ما الذي تقوله يا زوجي؟ أي خلاف يمكن أن يكون بينك وبين هذا المحارب؟ إن كان هناك من شيء بينكما، فعليه أن يسدِّد ضربته لي أنا أوَّلًا.

- سيِّد وِسْتِن يتكلَّم عن جلد سلخته عن نفسي قبل معرفتي بك يا أميرة. كنت آمل أنه أصبح منذ عهد بعيد رمادًا منثورًا فوق طريق منسيٍّ.

ثم وجَّه حديثه إلى وِسْتِن:

- ماذا تقول أيُّها السيِّد؟ سيفك ما زال يقطر دمًا. إن كان الثأر هو ما تشتهيه، فهو أمر سهل المنال، لكنني أرجوك أن تحمي زوجتي العزيزة التي ترتجف خوفًا عليَّ.

- كان ذلك الرجل شخصًا أعجبت به في الماضي عن بعد. وحقًّا، كانت هناك أوقات لاحقة تمنَّيت له فيها العقاب الشديد على دوره في تلك الخيانة. لكنني أرى اليوم أن أعماله ربما لم تصدر عن نيَّة خبيثة، بل كان يتمنَّى الخير لقومه ولقومي على حدٍّ سواء. إن قابلته ثانية، أيُّها السيِّد، سأتركه يذهب بسلام، مع أني أعرف الآن بأن السلام لن يعمِّر طويلًا. لكن اسمحا لي، أيُّها الصديقان، واتركاني لأمضي إلى الأسفل وأنهي مهمَّتي.

في قاع الهوَّة، لم يتغيَّر لا موقع التنِّينة ولا هيئة رقودها: إن كانت حواسها تنذرها باقتراب غرباء - وبواحد منهم تحديدًا يتسلَّق جانب المنحدر هبوطًا - فلم يبد على كويرِغ علامات تنذر بذلك. أم هل من الممكن أن تكون وتيرة ارتفاع وهبوط عمودها الفقري قد اشتدَّت قليلًا؟ وهل طرأ على حركة العين ذات القلنسوة قدر من العجلة لدى انفتاحها وانغلاقها؟ لم يكن أكسِل قادرًا على التأكُّد. لكن فيما واصل تحديقه في الكائنة، لمعت في ذهنه فكرة أن شجيرة الزعرور - الشيء الحيَّ الآخر والوحيد داخل الهوَّة - كانت قد أصبحت مصدر راحة عظيمة لها، وأنها حتى الآن، في عين عقلها، كانت تحاول الوصول إليها. أدرك أكسِل أن الفكرة كانت وهمية، لكنه مع ذلك كلَّما ازداد مراقبة، بدت له معقولة أكثر. إذ كيف كان من الممكن لشجرة منعزلة أن تنبت في مكان كهذا؟ ألا يمكن أن يكون مِرْلِن نفسه هو من كان وراء السماح لها بالنموِّ هناك، كي يتسنَّى للتنِّينة الحصول على أنيس؟

كان وِسْتِن يواصل الهبوط، وسيفه ما زال خارج غمده. قلَّما زاغ بصره عن البقعة التي تتمدَّد فيها الكائنة، كما لو كان لديه نصف توقُّع بأن تنهض فجأة، متحوِّلة إلى مارد جبَّار. عند نقطة ما انزلق، فغرس سيفه في الأرض كي يتجنَّب الانزلاق فوق مؤخِّرته لبعض المسافة. أدَّت هذه الحادثة إلى تساقط الحجارة والحصى من فوق المنحدر مثل شلَّال، لكن كويرِغ مع ذلك لم تحرِّك ساكنًا.

وصل وِسْتِن إلى الأسفل بسلام. مسح العرق عن جبينه، واختطف نظرة إلى الأعلى صوب أكسِل وبياترِس، ثم تقدَّم نحو التنِّينة، متوقِّفًا على بعد خطوات عديدة منها. وهناك رفع سيفه وشرع في تفحُّص نصله، وكأنه دُهش لمَّا رآه ملطخًا بالدماء. لعدَّة لحظات، مكث وِسْتِن هكذا، من دون حراك، ولهذا تساءل أكسِل فيما إن كان المزاج الغريب الذي استولى على المحارب منذ انتصاره قد حمله آنيًا على نسيان الغاية التي نزل لأجلها إلى قاع الهوَّة.

لكن، فيما يشبه الفجاءة التي وسمت مبارزته مع الفارس العجوز، تقدَّم وِسْتِن إلى الأمام على نحو مباغت. لم يركض، لكنه هرول في المشي، واطئًا جسد التنِّينة بقدميه من دون تعثُّر، ومضى متعجِّلًا كما لو كان قلقًا على بلوغ جانب الهوَّة الآخر. لكن سيفه في الأثناء رسم بضربة خاطفة قوسًا منخفضًا لدى مروره، ورأى أكسِل رأس التنِّينة يلفُّ طائرًا في الهواء قبل أن يتدحرج قليلًا ثم يستقرَّ فوق الأرضية الحجرية. لم يمكث هناك طويلًا، مع ذلك، إذ سرعان ما أحاط به التيار الغزير الذي تشعَّب أوَّلًا من حوله إلى فرعين، ثم جرفه إلى أن سبح منزلقًا في عرض الهوَّة. وبعدها حطَّ رحاله فوق شجيرة الزعرور، وهناك استقرَّ، والحلقوم في مواجهة السماء. أعاد هذا المنظر إلى مخيِّلة أكسِل رأس الكلب الوحش الذي قطعه غاوِن في النفق، ومن جديد انتابته نوبة من الحزن. حمل نفسه على النظر بعيدًا عن التنِّينة، ومراقبة وِسْتِن عوض ذلك، الذي لم يكن قد توقَّف عن السير بعد. كان المحارب الآن يدور راجعًا، متجنِّبًا البركة الآخذة بالتمدُّد من دون توقُّف، وشرع بعدها، وسيفه ما زال مسلولًا، في تسلُّق طريق الصعود من الهوَّة.

t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

قالت بياترِس:

- تمَّ الأمر يا أكسِل.
- هو حقًّا كذلك يا أميرة. لكن رغم ذلك ما زال ثمَّة سؤال أودُّ أن أطرحه على هذا المحارب.

***

قضى وِسْتِن في الخروج من الهوَّة وقتًا طويلًا مثيرًا للدهشة. وعندما أطلَّ عليهما أخيرًا، بدا أسير مشاعر طاغية لكن من دون ذرَّة إحساس بالانتصار. ومن غير أن ينبس بحرف، هبط فوق الأرض المُسْودَّة عند حافَّة الهوَّة بالضبط، ثم غرس سيفه أخيرًا عميقًا في الأرض. وبعدها حملق بنظرات فارغة، لا في الهوَّة، بل فيما ورائها، صوب الغيوم والتلال الباهتة في الأفق.

وبعد شيء من الوقت، مضت بياترِس نحوه ولمست كتفه برقَّة قائلة:

- نشكرك على هذا الصنيع، سيِّد وِسْتِن. ولو كان جميع أهل البلد هنا لشكروك أيضًا. لماذا تبدو عليك كل هذه الكآبة؟
- كآبة؟ لا تشغلي بالك، سأستردُّ حيويتي قريبًا أيَّتها السيِّدة. لكن رغم ذلك في هذه اللحظة فقط...

أشاح وِسْتِن بصره عن بياترِس وحدَّق في الغيم ثانية. ثم قال:

- ربما عشت برهة أطول من اللازم بينكم أيُّها البريتون. احتقرت جبناءكم، وأكبرت وأحببت أفاضلكم، وكل هذا حدث معي مذ كان عودي غضًّا طريًّا. والآن أجلس هنا مرتجفًا، لا من الإعياء، بل من التفكير في ما ارتكبته يداي. يجب أن أصلِّب قلبي سريعًا وأجعله كالفولاذ وإلَّا لكنت محاربًا هشًّا بين يدي ملكي فيما سيأتي من قادم الأيَّام.

سألته بياترِس:

- ما الذي تتحدَّث عنه أيُّها السيِّد؟ ماذا ينتظرك من مهمَّة بعد؟

- العدالة والثأر المنتظران، أيَّتها السيِّدة. وهما سيهرولان قريبًا إلى هنا، لأنهما تأخَّرا طويلًا. لكن الآن وقد حان الوقت، أجد قلبي مرتجفًا بين الضلوع مثل الصبية. لا بدَّ من أن يكون ذلك حتمًا بسبب مكوثي بينكم برهة أطول من اللازم.

قال أكسِل:

- لم أُخفق في الملاحظة أيُّها السيِّد. أعني إشارتك السابقة لي. قلت إنك ستتركني أذهب بسلام، وإن كان السلام، مع ذلك، لن يعمِّر طويلًا. تساءلت حينذاك عمَّا قصدته، حتى أثناء هبوطك داخل هذه الهوَّة. الآن، أرجو منك إيضاح ما قصدته بذلك؟

- أرى أنك بدأت تستوعب الآن، سيِّد أكسِل. أرسلني مليكي لذبح هذه التنِّينة، لا لأرفع ببساطة نصبًا تذكاريًّا لمن ذُبح من أبناء عمومتنا قبل أمد طويل. بدأت تبصر، أيُّها السيِّد، أن هذه التنِّينة قُتلت تمهيدًا لطريق الغزو المقبل.

- غزو أيُّها السيِّد؟

تحرَّك أكسِل واقترب من وِسْتِن قائلًا:

- كيف يمكن أن يحصل هذا، سيِّد وِسْتِن؟ هل أصبحت جيوشكم الساكسونية جرَّارة بانضمام أبناء عمومتكم الوافدين من وراء البحر إلى صفوفها؟ أم لأن محاربيكم أصحاب بأس وقوَّة أصبحت تتحدَّث عن غزو أراضي الآخرين التي يسودها السلام؟

- صحيح أن تعداد جيوشنا ما زال هزيلًا، حتى في الـفَنْلاند. لكن قلِّب النظر في عموم هذه البلاد. في كل وادٍ، وقرب كل نهر، ستجد الآن تجمُّعات أهلية ساكسونية، وفي كل منها رجال أشداء وفتية شبُّوا عن الطوق. بانضمام هؤلاء إلى صفوفنا ستصبح جيوشنا جرَّارة، حتى أثناء زحفنا غربًا.

عقَّبت بياترِس قائلة:

- لا بدَّ من أن كلامك هذا وليد ما تعانيه من تشوُّش بسبب الانتصار، سيِّد وِسْتِن. كيف لهذا أن يحدث؟ أنت ترى بنفسك كيف يختلط قومي بقومك في هذه الأنحاء قرية تلو قرية. مَن بينهم سينقلب على جيران أحبَّهم منذ نعومة أظفاره؟
- انظري مع ذلك في وجه زوجك أيَّتها السيِّدة. لقد بدأ يدرك سبب جلوسي هنا كما لو أن كرة شرسة من اللهب سطت على بصري.
- إنه محقٌّ، يا أميرة، كلمات المحارب تبثُّ القشعريرة في جسدي. تُقت أنا وأنت إلى مصرع كويرِغ، وصرفنا تفكيرنا إلى ذكرياتنا العزيزة فقط. لكن من يدري أي أحقاد قديمة ستفلت من عقالها الآن وتنطلق في أرجاء هذا البلد؟ ليس أمامنا الآن سوى الثقة في أن الربَّ سيهدينا إلى سبيل آخر للحفاظ على الأواصر بين أبناء قومنا، لكن العادات والشكوك لطالما فرَّقت بيننا. من يدري ماذا سيحلُّ بنا عند استغلال أصحاب الألسنة الحاذقة تلك المظالم القديمة لأجل رغبات مستجدَّة في الغزو والاستيلاء على الأرض؟

قال وِسْتِن:

- كم أنت مصيب في خوفك من هذا أيُّها السيِّد. فالعملاق، الذي كان مدفونًا جيِّدًا في الماضي، بات يتململ الآن. وعندما ينهض قريبًا من نومه، كما سيفعل لا محالة، سيكتشف الجميع أن روابط الصداقة بين قومينا أوهى من تلك العقد التي تصنعها الصغيرات بسيقان الزهور الصغيرة. سيحرق الرجال بيوت جيرانهم في الليل. وسيعلِّقون الأطفال في الأشجار خلال الفجر. وستفوح الأنهار برائحة الجثث المتفسِّخة التي ستبحر فيها لأيَّام. وحتى خلال الزحف، ستكبر جيوشنا أكثر وأكثر، ستتضخَّم بدافع الغضب والتعطُّش للثأر. أما بالنسبة لكم أنتم البريتون، فسيكون هذا مثل كرة من النار تتدحرج صوبكم. ستفرُّون أو تهلكون. وبلدًا تلو الآخر، ستصبح هذه بلادًا جديدة، أرضًا ساكسونية،

من دون أثر يدلُّ على زمن قومكم هنا سوى قطيع غنم أو اثنين يهيم على وجهه في التلال من دون راعٍ.

- هل هو محقٌّ فيما يقوله يا أكسِل؟ أم أنه يتكلَّم حتمًا بفعل حمًّى ما؟
- قد يكون مخطئًا، يا أميرة، لكن ما يقوله ليس بفعل حمًّى. التنِّينة لم تعد موجودة، وطيف آرثر سيتلاشى معها.

ثم التفت صوب وِسْتِن قائلًا:

- ما يخفِّف عني بعض الشيء، أيُّها السيِّد، هو أنك لا تشعر بالانتشاء من تلك البشاعات التي تتحدَّث عنها.
- ليتني أستطيع ذلك، سيِّد أكسِل، إذ أنه سيكون ثأرًا عادلًا ومستحقًّا. لكني مصاب بداء الوهن جراء ما قضيته من سنين بينكم، وعندما أحاول، كما سأفعل، يقشعرُّ جزء مني من هول نار الكراهية. إنه ضعف يصيبني بالخزي، لكني سأقدِّم في مكاني قريبًا شخصًا آخر درَّبته بيديَّ هاتين، شخصًا آخر يمتلك إرادة أكثر نقاء مني.
- أتقصد السيِّد إدوِن، أيُّها المحارب؟
- أجل، بمقدوري الآن الزعم بأنه سيهدأ تدريجيًّا بعد ذبح التنِّينة وسيتحرَّر من سطوتها عليه. يمتلك ذاك الفتى روح المحارب النقيَّة الصافية التي لا تُمنح إلا للقلَّة القليلة فقط. ما تبقَّى سيتعلَّمه على وجه السرعة، وسأدرِّب قلبه جيِّدًا ليكون عصيًّا على تلك المشاعر الرقيقة التي لوَّثت قلبي أنا. لن يبدي أي رحمة خلال مهمَّتنا المقبلة.

قالت بياترِس:

- سيِّد وِسْتِن، ما زلت لا أدري إن كنت تتحدَّث تحت تأثير حمًّى مجنونة فقط أم ماذا. لكني متعبة أنا وزوجي، ولا بد لنا من الهبوط إلى الأراضي المنخفضة والتماس المأوى. هل تتذكَّر وعدك بدفن هذا الفارس النبيل كما يليق؟
- أعدك بفعل ذلك، أيَّتها السيِّدة، رغم ظنِّي بأن الطيور قد وجدت طريقها

إليه الآن. أيُّها الصديقان الطيِّبان، أعذر من أنذر، لديكما وقت كافٍ للفرار. خذا حصان الفارس وسارعا في الابتعاد عن هذه الأرجاء. توجَّها إلى قرية ابنكما إن شئتما، لكن إيَّاكما والتلكؤ هناك لأكثر من يوم أو اثنين، فمن يدري متى ستشتعل النيران قبل مجيء جيوشنا. إن لم ينصت ابنكما لتحذيراتكما، فاتركاه وفرَّا إلى أقصى الغرب. ما زال لديكما وقت للنجاة من المذبحة. انطلقا الآن واعثرا على حصان الفارس. وإن وجدتما السيِّد إدْوِنْ وقد عاوده الهدوء، وفارقته تلك الحمَّى الغريبة، فأطلقا سراحه واطلبا منه المجيء إلى هنا. إن مستقبلًا شرسًا يفتح أبوابه له الآن، وأريده أن يرى هذا المكان، والفارس المجندل، والتنِّينة الصريعة، جميعًا قبل أن يقدم على خطوته المقبلة. فضلًا عن ذلك، ما زلت أذكر مهارته الفائقة في حفر قبر بحجر بسيط أو اثنين! أسرعا الآن، أيُّها الصديقان النبيلان، ووداعًا لكما.

الفصل السادس عشر

منذ مدَّة والعنزة لا تكفُّ عن وطء العشب المحاذي لرأس إدْوِن. ما الذي دفع هذا الحيوان على الاقتراب منه إلى هذه الدرجة؟ ربما كانا مشدودين إلى الوتد نفسه، لكنْ هناك متَّسع في الأرض لا محالة لكل منهما.

كان بإمكان إدْوِنْ النهوض وطردها بعيدًا عنه، لكنَّه شعر بتعب بالغ. اعتراه الإعياء قبل هنيهة، وعصف به حتى خرَّ منكبًّا على التراب، وبات عشب الجبل يضغط على خدِّه.. دنا من شفير النوم، لكنه حُمِل إلى عالم اليقظة بفزع على يد قناعة فجائية بأن أمَّه رحلت. لم يتحرَّك، وأبقى عينيه مطبقتين، ثم تمتم عاليًا في بطن الأرض:

- أمِّي. نحن قادمون. لم يتبقَّ الآن سوى القليل.

لم يتلقَّ جوابًا، وشعر بخواء مريع عمَّ كيانه كلَّه. ومنذ ذلك الحين، متقلِّبًا بين النوم واليقظة، ناداها مرَّات عديدة، ولكن لم يردَّ عليه سوى الصمت. والآن، باتت العنزة تمضغ العشب لصق أذنه.

همس في بطن الأرض:

- سامحيني يا أمِّي. شدُّوا وثاقي، ولم أستطع تحرير نفسي.

ثمَّة أصوات فوقه. في تلك اللحظة فقط أدرك أن الخُطى لم تكن لتلك العنزة. ثمَّة شخص يفكُّ وثاق يديه، ثم يسحب الحبل من تحته. يد رقيقة رفعت رأسه، ففتح عينيه ليرى المرأة العجوز - السيِّدة بياترِس - محدِّقة إليه. فطن إلى أنه لم يعد مقيَّدًا، فنهض على قدميه.

إحدى ركبتيه آلمته بشدَّة، لكن عندما أرجحته هبَّة ريح، تمكَّن من الحفاظ على توازنه. نظر إلى ما حوله: هناك السماء الغائمة، الأرض المرتفعة، الصخور المتربِّعة فوق قمَّة التلِّ المجاور. قبل هنيهة فقط، كانت تلك الصخور تعني له كل شيء، لكنها رحلت الآن، ولم يعُدْ لديه من شكٍّ في ذلك. ثم تذكَّر شيئًا قاله المحارب: «عندما تكون ساعة الإنقاذ قد فاتت، فإن ساعة الانتقام تكون قد بدأت». إن كان هذا صحيحًا، فإن من أخذوا أمَّه سوف يدفعون ثمنًا باهظًا.

لا أثر لوِستِن. العجوزان هنا فقط، لكنَّ إدْوِنْ شعر بالراحة لوجودهما. كانا يقفان أمامه، محملقين فيه بإشفاق، ومنظر السيِّدة الطيِّبة بياترِس أشعره فجأة بأنه على وشك البكاء. لكنَّ إدْوِنْ أدرك أنها تقول شيئًا ما - شيئًا يتعلَّق بوِستِن - فبذل جهدًا في الإنصات إلى ما تقوله.

لسانها الساكسوني صعب على الفهم، كما حملت الريح كلماتها إلى بعيد. وفي نهاية المطاف قاطعها متسائلًا:

- هل سقط السيِّد وِستِن صريعًا؟

صمتت. لم تُجب. فقط حين كرَّر سؤاله، وبصوت علا فوق عواء الريح، بادرت السيِّدة بياترِس إلى هزِّ رأسها على نحو قاطع وقالت:

- ألا تسمعني، سيِّد إدْوِن؟ أقول لك إن السيِّد وِستِن بخير وهو ينتظرك في أعلى ذلك الطريق.

تنفَّس الصعداء، ثم ولَّى راكضًا، لكنَّ الدوار سرعان ما ألمَّ به وحمله على التوقُّف حتى قبل الوصول إلى الطريق. تمكَّن من الحفاظ على توازنه، ثم اختطف نظرة إلى الوراء، فرأى العجوزين وقد تقدَّما صوبه بضع خطوات. لاحظ إدْوِنْ الآن كم بدا عليهما الوهن. كانا واقفين معًا في وجه الريح، كل منهما مستند على صاحبه، وبدا عليهما الهرم أكثر بكثير ممَّا كانا عليه عندما قابلهما أوَّل مرَّة. هل بقي لديهما ما يكفي من القوَّة لهبوط سفح الجبل؟ لكنهما يحملقان فيه الآن على نحو عجيب، ومن خلفهما، توقَّفت العنزة عن نشاطها الدؤوب وحملقت فيه أيضًا. لمع في ذهن إدْوِنْ خاطر غريب، أنه في تلك اللحظة كان

مكتبة أحمد
t.me/ktabpdf

منقوعًا بالدماء من رأسه وحتى أخمص قدمه، ولهذا فهو محطُّ الأنظار. لكنه حين استرق نظرة إلى الأسفل، ومع أن ثيابه ملطَّخة بالطين والعشب، لم يرَ شيئًا غير عادي.

هتف العجوز فجأة بشيء. كان بلسان البريتون ولهذا استعصى على فهم إدْوِنْ. أكان تحذيرًا؟ طلبًا؟ ثم وصل صوت السيِّدة بياترِس عبر الريح قائلًا:

- سيِّد إدْوِنْ! كلانا نناشدك هذا. في الأيَّام المقبلة، تذكَّرنا. تذكَّرنا وتذكَّر هذه الصداقة عندما كنت صبيًّا.

حين سمع ذلك، تذكَّر إدْوِنْ أمرًا آخر: عهدًا قطعه للمحارب؛ واجبًا يقضي بكراهية كل البريتون. لكنَّ وِسْتِن قطعًا لم يقصد بذلك هذين العجوزين الطيِّبين. والآن ها هو السيِّد أكسِل هناك، يلوِّح له بيده في الهواء. أيقصد وداعه أم أنه يحاول القبض عليه؟

استدار إدْوِن، وعندما ركض هذه المرَّة، ورغم دفع الريح له من جنب لآخر، لم يخذله جسمه. كانت أمُّه قد رحلت، وعلى الأغلب ذهبت إلى حيث لا تطولها يد الاسترداد، لكنَّ المحارب كان سالمًا وفي انتظاره. واصل الركض، حتى والطريق آخذة في الانحدار والألم في ركبته آخذ في الاشتداد.

الفصل السابع عشر

أقبلا فوق جواد تحت وابل العاصفة الممطرة وأنا أتَّقي شرَّ البلل تحت أشجار الصنوبر. طقس من دون رحمة في مواجهة زوجين كبيرين في السنِّ وحصانهما المتهالك لا يقلُّ عنهما إعياء. هل يخاف الرجل على قلب الحصان إن خطا ولو خطوة ثانية؟ لماذا يوقفه وسط الوحل ولم يبقَ سوى عشرين خطوة إلى أقرب شجرة؟ مع ذلك، يقف الحصان بجَلدٍ وأناة تحت المطر الغزير فيما يحاول العجوز إنزال صاحبته. أيمكن أن يكونا أبطأ في تنفيذ هذه المهمَّة لو كانا رسمين في لوحة؟ أنادي عليهما: «هيا أيُّها الصديقان، أسرعا واحتميا من المطر».

لا يسمعني أيٌّ منهما. لعلَّ أزيز المطر يسدُّ آذانهما، أم لعلَّه الهرم؟ أنادي ثانية، وهذه المرَّة يتلفَّت العجوز من حوله ثم يبصرني أخيرًا. تنزلق بين ذراعيه بعد لأيٍ، ومع أنها ليست أكثر من عصفور هزيل، أرى أنه بالكاد يمتلك قوَّة لحملها. ولهذا أترك ملاذي، فيستدير العجوز بتوجُّس ليراقبني وأنا أخوض في العشب الغارق بالمطر. لكنه يقبل مساعدتي، ألم يكن على أهبَّة السقوط أرضًا، وذراعا زوجته الطيِّبة متشبِّثتان بعنقه؟ أتناولها منه وأهرع نحو الأشجار، فهي بالنسبة لي ليست بحملٍ على الإطلاق. أسمع لهاث الرجل العجوز المهرول من خلفي. لعلَّه يخاف على زوجته وهي بين ذراعيَّ رجل غريب. ولهذا أنزلها وأجلسها بعناية، كي أريهما أني لا أضمر لهما إلَّا خيرًا. أسند رأسها إلى جذع طري، في موضع محميٍّ جيِّدًا من المطر، وإن وجدت قطرة أو اثنتان سبيل الهطول من حولها.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

يقرفص العجوز إلى جنبها، متمتمًا بكلمات التشجيع، فأبتعد، عزوفًا عن التطفُّل عليهما. أقف ثانية في بقعتي السابقة حيث تطلُّ الأشجار على الأرض المكشوفة، وأراقب المطر وهو يكتسح البرِّية. من في وسعه أن يلومني على الاحتماء من مطر كهذا؟ سأعوِّض التأخير في العمل بسهولة خلال رحلتي، بل وسيكون ذلك أنفع لي فيما سيأتي من أسابيع مقبلة من الكدِّ المتواصل. أسمعهما يتحدَّثان من ورائي، لكن ما الذي يمكنني فعله؟ هل أقف تحت المطر كي أكون بعيدًا عن التقاط همسهما؟

- هذا فقط هذيان الحمَّى، يا أميرة.
- لا، لا، يا أكسِل. بل هو مزيد من التفاصيل التي باتت ترجع إليَّ من جديد. كيف يمكن أن نكون قد نسينا؟ ابننا يعيش في جزيرة. جزيرة تُرى من خليج صغير متوارٍ عن الأعين، ونحن قريبان منه الآن لا محالة.
- كيف يمكن هذا أيَّتها الأميرة؟
- ألا تسمعه يا أكسِل؟ إنني أسمعه حتى في هذه اللحظة. أليس هذا هو صوت بحر قربنا؟
- إنه المطر فقط، يا أميرة. أو ربما نهر.
- نسينا هذا، يا أكسِل، حين كان الضباب مخيِّمًا، لكنه بدأ الآن في الانقشاع. هناك جزيرة في الجوار، وابننا ينتظر هناك. أكسِل، ألا تسمع البحر؟
- هي الحمَّى فقط، يا أميرة. سنعثر قريبًا على ملجأ وستستردِّين عافيتك من جديد.
- سَلْ هذا الغريب، يا أكسِل. إنه يعرف هذا البلد أكثر منَّا. سلْه إن لم يكن هناك من خليج في الجوار.
- هو فقط رجل طيِّب مدَّ لنا يد الغوث، يا أميرة. لمَ ينبغي أن يكون على علم بأمر كهذا؟
- سلْهُ، يا أكسِل. ما الضير في ذلك؟

هل أبقى صامتًا؟ وهل من حيلة لي في هذا الأمر؟ أستدير وأقول:

- السيِّدة الطيِّبة على حقٍّ، أيُّها السيِّد.

يُذهل العجوز، ويُطلّ الخوف من عينيه. يودُّ بعضي أن أصمت ثانية؛ أن أستدير وأراقب الحصان العجوز الذي يقف بصمود تحت المطر. لكني وقد تكلَّمت الآن فعليَّ اكمال ما أقوله. أشير إلى وراء البقعة التي يجلسان فيها وأقول:

- هناك ممرٌّ بين تلك الأشجار يُفضي إلى خليج صغير كالذي تتحدَّث عنه السيِّدة. تغطِّي الحصى الجزء الأوفر منه، لكن حين ينحسر الموج، كما سيكون الآن، تفسح الحصى الطريق للرمال. وكما تقولين، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة. هناك جزيرة على مسافة قصيرة داخل البحر.

يراقبانني بصمت، هي بسعادةٍ مشوبة بالإعياء، وهو بخوفٍ متعاظم. ألن يقولا شيئًا؟ هل يتوقَّعان مني قول المزيد؟

- راقبت السماء. سيتوقَّف المطر قريبًا وسيكون المساء رائقًا. لهذا إن رغبتما في أن أحملكما إلى تلك الجزيرة، فسيسعدني القيام بذلك.

- ألم أقل لك يا أكسِل!

يسأل العجوز بمهابة:

- أنت إذًا ملَّاحٌ أيُّها السيِّد؟ هل يمكن أن نكون قد تقابلنا في مكان ما من قبل؟

فأردُّ عليه:

- أنا ملَّاح، بكل تأكيد. أمَّا إن كنَّا قد تقابلنا من قبل فهذا ما لا طاقة لي على تذكُّره، فأنا أنقل الكثيرين بحكم عملي على مدار ساعات طويلة كل يوم.

يبدو العجوز مرتاعًا أكثر من قبل، ثم يضمُّ زوجته إلى صدره وهو مقرفصٌ إلى جانبها. أشعر بأن من الحكمة تغيير الموضوع فأقول:

- حصانك ما زال واقفًا تحت المطر، مع أنه غير مربوط وليس ما يمنعه من اللجوء إلى الشجر القريب.

يردُّ العجوز، سعيدًا بتحويل دفَّة الحديث بعيدًا عن الخليج، ويقول مندفعًا:

- إنه حصان عجوز من خيل الحرب، أيُّها السيِّد. وهو ملتزم بما دُرِّب عليه من انضباط، مع أنَّ سيِّده رحل عن الوجود. علينا أن نتدبَّر أمره فيما بعد،

وفاء بما قطعناه من وعد لصاحبه الشجاع. أمَّا الآن فأني منشغل بأمر زوجتي العزيزة. هل تعرف، أيُّها السيِّد، أين يمكننا العثور على ملجأ ونار كي نتدفَّأ؟

لا أستطيع الكذب، كما أن عليَّ الالتزام بواجبي. أردُّ قائلًا:

- في الواقع، هناك ملجأ صغير في هذا الخليج نفسه. صنعته بيدي، سقف بسيط من الأغصان والأسمال البالية. تركت نارًا ذاوية إلى جنبه في الساعة الماضية، وليس صعبًا إشعالها من جديد.

يتردَّد متفحِّصًا وجهي بشدَّة. عينا زوجته الآن مغمضتان ورأسها مرتاح فوق كتفه. يقول:

- أيُّها الملَّاح، ما تفوَّهت به زوجتي توًّا نطقته بتأثير الحمَّى. لسنا في حاجة إلى الذهاب إلى أي جزيرة. سنحتمي بهذه الأشجار الصديقة إلى أن يتوقَّف المطر، ثم نستأنف رحلتنا وننطلق في طريقنا.

تقول المرأة وقد فتحت عينيها:

- أكسِل، ما الذي تقوله؟ ألم ينتظر ابننا بما فيه الكفاية؟ دع هذا البحار الطيِّب يقودنا إلى الخليج.

يتردَّد العجوز، رغم ذلك، لكنه يشعر بارتجاف زوجته بين ذراعيه، فيرفع عينيه صوبي باستجداء بالغ. أقول:

- إن شئت، سأحمل السيِّدة الكريمة ليصبح قطع الطريق إلى الخليج أسهل.

يردُّ بنبرة من يُسقَط في يده، ولكنه لا يستسلم:

- سأحملها بنفسي، أيُّها السيِّد. إن لم تستطع الذهاب سيرًا على قدميها، فستذهب محمولةً بين ذراعيَّ.

كيف يُرَدُّ على هذا، والعجوز يكاد يكون الآن بوهن زوجه؟

أقول برقَّة:

- الخليج ليس بعيدًا، لكنَّ الطريق إليه شديد الانحدار، وفيه حفر وجذور متعرِّجة. أرجوك أن تسمح لي بحملها، أيُّها السيِّد. إنها الطريقة الأسلم.

ستسير بحذائنا كلما سمحت الطريق بذلك. أرجوك، عندما يخفُّ المطر، سنسرع بالذهاب، إذ انظر كيف ترتجف هذه السيِّدة الطيِّبة من البرد.

يتوقَّف المطر بعد هنيهة، فأحملها وأهبط بها أسفل التلِّ، والعجوز يسير متعثِّرًا في الخلف، وعندما نصل الشاطئ، يكون بساط السحب الداكنة قد سُحب إلى طرف السماء كما لو بيدٍ متعجِّلة. ظلال الأصيل المحمرَّة تلوِّن الأفق، والشمس الضبابية تغطس بهدوء في البحر، وزورقي يهدهده الموج. وفي استعراض آخر للنوايا الطيِّبة، أسجِّيها تحت غطاء جافٌ من الجلود والأغصان، وأوسِّد رأسها صخرة طحلبية. يقبل عليها بلهفة حتى قبل أن أتمكَّن من التنحِّي جانبًا.

أقول: «انظرا هناك،» وأقرفص إلى جانب النار الخامدة، «تلك هي الجزيرة».

استدارة بسيطة بالرأس تمكِّن المرأة من رؤية البحر، فتطلق صرخة واهنة. أمَّا هو فيتعين عليه الاستدارة فوق الحصى الصلبة، ثم يحدِّق هنا وهناك إلى الأمواج بِحَيْرَة. أقول:

- هناك، أيُّها الصديق. انظر هناك. في منتصف المسافة بين الشاطئ والأفق.
- بصري ليس قويًّا، لكن أجل، أعتقد أنني أراها الآن. أتلك القمم لأشجار؟ أم لصخور متعرِّجة؟
- ستكون لأشجار، أيُّها الصديق، فهو مكان عذب رقيق.

أقول هذا بينما أنا عاكفٌ طوال الوقت على تكسير الأغصان وإيقاد النار.

يشخص الاثنان بنظرهما صوب الجزيرة، وأركع فوق الحصى القاسي على ركبتيَّ لأنفخ على الجمر. هذا الرجل وتلك المرأة، ألم يأتيا بمطلق إرادتهما؟ دعهما يقرِّران طريقهما بنفسيهما، أقول في خاطري.

يهتف قائلًا:

- أتشعرين الآن بالدفء، يا أميرة؟ ستستردِّين قوَّتك بعد قليل وتعودين كما كنت.

«أرى الجزيرة يا أكسِل»، تقول، - وكيف لي ألَّا أتطفَّل على حديثهما الخاص؟- «ذاك هو المكان الذي ينتظرنا ابننا فيه. غريب جدًّا كيف حدث ونسينا أمرًا كهذا».

يغمغم برَدّ وألاحظ كيف يعاوده الاضطراب من جديد:

- قطعًا، يا أميرة، نحن لم نقرِّر بعد. أنريد حقًّا ركوب البحر والتوجُّه إلى مكان كهذا؟ ثم إننا لا نملك ما نسدِّد به ثمن العبور، إذ تركنا القطع النقدية في سرج الحصان.

أعليّ التزام الصمت؟ أقول:

- هذا أمر بسيط، أيُّها الصديق. لا مانع لديَّ من تحصيل الثمن المستحقّ من السرج لاحقًا. فذلك الحصان الأصيل لن يهيم بعيدًا عن هذا المكان.

قد يصف البعض هذا بالمكر والدهاء، لكني تحدَّثت بنيَّة القيام بعمل خيري متواضع، مدركًا تمامًا بأني لن أصادف أبدًا ذلك الحصان من جديد. تابعا الحديث بصوت منخفض، وأبقيت ظهري لهما، عاكفًا على الاهتمام بشؤون النار. إذ هل لدي أي رغبة في التطفُّل عليهما؟ ولكنها، مع ذلك، ترفع صوتها، وبنبرة أكثر ثباتًا من قبل، تقول:

- أيُّها الملَّاح، سمعت ذات مرَّة، ربما عندما كنت طفلة صغيرة، حكاية عن جزيرة مكسوَّة بخمائل وجداول عذبة رقيقة، لكنها، مع ذلك، ذات خصائص عجيبة. يركب الكثيرون البحر ويقصدونها، لكنَّ كل من يقطنها، يشعر كما لو كان يسعى وحيدًا فيها، من دون أن يرى جيرانه أو يسمعهم. أيمكن أن يصدق هذا على تلك الجزيرة الماثلة أمامنا الآن، أيُّها السيِّد؟

أواصل تكسير الأغصان الجافَّة وغرسها بحذر بين ألسنة اللهب:

- أيَّتها السيِّدة الطيِّبة، أعرف بأن هناك العديد من الجزر التي ينطبق عليها مثل هذا الوصف. من يدري إن كانت هذه واحدة من بينها؟

ردٌّ مراوغٌ، لكنه يمنحها الجرأة. تقول:

- سمعت أيضًا، أيُّها الملَّاح، أن مفعول تلك الخصائص الغريبة يبطل في بعض الأحيان. وأن ثمَّة مسافرين على وجه الخصوص تُمنح لهم رخصة استثنائية. هل ما سمعته صحيح، أيُّها السيِّد؟

- أيَّتها السيِّدة العزيزة، لست سوى بحار متواضع. ولا يجوز لمن هو في مقامي الخوض في مسائل كهذه. لكن بما أنه ليس من أحد آخر هنا، فدعيني أخبرك بالآتي. سمعت من قال إنه قد تكون هناك أوقات محدَّدة، ربما أثناء عاصفة كالتي انقشعت الآن، أو في ليلة صيفية عند اكتمال القمر، قد يشعر ساكن الجزيرة خلالها بآخرين يتحرَّكون بقربه في الريح. لعل هذا ما سمعتِه ذات مرَّة، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة.
- لا أيُّها الملَّاح، بل إن ما سمعته هو أكثر من ذلك. سمعت من قال إن رجلًا وامرأة، ممَّن تجمع بينهما عشرة عمرٍ ورابطة حبٍّ استثنائية، يسمح لهما أن يسافرا إلى الجزيرة من دون أن يحكم عليهما بالتجوُّل فيها منفصلين عن بعضهما. وسمعت بأنه يُسمح لهما بأن يحظيا بمتعة صحبة أحدهما الآخر، تمامًا مثلما فعلا خلال سنوات عمرهما من قبل. أيمكن أن يكون ما سمعته بهذا الشأن صحيحًا، أيُّها الملاح؟
- سأقولها ثانية، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة. إنني ملَّاح مكلَّف بنقل الراغبين بعبور الماء. لا أستطيع الحديث إلَّا عمَّا أشهده أثناء كدحي اليومي.
- مع ذلك، ليس من أحد هنا الآن كي نلتمس منه المشورة سواك، أيُّها الملَّاح. ولهذا سأطلب منك هذا الطلب، أيُّها السيِّد. لو حملتنا أنا وزوجي الآن في زورقك، أمن الممكن ألَّا يُفرَّق بيننا، بل أن نحظى بحرِّية التجوُّل في الجزيرة ونحن نشبك ذراعينا كحالنا الآن في سفرنا هذا؟
- حسنًا، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة. سأكلِّمك بصراحة. أنت وزوجك قرينان قلَّما تقع عيوننا نحن البحارة على مثيل لهما. شاهدت بأمِّ عيني إخلاصكما غير المعهود لبعضكما، حتى من لحظة قدومكما فوق الحصان تحت المطر. لهذا لا شكَّ عندي في أنه سيؤذن لكما بالعيش معًا في تلك الجزيرة. كوني على ثقة من هذه النقطة.

تردُّ وهي تتنفَّس الصعداء: «ما تقوله يغمرني بالسعادة، أيُّها البحار». ثم تردف

قائلة، «من يدري؟ خلال عاصفة، أو أثناء ليلة هادئة مقمرة، لربما ألمح أنا وأكسِل ابننا في الجوار. بل وقد نكلِّمه كلمة أو اثنتين أيضًا».

تشتعل النار الآن بقوَّة فأنهض وأشير بإصبعي نحو البحر:

- انظرا هناك. القارب يهتزُّ في المياه الضحلة، لكني أخبِّئ مجذافي في كهف قريب، مغموسًا في بركة ماء صخرية تدور فيها أسماك متناهية الصغر. أيُّها الصديقان، سأذهب لجلبه الآن، وستسنح لكما أثناء غيابي فرصة التشاور من دون أن أزعاجكما. سأترككما لحسم أمركما ولتقرِّرا إن كنتما ترومان القيام بهذه الرحلة. سأترككما الآن لمدَّة قصيرة.

لكنها لن تطلقني بهذه البساطة، تقول:

- كلمة أخرى قبل أن تذهب، أيُّها الملَّاح. قل لنا إن كنت حال عودتك، وقبل أن تردَّ بالقبول على نقلنا بزورقك، تزمع على استجواب كل منَّا على حدة. فقد سمعت بأن هذه هي الطريقة السائدة بين معشر الملَّاحين، وذلك بغرض تحديد هؤلاء الأزواج النادرين الذين تنطبق عليهم مواصفات العيش في الجزيرة معًا من دون تفريق.

يحملق كلاهما في عينيَّ، والشفق منعكس فوق وجهيهما، فأرى وجهه غارقًا في الشكِّ. أقابل عينيها، لا عينيه، وأقول:

- أيَّتها السيِّدة الطيِّبة، أشكرك على تذكيري بذلك. وسط ما أنا فيه من عجلة يبدو أنني نسيت ما أنا ملزم به بحكم العرف. الأمر على ما ذكرتِ، لكني لن أتقيَّد به في هذه الحالة إلَّا لأجل العُرف فقط. إذ كما قلت سابقًا، رأيت فيكما منذ البداية زوجين تجمع بينهما آصرة وثيقة من الإخلاص الاستثنائي. والآن أستأذنكما، أيُّها الصديقان، فوقتي ضيِّق للغاية. ليكن قراركما جاهزًا حال عودتي.

أتركهما بعد ذلك، وأسير فوق شاطئ المساء حتى يشتدَّ صوت الموج ويتحوَّل الحصى تحت قدميَّ إلى رمل مبتلٍّ. وكلما التفت إلى الوراء، أرى المشهد نفسه، وإن كان يصغر شيئًا فشيئًا في كل مرَّة: العجوز الشائب، يقرفص أمام زوجته ويتداول

الأمر معها بجدِّية. أمَّا هي فما أراه منها بسيط، فالصخرة التي تستند إليها لا تمكِّنني من رؤية سوى يدها المرتفعة والمنخفضة أثناء كلامها. زوجان مخلصان، لكنَّ عندي واجبًا أؤدِّيه، ثم أمضي نحو الكهف ومجذافي.

عندما رجعت إليهما، والمجذاف فوق كتفي، أبصرت قرارهما في عيونهما حتى قبل أن يتكلَّم قائلًا:

- نطلب منك أن تنقلنا إلى الجزيرة، أيُّها الملَّاح.

أقول وأنا أتحرَّك مبتعدًا صوب الأمواج كما لو أنني في عجلة من أمري:

- إذا لنسرع إلى القارب، فقد تأخَّرت كثيرًا عن العمل.

ثم أستدير على الفور وأتابع:

- آه، لكن انتظرا. علينا تطبيق ذلك العرف السخيف أوَّلًا. دعوني إذًا، أيُّها الصديقان، لأعرض عليكما الآتي. أيُّها السيِّد الطيِّب، اتركنا الآن وتمشَّى قليلًا بعيدًا عنَّا. وحين تصبح بعيدًا عن مرمى السمع، سأتحدَّث مع زوجتك الرقيقة باختصار. إنها ليست بحاجة إلى التحرُّك من مكانها. وإثر انتهائي سآتي إليك أينما تكون فوق الشاطئ. وبعدها ننهي هذا الأمر بسرعة ونعود لحمل هذه السيِّدة الطيِّبة إلى القارب.

يحدِّق إليَّ، وبعضُه يتوق الآن إلى الثقة بي، ثم يقول أخيرًا:

- حسنًا أيُّها الملَّاح، سأتجوَّل فوق هذا الشاطئ للحظة.

ثم يلتفت نحو زوجته ويقول:

- سنفترق ولكن للحظة فقط، يا أميرة.

- لا داعي للقلق، يا أكسِل، أصبحت في حالة أفضل، وسأكون في أمان تحت حماية هذا الرجل الطيِّب.

بعيدًا عنَّا يذهب، ماشيًا ببطء صوب شرق الخليج وظلِّ الجرف الضخم. تنفضُّ جموعُ الطير من أمامه، لكنها ما تلبث أن تعود سريعًا لنقر العشب والصخر. يعرج قليلًا، وظهره محنيٌ، مثل من يوشك على الهزيمة، لكني مع ذلك ما أزال أبصر نارًا صغيرة في داخله.

ترفع المرأة بصرها وتنظر إلى عينيَّ وعلى محيَّاها ابتسامة عذبة. أنَّى لي أن أسألها عن أي شيء الآن؟

أقول:

- لا تخافي من أسئلتي، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة.

وأتمنَّى الآن وجود حائط طويل في الجوار، كي أولي وجهي شطره حتى أثناء كلامي معها، لكن ليس ما يقابلني الآن غير نسيم المساء، والشمس الواطئة. أقرفص أمامها، كما رأيت زوجها يفعل، جاذبًا أطراف ثوبي فوق ركبتيَّ.

تردُّ بهدوء:

- لا أخاف أسئلتك أيُّها الملَّاح. فإنني أعرف في قرارة نفسي ما أكنُّه له في قلبي. سلني ما شئت. ستكون أجوبتي صادقة، ولن تبرهن إلَّا على أمر واحد.

أطرح سؤالًا أو اثنين، من جملة الأسئلة الاعتيادية، ألم أقم بهذا مرارًا وتكرارًا؟ ثم ومن حين لآخر، كي أشجِّعها وأظهر لها انخراطي جدِّيًا في الأمر، أطرح عليها سؤالًا آخر. لكن لم يكن هناك من داعٍ، فهي تتحدَّث بطلاقة ومن دون تلعثم. تسترسل في الحديث، وعيناها تنطبقان أحيانًا، أمَّا صوتها فواضحٌ متَّزنٌ على الدوام. أنصت باهتمام، كما يقتضي واجبي، حتى وبصري يسرح نحو الخليج، صوب هيئة العجوز المتعبة السائرة بخطى قلقة بين الصخور الصغيرة.

وحينئذ، متذكِّرًا ما ينتظرني من عمل في مكان آخر، أقاطع سيل ذكرياتها قائلًا:

- أشكرك، أيَّتها السيِّدة الطيِّبة. دعيني أسارع الآن بالذهاب إلى زوجك الطيِّب.

لا بدَّ من أنه بدأ الآن يثق فيَّ، وإلَّا لماذا يتجوَّل على هذه المسافة البعيدة من زوجته؟ يسمع صوت خطاي فيستدير كما لو أنه أفاق من حلم. وتحت وهج الغروب، أرى أن وجهه لم يعد ممتلئًا بالشكِّ، وإنما بأسى عميق، وقطرات من الدمع في عينيه.

يسأل بصوت شفيف:

- كيف سارت الأمور، أيُّها السيِّد.

أردُّ مطابقًا صوتي لنبرته الرقيقة، مع أن الريح تزداد ضراوة:

- الإنصات إلى زوجتك الطيِّبة متعة. لكن الآن، أيُّها الصديق، دعنا نوجز في الأمر، لكي نتمكَّن من المضيِّ في طريقنا.

- سلْ ما شئت، أيُّها السيِّد.

- ليس عندي سؤال أبحث عن إجابة له، أيُّها الصديق. لكنَّ زوجتك الطيِّبة استعادت ذكرى يوم اشتريتما فيه بيضًا من سوق وقفلتما عائدين به. قالت إنها حملته من أمامها في سلَّة، وإنك مشيت إلى جنبها، مسترقًا النظر إلى السلَّة طوال الطريق، خوفًا من أن تتسبَّب خطواتها في كسر البيض. كانت سعيدة وهي تستعيد هذه الحادثة.

يعلِّق قائلًا:

- وأنا سعيد بها كذلك، أيُّها الملَّاح.

ثم ينظر إليَّ بابتسامة ويتابع موضحًا:

- كنت قلقًا على البيض لأنها تعثَّرت في مرَّة سابقة، فكسرت بيضة أو اثنتين. كانت المسافة قصيرة، لكنَّا مضينا سعيدين ذلك اليوم.

- تمامًا وفق ما تتذكَّره السيِّدة. حسنًا إذًا، دعنا لا نضيِّع مزيدًا من الوقت، فغاية هذا الحديث هي التقيُّد بالعُرف ليس إلَّا. هيَّا نذهب لإحضار السيِّدة الطيِّبة ونقلها إلى القارب.

أشرع في السير متقدِّمًا طريق العودة إلى الملجأ وزوجته، لكنه يمشي الآن بوتيرة متهالكة حزينة، فيبطئني معه. أقول، ظنًّا بأن الموج هو مصدر قلقه:

- لا تخشَ من تلك الأمواج أيُّها الصديق. فمصبُّ الخليج محمي جيِّدًا وليس من خطر في الطريق من هنا وحتى الجزيرة.

- إنني أثق بما تقوله أيُّها الملَّاح.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- أيُّها الصديق، في الحقيقة - لم لا أملأ هذه الرحلة البطيئة بمزيد من الحديث؟ - كان هناك سؤال كنت لأطرحه عليك لو كان لدينا متَّسع من الوقت. وبما أننا نمشي معًا الآن، ألديك مانع في إطلاعك عليه؟
- إطلاقًا أيُّها الملَّاح.
- كان سؤالي ببساطة، هل لديك ذكرى من السنين التي عشتما فيها معًا ما زالت تثير لديك ألمًا محدَّدًا؟ هذا ما كنت سأسأله.
- هل حديثنا هذا جزء من الاستجواب العرفي، أيُّها السيِّد؟
- أوه، لا. ذاك انقضى وانتهى. طرحت السؤال على زوجتك الطيِّبة سابقًا، ولهذا كنت سأطرحه عليك من باب الفضول لا أكثر. تكتَّم عليه إن شئت، أيُّها الصديق، فأنا لا أعتبر أن في ذلك أي إهانة. انظر هناك - أشير إلى صخرة نمرُّ بها وأتابع - هذا ليس محارًا صخريًّا عاديًّا. لو كان معي وقت، لأريتك كيف أكشطها من جوانب الصخر وأصنع منها عشاء لذيذًا. كثيرًا ما شويتها فوق النار.

يقول بنبرة تعكس جسامة ما سينطق به: «أيُّها الملَّاح»، ثم تتباطأ خطواته أكثر ويتابع، «سأجيب عن سؤالك إن أحببت. لست متأكِّدًا كيف ردَّت هي عليه، فثمَّة الكثير مما هو مسكوت عنه حتى بين من هم على شاكلتنا من الأزواج. علاوة على ذلك، وحتى يومنا هذا، ظلَّت أنفاس تنِّينة تلوِّث الهواء، وتسرق الذكريات بحلوها ومرِّها. لكنَّ التنِّينة ذُبحت الآن، وبدأت بالفعل كثير من الأمور تتَّضح في ذهني. تسأل عن ذكرى تثير ألمًا محدَّدًا. وما عساي، أيُّها الملَّاح، أن أردَّ بغير القول إنها ذكرى ابننا. كان على وشك أن يشبَّ عن الطوق حين رأيناه آخر مرَّة، لكنه تركنا قبل أن ينبت شعر ذقنه. وقع ذلك إثر شجار توجَّه بعده إلى قرية قريبة في الجوار، فظننت حينذاك أنه لن يغيب إلَّا لبضعة أيَّام ثم يعود بعدها من جديد».

- زوجتك ذكرت الأمر نفسه ، أيُّها الصديق. وقالت إنها الملامة على رحيله.

- إن حكمت على نفسها بالإدانة في الجزء الأوَّل من هذا الأمر، فهناك الكثير ممَّا يدين ساحتي في الجزء التالي منه. أجل، كانت هناك برهة قصيرة لم تكن فيها مخلصة لي. لعلَّ هذا حدث، أيُّها الملَّاح، لأني ارتكبت شيئًا دفعها إلى أحضان رجل آخر. أو ربما بسبب ما أخفقت في قوله أو فعله؟ أصبح الأمر برمَّته الآن مستغلقًا وبعيدًا جدًّا، مثل طائر يمرُّ في الجوار ثم يحلِّق بعيدًا فيتحوَّل إلى نقطة في كبد السماء. لكنَّ ابننا كان شاهدًا على مرارته، في وقت كان في عمر أكبر بكثير من الضحك عليه بمعسول الكلام، ولكنه أصغر بكثير أيضًا من الإحاطة بمسالك قلبينا المتعدِّدة العجيبة. رحل مقسمًا على عدم العودة أبدًا، ولمَّا تصالحنا والتأم شملنا بسعادة من جديد لم يكن حاضرًا ولم يشهد ذلك.
- هذا الجزء روته لي زوجتك. وكيف وصلتكما بعد مدَّة أخبار وفاة ابنكما الكريم بالطاعون الذي اجتاح البلاد. توفِّي والداي بسبب هذا الطاعون، أيُّها الصديق، إنني أتذكَّره جيِّدًا. لكن لماذا تلوم نفسك على هذا؟ طاعون أطلقه الربُّ أو الشيطان، فما ذنبك أنت؟
- منعتها من الذهاب إلى قبره، أيُّها الملَّاح. تصرُّفٌ قاسٍ لا رحمة فيه. كانت ترغب في ذهابنا معًا إلى مثواه الأخير، لكني رفضت ذلك تمامًا. وبعد مضي سنوات طويلة انطلقنا قبل أيَّام قليلة فقط للبحث عنه، لكن بحلول هذا الوقت كان ضباب التنِّينة قد سرق منا أي معرفة واضحة بتفاصيل ما نسعى خلفه.
- آه، هكذا إذًا. هذا الجزء خجلت زوجتك من كشفه. كنت أنت إذًا من منعها من زيارة قبره.
- عملٌ قاسٍ اقترفتُهُ، أيُّها السيِّد. وخيانةٌ أشد اسودادًا ممَّا ارتكبته هي من خيانة زوجيةٍ عابرةٍ ألحقت بي العار لشهر أو اثنين فقط.
- ما الذي كنت تأمل في جَنيهِ، أيُّها السيِّد، من منع لا زوجتك فحسب، بل حتى نفسك من التفجُّع على فلذة الكبد أمام مرقده الأخير؟

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

- جَنْيِهِ؟ لم يكن هناك من شيء يُجنَى، أيُّها الملَّاح. بل كان حماقة وكبرياء كاذبة. وكل ما يربضُ متربِّصًا في السويداء من قلب بشر. لعلَّه كان شهوة العقاب، أيُّها السيِّد. نطقت وتصرَّفت بمقتضى الصفح والغفران، ومع ذلك أوصدت في قلبي طوال السنين حجرة صغيرة توَّاقة إلى الثأر. فعلٌ قاتمٌ وضيعٌ ارتكبته بحقِّها، وبحقٍّ ولدي أيضًا.
- أشكرك على ثقتك ومصارحتك، أيُّها الصديق. ولعلَّني أفعل الأمر نفسه أنا أيضًا. إذ رغم أن هذا الحديث لا دخل له في أي جزء من واجبي، ونحن نتحدَّث الآن كرفيقين يزجيان الوقت معًا، إلَّا أني أعترف بأن قسطًا ضئيلًا من التململ كان في ذهني سابقًا، إحساس بأني لم أسمع بعد كل ما كان. سأكون قادرًا الآن على حملكما وأنا راضٍ مرتاح البال. لكن أخبرني، أيُّها الصديق، ما الذي حملك على الفكاك من أسر ما صمَّمت عليه لسنوات طويلة والانطلاق أخيرًا في هذه الرحلة؟ أكان شيئًا قيل؟ أم تقلُّبًا طرأ على القلب لا يدرك كنهه مثل هذا البحر وتلك السماء؟
- تساءلت أنا نفسي عن هذا أيُّها البحار. وأعتقد الآن أن ما أصاب قلبي من تقلُّبٍ لم ينجم عن أمر واحد بعينه، بل إن استرجاع قلبي والظفر به ثانية جرى تدريجيًّا على طول ما اقتسمناه من سنوات العِشرة معًا. لعلَّ هذا هو كل ما كان، أيُّها البحَّار. جرحٌ اندمل ببطء، لكنه اندمل حقًّا. ذاك أنه قبل فترة وجيزة، جلب الفجر تباشير الربيع الأولى، وراقبت زوجتي حينذاك بينما هي نائمة مع أن الشمس أضاءت حجرتنا. وأدركت لحظتئذ أن آخر الظلام فارق قلبي. وهكذا انطلقنا في هذه الرحلة، أيُّها السيِّد، وزوجتي الآن تتذكَّر عبور ابننا إلى تلك الجزيرة من أمامنا، لهذا لا بد أن يكون قبره بين خمائلها أو ربما في شطآنها الوادعة. أيُّها الملَّاح، حدَّثتك بالصدق، وآمل ألَّا يلقي ذلك ظلالًا من الشكِّ على حكمك السابق علينا. إذ أحسب أن ثمَّة من قد يسمع ما ذكرته، فيشعر أن حبَّنا قاصرٌ معيب. لكن الربَّ يعرف ويسمع دبيب

حبِّ زوجين عجوزين تجاه بعضهما، وهو يفقه كيف تُشكِّل الأطياف المظلمة جزءًا من كلِّه.

- لا تقلق أيُّها الصديق. ما قلتَه لي ليس سوى صدىً لما رأيتُه عند وصولك أنت وزوجتك تحت المطر فوق ذلك الحصان الأصيل المتعب. حسنًا، أيُّها السيِّد، لننهِ الحديث، فمن يضمن ألَّا تداهمنا عاصفة أخرى. دعنا نسرع إليها ونحملها إلى القارب.

تجلس غافيةً إلى جانب الصخرة وعلامات الرضا بادية عليها، والنار بقربها يتصاعد منها الدخان.

- سأحملها بنفسي هذه المرَّة، أيُّها الملَّاح. أشعر باسترداد قوَّتي.

أفي وسعي أن أسمح له بهذا؟ سيجعل مهمَّتي أكثر تعقيدًا. أردُّ:

- المشي فوق هذا الحصى صعب، أيُّها الصديق. ما كلفة تعثُّرك وأنت تحملها؟ إنني معتاد جيِّدًا على هذه المهمَّة، فليست أوَّل مرَّة أحمل مسافرًا إلى القارب. بمقدورك أن تسير إلى جوارنا، وأن تكلِّمها كما تحبُّ. تمامًا كما كنتما يوم حَمَلت هي البيض ومشيت أنت إلى جنبها قلقًا.

يعود الخوف إلى وجهه، لكنه يجيب بصوت منخفض:

- حسنًا أيُّها الملَّاح. لنقم بما أشرت به.

يسير إلى جنبي، متمتمًا بعبارات التشجيع لها. هل أمشي بخطى حثيثة؟ إنه يتخلَّف عن اللحاق بي الآن، وبينما أحملها وأعبر البحر أشعر بيده تقبض بيأسٍ على ظهري. لكن لا مجال للتلكؤ في هذا المكان، فعلى قدميَّ العثور على موطئهما تحت سطح الماء القارس. أخطو فوق الحصى، وتصبح الأمواج المترجرجة ضحلةً من جديد، ثم أعبر إلى القارب، بالكاد يميل رغم أني أحملها بين ذراعيَّ. ما أملكه من بُسطٍ قرب مؤخِّرة الزورق مبتلٌ بسبب المطر. أركل بعيدًا ما تبلَّل منها في الأعلى ثم أضعها برفق فوق ما تبقَّى. أتركها جالسةً هناك، رأسها أسفل الحافَّة العلوية للقارب، وأبحث في الصندوق عن بطَّانياتٍ جافَّة ورأسي يواجه الريح.

t.me/ktabpdf مكتبة أحمد

أشعر به حين يعلو سطح المركب حتى وأنا مقرفصٌ أرضًا لتغطيتها، ثم تتأرجح أرضيَّة المركب تحت وقع خطواته. أقول:

- أيُّها الصديق، إنك ترى كيف أصبح الموج أكثر هياجًا، وما هذا إلَّا زورق صغير. لا أجرؤ على حمل أكثر من راكب في المرَّة الواحدة.

أرى النار تستعرُ الآن في داخله بوضوح، فألسنتها تطلُّ من عينيه.

- حسبت أن الأمر مفهوم للغاية، أيُّها الملَّاح. سنقطع أنا وزوجتي الطريق إلى الجزيرة معًا. ألم تقل ذلك مرارًا، وأن هذا هو الغرض من وراء أسئلتك؟

- أرجوك ألَّا تسيئ الفهم، أيُّها الصديق، فأنا لا أقصد سوى الجانب العملي المتعلِّق بعبور الماء. لا مجال للشكِّ أبدًا في أنكما ستقيمان في تلك الجزيرة معًا، تقطعانها يدًا بيد كما كنتما دومًا. وإن كان ابنكما مدفونًا في بقعة ظليلة ما، فقد يأتي ببالكما وضع زهور برِّية فوقها، مما ستجدانه منثورًا في أرجاء الجزيرة. ستكون هناك زهور خلنج، وحتى مخمليَّات في الغابة. لكن لأجل هذا العبور اليوم، أطلب منك العودة والانتظار لمدَّة أطول فوق الشاطئ. سأشرف بنفسي على أن تكون السيِّدة مرتاحةً على الجانب الآخر، إنني أعرف بقعة قريبة من مرسى القارب فيها ثلاث صخورٍ مُعمِّرة، تواجه الواحدة منها الأخرى وكأنها جميعًا ثلاثة رفاق قدامى. سأتركها هناك تنعمُ بملاذٍ جيِّدٍ، وبمنظرٍ مطلٍّ على الأمواج أيضًا، ثم أسارع بالعودة لجلبك. لكن في الوقت الراهن، اتركنا وانتظر فوق الشاطئ للحظة أطول.

شفق المغيب يغطِّيه، أم هي النار ما زالت تقدح من عينيه؟

- لن أنزل من هذا القارب، أيُّها السيِّد، طالما أن زوجتي تجلس فيه. جذِّف وانقلنا معًا حسبما وعدتنا. أم هل يتوجَّب عليَّ التجذيف بنفسي؟

- أنا من يحمل المجذاف فقط، أيُّها السيِّد، كما أن تحديد عدد من يركب

هذا القارب جزء من واجبي. أيمكن أن تكون، رغم صداقتنا الأخيرة، شاكًّا في حيلة قذرة ما؟ أتخشى أنني لن أعود لأجلك؟

- لا أتَّهمك بشيء أيُّها السيِّد. لكن ثمَّة شائعات رائجة حول بعض الملّاحين وأساليبهم. لا أقصد أي إهانة، لكنني أتوسَّل إليك أن تحملنا الآن معًا، ومن دون تأخير.

يعلو صوتها:

- أيُّها الملَّاح.

أستدير في اللحظة التي أرى فيها يدها ممدودة في الهواء الفارغ كما لو كانت ستجدني هناك، مع أن عينيها مغلقتان. تتابع قائلة:

- أيُّها الملَّاح. أتركنا للحظة قصيرة. دعني أنا وزوجي نتحدَّث على انفراد لبعض الوقت.

هل أتجرَّأ على ترك القارب لهما؟ لكنها قطعًا تتكلَّم بالنيابة عني الآن. أشدُّ على المجذاف بقوَّة، أخطو وأتجاوزه ثم أهبط في الماء. يعلو البحر إلى ركبتي مغرقًا أطراف ثوبي. المركب مربوط بإحكام والمجذاف معي، أي ضرر يمكن أن يتأتّى من تركهما في القارب؟ ومع ذلك لا أجرؤ على الخوض بعيدًا في الماء. ورغم توجيه بصري نحو الشاطئ ووقوفي ساكنًا مثل صخرة، أكتشف أنني أتطفَّل على خلوتهما ثانية. أسمع صوتهما يعلو فوق هدير الأمواج المتأرجحة.

- هل تركنا يا أكسِل؟

- إنه يقف في الماء يا أميرة. كان متردِّدًا في ترك قاربه، وأعتقد أنه لن يمنحنا كثيرًا من الوقت.

- أكسِل، ليس هذا بوقت شجارٍ مع الملَّاح. كنَّا محظوظين جدًّا اليوم بمصادفتنا له. ملَّاحٌ ينظر إلينا بنظرة محابية للغاية.

- ومع ذلك كثيرًا ما سمعنا بحيلهم الماكرة، أليس هذا صحيحًا يا أميرة؟

- إنني أثق به يا أكسِل. لن يحنث بكلمته.

- كيف يمكن أن تكوني متأكِّدة إلى هذا الحدِّ يا أميرة؟

مكتبة أحمد t.me/ktabpdf

- أعرف ذلك يا أكسِل. إنه رجلٌ طيِّبٌ ولن يخذلنا. افعل ما يقوله وانتظره فوق الشاطئ. سيوافيك بعد مدَّة قصيرة. دعنا نعبر بهذه الطريقة، يا أكسِل، وإلَّا فإنني أخاف أن نخسر ما مُنح لنا من رخصةٍ عظيمة. وُعِدْنا بقضاء وقتنا في الجزيرة معًا، وهذا غير متاحٍ إلَّا للقلَّة القليلة، حتى بين من قضوا العمر صنوان لا يفترقان. لمَ نقامر بجائزة كهذه لأجل لحظات معدودة من الانتظار؟ لا تتشاجر معه، وإلَّا من يدري بأن من سنقابله في المرَّة المقبلة لن يكون سوى دابةٍ في هيئة رجل؟ أكسِل، أرجوك، تصالح معه. أخشى، حتى في هذه اللحظة، أن يستبدَّ به الغضب ويغيِّر رأيه. أكسِل، أما زلت هنا؟
- ما زلت أمامك يا أميرة. أحقًّا نحن نتكلَّم عن أن يمضي كل منا في طريقه بمعزلٍ عن الآخر؟
- للحظة أو اثنتين فقط يا زوجي. ما الذي يفعله الآن؟
- ما زال واقفًا هناك من دون حراك، يقابلنا بظهره الطويل ورأسه المشعشع. يا أميرة، أتعتقدين حقًّا أن بمقدورنا الثقة في هذا الرجل؟
- أعتقد ذلك يا أكسِل.
- هل سار حديثك معه قبل قليل على ما يرام؟
- مرَّ على ما يرام يا زوجي. ألم يكن كذلك بالنسبة لك؟
- أحسب أنه كان كذلك، يا أميرة.

المغيب فوق الخليج. والصمت من خلف ظهري. هل أستدير الآن؟

أسمعه يقول:

- أخبريني يا أميرة، هل أنت سعيدة بتلاشي الضباب؟
- قد يجرُّ ذلك أهوالًا على هذا البلد، لكنه يتلاشى في اللحظة المؤاتية بالنسبة لنا.
- كنت أتساءل يا أميرة. أمن الممكن أن حبَّنا ما كان لينمو ويشتدَّ على مرِّ السنين لو لم يسرق الضباب منَّا ما سرقه؟ لعلَّه سمح للجراح القديمة بالالتئام.

- ما أهمّية ذلك الآن يا أكسِل؟ أصلح أمرك مع الملّاح، ودعه يبحر بنا إلى الجزيرة. وإن كان سينقل كل واحد منّا على حدة، ثم يتبعه بالآخر، فلمَ نتشاجر معه؟ أكسِل، ما قولك؟
- حسنًا يا أميرة. سأفعل حسبما تقولين.
- إذًا اتركني الآن وعد إلى الشاطئ.
- سأفعل يا أميرة.
- لمَ تتلكّأ إذًا يا زوجي؟ أتظنُّ أن الملّاحين لا ينفد صبرهم أبدًا؟
- حسنًا يا أميرة. لكنني دعيني فقط أضمّك إلى صدري مرّة ثانية.

هل يتعانقان الآن، مع أني تركتها مقمّطةً مثل رضيع؟ ورغم أن عليه الركوع والتموضع على نحو غريب فوق أرضيّة القارب القاسية؟ أحسب أنهما يفعلان، وطالما ظلَّ الصمت مخيِّمًا، لا أجرؤ على الاستدارة. المجذاف بين ذراعيَّ، هل يلقي بظلٍّ فوق هذا الماء المتراقص؟ كم سيطول هذا الحال؟ أخيرًا تعلو أصواتهما من جديد.

- سنتحدَّث أكثر فوق الجزيرة يا أميرة.
- سنفعل ذلك يا أكسِل. ومع انقشاع الضباب، سيكون لدينا الكثير كي نتحدَّث عنه. أما يزال الملّاح واقفًا في الماء؟
- ما زال كذلك يا أميرة. سأذهب الآن وأتصالح معه.
- إذًا الوداع، يا أكسِل.
- الوداع، يا حبِّي الحقيقي الوحيد.

أسمعه يهبط في الماء. هل ينوي توجيه كلمة لي؟ فقد أشار إلى إصلاح صداقتنا. لكنه حينما أستدير لا ينظر نحوي، فقط صوب اليابسة والشمس الآفلة فوق الخليج. لا أفتّش أنا الآخر عن عينيه. يتابع خوضه في الماء ويتجاوزني، دونما اختطاف نظرة إلى الوراء. انتظرني على الشاطئ، أيُّها الصديق، أقول بهدوء، لكنه لا يسمع ويواصل الخوض في الماء.

تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات
t.me/ktabpdf
مكتبة أحمد

قبل زمن بعيد، حدث أمر جلل، مجزرة شنيعة تبعتها تعويذة مرعبة، سلبت ذكريات البشر ودفنت الماضي بكل أشلائه، ليسود سلام هشٌّ وضباب مقيم. إلى أن أتى يوم يقرِّر فيه زوجان عجوزان الرحيل عن جُحرهما المعتم للبحثِ عن ابنهما الضائع وذكرياتهما المسلوبة. تلك الجروح التي سبَّبها أحدهما للآخر اندملت ببطء ولكن هل اندملت للأبد حقًّا؟ هل كان لحبِّهما العظيم أن يصمد على مرِّ السنين لو لم يسرق الضباب ذكرياته؟ أم أن النسيان نعمة للبشر والأوطان؟ الإجابات لن تزلزل حبَّهما فقط أو حتى مفهوم "الحب الأبدي"، بل مصير أمَّة، ستشهد بعد سبات طويل يقظة غرائز الحقد والثأر وتحقيق العدالة.

العملاق مدفون منذ زمن طويل، ولكن مهما كان دفنه غائرًا فإنه سيستيقظ لا محالة. رواية مذهلة وساحرة عن حقبة إشكالية وغامضة في تاريخ إنجلترا، يحوكها إيشيغورو بخيوط الفانتازيا والواقع المتشابكة ببراعة.

مكتبة ٣٨٣

ولد كازو إيشيغورو عام 1954 في مدينة ناغازاكي اليابانية، التي ألقت عليها القوات الأمريكية قنبلة ذرية عام 1945. وقد انتقل مع والديه إلى إنجلترا عام 1960 ليستقر هناك ويبدأ الكتابة باللغة الإنجليزية. نشر إيشيغورو سبع روايات: «منظر شاحب للتلال» (1982)، و«فنان من العالم العائم» (1986)، و«بقايا النهار» (1989)، و«من لا عزاء لهم» (1995)، و«عندما كنا يتامى» (2000)، و«لا تدعني أرحل أبداً» (2005)، و«العملاق المدفون» (2010)، إضافة إلى مجموعة قصصية واحدة «ليليات». وقد تحولت روايتاه «بقايا النهار» و«من لا عزاء لهم» إلى فيلمين سينمائيين شهيرين. كما حصل إيشيغورو على عدد كبير من الجوائز من بينها: جائزة البوكر البريطانية (1989) عن روايته «بقايا النهار»، وجائزة نوبل للآداب 2017 عن مجمل أعماله.